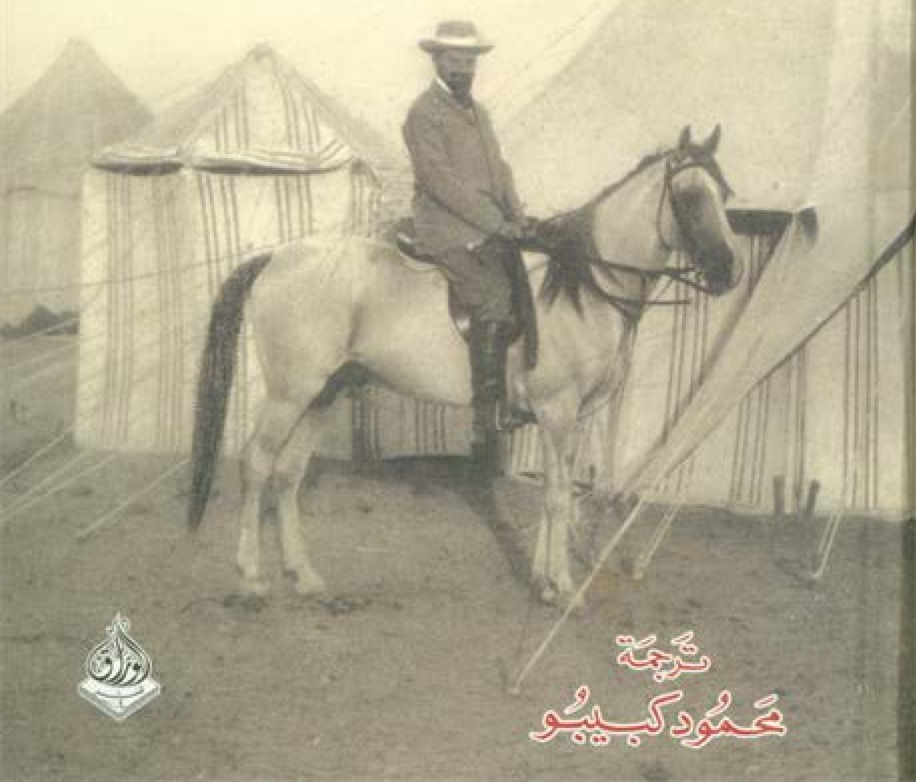
ماكس فون أوبنهايم

مِنَ البَحرِ المتوسِّطِ إلى الخَليج

لبنان وسورية



ترجمة

محمود كبيبو

من البحر المتوسط الى الخليج
لبنان وسوريا

Max Freiherr Von Oppenheim

Vom Mittelmeer Zum Persischen Golf

Durch den Hauran

Die Syrische Wueste und Mesopotamien

Band 1

Georg Olms Verlag 2004

Nachdruck der Ausgabe Berlin 1899

نقلاً عن الطبعة الجديدة الصادرة عام 2004
صدرت الطبعة الأولى باللغة الألمانية في برلين عام 1899

First Published in Arabic by Al Warrak publishing Ltd. UK in 2008

The Publication of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut Inter nationes

ساهمت مؤسسة غوته - إنترناسيونس مشكورة في بعض تكاليف هذه الترجمة

ISBN (Volume one) 978 1 900 700 658

من البحر المتوسط إلى الخليج
لبنان وسوريا

عبر حوران والبادية السورية وبلاد الرافدين

الجزء الأول

تأليف

ماكس فرايهر فون أوبنهايم

ترجمة

محمود كبيبو

مراجعة وتقديم

ماجد شبّر



شركة دار الوراق للنشر المحدودة

المملكة المتحدة ـ لندن

الطبعة العربية الأولى

لشركة دار الوراق للنشر المحدودة المملكة المتحدة 2008

First Published in Arabic by Al Warrak publishing Ltd. UK in 2008
ISBN (Volume one) 978 1 900 700 658

التــوزيــع

الفرات للنشر والتوزيع
ص.ب 6435 ـ 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 - 1 - 961
فاكس: 750053 - 1 - 961
e-mail: Info@alfurat.com

Al Warrak publishing Ltd.
56 Gloucester Road
Suite 500
London SW7 4UB -UK
Tell. Fax.: 00 44 208 723 2775
www.Alwarrakbooks.com
Warraklondon@hotmail.com

الفهرس

مقدمة الطبعة العربية

بقلم ماجد شبّر

هذا هو السفر الثاني الذي عشته مع البارون أوبنهايم فقد رحلت معه في السفر الاول في كتابه العظيم «البدو» حيث قضيت سنين طويلة محققاً وباحثاً ومستقصياً في ذلك الكتاب، وها أنا اليوم مع السفر الثاني «من البحر المتوسط إلى الخليج العربي».

قبل الخوض في سرد مقدمة لهذا الكتاب أود أن أوضح أن عنوان الكتاب هو «من البحر المتوسط إلى الخليج العربي». لذا فمن الواجب المحافظة على عنوان الكتاب، وبسبب موقفي من موضوع تسمية الخليج العربي وكما اوضحت ذلك في مقدمة كتاب البدو (ص 25) من هنا اكتفينا بالعنوان دون وضع كلمة فارسي أو عربي.

إن هذا الكتاب القيم الذي بين يديك أيها القارئ الكريم هو اللبنة الأساسية والمهمة لكتاب البدو، حيث اعتمد المؤلف كثيراً على المعلومات التي استقصاها في هذه الرحلة العلمية الكبيرة والتي استغرقت سنتين. النقطة المهمة في كتابة هذه الرحلة هي أن المؤلف لم يكتف بما شاهد بل سجل وطوّر المعلومات التي حصل عليها في هذه الرحلة وذلك من خلال تطعيمها بالمعلومات بل جعله بحثاً أكاديمياً من خلال المصادر والمراجع العديدة التي استعان بها في كتابه هذا. لقد خرج هذا الكتاب وهو بحث علمي ميداني كان في درجة من الدقة بأن قامت المخابرات البريطانية بترجمته إلى اللغة الإنكليزية وتوزيعه على ضباطها لغرض الاستفادة من المعلومات الدقيقة والكبيرة والمهمة عند احتلالها للمنطقة العربية في الحرب العالمية الأولى 1914-1918م.

لقد قمت بمراجعة النص العربي وتدقيق أسماء الأماكن والقبائل حتى أتجاوز كل الأخطاء المحتملة وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الصديق الأستاذ محمود كبيبو الذي قام بترجمة الكتاب خير ترجمة فهو كما عرفته أميناً ودقيقاً بدرجة عالية جداً فله الشكر.

إن هذا الكتاب «من البحر المتوسط إلى الخليج» متكون من جزأين : الجزء

الأول منه يشمل لبنان وسورية الحديثة، والجزء الثاني يشمل بلاد الرافدين إلى الخليج «أي العراق ومناطق الخليج وخصوصاً سلطة عمان».

اوبنهايم في سطور

يعتبر أوبنهايم واحد من الشخصيات الفريدة التي تملك ذلك التنوع الهائل والكبير من الاهتمام في مواضيع الحياة.فهو القانوني والدبلوماسي والسياسي والمستشرق والآثاري والمخطط الإنمائي والاستخباراتي.

ولد أوبنهايم في 15 يوليو/ تموز عام 1860م في مدينة كولون بألمانيا من عائلة مصرفية تمتلك بنك أوبنهايم الذي أسّس من قبل جده الاكبر في القرن الثامن عشر ويُعَدّ من أعرق البنوك الاستثمارية في ألمانيا وما زال إلى يومنا هذا. وهو الابن الثاني لألبريت وبيولا أوبنهايم. أكمل أوبنهايم دراسته الجامعية، إذ درس القانون في جامعة ستارسبرج Stasbourg عام 1879م التي كانت جزءاً من ألمانيا في ذلك الوقت، ودرس في جامعة برلين بين عام 1881 - 1883م، في فبراير/ شباط 1883م حيث نجح في امتحان الدولة وهذا الامتحان يؤهله للعمل في مرافق الدوائر الرسمية. وبعد شهر من ذلك التاريخ حصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة كوتنج (Gottingen). لقد حصل على تلك الدرجة العلمية وله من العمر 23 عاماً.

يعود بدء اهتمام أوبنهايم بالشرق منذ سنين المراهقة الأولى، كما وصفها في مذكراته حيث يقول: إن اهتمامه الكبير جاء بعد أن أهدي له نسخة من كتاب ألف ليلة وليلة وهو في سني المراهقة. حيث كانت نقطة البداية في اهتمامه بالشرق، ثم نضج وتطور هذا الاهتمام بمرور الأيام وكان هذا الاهتمام والشغف ملازماً له، بل كان موازياً لدراسته للقانون. إن الولع والاهتمام والمثابرة دفعت أوبنهايم إلى مجالات متنوعة وكثيرة، فقد توسعت دراساته وشملت مواضيع متعددة منها، دراسات الأنثروبولوجي، والتاريخ القديم، ومن ضمنها الدراسات الآشورية التي جعلت منه عالماً ضليعاً في الثقافات المتنوعة. فقد أصبح عضواً في المتحف الملكي الأثنولوجي في برلين، وعضواً في الجمعية الجغرافية الأنثروبولوجية والأثيولوجية، وكذلك في جمعية التاريخ البدائي وكلا الجمعيتين مقرهما برلين.

بدأ أوبنهايم دراسة اللغة العربية في السنين الأولى من حياته تحت إشراف مدرسين خاصين وكان أحد هؤلاء هو Friedrich Wilhelm Muller الذي يعُد من المدرسين المهمين الذين أسهموا في تعليمه اللغة العربية.

أما بخصوص موقعه كعالم في الاستشراق فيمكن القول بأنه صنع نفسه بنفسه.

ففي عام 1883 ـ 1884م قام بأول رحله استكشافية إلى الشرق(تركيا ومصر)،وفي عام 1886م قام برحلة إلى المغرب. قام برحلة علمية كبيرة بين عام 1892 ـ 1893م وهذا الكتاب هو الرحلة، وهو في جزأين صدر الأول منهما في عام 1899م والجزء الثاني في 1900م.

وفي عام 1895: ذهب في رحلة إلى اسطنبول، وفيها أعطي له امتياز الحظوة بلقاء السلطان عبد الحميد الثاني بشكل خاص. وقد سهلت له هذه الحظوة بالحصول على معلومات قيمة لبحوثه واكتشافاته الأثرية في المنطقة.

عمل مستشاراً للقنصل الألماني العام في القاهرة من عام 1896م إلى عام 1909م، لم يكن له آنذاك موقع وظيفي دبلوماسي معين، ولكن سمح له بتقديم التقارير إلى المستشار الألماني مباشرة، لقد خدم في عمله في القاهرة لمدة 13 عاماً، وقد بلغ عدد التقارير التي قدمها إلى برلين ما يقارب 500 تقرير ومذكرة شملت مواضيع عديدة، منها: الوضع السياسي للبدو في مصر وتركيا وفي الحجاز، خصوصاً (المدينة ومكة)، ووضع حال الإسلام في آسيا وأفريقيا وكذلك حال الحركات الإسلامية والقومية العربية وسياسة القوى الأوروبية في الشرق. على كل حال هو لم يعتمد كأحد الدبلوماسيين الألمان، وذلك بسب أصوله اليهودية بالرغم من أن والده غيّر دينه وأصبح مسيحياً. إلا أنه حصل على شيء قليل من العطف من قبل وزارة الخارجية في برلين.

وفي القاهرة بنى علاقات واسعة مع القادة العرب والأتراك، وخصوصاً ممن كان لهم مكانة في الحركات الإسلامية. وقد كان موضع شك وريبة لدى السلطات الإنكليزية في القاهرة، فلم يعرف متى بدأ أوبنهايم العمل مع جهاز المخابرات الألماني، وهل كان فعلاً موظف مخابرات في تلك الفترة؟ على أرجح الظن أنه كان كذلك، فإن السماح له بتقديم التقارير والمذكرات إلى المستشار يدل على أن موقعه كان كبيراً في ذلك الجهاز، وأعتقد أن تعاون أوبنهايم مع المخابرات الألمانية ليس من باب العمل الوظيفي البحت بل نابع من الشعور الذي يمتلكه اتجاه بلده ألمانيا فهو سعى إلى خدمتها من خلال عمله البحثي الذي صرف من ماله الخاص الكثير جداً عليها.

في عام 1899م اكتشف آثار تل حلف في الشمال الشرقي لسوريا، وحصل فوراً على موافقة السلطان لعمله الاستكشافي: وقد قامت بعثة ألمانية جديدة بالبحث في موقع تل حلف فوجد أن الأماكن الأثرية التي نقب بها أوبنهايم لا تزال على حالها منذ أن تركها في بداية الحرب العالمية الأولى.

في عام 1902م أصبح مسؤولاً عن خطط إنشاء خط سكة حديد برلين- بغداد التي كانت ممولة من قبل البنك الألماني. وقد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة خطوط سكك الحديد الأمريكية، والاستفادة من الخبرة والتجارب الأمريكية في هذا المجال.

وفي عام 1904م قام برحلة ثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية لنفس الغرض، وقدم دراسة واسعة عن تأثير الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمشروع ربط مدن العراق وسورية بخطوط السكك الحديدية، ولكن مشروعه رُفض من قبل البنك الألماني لأنه حسب قول البنك- غير واقعي. إن هذه الدراسة مطبوعة في كتاب لم يتم تداوله إلا بشكل محدود.

في عام 1905م أرسل كمندوب إلى ألمانيا لمؤتمر الاستشراق الرابع عشر الذي عقد في الجزائر، وقد قام برحلة إلى الجزائر، وتونس، وقابل القادة السنوسيين.

وأرسل في عام 1908م - مندوباً إلى ألمانيا لمؤتمر الاستشراق الخامس عشر الذي عقد في كوبنهاكن.

وفي عام 1909م قدم أوبنهايم استقالته من عمله الوظيفي بشكل طوعي، ولكن هل استمر بعمله بجهاز المخابرات الألماني، أم ترك العمل فيه؟ هذا السؤال لم نعرف جوابه!

في عامي 1911-1913م استأنف البحث في آثار تل حلف.

في عام 1914م استُدعي أوبنهايم من قبل وزارة الخارجية للخدمة.وقدم مذكرة حول «الثورة في العالم الإسلامي في أرض الأعداء»، وهي الفكرة التي كان الإعداد لها للجهاد ضد البريطانيين والفرنسيين، خصوصاً في تلك المستعمرات التي كان سكانها من المسلمين.لقد أصبح مسؤول دائرة المخابرات الشرقية بأكملها، والتي كانت هي المسؤولة عن الدعاية ضد بريطانيا وفرنسا وتأليب الشارع الإسلامي ضدها.

في عام 1915م- أصبح ملحقاً في السفارة الألمانية في اسطنبول. كان أوبنهايم قد أنشأ قسم الأخبار في أغلب أنحاء الأمبراطورية العثمانية، وكانت مسؤوليته دعم الحرب الدعائية التي تعد في ألمانيا والتي تذهب بطريقها إلى لبنان والقدس وشبه جزيرة سيناء وبلاد ما بين النهرين.

في عام 1917م عاد إلى ألمانيا، وبعدها بسنة انتهت الحرب العالمية الأولى، التي تمّ بها احتلال كل العالم العربي من قبل بريطانيا وفرنسا. بدأ عمله كعالم أكاديمي. لقد عمل كعالم أكاديمي بعد الحرب العالمية الأولى مع مجموعة من

العلماء من ضمنهم الأثنولوجي Erich Brounlich والمستشرقين فرنر كاسكل و Werner Caskel, Arthur Ungnad, Bruno Mwissner وعالم الآشوريات آدم فلكنستاين, Adam Falkenstein . والآثاري Anton Moortgat, Ernst Herzfel

في عام 1922م: قام بتأسيس مركز دراسات الاستشراق في برلين، كمؤسسة دراسية حوارية منضبطة.

وفي عام 1923م- فقد أوبنهايم ثروة كبيرة في التضخم المالي الذي حدث في ألمانيا.

في عام 1925م - قام برحلة إلى اسطنبول و أنقرة، وقد طلب منه المشورة بخصوص الحدود الجديدة بين سوريا وتركيا.

في عام 1927-قام برحلة إلى تل حلف لتقييم أوضاع الموقع بعد الحرب الفرنسية التركية.

في عام 1929م- قام بحملة استكشافية ثانية في تل حلف وجبلت البيدا. وقد سمح لاوبنهايم بإرسال ثلثي مكتشفات تل حلف إلى برلين والبقية أرسلت إلى حلب، وهي اليوم في المتحف الوطني، وفي برلين قام بتأسيس وقفية أوبنهايم الخيرية.

في عام 1930م- افتتح متحف تل حلف في برلين مدعوماً من قبل عائلته وأصدقائه.

وفي عام 1931م- قام برحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لغرض بيع بعض القطع الأثرية التي وجدها في تل حلف، لحلّ بعض مشاكله المادية، ولكن المشروع فشل بسبب حالة الكساد العظيم الذي كان في ذلك الوقت.

في عام 1939م - قام بآخر رحلة إلى سوريا وقد رحل إلى ألمانيا قسراً، وذلك بتدخل من السلطات الفرنسية.

وفي عام 1943م- تعرض بيت ومكتب أوبنهايم الخاص ومقتنياته الشرقية وآثار تل حلف في المتحف للضرب بواسطة القنابل، وسببت أضراراً كبيرة وفقدان الكثير منها. ثم رحل إلى درسدن.

1945م -بعد الحملة الجوية العنيفة على درسدن انتقل إلى بافاريا.

1946م - في 15 تشرين ثاني نوفمبر/ توفي أوبنهايم في لانشت وفيها دفن.

إن شخصية مثل أوبنهايم يكفيه فخراً لو لم يكتب سوى كتاب البدو الذي قمت بتحقيقه ونشره، لكن من دراستنا لحياة هذا الشخصية وجدنا له مساهمات عديدة تمثل في مجموعها اضاءات حضارية وفي نفس الوقت تخدم العلاقات العربية الألمانية.

مقدمة

يستند هذا الكتاب إلى مذكرات يومية كتبتها في صيف 1893م خلال رحلتي من بيروت عبر حوران والبادية السورية وبلاد ما بين النهرين إلى بغداد والخليج العربي. إلا أن مذكراتي لم تكن مجرد وصف للرحلة وإنما حرصت أيضاً على الحديث عن البلاد والناس، عن تطورهم التاريخي وعن انتماءاتهم العرقية والدينية. وفي أثناء ذلك رأيت من واجبي أن أتطرق بين حين وآخر إلى المصادر الكثيرة التي تعالج تاريخ وجغرافية سورية وبلاد الرافدين والتي تشمل، إلى جانب المراجع الكلاسيكية لمؤلفين إغريقيين ورومان وعرب وكذلك مؤلفات مؤرخين عرب حديثين، العديد من كتب الرحلات الأوروبية القديمة وعدداً كبيراً من المقالات العلمية الجديدة المنتشرة في مجلات كثيرة من الصعب الوصول إلى بعضها.

ولقد حرصت كل الحرص على كتابة الأسماء العربية للأماكن والأشخاص بشكل صحيح بأن طلبت من سوريين متعلمين موجودين في نفس الموقع كتابتها بالأحرف العربية. ثم قمت شخصياً بمراقبة هذا العمل باستمرار وتأكدت من صحته خلال ترحالي كلما سنحت الفرصة.

قام برسم الخرائط المنشورة في الكتاب السيد الدكتور ريشارد كيبرت الذي استطعت إقناعه برسم خريطة شاملة لسورية وبلاد الرافدين تضمنت، بالإضافة إلى

نتائج رحلتي، نتائج الدراسات الجغرافية العلمية المنشورة عن المنطقة والعديد من الخرائط غير المنشورة حتى الآن. ولقد استغرق العمل، الذي تصدى له السيد الدكتور كيبرت مشكوراً، أكثر من عام ونصف.

وأنا مدين بشكر خاص لأستاذي المحترم السيد البروفسور دكتور موريتس الذي تكرم بتدقيق الأسماء العربية التي جلبتها معي وتأكد من صحة التسميات في النص والخرائط ومن نقلها بشكل صحيح من العربية إلى الألمانية. وأنا مدين بالشكر أيضاً للسيد البروفسور دكتور هارتمان الذي دقق جزءاً كبيراً من الأسماء الواردة في الكتاب قبل الطباعة.

قام بتحديد النباتات التي جمعتها، والتي بدت لي مهمة كممثل لجملة النباتات الصيفية الموجودة في البادية السورية وبلاد الرافدين، السيد البروفسور دكتور آشرزون. وأود الإشارة بهذا الخصوص إلى الفصل الخاص بالنباتات المنشور في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وقد ضمت هذه النباتات إلى مجموعة النباتات الجافة الموجودة عند البروفسور دكتور شفاينفورت. أما الصور الموجودة في الكتاب فقد قمت شخصياً بتصوير جزء منها بينما يعود الجزء الآخر إلى صور ورسومات قدمها السادة: بورشارت، فون كارناب، كولدوي، القنصل لوتّيكه، الدكتور راينهارت، الدكتور شتوبل، وغيرهم، مشكورين.

مراراً وتكراراً جبت عالم الإسلام وتجولت فيه. فقد قادتني رحلاتي من المحيط الأطلسي حتى الغانج وإلى زنجبار وإفريقيا الشرقية الألمانية. وفي القاهرة سكنت في الحي العربي وقضيت عدة أشهر مع السكان المحليين حصراً ساعياً إلى استكمال دراساتي عن اللغة العربية وعن عادات المسلمين ومعتقداتهم. وقد نشر تقرير أولي عن الرحلة التي تشكل موضوع هذه الصفحات، مع خريطة للطريق الذي سلكته، في نشرة بيترمان الجغرافية عام 1896م. ويعود السبب في تأخر صدور هذا الكتاب حتى الآن إلى أن الموضوعات الواردة فيه اضطرتني إلى إجراء دراسات أكثر تفصيلاً. يضاف إلى ذلك أنه تعيّن علي نقل مكان سكني في ربيع عام 1896م إلى القاهرة حيث انشغلت كلياً في مهامي

الرسمية. وفي هذه الأثناء عدت مرة أخرى إلى سورية وبذلك توفرت لي الفرصة للاطلاع على آخر التطورات والأحداث في البلد وخاصة على ثورة الدروز في حوران.

يشمل القسم الأول من الكتاب الطريق من بيروت عبر حوران وصحراء الحرّة الصخرية الواقعة وراءها والتي عبرتها من سالي حتى الضمير على طريق جديد كلياً تقريباً حيث تمكنت من تسلق براكين الصفاة (الفصل الأول ـ الفصل السادس). ويشمل القسم الثاني الطريق من الضمير، في بادئ الأمر، إلى بير زبيدة ثم إلى القريتين عبر منطقة مجهولة أيضاً، وبعد ذلك عن طريق تدمر عبر البادية السورية إلى دير الزور والفرات (الفصل السابع ـ الفصل التاسع). وهنا ينتهي الجزء الأول.

يشمل القسم الثالث الطريق الجديدة بمعظمها عبر منطقة ما بين النهرين على امتداد نهري الخابور والجرجر إلى نصيبين، إلى الشيخ فارس، شيخ قبيلة شمر، الذي كان آنذاك يخيم إلى الشمال من سنجار، ثم عبر سهول ما بين النهرين إلى الموصل (الفصل العاشر ـ الفصل الثالث عشر). ويشمل القسم الرابع والأخير السفر بالعبّارة على نهر دجلة نحو الأسفل حتى بغداد ثم السفر إلى البصرة وعبر الخليج العربي (الفصل الرابع عشر ـ الفصل الثامن عشر).

آمل في أن الصفحات التالية، التي تشكل مساهمة في التعرف على سورية وبلاد الرافدين الحاليين، سيتلقاها القراء بالتسامح وسعة الصدر.

القاهرة في مارس/ آذار 1899م

ماكس فرايهر فون أوبنهايم

الفصل الأول

بيروت ومنطقة لبنان

مدينة بيروت ـ الحياة العامة في الشوارع ـ أسلوب البناء ـ تاريخ مدينة بيروت ـ المرفأ ـ إلى جونيه ـ السكان السوريون ـ الأديان والطوائف في سورية ـ البعثات التبشرية ـ التعليم المدرسي ـ المسيحيون السوريون ـ الهجرة ـ الصحافة العربية ـ اللغة الفرنسية في سورية ـ فرنسا والموارنة ـ علاقات دولية أخرى ـ ألمان في سورية ـ التجارة والملاحة البحرية ـ الخطوط الحديدية السورية ـ سكة حديد بيروت ـ دمشق ـ جبال لبنان الشرقية والغربية ـ المصايف السورية ـ بيت الدين، المقر الصيفي لحاكم لبنان ـ بعقلين ودير القمر ـ التعليمات التنظيمية لمنطقة لبنان: الإدارة، نظام المحاكم، المالية، الجيش ـ إقامتي في بيروت 1893م ـ مع عربة البريد إلى شتورا ـ زراعة العنب السورية ـ بعلبك ـ في بيت حبيب باشا مطران ـ الوصول إلى دمشق.

* * *

بيروت هي اليوم أكبر وأهم مرفأ سوري. وموقعها على البحر المتوسط ساحر إلى أبعد الحدود. كتل البيوت تتسلق شيئاً فشيئاً الهضبة الساحلية الوديعة على أرض متموجة. المدينة القديمة الصغيرة المكتظة بالبيوت المتلاصقة تحيط بها أحياء وضواحي جديدة واسعة الامتداد وتزينها بصورة متزايدة مجموعات من الأشجار والحدائق. في الخلفية تبرز سلسلة جبال لبنان الخلابة التي يطل المرء

منها على عدد لا حصر له من الوديان الصغيرة المغطاة بالنباتات الكثيفة وحقول الزيتون وعلى العديد من القرى والبيوت المنفردة التي تنبسق من بين المساحات الخضراء مكونة مع محيطها منظراً طبيعياً في غاية الجمال. كامل المنطقة المحيطة ببيروت توحي بخصوبة عالية وبأنها مستغلة زراعياً بشكل ممتاز.

بعد كيلو مترين نحو الداخل خلف المدينة تمتد منطقة رملية معزولة متطاولة وضيقة. في هذه المنطقة كان أمير الدروز الواسع النفوذ فخر الدين المعني[1] قد أمر في القرن السابع عشر بزرع غابات الصنوبر لكي يحمي التربة الحمراء الخصبة من مزيد التصحر[2]. لقد تطورت الأشجار الفريدة من نوعها مع تيجانها الرائعة ذات اللون الأخضر الغامق، بشكل ممتاز وظلت في منأى عن التصحر الشامل تقريباً الذي حل بغابات سورية. على مسافة غير بعيدة على نهر بيروت تقع حديقة عامة تحتوي على عدد لا حصر له من مختلف أنواع الأزهار ونباتات الزينة وتحمل اسم مؤسسها الذي توفي مؤخراً في لندن كسفير لتركيا والذي لم يزل يحظى بتكريم كبير وبأطيب الذكر في سورية وهو رستم باشا[3]. هنا يلتقي المجتمع البيروتي الأنيق بعد الظهر لكي يستمع إلى أنغام الفرقة الموسيقية لجيش لبنان.

الطابع العام لمدينة بيروت المتطورة باستمرار أصبح أوروبياً بالكامل تقريباً. صحيح أن الأزياء الشعبية الزاهية الألوان والتي ما زال السكان الفقراء يلبسونها، والعدد اللا حصر له من طرابيش فيس[4] الحمراء، تذكرنا دوماً بأننا

---

(1) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص163 وما بعدها.

(2) انظر، ريتر: الجغرافيا في العلاقة مع الطبيعة وتاريخ الإنسان، أو الجغرافيا المقارنة العامة، الجزء الثاني عشر، برلين 1854م، ص430 و431.

(3) أنظر الصفحة 49.

(4) كلمة «فيس» المستعملة اليوم بصورة عامة في أوروبا للتعبير عن غطاء الرأس الأحمر اللون ذي الأشكال المختلفة والشائع الاستعمال في جميع البلدان الإسلامية تقريباً لا علاقة له بمدينة فاس عاصمة المغرب وإن كان الاسم مشتق على الأرجح من فاس بصفتها المكان الأصلي لتصنيع هذه الطرابيش. أما الطرابيش حالياً فتأتي جميعها تقريباً من أوروبا وخاصة من النمسا. في مدينة فاس نفسها لم تعد تصنع اليوم إلا الطرابيش المدببة المصنوعة من اللباد الأحمر الخشن والمزودة بزهرة صغيرة من الحرير زرقاء اللون، يرتديها بصورة رئيسية الجنود المغاربة تحت عمامة بيضاء كبيرة.

موجودون في الشرق وإن كان الكثير من المسلمين والمسيحيين المحليين يرتدون ملابس أوروبية. ولكن بدلاً من شرفات الأسطحة المسطحة ونوافذ غرف الحريم المشبكة التي يجدها المرء في كثير من مدن العالم الإسلامي الأخرى، يجد المرء هنا أسطحة مائلة مغطاة بالقرميد الأحمر وشبابيك واسعة خضراء اللون مؤلفة من درفتين تبقى في بيوت المسلمين في الأقسام المخصصة للحريم مغلقة طبعاً.

الشوارع الجديدة في بيروت عريضة وتضاء ليلاً بمصابيح غاز. أما في الأحياء القديمة والفقيرة فلم يزل الناس يتلمسون طريقهم ليلاً في الأزقة الضيقة المتعرجة بواسطة الفانوس. وفي نفس الشارع يوجد في أحيان كثيرة إلى جانب الأكواخ الصغيرة المنخفضة بناية أو بنايتان من عدة طوابق.

يوجد في بيروت نواد مجهزة بشكل جيد والعديد من القصور الفخمة التي تحمل تماماً طابع بيوتنا الأوروبية الخاصة، ومنها على سبيل المثال البيوت التي تسكنها العائلات المسيحية الغنية سرسق وبطرس وتويني. ومما يلفت الانتباه أن الفنادق ظلت، على الرغم من الحركة السياحية القوية، في مستوى بدائي قياساً إلى فنادق القاهرة أو اسطنبول.

يسعى أسلوب بناء البيوت الجديدة في بيروت إلى التكيف مع المناخ كما هو الحال في كثير من مناطق أوروبا الجنوبية. والطابع المميز لهذه البيوت هو الصالة المتوسطة الكبيرة، «الدار»، الموجودة في الطابق الأرضي وفي الطوابق العليا والتي تأخذ غالباً عمق البيت كاملاً وتصب فيها جميع الغرف. أما نوافذ الدار الكبيرة جداً والعالية جداً والتي تتجه غالباً نحو الأعلى بشكل قوسي فتزين من جهة الشارع بمشبك من الحديد المصنوع بشكل فني أنيق. في بعض الأحيان تكون الصالة مقسمة بأعمدة وشبابيك زجاجية تؤدي إلى غرفة واقعة في الخلف تسمى «الليوان».

لا يوجد في بيروت مسرح أوروبي ولكن يوجد عدة مقاهي للغناء يقدم فيها عروضهم مغنون بسيطون ومغنيات شانصون فرنسيات وفرق نسائية بوهمية. يقال

بأن أعضاء هذه الفرق يجربن حظهن في لبنان ويعقدن عقود زواج هنا في المرفأ. ومن الطبيعي أنه يوجد أيضاً مقاهي شرقية تعزف فيها موسيقى عربية. كثير من الدكاكين والمحلات التجارية مجهزة على الطريقة الأوروبية، وهناك العديد من الصيدليات والخياطات ومصممات الأزياء الفرنسيات. وتباع في بيروت جميع السلع الأوروبية تقريباً، ولكن نوعيتها تكون غالباً غير جيدة، ويستطيع المسافر الحصول على كل ما يحتاجه باستثناء الأجهزة والأدوات العلمية. أما تجارة الكتب فلم تزل متخلفة جداً، ومن الصعب الحصول على كتب أوروبية باستثناء بعض الكتب الدينية والروايات الفرنسية[1].

بيروت مدينة تجارية فينيقية مغرقة في القدم[2]. وفي العهد الروماني ازدهرت هنا مدرسة شهيرة للحقوق كانت تضاهي مدرستي القانون في أثينا والإسكندرية وعلم فيها فقهاء بارزون من بينهم أولبيانوس المشهور بالفقه الحقوقي الروماني. ومنذ تلك الأوقات كانت بيروت مشهورة بتربية دود القز وبتجارة الحرير. في عهد يوستينيان، في 20 مايو/ أيار 529، تعرضت المدينة، وكثير من المدن السورية الأخرى، لهزة أرضية دمرتها بالكامل.

في العصور الوسطى لم تلعب بيروت دوراً مهماً. فبعد سقوط أنطاكية أصبحت دمشق الغنية العاصمة الأولى لسورية والمركز الذي يمتص كل شيء، وحتى هذا القرن كانت طرابلس المرفأ الأهم على الساحل السوري وذلك لأن طرابلس كانت، من الناحية الأولى، توفر للسفن حماية أفضل من بيروت ولأنها كانت، من الناحية الثانية، تتمتع بموقع مناسب للعبور إلى المنطقة الداخلية

---

(1) تجدر الإشارة إلى أنني عندما وصلت في وقت لاحق إلى الهند لم أجد في المدينة المرفئية الكبيرة كراتشي عروضاً من الكتب الأوروبية أفضل مما وجدته في بيروت ولم يكن في وسعي العثور هناك على أي كتب علمية أو حتى أي كتب سياحية عن الهند.

(2) انظر، ريتر، نفس المرجع السابق، ص55 وما بعدها، وص62 وما بعدها، وص432 وما بعدها.

السورية بسبب المنخفض الطبيعي الواقع بين جبال لبنان وجبال النصيرية[1](*).

في عام 1832م سقطت بيروت مع سورية في أيدي القوات المصرية المنتصرة بقيادة إبراهيم باشا وبقيت حتى عام 1840م تحت الحكم المصري. ومنذ ذلك التاريخ بدأ الازدهار الحقيقي للمدينة. فبعد وقت قصير من انسحاب المصريين بدأت النزاعات بين المسيحيين اللبنانيين والدروز ونزح منذ ذلك الحين كثير من مسيحيي لبنان إلى بيروت. كما أن العديد من الأوروبيين استوطنوا هناك تحت حماية الممثليات القنصلية. وعندما أدت الصراعات بين الدروز والمسيحيين إلى وقوع مجازر عام 1860م نزحت أعداد كبيرة من المسيحيين المحليين من الداخل باتجاه الساحل وحدثت موجة أخرى من الهجرة الجماعية إلى بيروت. في الوقت الحاضر يقدر عدد سكان المدينة، الذين كانوا في بداية القرن لا يزيدون على بضعة آلاف، بنحو 100,000 نسمة يشكل المسيحيون أكثر من ثلثيهم. والعلاقة بين المسيحيين والمسلمين في بيروت غير جيدة خلافاً لما هو الحال في بعض مدن الشرق الأخرى التي يشكل فيها المسلمون أكثرية السكان. ووقوع صدامات دامية بين أتباع الديانتين في بيروت ليس من الحالات النادرة.

بيروت عاصمة إحدى الولايات التركية ويحكمها والي بيروت الذي تتبع له متصرفيات عكا ونابلس وطرابلس واللاذقية. مقر الحكومة (السرايا) والثكنة بنايتان جديدتان فخمتان.

حاولت بيروت التخلص من الموقع السيئ لرسو السفن ببناء مرفأ اصطناعي لكنه نفذ بمقاييس صغيرة في مختلف الجوانب. على الرغم من ذلك كانت المنشآت التي نفذتها شركة فرنسية مكلفة جداً مما جعل رسوم المرفأ والترصيف، والتي تخضع لها السفن الداخلة إلى الميناء وكذلك البضائع الداخلة والخارجة،

(1) إلا أن سكان هذه الجبال لا يسمون أنفسهم نصيرية وإنما فلاحين. انظر: هارتمان في مجلة جمعية فلسطين الألمانية، العدد 15، ص152.

(*) يطلق عليها الآن العلويين وجبال العلويين (ماجد شبّر).

عالية بشكل غير عادي. ومن أجل تفادي دفع جزء من هذه الرسوم تقف البواخر في أحيان كثيرة خارج المرفأ الاصطناعي، بينما تتوجه العديد من السفن الشراعية المحملة بالبضائع المرسلة إلى شمال لبنان إلى مرفأ طبيعي صغير يقع على بعد ساعتين من بيروت في منطقة جبل لبنان هو مرفأ جونيه. وستكتسب جونيه، التي تطورت في الآونة الأخيرة إلى مدينة صغيرة معتبرة، مزيداً من الأهمية منتزعة من بيروت ميزات كثيرة أخرى عندما ينتهي بناء سكة حديد الترامواي البخاري التي تصل بين صيدا وبيروت وطرابلس وتقوم ببنائها حالياً شركة فرنسية[1]. في الوقت الحاضر لا يصل القطار إلا من صيدا حتى جونيه؛ كل ساعتين ينطلق قطار وتحقق الشركة أرباحاً جيدة في الحركة النشيطة لنقل البضائع والأشخاص.

منذ بعض الوقت تتصل جونيه مع بيروت بطريق جيدة للعربات تسير على امتداد الساحل وتصل الآن حتى البترون، «بوتريس القديمة»، ومن المقرر أن تصل إلى طرابلس. تعبر هذه الطريق على جسر حجري جميل نهر الكلب الرائع الجمال. وإلى الجنوب مباشرة من مصب النهر يقترب الجبل جداً من البحر بانحدار صخري شديد. هنا، حيث كانت طريق المواصلات والجيوش تؤدي منذ العصور القديمة من شمال سورية إلى الجنوب، قام عدد كبير من الملوك والقادة العسكريون بتخليد أنفسهم بكتابات محفورة[2]. إلى جانب الألواح الهيروغليفية لفراعنة مصريين توجد نصوص بالكتابة المسمارية للملوك الآشوريين الكبار وكتابات لأباطرة روما؛ كما يوجد أيضاً كتابات إغريقية ولكنها أصبحت في حالة سيئة. كما أن الجنرال نابليون الثالث سجل نزوله في سورية في عام 1860م بكتابته في هذا الموقع. فيما يلي نص الكتابة المنقوشة[3]:

---

(1) انظر الصفحة 38 أدناه.

(2) راجع آ. فون كريمر، وسط سورية ودمشق، فيينا 1853م، ص229 وما بعدها لورتيه، سورية اليوم، باريس 1884م، ص657.

(3) يعود الفضل في حصولي على نسخة إلى القنصل الدانماركي السابق في بيروت السيد لويتفد. وقد أبلغني البروفسور هارتمان أن الكتابات الفرنسية حفرت بشكل ظاهر في موقع لوحة هيروغليفية سابقة.

1860—1861.

NAPOLÉON III.

EMPEREUR DES FRANÇAIS.

ARMEE FRANÇAISE.

GÉNÉRAL DE BEAUFORT DE HAUTPOUL.

COMMANDANT EN CHEF.

COLONEL OSMONT.

CHEF D'ÉTAT MAJOR-GÉNÉRAL.

GÉNÉRAL DUCROT.

COMMANDANT L'INFANTERIE.

5e DE LIGNE. 2e GÉNIE. 1er HUSSARDS.
13e DE LIGNE. 1er D'ARTILLERIE. 1er CHASSEURS D'AFRIQUE.
16e BATON CHASSEURS. 10e D'ARTILLERIE. 3e CHASSEURS D'AFRIQUE.
1er ZOUAVES. SERVICES ADMINISTRATIFS. 2e SPAHIS.

يعتبر السوريون الحاليون بمعظمهم من أحفاد الآراميين الذين كانوا مقيمين في هذه البلاد بقدر ما نستطيع العودة في التاريخ إلى الوراء. إلا أن الدم الآرامي اختلط في هذه الأثناء بدماء كثيرة. فالعهد الإغريقي الروماني لم يمر دون أن يترك آثاره العرقية على السكان. وفي السهول التي يسهل الوصول إليها، وكذلك في المدن الكبيرة في الأجزاء الشرقية من البلاد، كان العنصر الآرامي قد اختلط بالمهاجرين العرب منذ ما قبل العهد الإسلامي.

في فترة ظهور النبي محمد كانت سورية، فيما عدا بعض الجاليات اليهودية المتفرقة، مسيحية وكانت ولاية تابعة للأمبراطورية البيزنطية. ومنذئذ اعتنق الإسلام جزء كبير من السكان المحليين. وبعد وقت قصير من الهجرة جاءت إلى دمشق، التي أصبحت فيما بعد مركز الخلافة الأموية، وإلى سورية عموماً هجرات كبيرة من شبه الجزيرة العربية ومن جميع أرجاء العالم الإسلامي، بينما خرج، بالمقابل، من هنا عدد كبير من السوريين مع جيوش المسلمين الأوائل المتحمسين الزاحفة نحو الشمال والشرق والغرب وخاصة إلى شمال إفريقيا وإسبانيا. أما السكان المسلمون السوريون الذين بقوا في البلد فقد اختلطوا فيما بعد على مر القرون عن طريق التزاوج مع الأتراك والشركس، وتزوجوا في بعض الحالات من نساء زنجيات أيضاً وبالتحديد في المدن الكبيرة. وبصورة عامة فإن الطابع السائد

في الوقت الحاضر هو الطابع العربي. الأتراك موجودون في سورية بصفة موظفين وضباط فقط. أما الجاليات الكردية والشركسية والبلغارية التي تشكلت من هجرات حديثة العهد فهي غير ذات شأن. وأما العرق الآرامي القديم فقد حافظ على أكبر نقاء له في الأجزاء الجبلية من سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية وعلى الأخص في أوساط السكان الذين ظلوا على مسيحيتهم[1].

مع انتشار الإسلام سادت اللغة العربية شيئاً فشيئاً في المنطقة. وفي الوقت الحاضر يتكلم ويكتب جميع سكان سورية تقريباً اللغة العربية حصراً بصرف النظر عن انتمائهم الديني؛ فقط في عدد قليل من القرى الجبلية النائية الواقعة في جبال لبنان الشرقية ما زال الناس يتكلمون اللغة الآرامية. وفيما عدا ذلك لم تعد اللغة الآرامية تستعمل في سورية إلا كلغة كنسية لدى بعض الطوائف[2]. كما أن اليهود الذين يشكلون في سورية، في دمشق مثلاً، العديد من الجاليات القائمة منذ آلاف السنين، يتكلمون، باستثناء بعض المهاجرين اليهود الذين جاؤوا في العقود الأخيرة من أوروبا إلى فلسطين[3]، اللغة العربية حصراً. من بين مسلمي سورية وجدت فرق شيعية مختلفة تربة خصبة في سورية اشتهر منها في أوروبا بشكل خاص، نتيجة الحروب الصليبية، الحشاشون أتباع «شيخ الجبل»[4]. وما زال يوجد في سورية حتى اليوم الإسماعيليون والمتاولة (الجمع من متوالي) والنصيرية واليزيدية (الذي يسمون «عبدة الشيطان»)؛ وفي منطقة لبنان وفي حوران يعيش

---

(1) بعض العائلات المسيحية السورية تقول إنها تنحدر من الفرسان الفرانكيين الذين جاؤوا إلى الأراضي المقدسة مع الحملات الصليبية.

(2) بعض أجزاء كتاب الصلاة لدى الموارنة، الإنجيل، والدعاء «آبانا في السماء» وأقوال الرسل مكتوبة باللغة العربية بحروف سورية. ويطلق على هذه الطريقة في الكتابة اليوم اسم كرشوني.

(3) في الآونة الأخيرة قام البارون ألفرد روتشيلد في باريس بشراء مناطق واسعة من السفح الشرقي لجبل الشيخ، إلا أن توطين المهاجرين اليهود الجدد أصبح ممنوعاً في الفترة الأخيرة. بخصوص المستوطنات اليهودية في سورية راجع: مجلة جمعية فلسطين الألمانية (في أماكن متفرقة).

(4) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص139 وما بعدها.

الآلاف من الدروز. جميع هذه الفرق الدينية لها، قليلاً أو كثيراً، صلات وثيقة مع الفرق الصوفية التي نشأت في القرن الأول الهجري بشكل خاص في فارس ونتجت عن احتكاك الأفكار والعادات المسيحية والإسلامية وبقايا التعاليم الوثنية والزرادشتية والبوذية مع بعض الاختراعات الجديدة[1].

يبدو أن سورية كانت منذ القدم توفر أرضية خصبة لنشوء الطوائف والفرق الدينية المختلفة. ويشهد على ذلك العدد الكبير من الطوائف المسيحية[2] التي لم تزل موجودة هناك حتى اليوم. فإلى جانب الكاثوليكيين اللاتين (الروميين) نجد أعداداً كبيرة من الموارنة وخاصة في منطقة لبنان، ثم اليعاقبة، والسوريين الموحدين، والأرثوذكس الشرقيين (اليونانيين) والكاثوليك الشرقيين (اليونانيين) (الملكيين)، والأرمن، بعضهم من الكنيسة الغريغوريانية القومية وبعضهم من الكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية. وهناك أخيراً الأقباط وبعض الأعداد القليلة من الأبيسيين [الأحباش]. عند نشوء الطوائف الدينية، التي تشكل فروعاً من الكنيسة الكاثوليكية الرومية، قدمت الإدارة المركزية البابوية تنازلات مختلفة. إذ إن غالبية الطوائف احتفظت بطقوسها الشرقية. فالموارنة مثلاً لهم الحق في أن يصبحوا قساوسة حتى ولو كانوا متزوجين؛ لكن الزواج اللاحق بعد الرسامة ممنوع. وفي الأوقات الأخيرة بذلت جهود كبيرة لتوحيد جميع الكنائس الشرقية تحت راية روما. وتجدر الإشارة إلى أنه ممنوع صراحة، ويتعرض المخالف لعقوبات كنسية شديدة، أن يدعو أحدٌ أتباعَ أحد الطقوس الشرقية الموحدة مع روما إلى الانتقال إلى الطائفة اللاتينية. ويقال إنه قد حدث مرة أن قرية مارونية كاملة قد اعتنقت البروتستانتية لكي تصبح بعد ذلك لاتينية.

المستوى التعليمي لرجال الدين المسيحيين منخفض جداً، بصورة عامة، لدى مختلف الطوائف الشرقية ويشكل تحسينه المهمة الرئيسية للبعثات التبشرية العائدة لمختلف المذاهب المسيحية. لكن الدعاية التي تقوم بها هذه البعثات لا

(1) انظر الفصل الرابع ص120 وما يليها. والفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.
(2) انظر باريزو، الطقوس الشرقية، آميان 1896م.

تحقق نجاحاً إلا لدى أتباع المذاهب المسيحية الأخرى. أما المحاولات الرامية إلى تبشير المسلمين والدروز فقد بقيت عديمة الجدوى.

من البعثات الكاثوليكية نجد بالدرجة الأولى البعثة اليسوعية القوية جداً التي تتخذ من بيروت مقراً لها ولها مراكز في كسارا قرب شتورا وفي زحلة وبكفيا ودمشق وغزير وحمّانا؛ هناك أيضاً الفرنسيسكانيون في القدس وبيروت والكبوشيون في دمشق وبيروت، واللعازريون والراهبات الرحيمات في بيروت وبرمّانا والخ...؛ وراهبات الراعي الصالح في بيروت وحمّانا والخ...؛ وأخوة المدارس المسيحية في بيروت ويافا والقدس وحيفا والناصرة وطرابلس واللاذقية والخ... البعثات الأمريكية متمركزة في بيروت والشويفات وحمّانا؛ والأنغليكانية في صيدا ودمشق وفي بعض القرى، وخاصة الدرزية؛ والبعثات البروتستانتية الألمانية موجودة في بيروت؛ وأخيراً البعثات الروسية في مختلف مدن سورية وإن كانت تتركز بالدرجة الأولى في فلسطين[1].

غالبية البعثات المذكورة مرتبطة بمدارس ذات مستوى منخفض. أما أعلى المستويات التعليمية فيقدمها اليسوعيون والبروتستانتيون الأمريكيون في بيروت، وكذلك العازريون في عين طورا فوق جونيه في كسروان. فقد أسس اليسوعيون في مجمع المباني الفخم والذي يشبه القصر في موقع رائع في المدينة ما يسمى جامعة القديس يوسف. يُعلّم هنا، بالإضافة إلى الدروس العادية، فروع الطب واللاهوت والفلسفة لكن النتائج التي يحصل عليها الطلاب لا يمكن مقارنتها بالنتائج الأوروبية وذلك بسبب ضعف المستوى التعليمي ما قبل الجامعي. وتمنح الجامعة شهادة الدكتوراه[*] وفي الجامعة الأمريكية، التي تملك أيضاً بناية واسعة

(1) يقصد بتعبير «سورية» بشكل عام المنطقة التي يحدها من الغرب البحر المتوسط ومن الشمال جبال طوروس ومن الشرق شمال بلاد الرافدين أو الصحراء العربية، وفي كثير من الأحيان تدخل فيها فلسطين؛ أما في هذا الكتاب فإن فلسطين غير مشمولة بالاسم الجغرافي «سورية».

(*) إن منح شهادة الدكتوراه كلام غير دقيق، كون الجامعة المذكورة لم تكن تمنح مثل هذه الشهادات في ذلك الزمان (ماجد شبّر).

فسيحة وتقدم للطلاب كالجامعة اليسوعية إقامة داخلية (انترنات)، يُدرّس بالتحديد فرع الطب. لكن الأطباء المتخرجين من الجامعتين لم يحصلوا بعد على حق ممارسة مهنة الطب في تركيا فوراً وإنما يتعين عليهم النجاح في امتحان حكومي يجرى في اسطنبول.

ويوجد لدى اليسوعيين والأمريكان على حد سواء مطابع تستغلها بشكل خاص الطائفة الكاثوليكية لنشر كتب تعليمية وكتابات عربية ويعود لها فضل كبير في هذا الصدد. أما المدارس التابعة للبعثات فيستطيع أبناء جميع الطوائف الانتساب إليها.

علاوة على ذلك هناك العديد من المدارس الإسلامية في سورية. إلّا أنّه من الواضح تماماً أن المسيحيين هم الأكثر ميلاً إلى الالتحاق بالمدارس. غير أن توفر فرص التعليم والتكاليف المنخفضة للدروس أدت إلى تخلي المسيحيين السوريين بصورة متزايدة عن الزراعة. فبعد إنهاء المدرسة الابتدائية ينتقلون قدر الإمكان إلى المدن للالتحاق بمدارس أعلى أو لممارسة الأعمال التجارية أو مهن مشابهة فوراً. وبصورة عامة فإن التعليم الذي يكتفون به ليس عميقاً جداً: فما أن يكتسبوا بعض المعارف اللغوية حتى يحاولوا على الفور استغلالها لتحقيق كسب مادي. أما النساء فمشاركتهن في الدروس أقل من الرجال، وينطبق هذا على المسيحيات والمسلمات على حد سواء[1].

---

(1) لكنني أود استغلال هذه المناسبة للرد على الرأي المنتشر على نطاق واسع في أوروبا وكأن النساء المسلمات العصريات في جميع أجزاء العالم الإسلامي يمارسن حياة في «الهارم» (جناح الحريم) لم تأخذ أي شيء من ثقافة القرن التاسع عشر. ففي القسطنطينية وفي المناطق التركية الأخرى ومصر يوجد مدارس للنساء المسلمات. وفي بعض البيوت الغنية تتلقى الفتيات دروساً خاصة وتعليماً جيداً قدر الإمكان لا يقل مستواه عما يجري في العائلات المسيحية. كما أن سماح القرآن للرجل بالزواج من أربع نساء في وقت واحد لا يطبق في الأوساط المتعلمة إلا في حالات نادرة جداً، ومطالبة القرآن الرجل بأن يعامل زوجاته معاملة متساوية تجبر الرجال المسلمين غير الميسورين على الاكتفاء غالباً بزوجة واحدة تشارك زوجها حياته في السراء والضراء بما في ذلك الجانب الروحي منها. والسماح للمرأة=

يبدو أن حب السفر والهجرة الذي كان موجوداً لدى الفينيقيين القدامى لم يزل حتى اليوم موجوداً لدى سكان سورية المسيحيين. وعلى الأخص منذ المجازر ضد المسيحيين عام 1860م حدثت هجرات متزايدة وبالتحديد من لبنان عبر البحر، على الرغم من أن منطقة لبنان وضعت منذ عام 1861م تحت حكم المسيحيين أنفسهم. في الأعوام الأخيرة توجهت الهجرة بشكل خاص إلى أمريكا الشمالية؛ ففي شيكاغو ونيويورك والخ. . . تشكلت منذ زمن طويل مستوطنات سورية كبيرة أصبح لديها الآن عدة جرائد خاصة بها تصدر باللغة العربية. وفي أمريكا الجنوبية أيضاً، لا بل وفي أستراليا واليابان توجد أعداد كبيرة من السوريين؛ ويجد المرء أعداداً متفرقة منهم في أماكن الاستحمام الأوروبية المختلفة في موسم السياحة. وهم يمارسون بصورة رئيسية مهنة التجارة الجوالة فيبيعون أشياء شرقية غريبة، مسابح يزعمون أنها من القدس وقطع خشبية تذكارية من الأراضي المقدسة أو من لبنان، وأشياء مختلفة يجلبونها معهم من أوطانهم أو يجدونها في مرسيليا. وفي بعض الأحيان يبيعون بضائع رخيصة من المناطق الموجودين فيها. وفي أستراليا بلغت منافسة التجار السوريين درجة عالية شكلت خطراً على التجار الآخرين في المدن الصغيرة. وهناك كثير من السوريين الذين يستقرون في الخارج لكي يتولوا تصدير البضائع المنتجة في تلك البلدان إلى وطنهم الأصلي سورية. وهكذا استوطن لهذا الغرض في أماكن مختلفة من بريطانيا العديد من التجار السوريين الأغنياء المسيحيين والمسلمين. إلا أن المهاجرين السوريين المسيحيين يعودون غالباً، بعد قضاء بضعة أعوام في الخارج، إلى وطنهم. وبصورة عامة يقدر عدد المهاجرين الذين يبقون نهائياً في

= بالإلتقاء مع أقربائها الذكور يمنحها الفرصة لتبادل الأفكار ووجهات النظر ليس فقط مع بنات جنسها وإنما مع الرجال أيضاً. لا بل إنه يوجد في القسطنطينية مجلة مخصصة للنساء المسلمات تصدر مرة واحدة كل أسبوعين («هانملارا مخصوص غازيتا») تكتب محتوياتها نساء مسلمات حصراً. فقط الجزء المتعلق بالأزياء يتألف من مقالات مترجمة عن المجلات الأوروبية الاختصاصية. ولقد تبنت سيدات المجتمع الأنيق في القسطنطينية ومصر عادات أوروبية في التدبير المنزلي واللباس أيضاً وبدأن، للأسف، بارتداء الملابس الضيقة الرائجة في أوروبا.

الخارج بالخمس تقريباً. ويقدر عدد السوريين الذين هاجروا في الآونة الأخيرة إلى أمريكا وحدها بحوالي 10,000 شخص كل عام. ويشكل الرجال الجزء الأكبر من أعداد المهاجرين.

يعود السبب في هجرة الجزء الأكبر من اللبنانيين إلى أن أراضي لبنان، وعلى الرغم من استغلالها إلى أبعد الحدود، لم تعد تعطي المحاصيل الكافية لتغطية الحاجات المتزايدة للسكان. وفي الأعوام الأخيرة انخفضت أسعار العديد من المنتوجات الزراعية وخاصة التوت وشرانق القز[1] وزيت الزيتون انخفاضاً شديداً كما أن الأحاديث المتناقلة عن نجاح المهاجرين اللبنانيين كان لها تأثير سحري على المسيحيين السوريين الميالين إلى المغامرة وإدارة الأعمال أصلاً، بحيث إن بعض القرى قد أفرغت تماماً من الرجال الذين هم في سن العمل. فمن مدينة زحلة وحدها، وهي من المدن الكبيرة في منطقة لبنان، هاجر آلاف الشباب إلى أمريكا وبلدان أخرى. وبالفعل فإن السوريين يحققون في بلاد الغربة وخلال وقت قصير نجاحاً كبيراً قياساً إلى ظروفهم السابقة بحيث يرسلون خلال فترة غيابهم المبالغ اللازمة لمعيشة أسرهم ويجلبون معهم عند عودتهم ما يكفي لبناء بيت وفتح محل تجاري في قريتهم أو في إحدى المدن الساحلية. وتقدر المبالغ التي دفعها البنك العثماني في الآونة الأخيرة لعائلات السوريين المقيمين في الخارج كتحويلات لهم من ذويهم بحوالي 200,000 ليرة تركية كل عام.

ينظر رجال الدين الموارنة إلى هذا التطور بمنتهى الشزر والاستياء. فقد اعتادوا في الماضي على لعب دور أساسي في حياة سكان جبل لبنان وحتى في شؤونهم العائلية، وهم يخشون بحق أن تؤدي إقامة الشباب في الخارج إلى حصولهم على أفكار حرة جديدة وإلى تحرر العائدين منهم، وأفراد عائلاتهم أيضاً، شيئاً فشيئاً من نفوذهم. لكن الحكومة التركية أيضاً تتخذ موقفاً معادياً من الهجرة وذلك لأن المهاجرين السوريين يقدمون أنفسهم في الخارج، خلافاً

(1) ترسل شرانق القز بصورة عامة إلى ليون لحلها، ولكن في الآونة الأخيرة نشأ في سورية وخاصة في لبنان العديد من معامل الحرير.

للحقيقة وعلى الرغم من أنهم ينحدرون من المناطق اللبنانية الواقعة تحت سيطرة حاكم مسيحي، على أنهم ضحايا اضطهاد الموظفين الأتراك لكي ينالوا عطف الأجانب ويحققون بذلك مزيداً من المكاسب المادية. ولذلك منعت الحكومة الهجرة. إلا أن الســوريين يجدون دوماً وأبداً الوسائل والسبل المناسبة لمغادرة بلادهم. وهم يلتفون على هذا المنع بالانتقال براً إلى مرسين أو الإسكندرون أو يافا لأن مرافئ بيروت وطرابلس وحيفا ـ عكا هي الوحيدة التي تخضع لمراقبة حكومية بهذا الخصوص. ويستخدم جميع المهاجرين تقريباً سفن النقل البحرية التجارية التي تنقلهم، دون الحاجة إلى النزول في مصر، إلى مرسيليا، ومن هناك يسلك المهاجرون إلى أمريكا الشمالية في بداية الأمر الطريق البري المكلف جداً إلى هافر.

أما هجرة السوريين إلى مناطق أخرى شرقي المتوسط، وبالتحديد إلى مصر، فتحمل طابعاً مختلفاً كلياً. في مصر بشكل خاص يجد السوريون نفس اللغة ونفس العادات ومناخاً مشابهاً لمناخ بلدهم، وهم يستقرون نهائياً هنا أكثر من استقرارهم في البلدان البعيدة الناطقة بلغة أخرى غير لغتهم. وكانت هجرة السوريين إلى مصر ذات أهمية لا بأس بها منذ أيام محمد علي باشا لكنها ازدادت بشكل كبير منذ أحداث عام 1860م. وبعد احتلال الإنجليز لمصر شهدت هذه الحركة زيادة أخرى: إذ إن الموظفين الإنجليز الكبار العاملين في مصر كانوا يمنحون المسيحيين السوريين، الذين كانوا بصورة عامة غير محبوبين لدى المصريين وكانوا يعتبرون غرباء في مصر على الرغم من أنهم يتكلمون اللغة العربية، ثقة خاصة، وكان كثير من السوريين يحصلون في بلاد النيل على وظيفة حكومية بسبب المعارف اللغوية الفرنسية والإنجليزية التي اكتسبوها في بيروت. فهم موجودون اليوم في جميع الوزارات المصرية والدوائر الحكومية المحلية وأيضاً كمترجمين في الجيش وفي مواقع أخرى، ولكن غالباً في مناصب متوسطة أو منخفضة، وفي حالات نادرة في مناصب عالية. وخلافاً للأرمن والأقباط لم يحصل أي سوري حتى الآن على منصب وزير في مصر. ويقدر عدد السوريين العاملين حالياً في

الخدمة الحكومية المصرية بعدة آلاف على الرغم من تصعيب شروط تعيينهم في الوظائف الحكومية في الأعوام الأخيرة[1]. إلا أن جزءاً كبيراً من محرري الصحف المصرية التي تصدر باللغة العربية هم من المسيحيين السوريين[2].

لقد تمكن بعض التجار السوريين المقيمين في بيروت أو في مصر أو في مناطق أخرى شرقي المتوسط من تجميع ثروات كبيرة وهم يتمتعون بتعليم أوروبي ويصيغ للسلوك والتعامل في غاية الكمال. أما في بلادهم نفسها فلم يزل الجزء الأكبر من المسيحيين السوريين يعيشون حسب عاداتهم البطركية القديمة التي

---

(1) في الآونة الأخيرة يسعى السوريون المسيحيون المقيمون في مصر إلى الحصول على تمثيل في الجمعية العامة وفي المجلس التشريعي في مصر.

(2) حققت الصحافة العربية في مصر تطوراً كبيراً جداً في الآونة الأخيرة. ولقد ساهم شيوخ مسلمون مساهمة مهمة في الحركة العربية وذلك عن طريق تأسيس الصحف. وعندما قضي على التمرد العسكري الذي تبع الاحتلال الإنجليزي أصبحت جميع الصحف تقريباً في أيدي المسيحيين السوريين الذين ما زالوا حتى اليوم يدافعون عن الاحتلال الانجليزي لمصر. أكبر صحيفة عربية من هذا الاتجاه يحررها السوريون هي مجلة «المقطم» القاهرية ـ يصدر في الوقت الحاضر في القاهرة وحدها أكثر من 60 صحيفة يومية ومجلة أسبوعية ومجلة علمية يبلغ حجم الإصدار الواحد لبعضها كمية محترمة. ويجد بعض الصحف المصرية الدينية التي يصدرها المسلمون، كصحيفة المؤيد مثلاً، وذلك بسبب صدورها باللغة العربية، لغة القرآن، التي يفهمها كل متعلم حقيقي في العالم الإسلامي بأسره، قرّاء لها ليس في مصر وحدها وإنما في جميع أرجاء العالم الإسلامي من مراكش حتى الهند والملاوي ومن القسطنطينية حتى زنجبار. وتحظى هذه الصحف بأهمية لا بأس بها. فهي تسعى بكل قواها إلى تثبيت فكرة الأمة الإسلامية الواحدة وساهمت خلال الحرب التركية اليونانية الأخيرة مساهمة كبيرة في إنجاح الحملة الرامية إلى جمع الأموال لدعم الخزينة الحربية للسلطان العثماني. أما في بيروت نفسها وفي المدن السورية الكبيرة الأخرى فتصدر صحف عربية محلية ذات أهمية أقل. منذ بداية هذا العام يصدر المبشرون اليسوعيون في بيروت مجلة نصف شهرية اسمها «المشرق» تتمتع بسوية عالية شكلاً ومضموناً لكن معظم مقالاتها لم تزل بقلم كتّاب أوروبيين. هناك قائمة بأسماء الصحف التي كانت تصدر عام 1889م في سورية وبلاد ما بين النهرين موجودة لدى شرودر (Schroeder, Z. D. P. V. XII) ص124 وما بعدها.

تتطابق تقريباً، وخاصة في القرى النائية، مع عادات المسلمين الموجودين هناك. بعد الانتهاء من العمل يجد المره هناك النساء المسيحيات والرجال المسيحيين يجلسون على وسائد أو على الأرض العارية ويدخنون النرجيلة. وفي أغلب الأحيان يتناول رب الأسرة الطعام منفرداً مع الضيوف أو مع أبنائه الكبار، بينما يأكل النساء بعد ذلك مع الأولاد الصغار. ومن غير المحبذ أن تقوم فتاة مسيحية غير متزوجة بزيارات منفردة خلال النهار، وفي المناطق التي يعيش فيها المسيحيون مع المسلمين لم يزل الكثير من النساء المسيحيات يرتدين الحجاب أيضاً.

في أغلب الأحيان يكون فرش البيوت في القرى السورية المسيحية والإسلامية على حد سواء فقيراً جداً حسب مفاهيمنا الغربية. فهو يتألف من الحصر أو البسط الممدودة على الأرض الترابية ومن الصوفايات [الصوفات] البسيطة والكراسي المنخفضة بدون مسند. توضع فرشات النوم خلال النهار فوق بعضها البعض في فجوة في الجدار ثم تُمد على الأرض في الليل. إلا أن السوريين يبدون استعداداً كبيراً لقبول المدنية الغربية؛ بالقرب من البعثات التبشيرية الأوروبية، وحتى في القرى الجبلية البعيدة، التي يسكن فيها المهاجرون العائدون من الغربة، تنتشر بصورة متزايدة عاداتنا وتقاليدنا وفي الوقت نفسه الأدوات والأشياء المستعملة في الغرب.

يُعدّ المسيحيون السوريون نشيطين ومرنين بشكل خاص ولكنهم أيضاً معجبون بأنفسهم ومحتالون، وتتمتع نساؤهم غالباً بجمال أخاذ.

في الماضي كانت اللغة الإيطالية اللغة الأوروبية الأكثر انتشاراً في المنطقة لكنها الآن أصبحت منسية كلياً في سورية وحلت محلها اللغة الفرنسية. ويعود السبب الرئيس في هذا التحول إلى المراكز التبشيرية الكاثوليكية الكثيرة التي تعطي الدروس باللغة الفرنسية، ومجاناً في أغلب الأحيان، ملبية بذلك الحاجة المتزايدة إلى التعليم لدى السوريين الفقراء أيضاً. ويتلقى أولاد بعض العائلات المسيحية الغنية التعليم في المنزل على يد مربيات فرنسيات. كما أن أعضاء

البعثات التبشيرية الكاثوليكية في سورية، وأيضاً في العراق، هم بلا استثناء تقريباً فرنسيون أو ألزاسيون يتكلمون اللغة الفرنسية. ومما يثير الاستغراب أن الحكومة الفرنسية، التي لا تقيم علاقات ودية مع الكنيسة داخل فرنسا ذاتها، تدعم في المشرق على الدوام بالمال والنفوذ نشاطات البعثات التبشيرية هناك.

صحيح أن التجارة الفرنسية في سورية لا تحتل المرتبة الأولى إلا أن أهم الشركات الصناعية والمؤسسات الحكومية بمختلف أنواعها (الطرق والمرافئ وشركات الغاز وزراعة العنب في المزارع الكبيرة. والخ. . .) موجودة بصورة رئيسية في أيدي الفرنسيين[1]. وينطبق الشيء نفسه على السكك الحديدية السورية. وتعد باريس رمزاً للرخاء والنعيم ويعتبر السوريون زيارتها من الأهداف المنشودة.

تعود علاقة فرنسا مع سورية، وعلى الأخص مع الموارنة[2] في منطقة لبنان، إلى زمن قديم. خلال الحروب الصليبية وقف الموارنة إلى جانب المقاتلين

---

(1) قامت ببناء شبكة المياه في بيروت شركة إنجليزية.

(2) يعزو الموارنة اسمهم إلى راهب، أو زاهد، سوري اسمه مارون (راجع: تاريخ الموارنة لإسطفان الدويهي الإهدني الذي أصدره رشيد الخوري الشرتوني، بيروت، مطبعة اليسوعيين 1890م، ص10 وما بعدها وص17) عاش في القرن السابع الميلادي [410م]. والموارنة كاثوليكيون متحدون مع روما لكنهم يحافظون على طقوسهم الشرقية ويتمتعون ببعض الحريات الخاصة (انظر الصفحة 22 أعلاه)؛ وهم يعيشون في الوقت الحاضر بصورة رئيسية في لبنان وفي المقام الأول في قضاء كسروان والبترون والمتن والشوف وجزين. وهناك علاوة على ذلك جاليات مارونية قوية في حلب ودمشق وبيروت وبقية المدن الساحلية السورية حتى يافا، وفي قبرص ومصر. ويبلغ عددهم نحو 300,000 نسمة يعيش نحو 250,000 شخص منهم في منطقة لبنان. يرأس رجال الدين الموارنة بطريرك يقوم بتعيين الأساقفة والمطارنة وترسيمهم بينما يقوم هؤلاء أنفسهم بانتخابه ثم يتم تثبيته من قبل البابا. يقيم البطريرك في قنوبين وبكركي. وفي روما يقيم أسقف ماروني بشكل دائم. من المراجع القديمة عن الموارنة انظر: Voyage du Mont Liban, Traduit de L'Italien du R.P.Jerosme Dandini, Paris 1635.

«الفرنجيين» الذين استفادوا منهم أيضاً في مناسبات كثيرة أخرى. ومنذ ذلك الحين اعتاد الناس في سورية وفي شرقي المتوسط عموماً على إطلاق اسم «الفرنجة» على جميع الأوروبيين وأطلقوا على لغة الناس الذين لا يعرفون العربية أو التركية اسم «لينغوا فرانكا» (اللغة الإفرنجية).

في رسالة محفوظة في أرشيف البطرك الماروني[1] يقدم لويس التاسع شكره العميق للشعب الماروني لما قدمه له من قوات بلغ تعدادها 25000 رجل ومن هدايا نفيسة. ثم يضيف قائلاً: «إننا نرى أن الموارنة يشكلون جزءاً من الأمة الفرنسية وذلك لأن حبهم للفرنسيين يساوي الحب الذي يبديه الفرنسيون لبعضهم البعض. ولذلك فمن الحق والعدل أن تتمتعوا بحمايتنا بنفس الطريقة التي يتمتع بها الفرنسيون وأن يكون في وسعكم الحصول على نفس المناصب كالفرنسيين» والخ. . . .

ومما يشير إلى الأهمية الكبيرة التي كان الملوك الفرنسيون يولونها في القرون اللاحقة أيضاً للعلاقة مع الموارنة، وخاصة مع الموارنة المقيمين في لبنان، رسالة من الملك لويس الرابع عشر مؤرخة في عام 1649م يؤكد فيها للبطريرك الماروني وللأساقفة ورجال الدين ولجميع الموارنة، وخاصة موارنة لبنان، في الحاضر والمستقبل حماية السفير الفرنسي في القسطنطينية وجميع القناصل التابعين له[2].

في عام 1652م تم تعيين الشيخ أبو ناصيف، ابن أبو نادر، من عائلة الخازن الذي جمع ثروة كبيرة في خدمة فخر الدين، نائباً للقنصل الفرنسي في بيروت[3] ثم تلقى في عام 1657م رسالة مباشرة من الملك لويس الرابع عشر أشاد فيها بأعماله[4]. وفي عام 1659م رُفّعَ أبو نوفل الخازن وأبناؤه من بعده إلى طبقة النبلاء الفرنسيين بسبب ما أداه من خدمات «لتعزيز نفوذ الملك والعقيدة المقدسة

---

(1) الشرتوني، نفس المصدر السابق، ص111.
(2) الشرتوني، نفس المصدر السابق، ص220.
(3) الشرتوني، نفس المصدر السابق، ص229.
(4) الشرتوني، نفس المصدر السابق، ص230.

ولصالح الرعايا الفرنسيين»[1]. وكان الشيخ أبو نوفل قد أهدى اليسوعيين في عام 1652م دير مار يوسف في عينطورا ووفر بذلك الإمكانية لأول مرة للرهبان الأوروبيين لكي يستقروا في لبنان[2]. وقد تم فيما بعد تعيين أفراد آخرين من الأسرة نفسها في منصب الممثل القنصلي الفرنسي في بيروت[3]. وفي أوقات لاحقة تدخل السفير الفرنسي في القسطنطينية لدى السلطان مراراً وتكراراً لصالح المسيحيين السوريين وخاصة الموارنة.

عندما حاصر نابليون الأول سانت جان داكر. أرسل له موارنة لبنان الهدايا والمؤن، وعندما قصف الأسطول الإنجليزي والنمساوي بيروت وجونيه لكي يحرر هذين المرفأين من أيدي المصريين، الذين كانوا يعدّون من حلفاء فرنسا، ويعيدها إلى الأتراك، هدد البطريرك الماروني كل من يقدم الماء أو المؤن أو أي مساعدات أخرى للإنجليز بالطرد من الكنيسة. وفي النزاعات التي نشبت بين الدروز والموارنة بعد انسحاب المصريين وقف الفرنسيون على الدوام إلى جانب الموارنة. أدت هذه العلاقة ونتيجة لمجازر المسيحيين في دمشق عام 1860م إلى نزول قوات فرنسية إلى البر وإلى دعم فرنسا في وقت لاحق للمطالب التي رفعها الموارنة بمناسبة هذه الأحداث، بينما وقف الإنجليز إلى جانب الدروز[4].

وبالفعل فإن الموارنة، ومعهم كثير من المسيحيين السوريين، يعتبرون

---

(1) الشرتوني، نفس المصدر السابق، ص233.

(2) تعبيراً عن الشكر والامتنان كان المسيحيون السوريون المسافرون إلى أوروبا يزودون بكتب توصية من الرهبان. انظر: كورتنس، رحلة إلى البلاد المقدسة، هاله 1743م، ص465. انتقاد لما يسمى أمراء لبنان المسيحيون الذين ظهروا في القرنين السابع عشر والثامن عشر في أماكن مختلفة في أوروبا وكانوا في كثير من الأحيان لا ينتمون حتى ولا إلى العائلات المارونية المرموقة وكانوا يزعمون أنهم يعانون من ملاحقة الأتراك لهم وأنهم مضطرون نتيجة لذلك إلى المطالبة بمساعدة الدولة؛ انظر: نيبور، رحلة في البلاد العربية، أمستردام 1780م، الجزء الثاني، ص374 وما بعدها.

(3) الشرتوني نفس المصدر السابق، ص237، 255 ـ 258.

(4) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص123 وما بعدها.

الفرنسيين في الوقت الحاضر أيضاً كنوع من الحماة، ويحرص كثيرون منهم على التظاهر علناً في حبهم لفرنسا وعدم حبهم لتركيا. لم تزل فرنسا، التي ظلت حتى اليوم وفية لتقاليدها القديمة، تدعم في سورية بالدرجة الأولى الموارنة، الذين يشكلون في منطقة لبنان بشكل خاص القاعدة العريضة من السكان، على الرغم من أن العديد من الكاثوليك الشرقيين قد اكتسبوا في الآونة الأخيرة كثيراً من النفوذ والثروة.

يقف رجال الدين الموارنة، الذين لديهم أملاك واسعة ويتمتعون ببعض الامتيازات والحقوق الخاصة ويتولون كلياً قيادة «الأمة» المارونية منذ أن فقد أمراؤهم وشيوخهم كثيراً من الجاه والنفوذ نتيجة الصراعات الحزبية اللبنانية في القرون الأخيرة، بالإجماع ودون تردد إلى جانب فرنسا. وتشكل الزيارات التي يقوم بها القنصل الفرنسي للبطريرك الماروني حدثاً مهماً بالنسبة للموارنة يستقبلونه بكثير من الاحتفال والبهجة.

أما الجهود التي يبذلها الإنجليز والأمريكيون لنشر الدعاية للغة الإنجليزية عن طريق مدارسهم وبعثاتهم التبشيرية فلم تحقق حتى الآن سوى نجاحات ضئيلة.

في الآونة الأخيرة يحاول الروس أيضاً، الذين كانت لهم حتى الآن بعثات تبشيرية في فلسطين فقط، اكتساب بعض النفوذ في سورية وذلك عن طريق تقديم الدعم المالي لمدارس الأرثوذكس الشرقيين التي تُعلّم فيها اللغة الروسية أيضاً عندما يسمح لها بذلك. في دورات مختلفة للمعلمين يجري تدريب وتأهيل عدد كبير من الشباب، وخاصة من أبناء رجال الدين الأرثوذكس الشرقيين[1]، مجاناً. يجري تدريب هؤلاء المعلمين بمختلف الطرق، بما فيها التمارين العسكرية، على الطاعة المطلقة لرؤسائهم؛ وعندما ينتهي تدريبهم يرسلون في بادئ الأمر للتعليم في مدارس أكبر أو توكل إليهم على الفور مهمة تأسيس

---

(1) اللغة العربية هي اللغة الكنسية لدى مسيحيي سورية من الروم الأرثوذكس. أما اليونانيون الذين يعيشون في سورية ويحملون الجنسية اليونانية فعددهم ضئيل.

مدرسة جديدة في قريتهم وحتى لو لم يوجد في القرية سوى عائلة واحدة أو عائلتين أرثوذوكسيتين، ما لم تكن هناك مدرسة لطائفة مسيحية أخرى في نفس القرية. وتقوم بتغطية التكاليف شركة فلسطين الخاضعة لحماية الحكومة الروسية[1].

ومن النشاطات الألمانية السارة جداً يوجد في بيروت مدرسة ألمانية للبنات ودار للأيتام تتولى رعايتهما راهبات من كايزرسفرت، ومستشفى تابع لفرقة يوحنا البروسية. وتحظى هذه المؤسسات جميعها باحترام كبير لدى السكان. لا يوجد في سورية بمعناها الضيق سوى جالية ألمانية واحدة كبيرة نسبياً في بيروت، بينما يوجد كما هو معروف في القدس ويافا وحيفا مستوطنات زراعية كبيرة من جنوب ألمانيا يتألف أفرادها غالباً من ألمان من منطقة فورتمبرغ ومن أعضاء في «جمعية فرنسا المعبد». علاوة على ذلك يوجد محلات تجارية ألمانية في بيروت ودمشق وحلب لها علاقات واسعة تصل إلى شرقي آسيا الصغرى وبلاد الرافدين.

يحتل التعامل التجاري الأوروبي مع سورية منذ اليوم مكانة هامة عام 1895م/ 1896م تمَّ استيراد بضائع إلى بيروت وحدها بقيمة 35,257,750 فرنك فرنسي (في عام 1894م/ 1895م: 49,674,750 فرنك). وبلغت قيمة الصادرات من الحرير، الذي بلغ إنتاجه السنوي (1894م/ 1895م) نحو

(1) مما يلفت الانتباه أن رجال الدين الكاثوليك في سورية وفلسطين الخاضعين للحماية الفرنسية يرون في رجال الدين الأرثوذوكس الشرقيين أخطر خصومهم. فالمبدأ الذي كانت تتبعه فرنسا سابقاً، والذي يقضي بداهة بأن جميع المؤسسات الكاثوليكية في منطقة شرق المتوسط تقع تحت الحماية الفرنسية أو بطالبها بأن تضع نفسها تحت هذه الحماية، لم يعد معترفاً به. وهكذا نجد اليسوعيين والفرانسيسكان في مصر، وكذلك الكنيسة القبطية هناك المتحدة مع روما، تحت حماية النمسا ـ هنغاريا، وفوق المؤسسات الكاثوليكية الألمانية في فلسطين يرفرف العلم الألماني. خلال زيارة صاحب الجلالة القيصر الألماني إلى فلسطين وسورية في عام 1898م برز بشكل واضح حق ألمانيا في حماية الكاثوليك الذين يحملون الجنسية الألمانية والمؤسسات التابعة لهم في الأمبراطورية التركية.

466,000 كيلو غرام، 13,5 مليون فرنك فرنسي في عام 1895م. ومن مواد التصدير الأخرى: الحبوب والسمسم وزيت الزيتون والنبيذ وبذور المشمش وعجين المشمش والصوف والزفت[1].

من أجل مساعدة التجارة الألمانية على احتلال المكانة التي تستحقها في بلدان البحر المتوسط سيكون من المفيد جداً لو رست السفن الألمانية المتنقلة في البحر المتوسط في ميناء بيروت وربطت بذلك سورية مع ألمانيا بخط بحري مباشر. إذ إن فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا ومصر لها منذ عدة عقود خطوط بحرية مباشرة مع سورية. وسفنها ترسو هنا بنجاح ليس فقط في بيروت وإنما أيضاً في العديد من المدن الساحلية السورية والفلسطينية الأخرى[2].

---

(1) في عام 1895م استورد إلى بيروت من ألمانيا السلع التالية (قارن: الأرشيف التجاري 1896 الجزء الثاني ص557):

	(القيمة بآلاف الفرنكات)		(القيمة بآلاف الفرنكات)
أغطية (صوفية ونصف صوفية	100	أغطية رأس صوفية ونصف صوفية	250
صدريات صيد صوفية	50	أقمشة مغزولة	60
جوارب	250	أقمشة حريرية ونصف حريرية	100
تريكو وملابس نسائية	50	أقمشة صوفية (مارينو وكشمير وما شابه)	250
منسوجات قطنية وصوفية	40	قماش سميك للملابس الرجالية	20
شرطان حريرية	20	أقمشة مطرزة أو مقصبة	40
خيوط وأحزمة	15	مستلزمات الخياطة وتزيين الملابس	70
قفازات	5	أقمشة شرقية	250
مستلزمات النوفوته	250	خيوط للخياطة	50
غزول حمراء تركية	200	أدوات حديدية	200
إبر خياطة ومسلات	80	لوازم الخياطة والحياكة	150
لمبات وتوابعها	50	مواد صيدلانية وعقاقير	250
مواد تلوين وصباغة	70	جلود	300
خزف وأدوات زجاجية	50	مجوهرات وساعات وما شابه	100
أسلاك ذهبية وفضية	60	بيرة ومواد كحولية	50
عطور وصابون وما شابه	20		

(2) يعطي الجدول التالي فكرة عامة عن مشاركة البلدان المختلفة في حركة السفن في ميناء بيروت (قارن: الأرشيف التجارية الألماني 1894 الجزء الثاني، ص14، 1896م=

تتصل بيروت بدمشق بخط حديدي افتتح في أغسطس/ آب 1895م؛ سكة الحديد من النوع الضيق ويبلغ طولها 138 كيلو متراً. ويحتاج القطار لقطع هذه المسافة إلى تسع ساعات تقريباً. قامت ببناء السكة شركة الخطوط الحديدية لسورية والفرات، بيروت، دمشق، حوران، وامتدادها التي يرأسها الكونت إدمون دي برتوي الذي يعيش في بيروت. ويرأس البارون برتوي في الوقت نفسه مجلس

= الجزء الثاني، ص563):

البلد		عدد السفن البخارية	الحمولة (طن)	البلد		عدد السفن الشراعية	الحمولة (طن)
ألمانيا	1892م	1	1113				
بريطانيا	1892م	130	89744				
	1895م	149	117864				
مصر	1892م	102	92941				
	1895م	98	101684				
فرنسا	1892م	77	124598				
	1895م	97	157667				
اليونان	1892م	1	555	اليونان	1892م	50	13030
					1895م	40	12678
إيطاليا	1892م	14	8050	إيطاليا	1892م	19	5717
	1895م	16	10171		1895	4	836
النروج	1892م	4	4050				
	1895م	1	589				
النمسا - هنغاريا	1892م	96	101418				
	1895م	120	156538				
تركيا	1892م	90	82526	تركيا	1895م	1977	40072
	1895م	86	71397	تركيا	1892م	2485	43223
روسيا	1892م	45	60731				
	1895م	49	72168				
اسبانيا	1892م	6	4188				
اسبانيا	1895م	2	1870م				
السويد	1895م	8	4084	القدس	1895م	5	173
بلجيكا	1895م	1	5023	الجبل الأسود	1895م	1	360
المجموع	1892م	566	569914	المجموع	1895م	627	699055

إدارة شركة المرفأ والأرصفة والمستودعات في بيروت. وتشارك في ملكية شركة المرفأ وشركة الخطوط الحديدية نفس المجموعات المالية وهي: شركة خط بيروت ـ دمشق، وشركة كومبتوار ديسكومبت في باريس، والبنك العثماني وبنك باريس والأراضي المنخفضة.

بالإضافة إلى خط بيروت ـ دمشق يوجد في سورية الخطوط الحديدة التالية[1] الجاهزة أو الممنوحة امتيازات بنائها[2]:

1 ـ الشام ـ مزيريب.

2 ـ الشام ـ حلب ـ بيره جك.

3 ـ عكا ـ الشام.

4 ـ صيدا ـ بيروت ـ طرابلس[3].

كان امتياز بناء خط دمشق ـ مزيريب (سكة حديد حوران)، الذي يبلغ طوله 103 كلم، قد منح في بادئ الأمر لشركة بلجيكية، إلا أن شركة الخطوط الحديدية الفرنسية المذكورة أعلاه والتي تملك خط بيروت ـ دمشق أخذته منها فيما بعد. وقد باشرت سكة حديد حوران العمل منذ يناير/ كانون الثاني 1894م. وبما أن خط دمشق ـ بيروت لم يكن بناؤه مكتملاً عند بناء سكة حديد حوران، توجب نقل جميع معدات العمل من سكك وعربات والخ... بواسطة عربات شحن على الطريق البرية الفرنسية إلى دمشق.

---

(1) بخصوص شبكة الخطوط الحديدية في وسط سورية راجع: مارتين هارتمان في مجلة «جمعية فلسطين الألمانية»، العدد 17، ص56 وما بعدها، و ج. كوران: القاطرة في تركيا الآسيوية، بروكسل 1895م، ص28 ـ 30، ص100 وما بعدها.

(2) في العادة لا يمنح الباب العالي امتيازات المرافئ والسكك الحديدية والطرق للشركات المعنية مباشرة وإنما إلى مواطن تركي، غالباً إلى رجل مسيحي سوري غني، يقوم بدوره ببيعها لقاء مبالغ كبيرة للشركات المالية الأوروبية.

(3) الخط الحديدي بين يافا والقدس الذي يبلغ طوله 87 كيلومتراً قامت ببنائه شركة فرنسية وأنجزته قبل بضع سنوات. مرَّ المشروع فترة من الزمن في مصاعب مالية لكن الخط لم يزل في العمل.

أما الخط الحديدي الذي من المقرر أن يصل دمشق، عبر حمص وحماه، مع حلب وبيرجك على الفرات فلم يزل حتى الآن مجرد مشروع لم يدخل حيز التنفيذ. وقد منح امتياز بنائه لنفس الشركة التي بنت خط بيروت ـ دمشق ودمشق ـ مزيريب. سيبلغ طول الخط نحو 500 كيلومتر وسيتصل مع الخط الحديدي الألماني القسطنطينية قونية أو بالأحرى سكوتاري ـ قونية الذي من المقرر أن يصل إلى بغداد ويعدّ بالتالي أهم خط حديدي سوري[1].

وهناك شركة مساهمة فرنسية أخرى تأسست برأسمال قدره 1,750,000 فرنك تحت اسم «الشركة العثمانية للخط الحديدي اللبناني شمال وجنوب بيروت» لبناء سكة حديدية على امتداد الساحل تصل بين المدن الثلاث صيدا ـ بيروت ـ طرابلس. وقد وصل البناء، كما ذكرنا، إلى مرحلة متقدمة وسيكتمل خلال وقت قصير[2].

هناك خطة لبناء خط حديد حيفا ـ عكا ـ دمشق من قبل شركة بريطانية (شركة الخط الحديدي السوري العثماني، لندن) بهدف منافسة خط بيروت ـ دمشق ـ حوران. حسب المخططات التي منح بموجبها الامتياز سيبلغ طول الخط 230 كيلومتراً وسينطلق من حيفا إلى عكا ماراً في سهل جسريل (زرعين)[3] إلى الغور، وسيعبر نهر الأردن عند جسر المجامع ويصل بعد عبور اليرموك إلى الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، ثم يمر في وادي فيق صاعداً بعد ذلك إلى هضبة الجولان، ومتجهاً من هناك إلى دمشق عبر العال وخسفين والشيخ سعد ونوى وغباغب والكسوة. وسيمتد المقطع الأخير من الخط من الشيخ سعد إلى دمشق والبالغ طوله 80 كيلومتراً بموازاة الخط الفرنسي حوران ـ دمشق. إلا أنه لم يبن من الخط حتى الآن سوى 8 كيلومترات بدءاً من حيفا وهو سكة عادية (عريضة). ويبدو أن تنفيذ المشروع قد توقف تماماً. إذ يذكر أن المتعهد روبرت بيلّينغ لم

---

(1) انظر مجموعة التقارير التجارية القنصلية للعملاء البلجيكيين الأجانب، بروكسل 1894م، ص116.

(2) انظر الصفحة 19 و20 أعلاه.

(3) لم يعد السهل يسمى اليوم باسم بلدة زرعين وإنما يطلق عليه اسم مرج ابن عامر.

يتمكن حتى الآن من جمع الرأسمال اللازم لبناء الخط الذي استهلكت أعماله التحضيرية وحدها نحو 50,000 جنية استرليني. من الممكن أن يؤدي هذا الخط الحديدي الإنجليزي، في حال تنفيذه فعلاً، إلى تحويل جزء من حركة النقل المتوجهة إلى ميناء بيروت إلى ميناء حيفا، وبالتحديد جميع صادرات حوران من الحبوب التي سيكون طريقها بالقطار إلى حيفا أقصر جداً من طريقها إلى بيروت عبر دمشق.

إلّا أنه يعتقد بأن الخطوط الحديدية السورية إلى دمشق وحوران ستبقى غير رابحة طالما أنها بقيت خطوطاً محلية ولم تتصل بالمناطق الداخلية من آسيا الصغرى وبلاد الرافدين، وذلك لأن الحبوب، التي يمكن أن يعتمد عليها القطار، لم يزل نقلها على الجمال رخيصاً وسيبقى مفضلاً فترة طويلة من الزمن. فضلاً عن ذلك فإن السكان المحليين لن يتخلوا بسرعة عن عاداتهم القديمة المتمثلة بالنقل على الدواب. وفي كل الأحوال لم تزل أجور النقل بالقطار عالية والجهاز الإداري المسؤول عنه مكلف جداً إلى درجة أنه سيكون من الصعب تحقيق أرباح في الوقت الحاضر.

يعد الخط الحديدي الذي يصل بين بيروت ودمشق من الناحية الطبيعية من أجمل الخطوط في العالم. فمن المحطة الواقعة شرقي المدينة في مكان غير بعيد عن البحر تتجه السكة بعد وقت قصير نحو الجنوب متبعة نهر بيروت إلى السهل المحيط برأس بيروت، لكنها تبدأ قبل الوصول إلى محطة الحدث بالصعود في الجبل بمساعدة عجلات وسكة مسننة تستمر، باستثناء بعض الإنقطاعات، طيلة المقطع الذي يعبر لبنان من الغرب إلى الشرق. ويبلغ طول السكة المسننة ما مجموعه 35 كيلومتراً.

ويشاهد المسافر منظراً خلاباً عندما ينظر إلى الوراء فيرى البحر والمدينة والشريط الرملي الغريب الشكل الذي يطوقها وحقول الزيتون وغابات الصنوبر في السهل. وكلما صعد المرء إلى الأعلى ازداد المنظر روعة ورومانسية. ومع كل انعطاف للقطار تظهر مناظر جديدة. ويبدو أن الجبال تتألف من عدد لا حصر له

من الوديان والخنادق العميقة والصخور والتموجات الأرضية. ودوماً وأبداً تظهر أمام الناظر مجموعات من البيوت والقرى في أعماق الوديان أو على مصاطب متتالية حتى القمة وعلى ظهور السلاسل الجبلية. أما القمم الجبلية المنفردة فتوجد عليها أديرة يظنها الناظر قلاعاً محصنة. وبين حين وآخر يشاهد المرء بيتاً يشبه الحصن بارزاً في وسط القرية، أو واقعاً في مكان منفرد، يعود إلى شيخ درزي أو اقطاعي ماروني ثري. عن طريق بناء المصاطب يصبح استغلال كل شبر من الأرض للأغراض الزراعية ممكناً. أشجار التوت والزيتون تبعث في الطبيعة الحيوية والدفء وفي الصيف تهب رياح عليلة منعشة محملة بأريج يشرح الصدر والنفس منبعث من مختلف أنواع الأزهار والورود.

في منطقة عاليه المرتفعة عن سطح البحر 820 متراً توجد غالبية الفيلات الصيفية للسوريين الأغنياء والقناصلة الأوروبيين وتجار الساحل. وفي عين صوفر، التي كانت تتألف قبل بناء الخط الحديدي من مجموعة صغيرة من الفيلّات، على ارتفاع 1280 متراً، يوجد فندق فخم مبني على طراز الفنادق الأوروبية الكبيرة ويحتوي على كازينو وعلى جميع التوابع الأخرى، وقد تم افتتاحه عام 1897م. إلا أنه يسود الاعتقاد في سورية بأن هذا المشروع لن يحظى بمستقبل زاهر إلا إذا وفرت عائدات اللعب الأموال اللازمة لترفيه الطبقة السائدة. وكان أصحاب الفندق قد اعتمدوا في حساباتهم على زيارات البيروتيين الأغنياء والسوريين الأثرياء المقيمين في مصر، لكنهم نسوا أن هؤلاء يحبون قضاء الصيف في أوروبا؛ يضاف إلى ذلك أن القرى اللبنانية أصبح فيها الآن كثير من البيوت الحديثة التي بناها مهاجرون سوريون نجحوا في جمع ثروة في الغربة، ويقوم أصحابها بتأجيرها في أشهر الصيف. ويبلغ إيجار مثل هذه البيوت المغطاة بالقرميد الأحمر مما يجعلها تشبه البيوت الأوروبية، 30 ـ 50 جنيهاً استرلينياً للفصل بكامله. إلا أن هذه الفيلات تكون غالباً غير مفروشة. ولذلك يشاهد المرء في بداية الصيف كثيراً من الحمير المتوجهة على الطرق من بيروت باتجاه الجبال وعلى ظهورها ما يحتاجه السياح لإقامتهم المؤقتة من فرشات وكراسي وطاولات وغيرها.

تعدّ عين صوفر بحق من أجمل النقاط على طريق الخط الحديدي بكامله. فمن هنا يرى المرء منظراً رائعاً يطل على واد سحيق لم يزل يوجد في قراه الواقعة على الجانب الآخر من الطريق بيوت مبنية بالطريقة القديمة أسطحتها مسطحة ولها بوابات قوسية مبنية بحجارة قوية.

بعد عين صوفر مباشرة يتغير المنظر بصورة مفاجئة. فالمرء يقترب هنا من المعبر الجبلي، والصخور الشديدة الانحدار البارزة من بعيد في الجزء الشمالي الشرقي من جبل صنين المغطى بالثلج لم تعد مغطاة بتربة خصبة ولم يعد يوجد فيها نباتات. والفروق الحرارية واضحة تماماً حتى تجاه عين صوفر. يبلغ ارتفاع أعلى نقطة عند الكيلو متر 38,5 وارتفاع 1486متراً. وعلى مقربة من الممر الجبلي يتعين على المرء عبور بعض الأنفاق الصغيرة. وما أن يعبر المرء هذه النقطة حتى يطل على سهل البقاع الخصب والواسع الامتداد المنبسط بين جبال لبنان الغربية والشرقية والممتد حتى جبل حرمون المغطى بالثلج والواقع جنوب جبال لبنان الشرقية. عبر منعطفات كبيرة تنحدر السكة على السفح الشرقي لجبال لبنان باتجاه سهل البقاع. وحتى أسفل الجبل على مقربة من شتورا، كانت السكة تسير بمحاذاة الطريق القديمة المؤدية من بيروت إلى دمشق. وهنا تفارق السكة الطريق لتقطع سهل البقاع في الاتجاه الشرقي والشمالي الشرقي بينما يسير الطريق نحو الجنوب الشرقي.

بعد بضعة كيلو مترات من شتورا يصل المرء إلى المعلّقة (920 متراً فوق سطح البحر)، وهي المحطة العائدة لزحلة التي يشكل الموارنة أو المسيحيون عموماً جميع سكانها تقريباً لكنها أصبحت مشهورة بعد فشلها في الدفاع خلال أحداث عام 1860م. تتمتع زحلة، التي تحميها سلسلة جبال لبنان الغربية من الرياح البحرية الرطبة، بسمعة طيبة كمصيف تهب عليه رياح جافة منعشة؛ وقد نشأ بسرعة في هذه البلدة الناهضة العديد من الفنادق والمطاعم. في المعلّقة يغادر زوار بعلبك القطار. وهنا يقف القطار فترة طويلة متيحاً الفرصة للركاب لتناول طعام الفطور.

بعد اجتياز نهر الليطاني الجاري في البقاع وذي المياه الضعيفة يدخل القطار

عند قرية رياق الغنية بالبساتين (929 متراً فوق سطح البحر) في وادي يحفوفة ليبدأ بعد وقت قصير بالصعود في جبال لبنان الشرقية. وعند عبور هذه السلسلة الجبلية في اتجاه جنوبي تقريباً لا يستعان بسكة مسننة. يبلغ ارتفاع الممر 1405م ويقع عند الكيلو متر 89,5. ويبدو أسهل وأقل وحشة من الممر الواقع في جبال لبنان الغربية؛ لا توجد هنا حاجة كبيرة لبناء المصاطب للأغراض الزراعية، وهناك مساحات واسعة من الأراضي المزروعة بالحبوب.

على الجانب الآخر من الممر تسير السكة بموازاة وادي بردى حتى تصل إلى هدفها النهائي. عند الزبداني تبدأ حقول الأشجار التي يتميز بها وادي بردى والتي تمتد حتى دمشق وتزود العاصمة السورية بما تحتاجه من أخشاب لبناء بيوتها. بعد مسافة قصيرة من محطة الزبداني تسير السكة في الاتجاه الجنوبي الشرقي عند قرية سوق وادي بردى يشاهد المرء في سفوح الجبل العديد من فتحات المغائر القديمة. واعتباراً من هنا تصبح القرى الواقعة قرب السكة على السفح الشرقي لجبال لبنان الشرقية غير مبنية من الحجر فقط بل يجد المرء أيضاً كثيراً من البيوت المبنية من الخشب والطين. كما أن طبائع الناس أصبحت مختلفة أيضاً. ففي البقاع وحتى سوق وادي بردى يمر المرء في مناطق مسيحية بشكل عام ولا يجد إلا في أماكن متفرقة بعض المخيمات البدوية الصغيرة[1]، ولكن اعتباراً من هنا تصبح القرى الإسلامية هي الغالبة. وكلما اقترب المرء من دمشق تحل الحدائق المسيّجة محل الغابات الشجرية. عند الهامة تلتقي السكة مجدداً مع الطريق القديم وتعبره، واعتباراً من هنا تسير السكة بموازاة الطريق أمام الطواحين والبيوت الريفية والمقاهي، ودوماً على امتداد الوادي حتى دمشق.

بعد مسافة قريبة من بيروت يدخل خط القطار في منطقة قضاء جبل لبنان المستقل ويغادره عند زحلة ـ المعلّقة. تتخذ حكومة القضاء في فصل الشتاء من بلدة بعبدا، المحطة الثانية بعد بيروت (9,8 كلم)، مقراً لها. ويبدو المبنى

---

(1) يعيش في البقاع حالياً بعض الجماعات البدوية والتركمانية المضطرة إلى اتباع سلوك مسالم جداً. في عام 1898م حصلت بعض أجزاء قبيلة عنزة مقابل تعويض دفعته للفلاحين على حق الرعي في الأراضي المحصودة.

الحكومي الجديد في بعبدا المزود بأبراج عند أطرافه والواقع على سفح الجبل فخماً بشكل ظاهر.

كان المتصرف الحالي لمنطقة جبل لبنان نعوم باشا يسكن في الشتاء في بيروت. أما مكان العمل والسكن في الصيف فموجود في بيت الدين (تلفظ: بتدين) الواقعة إلى الجنوب من الخط الحديدي في وسط جبل لبنان. وأفضل نقطة للوصول بالقطار إلى بيت الدين هي محطة عاليه المتصلة مع بيت الدين بطريق عربات ممتازة. وتمر هذه الطريق قبل ذلك في عدد من القرى المزينة بكثير من الفيلات الفخمة للبيروتيين الأثرياء وهي: عاليه وبمكين وسوق الغرب وشملان ويشاهد المرء منها أجمل المناظر في سفوح جبل لبنان المزينة بالقرى والممتدة حتى البحر. ولكن عما قريب يختفي هذا المنظر لأن الطريق تنعطف نحو الداخل متجهة عبر منعطفات شديدة الانحدار إلى وادي نهر القاضي. هناك، حيث تعبر النهر، توجد قرية في غاية السحر والجمال تطل في منظر خلاب على العديد من القرى المحافظة على شكلها القديم والأديرة المبنية على المرتفعات المجاورة وعلى الجبال المجاورة للنهر والتي لم يزل يوجد فيها هنا بعض البقع الصغيرة المشجرة. عند جسر القاضي يوجد بعض طواحين الماء. وهناك العديد من المقاهي الموجودة في بيوت حجرية مزينة بالأقواس تدعو الزوار إلى استراحة ممتعة. يكتسب هذا المكان أهميته من التاريخ اللبناني القديم. فقد وقعت هنا معارك عديدة. في مواقع مختلفة تتقاطع الطريق مع بلاطات حجرية مصفوفة بشكل متدرج تغطي الطريق الضيق القديم الذي يفضله في الوقت الحاضر أيضاً أصحاب الحمير المحملة لأنه أقصر ولكنه شديد الانحدار. بعد أن يتسلق المرء الجانب الجبلي الآخر لنهر القاضي يصل عما قريب إلى دير القمر. ويستغرق السفر من عاليه إلى هناك خمس ساعات تقريباً. ولم يعد يفصل هذا المكان عن بيت الدين سوى واد ضيق سحيق، لكن هذا الوادي يجبر الطريق على رسم قوس كبير نحو الأعلى يحتاج قطعه إلى حوالي نصف ساعة أخرى. طريق العربات المباشرة والأكثر استعمالاً من بيت الدين إلى بيروت تتفرع عن هذه الطريق في نقطة قريبة من شملان وتمر في قرى في غاية السحر والجمال نذكر منها عين

عنوب التي ولد فيها الأمير مصطفى أرسلان[1]، أقوى رجل في الوقت الحاضر بين دروز جبل لبنان، والشويفات المقر الرئيسي القديم لآل أرسلان، مروراً في السهل حيث تصل قرب الحدث إلى آخر قرية قبل بيروت وعلى سفوح الجبل تبدأ هنا حقول الزيتون على مساحات واسعة تمتد حتى جنوب بيروت. كما أن الطريق من بيت الدين إلى بيروت ممتازة أيضاً. وبصورة عامة فإن حكومة لبنان تفعل الكثير من أجل الطرق وتحسينها. ويجد المرء كثيراً من المقاهي المتنقلة، التي يباع فيها الخبز والفواكه واللبن والعرق، على الطرق قرب ينابيع المياه وتحت الأشجار وعند مداخل القرى.

يستخدم في بيت الدين كسرايا (مقر الحكومة) القصر الذي بناه في بداية القرن (التاسع عشر) رجل لبنان القوي الأمير بشير شهاب[2]. يقع القصر على بروز في الوادي المذكور أعلاه الذي يفصل بيت الدين عن دير القمر. ولكي يصل المرء إلى داخل السرايا يتعين عليه أولاً عبور عدة بوابات وساحات.

تستخدم الساحة الأولى الواسعة جداً كساحة لتدريب جيش لبنان وتستخدم المباني المحيطة بها كثكنات لجزء من هذه القوات. عن طريق عدة أدراج يصل المرء بعدئذ عبر طريق جديد طويل، تتفرع منه طرق جانبية تؤدي إلى الغرف التي تعمل فيها الحكومة وإلى قاعات المحكمة والخ. . .، إلى ساحة كبيرة ثانية ويجد نفسه أمام بوابة فخمة مبنية على الطراز العربي ومزينة بالفسيفساء وشرفة فنية جميلة تزينان الواجهة الخارجية للمسكن الذي يقيم فيه المحافظ. ويحتوي هذا المسكن على قاعات وغرف فخمة وممرات مزينة بالأعمدة وعلى ساحة داخلية (ثالثة) خاصة به مزودة بنافورة ماء جميلة. وإلى جانب الشرفة المذكورة يبرز جزء من البناء في الباحة الوسطى مزين بالنوافذ. من هذا البروز كان الأمير بشير يعطي أوامره وكان في أحيان كثيرة يأمر بحركة يد (بتلويحة) واحدة بإبعاد مئات من المعارضين.

عبر ممرات جانبية مسقوفة يصل المرء من الساحة الثالثة إلى الحدائق الكبيرة

---

(1) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص186.

(2) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص166 وما بعدها.

المحيطة بالقصر وإلى حمّام لم يزل في حالة جيدة ولا مثيل له في الجمال والروعة. والحمام مبني بالرخام الملون وغيره من الأحجار الكريمة ومزين بأجمل أشكال الزخرفة العربية. وإلى جانبه حجرة مقبية شاهقة الارتفاع مزينة من الداخل بالفسيفساء والنقوش وفي وسطها نافورة يتسرب منها الماء محدثاً صوتاً ناعماً مريحاً. كانت هذه الحجرة مخصصة للاستراحة بعد الحمّام. ومن هنا كان هناك ممر تحت الأرض يصل إلى الكنيسة المارونية الواقعة على مقربة من القصر والتي كان الأمير بشير يستعملها عندما اعتنق المسيحية لأسباب سياسية لكنه بقي بالنسبة للعالم مسلماً. وعلى مسافة غير بعيدة من الحمام يوجد قبر الزوجة الأولى للأمير بشير وهو قبر مبني من المرمر الأبيض ومحاط بأشجار السرو. يولِّد القصر لدى الناظر، من الداخل والخارج، انطباعاً ساحراً؛ فيشعر المشاهد بأنه قد نقل عفوياً إلى عالم مضى. إذ إن زوجة الأمير الحالية المثقفة والمحبة للفن عرفت كيف توفر في القصر كل أسباب الراحة وتهيئ في الحديقة نقاطاً لإطلالات فاتنة دون أن يؤثر على الانطباع الرومانسي للمشهد بكامله[1].

يعيش حاكم لبنان عيشة أمير صغير في أوروبا. يوجد لديه حاشية مؤلفة من مسيحيين ودروز ومسلمين وقوة عسكرية خاصة به ويجمع في يده جميع السلطات والوزارات باستثناء القضاء الذي يشكل في نهاية المطاف الجهة ذات القرار القطعي.

على مقربة من قصر بيت الدين يشاهد المرء أربعة قصور أخرى بناها الأمير بشير شهاب لأبنائه. حُوّل أحد هذه القصور إلى ثكنة عسكرية، ويوجد الثاني بين الكنيسة المارونية والقصر الحكومي وقام رستم باشا بتحويله إلى سجن لقضاء جبل لبنان.

أما القصران الآخران فيقعان في موقع أعلى قليلاً من القصر الرئيسي في

---

(1) خلال زيارتي الثانية لبيت الدين قادماً من سورية في صيف 1897م قضيت عدة أيام في القصر في ضيافة نعوم باشا وزوجته ابنة حاكم لبنان السابق فرانكو كوسا باشا. وأنا أتذكر بسرور وامتنان تلك الإقامة الطيبة في قصر لبنان الساحر.

نفس الجهة من الوادي، وهما لا يزالان في حالة جيدة إلى حد ما ويظهران بما فيهما من شرفات مطلة ونوافذ قوسية وممرات مزودة بالأعمدة، مثل حصنين شاعريين إلى أبعد الحدود. وكلاهما يعودان للأسقف الماروني بطرس بستاني. يسكن في أحدهما هو نفسه ويقيم في الآخر خلال أشهر الصيف الأمير مصطفى أرسلان المذكور أعلاه الذي يشغل منصبقائمقام الشوف القضاء الوحيد في متصرفية[1] جبل لبنان الذي ما زال يتولى فيه درزي قيادة الإدارة.

إلا أن المقر الحكومي الرسمي لقضاء الشوف موجود في بعقلين على بعد ساعة تقريباً جنوب غرب بيت الدين حيث شُيّد للقائم مقام مبنى في غاية الفخامة. في بعقلين، وهي قرية غالبية سكانها من الدروز وفيها كثير من البيوت المبنية على الطراز القديم، يسكن أيضاً أحد زعيمي دروز جبل لبنان. أما الزعيم الآخر فيسكن في قرية جديدة الواقعة بين بيت الدين والمختارة المقر الأساسي لعائلة جنبلاط المنافس الحالي لعائلة أرسلان في لبنان. القصر الأصلي في المختارة الذي كان يعيش فيه في الستينات أبو رئيس العائلة الحالي وكان يعج بالناس والحياة أصبح مهجوراً اليوم، فالزعيم الحالي نسيب بك جنبلاط يسكن بشكل دائم في بيت كبير يملكه في بيروت؛ بينما لم تزل والدته، وهي سيدة مسنة تتمتع بحيوية غير عادية وتقف إلى جانب عائلة أرسلان، تسكن في المختارة في بيت كبير خاص بها بني حديثاً. ويعدّ وادي المختارة مع غاباته وقراه الكثيرة من أجمل المناطق في جبل لبنان.

قرية بيت الدين غير كبيرة. وهي تتألف حصراً من بيوت يسكنها الموظفون الحكوميون مع عائلاتهم، ومن بعض الفنادق والمطاعم الضعيفة المستوى، ومن عدد من المحلات التجارية التي يشتري منها اللبنانيون، الذين يأتون إلى بيت الدين لتسوية أمورهم الرسمية، حاجياتهم.

أما دير القمر فهي أكبر جداً من بيت الدين وهي اليوم قرية مسيحية بالكامل

---

(1) تستعمل اسم متصرفية بمعنىٰ محافظة ويقال متصرف أو محافظ وقد كان استعمال المتصرفية هو السائد حتى أواسط الخمسينيات من القرن الماضي حيث حلّ اسم محافظ بدل اسم متصرف (شبّر).

تقريباً ولكن يوجد فيها جامع صغير له مئذنة في غاية الجمال[1]. السراي في دير القمر والعديد من البيوت الأخرى قديمة جداً. وهي تعود إلى عهد آل معن الأسرة التي حكمت لبنان عدة قرون واشتهرت بشكل خاص بسبب الأمير فخر الدين. بنيت السراي في دير القمر في القرن الخامس عشر في عهد الأمير ملحم ابن الأمير حيدر معن، وقام ببناء المدرسة الحالية ابنه يوسف. أما البيت الذي يسكن فيه المدير الحالي لدير القمر الأمير خليل شهاب، ابن حفيد الأمير بشير شهاب، فقد ورثته عائلته عند انقراض آل معن[2]. وكان فخر الدين الذائع الصيت، وهو رجل ذو بنية صغيرة جداً، قد أقسم على أن يأخذ حجارة هذا البيت من قصر صهره والي عكار الذي كان قد شتمه وقد نفذ يمينه فعلاً. وكانت أخته قد كتبت له أن زوجها سخر من قامته القصيرة وزعم أن البيضة لو وقعت من يده على الأرض لما انكسرت.

أما بقية أحفاد بشير شهاب فمعظمهم في مراكز أقل أهمية. بعضهم يعمل اليوم كسائقي عربة خيول في بيروت. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التفاوت في المراكز بين أفراد العائلة الواحدة لا يقتصر على آل شهاب وحدهم بل تشاركهم فيه العائلات المسيحية السورية القديمة القليلة التي لم تزل مرموقة حتى اليوم. أما الثروات التي جمعها غالبية التجار السوريين الحاليين فلا يزيد عمرها على عدة عقود.

تختلف الظروف القانونية ونظام الحكم في ما يسمى منطقة الحكم الذاتي في لبنان في بعض النواحي عنها في المناطق التركية الأخرى. وقد تكرر في الآونة الأخيرة الحديث عن تطبيق نفس القواعد أو قواعد إدارية مشابهة على مناطق كردستان التي تعيش فيها أعداد كبيرة من المسيحيين الأرمن. وقد جاء الوضع الحالي لقضاء جبل لبنان كنتيجة للمجازر ضد المسيحيين في عام 1860م وهو يستند إلى «التسوية التنظيمية للبنان» تاريخ 9 يونيو/ حزيران 1861 التي أُقرت وفُسّرت بموجب البروتوكول الموقّع في نفس التاريخ من ممثلي تركيا وبريطانيا

---

(1) هذا هو الجامع الوحيد في جبل لبنان؛ ويعتقد بأن آل معن هم الذين بنوه.

(2) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص168.

وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا ووضعت موضع التنفيذ بموجب الفرمان السلطاني الصادر بتاريخ 20 يونيو/ حزيران 1861م. ثم أجريت بعض التعديلات على التسوية بموجب البروتوكول تاريخ 6 يونيو/ حزيران 1864م وتم تأكيدها فيما بعد بموجب البروتوكولات الموقعة في 27 يوليو/ تموز 1868م و22 أبريل/ نيسان 1873 و8 مايو/ أيار 1883م و15 أغسطس/ آب 1892م كل مرة بمناسبة تعيين محافظ جديد. ومنذ عام 1868م كانت هذه البروتوكولات توقع من ممثل إيطاليا أيضاً. بعض الأحكام الواردة في الوثيقة، والتي تبين على صعيد الواقع أنها غير قابلة للتطبيق، أهملت ضمنياً دون اعتراض القوى الحامية[1].

(1) نشر النص التركي لـ«التسوية التنظيمية» إلى جانب الترجمة العربية في بيروت وفي أماكن أخرى. والنص الفرنسي موجود في «التشريع العثماني» لـ - أريسترخي بك (الجزء الثاني، ص204 وما بعدها)، ثم لدى ريشارد إدوار، سورية 1840 - 1862م، باريس 1862، ص376 وما بعدها، ولدى لوي دو بوديكور، فرنسا في لبنان، باريس 1874م، ص254 وما بعدها. انظر أيضاً التسوية الخاصة بلبنان لدى مارتنس «المجموعة الجديدة العامة» 18، ص227 وما بعدها ولدى هولاند: التفاهم الأوروبي في قضية الشرق، أكسفورد 1885م، ص212 وما بعدها. جميع الوثائق المتعلقة بأحداث لبنان عام 1860م موجودة بالكامل في: Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, VII (Paris, 1884) بخصوص التسوية الموقعة في يونيو/ حزيران 1861م مع عدد كبير من الوثائق الدبلوماسية المكملة انظر هناك ص336 - 404، وللاطلاع على البروتوكول تاريخ 6 يونيو/ حزيران 1864م المتضمن تعديلات التسوية انظر الصفحة 405 وما بعدها.

النظام الإداري في متصرفية جبل لبنان

أولاً: الإدارة الحكومية

يتم تعيين حاكم جبل لبنان (المتصرف) من قبل السلطان بعد الحصول على موافقة القوى الست الحامية للبنان وهي: ألمانيا، والنمسا ـ هنغاريا ، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وروسيا، وذلك لمدة عدة سنوات، يتبع المتصرف للباب العالي مباشرة ويحمل، على الرغم من أن قضاء جبل لبنان ليس ولاية وإنما فقط متصرفية، مرتبة وزير وبالتالي لقب باشا. لم تحدد التسوية مدة حكمه بل يتم الاتفاق عليها كل مرة عند تعيين متصرف جديد بين الباب العالي والقوى العظمى الست المذكورة. وقد تم تعيين أول متصرف للبنان، داؤود باشا، وهو كاثوليكي أرمني (1861م ـ 1868م) لمدة ثلاث سنوات في بادئ الأمر ثم أعطي بعد انتهاء هذه الفترة خمس سنوات أخرى. لكن فترة حكمه لم تدم سوى سبع سنوات لأنه عيّن في مطلع عام 1868م وزيراً للأشغال العامة. أما خليفته فرانكو باشا (1868م ـ 1873م)، وهو ملكي (كاثوليكي شرقي) من عائلة بيت الكوسا الحلبية، فقد عيّن لمدة عشر سنوات لكنه توفي في 11 فبراير/ شباط 1873م. وأما المتصرف الثالث رستم باشا (1873م حتى 1883م) فقد بقي في المنصب طيلة المدة التي حددت له عند تعيينه. كان رستم باشا[1] إيطالي المولد (البارون مارياني) ولذلك حال الفرنسيون دون انتخابه لدورة ثانية. وكان المتصرف الرابع،

(1) انظر الصفحة 15 أعلاه

وصا [واصي] باشا، ألبانياً اشتهر بنشاطه الأدبي وعين لمدة عشر سنوات لكنه توفي عام 1892م. وكان خليفته المتصرف الحالي نعوم باشا، صهر فرانكو باشا، ملكياً مثله ينحدر من عائلة حلبية وكان في السابق مديراً في وزارة الخارجية في القسطنطينية. حددت فترة حكمه في بادئ الأمر بخمس سنوات ثم مددت خمس سنوات أخرى.

يجب أن يكون المتصرف مسيحياً، لكن التسوية لا تحدد أي تفاصيل أخرى عن مذهبه. كان متصرفو لبنان حتى الآن كاثوليكيين جميعاً، ونعتقد أنه سيبقى في المستقبل أيضاً كاثوليكياً مراعاة للموارنة الذين يشكلون غالبية سكان جبل لبنان. يبلغ راتب المتصرف 20,000 قرش = 3,700 مارك تقريباً كل شهر، ويحصل إضافة إلى ذلك على 4,000 قرش شهرياً تعويض تمثيل. قبل ثلاثة أشهر من انتهاء مدته يجب إبلاغ ممثلي القوى الحامية بهدف الحصول على الموافقة اللازمة على تعيين الشخص الذي سيخلفه. وليس هناك أي اتفاق على ما ينبغي القيام به في حال عدم التوصل إلى اتفاق بشأن الخلف في الوقت المناسب، الأمر الذي حدث مرتين. في المرة الأولى ترك الباب العالي المتصرف السابق، رستم باشا، في المنصب مؤقتاً حتى وصول المتصرف الجديد وصا باشا؛ وفي المرة الثانية، عند وفاة وصا باشا 1892م، أوكل الباب العالي السلطة إلى المجلس الأعلى.

يجمع المتصرف في يده جميع السلطات التنفيذية، يرعى النظام العام ويجبي الضرائب، ويعيّن، استناداً إلى التفويض الممنوح له من قبل السلطان عند توليه منصبه، الموظفين الحكوميين والقضاة ويتولى تنفيذ الأحكام القضائية ويرأس المجلس الإداري المركزي الذي يساعده في تنفيذ مهامه (والمسمى «مجلس الإدارة»). تتمتع هذه الهيئة الدائمة (مجلس الإدارة) بصلاحية تحديد الضرائب وتوزيعها ومراقبة القضايا المالية وإبداء الرأي في المسائل المعروضة عليها. يتألف مجلس الإدارة من 12 عضواً ينتخبهم شيوخ قرى الأقضية السبعة التي تتألف منها متصرفية جبل لبنان. ولا يجوز انتخاب إلا الأشخاص المقيمين في دائرتهم الانتخابية.

ينتخب قضاء كسروان مارونياً واحداً ومتوالياً [شيعياً] واحداً.

ينتخب قضاء البترون مارونياً واحداً.

ينتخب قضاء جزين مارونياً واحداً ودرزياً واحداً.

ينتخب قضاء المتن مارونياً واحداً وأرثوذوكسياً شرقياً واحداً ودرزياً واحداً.

ينتخب قضاء الشوف درزياً واحداً ومسلماً واحداً.

ينتخب قضاء الكورة أرثوذوكسياً شرقياً واحداً.

ينتخب قضاء زحلة ملكياً واحداً (من الأرثوذوكس المتحدين).

يتألف مجلس الإدارة إذن من أربعة موارنة وثلاثة دروز واثنين من الأرثوذوكس الشرقيين وواحد من الروم الأرثوذوكس ومسلم واحد ومتوالي واحد. يُجدد ثلث أعضاء مجلس الإدارة كل سنتين؛ ويجوز إعادة انتخاب الأشخاص الخارجين من المجلس.

كانت «التسوية التنظيمية» تريد في الأصل تقسيم المتصرفية، تبعاً للتقسيم القائم حتى الآن إلى لبنان الشمالي ولبنان الجنوبي، إلى مديريتين؛ وبدلاً من ذلك تم تقسيم منطقة لبنان، كما ذكرنا، إلى سبعة أقضية يقف على رأس كل قضاءقائمقام يعينه المتصرف. ويجب أن يكون القائم مقام من الطائفة السائدة في القضاء سواء من حيث عدد أبنائها أو من حيث الملكيات العائدة لها. بناء على هذه القاعدة يكونقائمقامو أقضية كسروان والمتن والبترون وجزين مارونيين دوماً، بينما يكونقائمقام الشوف درزياً دوماً ويكونقائمقام قضاء الكورة من الأرثوذوكس الشرقيين.

يتألف كل قضاء من الأقضية السبعة من عدة نواحي (ناحية) ويرأس كل ناحية رجل يسمى مدير الناحية. يتم تعيين مدراء النواحي من قبل المتصرف أيضاً بناء على اقتراح القائم مقامية. يقف على رأس كل قرية شيخ ينتخبه أهالي القرية ويثبته المتصرف. جميع السكان متساوون أمام القانون؛ وقد تم إلغاء جميع الامتيازات الاقطاعية.

عن التقسيم الإداري للبنان إلى أقضية ونواح توجد خارطة رسمها عبد الله

تومه في عام 1897م («خريطة سورية المركزية» بمقياس 1: 100,000) تعطي الصورة التالية المعروضة هنا بالتسلسل الجغرافي من الشمال إلى الجنوب[1]:

مقر المتصرف: بيت الدين (في الصيف) وبعبدا (في الشتاء).

آ ـ قضاء الكورة، المركز الرئيسي أميون[2] ويتألف من:

1 ـ ناحية الكورة الشمالية أو الكورة التحتا، مركزها: كفر قاهل[3].

2 ـ ناحية الكورة الوسطى، لا يوجد مركز[4].

3 ـ ناحية الكورة[5]، المركز: أميون.

4 ـ ناحية القويطع، لا يوجد مركز[6].

ب ـ قضاء البترون، المركز الرئيسي: البترون، ويتألف من:

1 ـ ناحية الزاوية، المركز: كفر ياشيث[7].

2 ـ ناحية إهدن، المركز: إهدن.

3 ـ ناحية بشرّي، المركز: بشرّي.

---

(1) بالإضافة إلى خريطة تومه تم في العرض اللاحق مراعاة المواد والمعلومات القديمة التالية: 1 ـ قائمة بأسماء القرى مستخرجة من السجلات الرسمية عام 1880م بناء على أمر من رستم باشا (سنشير إليها لاحقاً بكلمة رستم)، وهي لا تذكر المراكز الرئيسية للأقضية: 2 ـ عرض عام للمناطق الإدارية إعداد السيد غ. د. سرسق عام 1890م (سنشير إليها لاحقاً بكلمة سرسق؛ كلا القائمتين موجودتان عند البروفسور هارتمان)؛ 3 ـ عرض قدمه لي عام 1894 قنصلنا في بيروت الدكتور شرودر (سنشير إليه لاحقاً بكلمة شرودر). ولقد أشرنا في الملاحظات الهامشية إلى الاختلافات الجوهرية بين هذه المصادر الثلاثة وخريطة تومه.

(2) عند سرسق: «كفر عَزْجِسْ [كفر حريز]، قبل أميون».

(3) عند سرسق وشرودر: «بكفتين».

(4) عند سرسق: «كوسبا»؛ عند شرودر: «كسبا»

(5) عند رستم: «ناحية أميون»؛ غير موجودة عند سرسق وشرودر.

(6) عند سرسق: «حامات»؛ عند شرودر: «كفتون».

(7) عند سرسق: «رشعين»؛ عند شرودر: «عَزْجِسْ».

4 ـ ناحية حصرون، المركز: حصرون.

5 ـ ناحية قنات، المركز: قنات.

6 ـ ناحية تنّورين[1]، المركز: تنورين التحتا[2].

7 ـ ناحية البترون[3]، المركز: البترون.

8 ـ ناحية الهرمل، المركز: الهرمل.

حـ ـ قضاء كسروان، المركز الرئيسي: غزير (في الصيف) وجونيه (في الشتاء)[4]، ويتألف من:

1 ـ ناحية جبيل، المركز: جبيل[5].

2 ـ ناحية جبيل العليا، لا يوجد مركز[6].

3 ـ ناحية المنيطرة، لا يوجد مركز[7].

4 ـ ناحية الفتوح، المركز: القطّين[8].

5 ـ ناحية غزير[9]، المركز: غزير.

6 ـ ناحية جونيه[10]، المركز: جونيه.

---

(1) عند رستم: «ناحية البترون العليا».
(2) عند سرسق وشرودر: «تنورين».
(3) غير موجودة عند سرسق وشرودر.
(4) عند شرودر: «غزير» [حريز].
(5) عند رستم: «جبيل السفلى».
(6) عند سرسق: «إهمج»؛ عند شرودر: «عاقورة».
(7) عند سرسق: «لازا» [لاسا]؛ عند شرودر: «المنيطرة».
(8) عند سرسق: «كفور» [الكفور]؛ عند شرودر: تبرجة [طبرجا]
(9) غير موجودة عند سرسق وشرودر.
(10) غير موجودة عند رستم، ولكن لعلها متطابقة عنده مع «ناحية صربا» غير الموجودة في أي مصدر في المصادر الأخرى.

7 ـ ناحية الذوق[1]، المركز: ذوق ميخائيل[2].

8 ـ ناحية غسطا، المركز: غسطا.

9 ـ ناحية جرد كسروان[3]، المركز: بقعتوتا (في الصيف) وريفون (في الشتاء)[4].

10 ـ مأمورية شمسطار[5]، المركز شمسطار.

د ـ قضاء المتن، المركز الرئيسي: بحنّس[6]، ويتألف من:

1 ـ ناحية القاطع، المركز: بكفيا وبيت شباب[7].

2 ـ ناحية الشوير، المركز: الشوير.

3 ـ ناحية بسكنتا، المركز: بسكنتا.

4 ـ ناحية المتن[8]، المركز: بحنّس.

5 ـ ناحية المتن الأعلى، المركز: الشبانية[9].

6 ـ ناحية الساحل، المركز: الحدث[10].

هـ ـ قضاء زحلة: قضاء يتألف من مدينة زحلة وحدها.

و ـ قضاء الشوف، المركز الرئيسي: بعقلين (صيفاً)[11] وعين أيوب (شتاء)[12]، ويتألف من:

---

(1) غير موجودة عند شرودر.

(2) عند سرسق: «سوق».

(3) عند رستم: «الجرود».

(4) عند سرسق: «بقعتوتا»؛ عند شرودر: «كفر ضبيان» [كفر ذبيان].

(5) غير موجودة بهذا المركز في أي من المصادر الأخرى.

(6) عند سرسق وشرودر: «برمّانه» (صيفاً) و«جديدة» (شتاء).

(7) عند سرسق وشرودر: «بكفيا».

(8) عند رستم: «ناحية المتن الشمالي»؛ غير موجودة عند سرسق وشرودر.

(9) عند شرودر: «رأس المتن».

(10) عند سرسق: «سبنه» سبنيه؛ عند شرودر: «بعبدا».

(11) عند تومه يوجد «قصبة بعقلين».

(12) عند شرودر: «بعقلين».

1 ـ ناحية الغرب الأقصى، المركز: الشويفات.

2 ـ ناحية الغرب الشمالي[1]، المركز: قماطية[2].

3 ـ ناحية الغرب الأعلى[3]، المركز: عاليه، وعيتات[4].

4 ـ ناحية الجرد الجنوبي[5]، المركز: عين تراز[6].

5 ـ ناحية الجرد الشمالي[7]، المركز: بتاتر.

6 ـ ناحية العرقوب الشمالي، المركز: مجدل معوش[8].

7 ـ ناحية العرقوب الأعلى[9]، المركز: عين زحلتا.

8 ـ ناحية العرقوب الجنوبي، المركز: بريح[10].

9 ـ ناحية الشحار، المركز: عَبَيْ.

10 ـ ناحية المناصف، المركز: كفرحيم[11].

11 ـ ناحية إقليم الخرّوب[12]، المركز: برجا[13].

---

(1) عند رستم: «ناحية الغرب الأعلى جهة النصارى»، أي الجهة المسيحية.
(2) عند سرسق وشرودر: «سوق الغرب».
(3) عند رستم: «ناحية الغرب الأعلى جهة الدروز».
(4) عند سرسق وشرودر: «عاليه».
(5) عند رستم: «ناحية جرد النصارى»
(6) عند سرسق وشرودر: «بحمدون»
(7) عند رستم: «ناحية جرد الدروز»
(8) عند سرسق: «شويت»؛ عند شرودر: «عين داره» أو «مجدل معوش».
(9) عند رستم: «ناحية العرقوب الفوقاني»
(10) عند سرسق وشرودر: «الباروك».
(11) عند سرسق: «كفر فاقود»، غير موجودة عند شرودر.
(12) عند رستم: «ناحية إقليم الخرنوب».
(13) عند سرسق وشرودر: «مزبود»؛ يشير شرودر إلى أن مدير هذه الناحية ينتخبه المسلمون.

12 ـ ناحية الشوفين[1]، المركز: المختارة.

ز ـ قضاء جزين، المركز الرئيسي: جزين، ويتألف من:

1 ـ ناحية إقليم التفاح، المركز: الصالحية.

2 ـ ناحية جزين[2]، المركز: جزين.

3 ـ ناحية جبل الريحان، المركز: الريحان[3].

وتشكل قصبة دير القمر[4] منطقة خاصة لا تتبع لأي قضاء على الرغم من أنها موجودة ضمن قضاء الشوف وتدار من قبل متصرف جبل لبنان مباشرة[5].

ثانياً: النظام القضائي

نصت المادة السادسة من التسوية على وجود ثلاث محاكم درجة أولى، وهذا عدد تبين أنه غير كاف مع التزايد السكاني الكبير. يوجد الآن في منطقة لبنان ثمان محاكم درجة أولى، تتألف كل منها من ثلاثة أعضاء، محكمة واحدة في كل قضاء والثامنة في دير القمر.

وقد أمر رستم باشا بتقسيم المحكمة العليا (مجلس القضاء الأعلى) الموجودة في مقر الحكومة، والتي كانت تتألف من غرفة واحدة تضم ستة قضاة ورئيساً، إلى غرفتين: غرفة مختصة بالقضايا المدنية («دائرة الحقوق») وغرفة مختصة بالقضايا الجزائية («دائرة الجزاء»).

تضم كل غرفة من هاتين الغرفتين الآن رئيساً وستة قضاة يقوم المتصرف

---

(1) رستم يقسم هذه الناحية إلى ناحيتين: 1 ـ ناحية الشوف الحيطي، 2 ـ ناحية الشوف السويجاني.

(2) عند رستم: «ناحية إقليم جزين»؛ غير موجودة عند سرسق وشرودر.

(3) عند سرسق: «زغرين»؛ عند شرودر: «عرمته» [عرمتى].

(4) عند شرودر: «مديرية دير القمر». المديرية تعني الناحية.

(5) في الآونة الأخيرة نشأت حركة بين الموارنة، الذين يحاولون دوماً تعزيز مكانتهم ونفوذهم تجاه الدروز، تسعى إلى فصل نواحي قضاء الشوف المارونية بكاملها تقريباً عن هذا القضاء الدرزي.

بتعيينهم بحيث تكون جميع الطوائف ممثلة قدر الإمكان في المحكمة. والمحكمة العليا هي في الوقت نفسه محكمة استئناف (ديوان الاستئناف) تجاه الأحكام الصادرة عن محاكم الدرجة الأولى. وهي أيضاً الوحيدة المخولة بإصدار الأحكام النهائية على الجرائم. ومن الممكن الطعن بأحكام المحكمة العليا أمام محكمة التمييز في القسطنطينية. يتولى الفصل في المنازعات المدنية التي تقل عن 200 قرش بين أبناء نفس الطائفة شيوخ الطائفة بصفة قضاة صلح. كما يتولى هؤلاء القضاة الصلحيين النظر في القضايا الجزائية الخفيفة التي تنظر فيها أيضاً محاكم الدرجة الأولى. وقد تم التخلي ضمنياً عن قيام المحكمة نفسها بتعيين محامي دفاع لمن ليس له محام على اعتبار أن هذا الإجراء وسيلة غير مجدية. جلسات المحاكم علنية.

تتولى النظر في القضايا التجارية محكمة التجارة التركية («محكمة التجارة») في بيروت، فهي مسؤولة عن منطقة جبل لبنان أيضاً. وتشمل صلاحيات هذه المحكمة أيضاً جميع المنازعات المدنية بين اللبنانيين والرعايا الأجانب (المادة التاسعة) ما لم تسوّ عن طريق التحكيم.

ثالثاً: الشؤون المالية

لا يجوز أن تزيد ضرائب جبل لبنان حسب التسوية (المادة 15) على 3500 صرة تتألف كل منها من 500 قرش أي ما يعادل 17,500 ليرة تركية.

لم تستعمل الحكومة حتى الآن الصلاحية الممنوحة لها بموجب المادة 15 بمضاعفة حجم الضرائب. وهذا ملفت للانتباه بشكل خاص لأن المستوى المعيشي للقضاء قد تحسن جداً. إلا أن الكنيسة المارونية، التي تملك نصف جميع الملكيات في منطقة جبل لبنان تقريباً، عرفت، بمساعدة حاميتها فرنسا، كيف تفشل حتى الآن كل محاولة لزيادة الضرائب.

رابعاً: الجيش

من أجل المحافظة على الأمن العام توجد قوة من الميليشيا يتم تجنيدها في القضاء نفسه يقودها عقيد مسيحي وتتألف في الوقت الحاضر من كتيبتين وفصيلة

صغيرة من الخيالة. أما العناصر فهم غالباً من الموارنة والدروز[1]. إضافة إلى ذلك يوجد في مقر المتصرف فصيلة من الخيالة الأتراك تتبع لفرقة الخيالة الموجودة في بيروت. لم يزل جيش لبنان يرتدي البدلة العسكرية التركية القديمة المؤلفة من بنطال واسع مغلق تحت الركبة ومن جاكيت تصل إلى حزام البنطال. تكون جواكي المشاة زرقاء غامقة مخططة بالأحمر، وجواكي الخيالة حمراء مخططة بالأزرق. ويتم الالتحاق بالجيش عن طريق التطوع؛ ولا يجوز استخدام الجنود اللبنانيين خارج منطقة لبنان، إلا أن المتصرف يستطيع عند الحاجة تجنيد قوات تركية أخرى أيضاً في سورية. في البداية كان من المقرر أن تشكل قوة شرطة قوامها سبعة رجال لكل ألف من سكان جبل لبنان. إلا أن القوة الحالية للشرطة لا تزيد على 1000 رجل. ويعود السبب في كون العدد منخفضاً، مع العلم بأنه يكفي تماماً لأداء المهمة الأمنية في أقضية لبنان، إلى أن الحكومة لا تريد، تبعاً لعدد سكان لبنان[2]، تجنيد عدد من الدروز يزيد على عدد المسيحيين. على الرغم من الهجرة القوية للدروز إلى حوران فإن عدد الدروز الراغبين في الالتحاق بالخدمة العسكرية يزيد كثيراً على عدد المسيحيين. ولا شك في أن هجرة المسيحيين اللبنانيين التي تحدثنا عنها أعلاه تلعب دوراً في هذا الوضع.

لا يحق لجنود الجيش التركي الدخول إلى منطقة لبنان، إلا أنه يحق لهم السفر على الطريق أو على سكة الحديد اللتين تصلان بين دمشق وبيروت.

* * *

(1) في المناطق الأخرى من تركيا لا يجند المسيحيون في الخدمة العسكرية. أما فرقة الخيالة التي تم تشكيلها في حلب ودمشق وبيروت في منتصف القرن الحالي بقيادة مهاجرين بولونيين وهنغاريين، وكانت تتألف بصورة رئيسية من مسيحيين سوريين - لبنانيين واستمرت بضعة أعوام، فلم تعد موجودة اليوم. في عام 1897م رأيت رجلاً هنغارياً يقود فصيلة الخيالة التركية في بيت الدين كان قد جاء إلى تركيا وهو طفل مع أبيه الذي كان أحد هؤلاء المهاجرين واسمه شايكوفيتس.

(2) من بين سكان جبل لبنان، البالغ عددهم 400,000 شخص تقريباً، هناك حوالي 320,000 مسيحي وحوالي 50,000 درزي. بعض المصادر الدرزية المتفرقة ترفع عدد الدروز إلى حوالي 80,000 (انظر أيضاً بهذا الخصوص الفصل الرابع من هذا الكتاب ص123).

في المرحلة التي سأتناولها في الصفحات التالية نزلت في ربيع عام 1893م في بيروت.

كانت إقامتي هناك مريحة جداً. في البيت المضياف لقنصلنا العام الدكتور شرودر قضيت ساعات ممتعة وغنية بالمعلومات. وهنا أيضاً التقيت بأميرة زنجبار العربية من عائلة برغش أرملة التاجر الألماني الهامبورغي روته[1]، والتي كانت قد استقرت في بيروت مع ابنتيها قبل بضعة أعوام. لقيت خطط رحلتي القبول والتشجيع الكبير لدى الدكتور شرودر. علاوة على ذلك فقد تعرفت في صالونات متصرف لبنان نعوم باشا على رجل كان له أهمية بالغة بالنسبة لرحلتي. تعرفت هناك على أمير درزي اسمه الأمير محمد، ابن الأمير مصطفى أرسلان المذكور سابقاً، وهو شاب يعرف ألطف العادات الأوروبية ومريح إلى أبعد الحدود، يرتدي سنامبولينا تركية وطربوشاً أحمر ويتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة، وهذا إشارة عند الدروز إلى رجل عصري متطور. أخذني الأمير محمد إلى بيت أبيه الذي أعطاني توصية إلى عائلة الأطرش، العائلة الدرزية القوية في حوران، والتي كانت مفيدة جداً لي في الجزء الأول من رحلتي.

في عام 1893م كان نقل الركاب بين بيروت ودمشق لم يزل يتم بواسطة عربة خيول كبيرة تقطع المسافة البالغة 116 كيلو متراً خلال 12 ساعة. وكان امتياز فتح الطريق قد أعطي في عام 1857م ثم انتهت من تنفيذه عام 1861م «شركة طريق بيروت دمشق» المذكورة أعلاه. إلا أن السكان المحليين كانوا يستعملون كثيراً الدرب القديمة الموازية في بعض المقاطع للطريق الجديدة وذلك لكي يتفادوا دفع الرسوم. وكانت كل يوم تنطلق عربتان من بيروت إلى دمشق وعربتان بالعكس، وذلك في الساعة الخامسة صباحاً وفي الساعة السادسة مساء. وكانت العربات مجهزة بنفس الطريقة التي لم نزل نجدها اليوم في عربات الخيول في الجزائر وجنوب فرنسا. وكان المكان الموجود في الأعلى فوق العربجي أفضل الأمكنة. وكانت تجر العربة ثلاثة بغال وثلاثة خيول أما عربات الليل فكانت

---

(1) بخصوص قصة حياتها الهامة والشيقة انظر: مذكرات أميرة عربية، برلين 1886م.

أصغر وتجرها أربعة خيول فقط. ومن أجل المحافظة على الحيوانات وعدم إلحاق الأذى بها كانت العربة تسير بسرعة بطيئة نسبياً.

استعملت العربة النهارية حتى شتورا حيث تركت الطريق العام بيروت - دمشق وتوجهت إلى بعلبك لمشاهدة هيكل باخوس، أو معبد الشمس الرائع. وسافرت إلى هناك على طريق شقتها الحكومة التركية في عربة صغيرة يجرها حصانان. وكانت الطريق المصروف عليها مبالغ أقل من الطريق الفرنسية سيئة أيضاً تبعاً لذلك.

عند خروجي من شتورا كانت تمتد على يساري على سفوح جبل لبنان وعلى مدى عدة ساعات كروم العنب التي يملك جزءاً منها الفرنسيون. أحد المالكين الكبار لكروم العنب هنا هو البعثة التبشيرية اليسوعية، التي لها قرب شتورا أهم فرع هو فرع كسارا. ويتمتع ما يسمى نبيذ شتورا، وخاصة الأحمر، بطعم ممتاز. وهو يشبه النبيذ الجزائري ويمكن تصنيفه في الوسط بين البوردو البسيط والبورغوندر الخفيف. يبلغ سعر الليتر الواحد حوالي نصف فرنك، أما في الجبال فلا يكلف سوى 25 سنتيماً. ويقدر سعر التكلفة بحوالي 15 سنتيماً. يتم عصر وتحضير النبيذ السوري بالطريقة الأوروبية. ولقد أخذت معي خلال رحلتي عدة زجاجات من هذا النبيذ ظلت عدة أشهر حتى النهاية في حالة ممتازة على الرغم من الحرارة العالية ومن تعرضها المستمر للمخض الشديد.

يوجد في الوقت الحاضر اهتمام واسع بزراعة العنب في سورية، وهي زراعة لها مستقبل جيد وخاصة عندما تنخفض أجور النقل وعندما يعتمد السوريون الطريقة الأوروبية في معالجة النبيذ. والخمر السوري قابل للتصدير منذ الآن. وهو يصدر حالياً إلى البلدان المجاورة وخاصة إلى مصر. تمتد كروم العنب الفرنسية من شتورا حتى المعلقة وزحلة.

بعد أن غادرنا المعلقة امتدت بنا الطريق 15 كيلو متراً تقريباً عند أقدام جبل لبنان لكي تنحدر بعد ذلك إلى خان منعزل في البقاع. وكان نهر الليطاني الذي ينبع من منطقة قريبة من بعلبك، والذي تعبره الطريق على جسر حجري، جافاً تماماً في هذا الوقت من السنة.

من بعيد أطلت علينا بعلبك بنباتاتها الكثيفة وأشجارها العالية وخاصة بالأعمدة العملاقة الستة العائدة لمعبد الشمس. وقبل ربع ساعة من وصولنا إلى المدينة مررنا قرب بناء غريب الشكل واقع على مسافة قريبة من الطريق: ثمانية أعمدة رخامية منخفضة ترتكز عليها عتبة جسرية كانت توجد فوقها في الماضي قبة سقطت نتيجة هزة أرضية ولم يزل اسمها الحالي «قبة دورس» يذكرنا بشكلها السابق. وعلى أرجح الظن كان المبنى ضريحاً عربياً مبنياً من حجارة مأخوذة من مبان من العصر القديم.

في بعلبك وجدت مكاناً جيداً للإقامة في فندق يديره رجل يوناني. وعلى الرغم من الاقتراب من فصل الشتاء وجدت هناك بعض السيدات الإنجليزيات وكان يوجد خارج المدينة مخيم كبير للمسافرين فيه كل مستلزمات الطبخ والخدمة والمترجمين.

أصبحت بعلبك[1] اليوم، التي كانت حتى عام 1860م قرية غير هامة غالبية سكانها من المسلمين، بلدة مهمة يسكنها نحو 1500 نسمة معظمهم من المسيحيين ومقراً لقائم مقام تركي تابع لولاية دمشق. وهنا يسكن أيضاً بعض المتاولة الذين لهم عدة قرى في مواقع غير بعيدة عن بعلبك على السفح الشرقي لجبال لبنان الغربية وفي البقاع وفي جبال لبنان الشرقية.

المناخ في بعلبك لطيف جداً والهواء جاف على الرغم من الغنى بالماء بسبب الموقع المرتفع. لكن مكانتها كمصيف تراجعت قليلاً بسبب ازدهار المصيفين اللبنانيين زحلة وعاليه. غير أن ما يجذب الغرباء والزوار إليها هو آثارها الضخمة المتبقية من المعابد القديمة. لكي يصل المرء إلى هذه المعابد يتعين عليه

(1) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، الفصل 17، ص212 وما بعدها وص229 وما بعدها والمراجع الأقدم المذكورة هناك. في عام 1890م نشر ميشيل م. ألوف، وهو مسيحي لبناني من بعلبك، كتيباً في بيروت بعنوان: «تاريخ بعلبك». نقل الكتيب إلى اللغة الألمانية أوتلي فون كوبريتسكي (براغ 1896م). قارن بهذا الخصوص النقد المنشور في مجلة الآثار «ريفو آرشيولوجيك»، باريس 1898م (تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس)، ص150.

الصعود عبر قبو قوسي طويل وضخم. يدفع الزائر مجيدياً واحداً رسم دخول. تتألف مجموعة الآثار بصورة رئيسية من معبد كبير ومعبد أصغر، وهي تترك في النفس، بسبب الكتلة الهائلة لموادها وبسبب عظمة تنفيذها، انطباعاً مبهراً يزداد عظمة وروعة بسبب المناظر الساحرة المحيطة بها. ومن المباني التي بقيت سليمة أكثر من غيرها المعبد الصغير المسمى معبد جوبيتر الذي بقي منه الجدران الخارجية وأجزاء من أعمدة الواجهة والمدخل وكذلك السقف. وللأسف الشديد تم تشويه الجدران الداخلية بالكتابات الكثيرة التي دوَّنها عليها سياح من مختلف بلدان العالم. وتبدو الأجزاء السفلى من الجدران الأساسية ذات بنية مختلفة تماماً عن بقية المبنى. على الأحجار السفلية توجد أحجار مستطيلة الشكل ذات أبعاد هائلة (طول الحجر نحو 20 متراً وارتفاعه 4 أمتار وسماكته 4 أمتار)، لا يوجد مثيل لها حتى ولا في مصر أو في أي مكان آخر على وجه الأرض. وعلى هذه الأحجار الضخمة، التي أعطت معبد جوبيتر في العهد الروماني اسم «تريليتون»، تصطف طبقات الأحجار الأصغر المنحوته[1]. المعبد الأكبر، الذي بقي منه أقل من الآخر، له باتجاه الشرق باحتان مكشوفتان ضخمتان. ولم تزل أسوار الباحة الداخلية الأكبر قائمة حتى الآن وهي تحتوي على تجويفات جدراية مزينة بزخارف جميلة. وقد بقي من هذا المعبد ستة أعمدة كبيرة يبلغ طولها 19 متراً وقطرها متران. ويلاحظ المرء على التماثيل الإغريقية الرومانية الأثرية بعض التأثر بفن الزخرفة الشرقية؛ الأشكال والنقوش فخمة بشكل غير عادي ولكن دون أن تبدو مبالغاً فيها[2]. ولو أجريت حفريات مخططة بشكل جيد لحققت بالتأكيد نجاحات قيّمة. فقبل العهد الروماني كانت بعلبك مركزاً لحضارة من الدرجة الأولى.

---

(1) يوجد في مقلع إلى الجنوب من بعلبك حجر ضخم جداً يشبه الحجارة الموجودة في معبد جوبيتر لم يستعمل أبداً كحجر بناء وسيبقى بالتأكيد إلى الأبد في مكانه الحالي لأن وزنه يصل إلى 1500 طن.

(2) انظر وود، آثار بعلبك، أوهيليو بوليس في داخل سورية، لندن 1777م؛ وأيضاً لورتيه: سورية اليوم، ص216 وما بعدها. وهناك وصف فني للمعبدين في مؤلفات فراوبرغر الرائعة: آكروبوليس بعلبك، فرانكفورت 1892م.

يشير الاسم بعلبك[1] إلى عصر قبل العهد الروماني، إلى حضارة الشمس القديمة، وكان الاسم الإغريقي للمدينة هليوبوليس. ذلك أن بعلبك لم تكن فقط معبداً قديماً جداً لإله الشمس بعل وإنما في الوقت نفسه مدينة إغريقية جبارة بنيت على أساساتها المعابد التي نبدي إعجابنا اليوم بما تبقى منها من آثار.

قام ببناء المعبد الصغير أنطونيوس بيوس. أما المعبد الكبير فلم يعرف بعد من الذي بناه. كان على الأرجح مقرراً لأن يصبح معبداً لجميع الآلهة (بانتيون) لكن بناءه لم يكتمل أبداً. كانت بعلبك أحد المراكز الرئيسية للثقافة الأفروديتية السورية القديمة، وعندما دخلت المسيحية إلى سورية بقيت بعلبك فترة طويلة من الزمن مركزاً للأفكار الوثنية ضمن دائرة واسعة محيطة بها. وقد سعى القيصر قسطنطين إلى القضاء على الحفلات الماجنة المرتبطة بالثقافة الأفروديتية وحوّل المعبد الصغير إلى كنيسة. لكن الوثنية لم تكن قد قضي عليها بعد، وفي عهد يوليانوس أبوستاتا ازدهرت من جديد في بعلبك بالذات التي كانت قد أصبحت منذ فترة من الزمن مقراً لأسقف مسيحي. ومن أجل القضاء كلياً على كل ما يذكّر الناس بالعبادات الوثنية حاول تيودوسيوس، ولكن عبثاً، هدم المعبدين.

في العهد الإسلامي حوّل العرب المباني إلى حصن. وتم لهذا الغرض بناء أسوار كبيرة في الجنوب الغربي، وتم بناء تحصينات جديدة إلى الشرق من معبد جوبيتر لم تزل باقية حتى اليوم. وفي المعارك الحربية التي دارت بعد ذلك

---

(1) بعلبك تعني حرفياً «إله الشمس في الوادي»، أي وادي البقاع الحالي في سورية الداخلية القديمة. عثر رايشارت (مجلة فيينا للنوميسماتيك 2، 13) على قطعة نقدية معدنية كلمة «شمش» (شمس) كاسم لبعلبك. أما في الكتابات الهيروغليفية والنصوص المسمارية فلا وجود لمثل هذا الاسم. يعتقد فينكلر (نشرة جمعية الشرق الأدنى، 1896م، ص206 ـ 207) أن الاسم القديم للمدينة هو دونيب (تونيب) الذي يرد كثيراً في الكتابات المصرية وفي رسائل تل العمارنة وقد حدث حتى الآن كثير من الخلط خطأ بينه وبين تينيب الواقعة قرب تل إرفد (انظر أيضاً المعلومات الواردة عند ريتر، نفس المصدر السابق، ص229 ـ 233). يوجد في متحف برلين رأس من الحجر الكلسي الأصفر مشغول بشكل غير دقيق عثر عليه في بعلبك يمثل إله الشمس ويعود في كل الأحوال إلى ما قبل العهد الروماني.

تعرضت الآثار دون شك إلى كثير من الأضرار. لكن ما ألحق بها أكبر الضرر هو قبل كل شيء التعديلات العمرانية الكثيرة التي غيرت شكلها والهزات الأرضية العديدة التي أصابت سورية[1]. كما أن معارك الحروب الصليبية دارت أيضاً حول بعلبك. وفي عام 1260م دمر المغول بقيادة هولاكو مدينة بعلبك. أما تيمورلنك فيبدو أنه لم يلحق بها أي ضرر.

يرد ذكر المدينة دوماً في كتب المؤلفين في العصر القديم العربي، لدى الإصطخري، وابن حوقل، والإدريسي، والعزيز [بالله الفاطمي]، وأبو الفدا. وأصبحت بعلبك مقراً لأمراء عائلة حرفوش المنتمين إلى طائفة المتاولة [الشيعة] والذين كانوا يرتبطون بعلاقة تبعية مع الباب العالي ولعب منهم موسى بن حرفوش، في عهد أمير لبنان فخر الدين المعني، دوراً معيناً في سورية[2]. وحتى بداية هذا القرن كانت بعلبك لم تزل مقراً لآل حرفوش الذين كان السياح والمسافرون يزورون المدينة وآثارها تحت حمايتهم. وأسفر احتلال مصر لسورية في الثلاثينات عن نشوء ظروف جديدة بالنسبة لبعلبك أيضاً وإلى هذه الفترة تعود الثكنة المحصنة الكبيرة التي تعسكر فيها اليوم كتيبة الدرك التركي. في الوقت الحاضر يوجد في بعلبك مقر قيادة الكتيبة 66 الرديفة التابعة للفرقة 17 الرديفة (دمشق).

للأسف لم أستطع زيارة الآثار الرائعة إلا مرة واحدة. ذلك أني قضيت مساء اليوم الذي كنت قد خصصته للزيارة في سهرة ممتعة جداً في بيت حبيب باشا مطران، وهو مسيحي سوري غني جداً له حظوة كبيرة عند السلطان وهو واحد من المسيحيين القلائل الذين حصلوا على لقب باشا دون أن يكونوا موظفين في الدولة. كان حبيب باشا مطران الشخص الأول الذي حصل على امتياز الخط الحديدي دمشق ـ بيرجك ومرفأ بيروت بالإضافة إلى العديد من المشاريع الكبيرة الأخرى في سورية. وبالذات يوم وجودي في بيته كانت تقام حفلة كبيرة بمناسبة

---

(1) انظر دينز: لبنان، فيينا 1886م، ص255 وما بعدها.

(2) انظر: فوستفلد، فخر الدين الأمير الدرزي ومعاصروه، غوتنغن 1886م، ص104.

منحه امتياز الخط الحديدي المذكور شارك فيها جميع أهالي بعلبك.

عدت إلى شتورا في صباح اليوم التالي. وهناك وجدت العربة النهارية القادمة من بيروت والتي تابعت معها رحلتي إلى دمشق.

في البداية يتجه الطريق من شتورا نحو الشرق بخط مائل عبر سهل البقاع ثم يصعد في شعب جبلي موحش وقاحل على السفح الغربي لجبال لبنان الشرقية. لا يوجد في المقطع الذي يمر فيه الطريق أي أثر للنبات. هناك في الأعلى على ظهر الهضبة يوجد مبنى المحطة وحيداً ومعزولاً وإلى جانبه الخان. وبعد اجتياز ظهر الجبل تسير الطريق في عدد لا حصر له من المنعطفات متبعة المجاري المائية الشتوية حتى تصل أخيراً إلى وادي بردى. وفجأة ينتقل المرء من الصخور الرمادية الباهتة إلى الوادي الأخضر اليانع في مشهد مؤثر إلى أبعد الحدود. على جانبي الجدول، ولكن فقط إلى المسافة التي يصل إليها تأثير الماء، توجد أشجار وارفة الظل وحشد من النباتات الكثيفة، وبعدها مباشرة تبدأ على الفور منطقة الصخور القاحلة.

بعد دقائق قليلة من دخولنا إلى المنطقة الخضراء وصلنا إلى الهامة آخر محطة قبل دمشق. بعد ذلك تلوى الطريق متبعاً انعطافات النهر وعلى امتداد السفوح الصخرية القاسية حتى يصل إلى قرية دمر المشهورة بمقاهيها الواقعة على حافة النهر المسترسل والمزودة بشرفات عريضة وأكشاك واسعة والتي تشكل مكاناً للنزهة محبوباً جداً لدى الدمشقيين. بعد ذلك بقليل ينفتح الوادي وتتراجع الصخور على كلا الجانبين إلى الوراء ويمر الطريق أمام فيلات وحدائق جميلة متجهاً إلى دمشق.

الفصل الثاني

دمشق والانطلاق في الرحلة

موقع المدينة. ـ تاريخ دمشق. ـ الآثار القديمة. ـ البيوت وشكلها من الداخل. ـ النفوذ الأوروبي. ـ الأسواق والخانات. ـ دمشق كنقطة تجمع لقوافل الحج. ـ النشاط الحرفي. ـ التجارة. ـ الحدائق. ـ عدد السكان. ـ المسيحيون والمسلمون. ـ مستعمرة أوروبية. ـ اللباس والحياة العامة. ـ الكلب المتوحش. ـ أماكن الراحة والاستجمام. ـ مواد التمتع في الشرق. ـ الشيخ سيد الكيلاني. ـ فرق صوفية في تركيا العربية. ـ الإدارة والجيش. ـ المناطق المحيطة. ـ تنظيم قافلتي. ـ المرافقون. ـ مسألة الماء. ـ تجهيزات ولوازم أخرى. ـ الانطلاق. ـ بالقطار إلى الشيخ مسكين. ـ أخبار غير مواتية. ـ الوصول إلى المخيم.

* * *

من الممكن وصف دمشق اليوم بأنها مدينة سياحية[1] من الطراز الأول. فهي

---

(1) انظر كتب الأدلة السياحية المختلفة وخاصة الوصف الرائع الذي يقدمه البروفسور سوكين في الدليل السياحي بيديكر: فلسطين وسورية؛ وأيضاً: لورتيه، سورية اليوم؛ رحلة في فينيقيا ولبنان... 1875م ـ 1880م، باريس 1884م، ص567 وما بعدها؛ الدكتور ي. ف. فتسشتاين، السوق في دمشق، في مجلة جمعية الشرق الألمانية، لايبزغ 1857م الجزء 11، العدد 3، ص475 وما بعدها؛جي. ل. بورتر، خمسة أعوام في دمشق، لندن 1855م، الجزء الأول، ص24 وما بعدها؛ فون كريمر، طوبوغرافيا دمشق، فيينا 1854 (النشرات التذكارية للطبقة الفلسفية التاريخية لأكاديمية العلوم في فيينا، الجزء الخامس)وبقية المراجع القديمة عند ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء الثامن، القسم الثاني، ص1332 وما بعدها.

تحمل طابعاً شرقياً واضحاً أكثر من بيروت وغير بعيدة كما هو الحال مع المدن الإسلامية الكبيرة الثانية الأخرى مثل بغداد وفاس. تحيط بالمدينة المحصورة بين جبال لبنان الشرقية والصحراء «حديقة الجنة»، الغوطة، التي تستمد خصوبتها العالية من نهر بردى القصير المجرى الذي ينبع من الجبال القريبة من المدينة ويتفرع قبل الوصول إليها إلى سبعة أنهار تعبر المدينة وتحيط بها، ثم يختفي في بحيرة العتيبة شبه المستنقعية إلى الشرق من دمشق.

من المفهوم تماماً أن العرب الذين يصلون إلى دمشق من جهة الشرق أو الجنوب بعد أسابيع ولربما أشهر من السير في الصحاري والبوادي يصفونها بأنها لؤلؤة أو قطعة من الجنة أو جوهرة ثمينة. لكن المدينة تبدو في أبهى صورها من جبل قاسيون الأجرد الذي يشمخ شمال غرب المدينة مباشرة إلى ارتفاع 500 متر. من هنا تبدو المدينة في الصيف ببيوتها المتلألئة وإكليل الحدائق الخضراء العريضة المحيطة بها وكأنها جزيرة فردوسية في وسط الصحراء. أما الجبال البركانية التي تغلق الأفق فهي بعيدة جداً، وقرى السهل الأخرى مع بساتينها غير مهمة بما يكفي لزعزعة هذا الانطباع، وإن كان في الحقيقة المحيط البعيد لدمشق خصباً جداً ويشبه في فصل آخر من فصول السنة سجادة خضراء مزروعة بالنباتات والزهور من مختلف الأنواع والأشكال.

دمشق هي أقدم مدينة على وجه الأرض لم تزل مأهولة حتى اليوم. يرد أقدم ذكر لها في رسائل تل العمارنة[1]: «أيها الرب، كما تمد دمشق (تيمــغي) في بلاد أوبه (أي حوبه، إلى الشمال من دمشق، موسى 14، 15) يدها إلى قدميك، تمد قطنا أيضاً يدها إلى قدميك»[2]. عندما احتل الآشوريون بلاد ما بين النهرين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حاول قدشمان ـ خربه ملك بابل فتح طريق مباشر عبر البادية إلى الغرب، أي إلى فينيقيا وموانئ البحر المتوسط لأن الطريق عبر حران لم تكن مفتوحة أمامه. قضى على السوتي، سكان البادية العربية السورية آنذاك وبنى الحصون وحفر الآبار.

---

(1) انظر فينكلر في «مكتبة الكتابة المسمارية»، الجزء الخامس، ص139، 63.
(2) إضافة إلى ذلك يرد ذكر تل عمارنة 142، 21 في مكان آخر مشوه.

يبدو أن الأمر يتعلق بطريق إلى تدمر ودمشق[1]. يعتقد بأن دمشق كانت في ذلك الزمن القديم عاصمة لإحدى الدويلات الصغيرة الكثيرة التي كان الشرق الأدنى مؤلفاً منها آنذاك. في عام 730 قبل الميلاد خضعت دمشق والمناطق المحيطة بها للدولة العسكرية الآشورية الجبارة ومنذئذ لم تلعب أي دور مستقل في مرحلة ما قبل المسيحية، الأمر الذي يستخلص من أنها لم تذكر إلا نادراً في القرون اللاحقة. خلال فترات الحكم الآشوري والبابلي والفارسي، وأيضاً خلال حكم الإسكندر الكبير، كانت على الأرجح، كما هي في الوقت الحاضر عاصمة إقليمية. وعندما تفكك الشرق مرة أخرى بعد موت الإسكندر، مثلما حدث قبل نصف قرن من ذلك التاريخ، وتشكل عدد من الدويلات الصغيرة دخلت دمشق مجدداً إلى التاريخ. وبعد فترة من الصراعات بين خلفاء الإسكندر والأمراء المحليين خضعت سورية ومعها دمشق في عام 64 قبل الميلاد للوصاية الرومانية. لكن سورية لم تعتبر على الفور مقاطعة رومانية وإنما تركت للحكام العرب التابعين لروما، وهم الملوك الأنباط المقيمين في بترا، بينما تركت فلسطين لدولة تابعة ثانية هي دولة هيرودس اليهودية. وفي عهد الأمبراطور تريان أصبحت الدولتان منطقة رومانية. تحت الحكم الروماني أيضاً يبدو أن دمشق لم تكتسب في بادئ الأمر أهمية كبيرة. إذ إن مركز السلطة الرومانية، على الصعيد السياسي كما على الصعيد العسكري، كان قد أصبح في بوسترا (بصرى)[2]، وفي وقت لاحق، في أواخر أيام الحكم الروماني وخاصة في الحقبة البيزنطية، استعادت دمشق، إلى جانب انطاكية، دورها كعاصمة لسورية.

شهدت دمشق أزهى مراحلها مع نشوء آخر أمبراطورية عالمية شرقية وهي الأمبراطورية العربية الإسلامية. كانت الدولة التي شكلتها القبائل العربية المتحمسة، خلال عقود قليلة، على أنقاض الأمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، بحاجة إلى مركز. وكانت المدينتان اللتان انطلقت منهما هذه الحركة، وهما مكة والمدينة، غير مناسبتين بسبب موقعهما المتطرف. قام الخليفة معاوية باختيار

(1) انظر فينكلر، أبحاث شرقية قديمة، ص147.
(2) أنظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص219.

دمشق عاصمة للأمبراطورية العالمية الجديدة وظلت كذلك حتى سقوط الحكم الأموي في عام 750 بعد الميلاد[1]. ولكن في عام 871 انتزع أحمد بن طولون، مؤسس أول مملكة في مصر، دمشق من الخلافة العباسية التي كانت قد نقلت مركز الخلافة إلى بغداد. صحيح أن الخليفة العباسي القوي المكتفي تمكن من استعادة المدينة في فترة القلاقل القرمطية (في عام 903) ولكن بعد 30 عاماً انفصلت نهائياً عن المملكة العباسية وبقيت بعد ذلك مع الجزء الأكبر من سورية خاضعة لحكم الدولتين المصريتين الإخشيدية والفاطمية. قبل عقود قليلة من بدء الحملات الصليبية في أوروبا إلى الشرق كان قد حدث في وسط آسيا أيضاً نوع من هجرة الشعوب، وهي هجرة الأتراك باتجاه الغرب التي راحت ضحيتها الأمبراطورية الإسلامية بكاملها حتى مصر. احتلت دمشق عام 1076م من السلجوقيين[2]وظلت فترة من الزمن عاصمة لإحدى الدويلات التي تشكلت في سورية تحت حكم السادة الجدد أيضاً. في فترة الحروب الصليبية وتشابكاتها نجت المدينة من الغزو المسيحي وإن كان الفرانكيون قد تمكنوا مراراً من التقدم حتى أسوارها. في عام 1126م حقق الملك بلدوين ملك القدس انتصاراً كبيراً في مرج الصفر، السهل المشهور الواقع إلى الجنوب من دمشق. في عام 543هـ (1148م) حاول القيصر كونراد الثالث شن هجوم كان في الواقع فاشلاً لكنه أسفر عن أن السلاجقة رأوا أنه من الأفضل لهم أن يشتروا السلام بدفع ضريبة لملك القدس. إلا أن الفرانكيين (الفرنجة) دخلوا مرة إلى دمشق ولكن ليس كمنتصرين وإنما كحلفاء لآخر أمير سلجوقي[3] ضد العدو المشترك نور الدين الزنكي الذي احتل المدينة رغم ذلك عام 1154م. شهدت المدينة في عهد نور الدين، الذي يعد واحداً من أعظم أمراء الإسلام، ازدهاراً جديداً ولكن لفترة قصيرة فقط. أما صلاح الدين الذي كان وكيله وقائد جيشه ولا يقل عنه عظمة، والذي أصبح

---

(1) بخصوص الحياة في دمشق خلال هذه الفترة الذهبية انظر فون كريمر، تاريخ الحضارة الشرقية، الجزء الأول، الفصل 4، ص114 ـ 158.

(2) انظر فون كريمر، وسط سورية ودمشق، فيينا 1853م، ص42.

(3) انظر فون كريمر، نفس المصدر السابق، ص55.

مؤسس الدولة الأيوبية، فقد اتخذ من دمشق، إلى جانب القاهرة، مقراً له لكن الحروب المتواصلة مع الصليبيين، والتي هددت عام 1177م المدينة مرة أخرى، لم تترك له ما يكفي من الوقت لكي يعمل على ازدهارها. وفي عام 1253م سقط خلفاؤه الضعفاء على يد من يسمون سلاطين المماليك المصريين[1]. وبعد سبعة

(1) أطلق اسم «مملوك» (عبد، طائع) على الجنود المرتزقة البيض الذين استخدمهم الفاطميون في أواخر عهدهم، ثم الأيوبيون من بعدهم، بأعداد كبيرة أو اشتروهم أيضاً. وكانوا يجندونهم بشكل خاص من الأتراك وفيما بعد من الشركس والقبائل القوقازية الأخرى. كان الأمراء المذكورون يعتمدون في حكمهم بصورة رئيسية على هؤلاء الجنود المرتزقة. أطلق اسم مملوك أيضاً على أبناء وأحفاد هؤلاء الأجانب الذين استقروا في مصر ثم ظل الاسم ملتصقاً بهم عندما أصبحوا سادة البلاد. وفي القرون اللاحقة فقد الاسم «مملوك» معناه الأصلي السلبي. في عام 651هـ (1253م) تمكن أحد قادة هذه القوات المرتزقة من إسقاط الأسرة الأيوبية الحاكمة وتنصيب نفسه على عرش مصر الذي بقي حتى نهاية القرن الرابع عشر في يد المماليك الأتراك. ونظراً لنشوء عدة دويلات تركية مستقلة في آسيا الصغرى تراجع النزوح التركي إلى مصر وجاءت إليها بدلاً من الأتراك أعداد كبيرة من الشراكس والجيورجيين وغير ذلك من العبيد القوقازيين، وفي وقت لاحق كثير من البلغاريين والبشناق (البوسنيين) والألبانيين. اعتباراً من عام 1382م صار، بصورة رئيسة، المماليك الشركس هم الذين يحكمون مصر (انظر ستانلي لين بول، الممالك الإسلامية، لندن، 1894م، ص80 ـ 83).
إلا إنه لا يمكن الحديث عن أسرة حاكمة مملوكية حقيقية. فقط قلاوون الجبار، الذي انتزع في عام 1279م الحكم، خلفه من بعده أبناؤه وأحفاده دون انقطاع حتى عام 1382م. وفيما عدا ذلك كان في كل مرة قائد المماليك، الذي يضمن ولاء القوات المرتزقة، يسقط حاكم البلد الذي كان قد استولى على العرش بالطريقة ذاتها. على الرغم من ذلك تعتبر حقبة السلاطين المملوكيين من بعض النواحي مرحلة الازدهار الخارجي بالنسبة لمصر. فقد استطاعوا بفضل صفاتهم الحربية مقاومة الهجمات الصليبية وصد التتر الذين كانوا قد دمروا الشرق الأدنى بأسره. وشهدت القاهرة في ذلك العصر بالذات نشوء أفخم مبانيها. كما ازدهرت الفنون والعلوم ازدهاراً كبيراً. ظلت العادات والتقاليد، وأيضاً لغة الدولة، في العهد المملوكي عربية. كان المماليك يشغلون المناصب العليا في الحكومة في المركز وفي الأرياف وكانوا يشكلون الحاشية القوية المحيطة بالسلطان. وعرفوا كيف يستولون على الجزء الأفضل من الملكيات العقارية في مصر. كان يتعين على =

أعوام سقطت دمشق في يد المغول. ولكن بعد انسحاب المغول استعاد المماليك بقيادة قطز، سلف السلطان بيبرس، المدينة. إلا أن ملكيتهم لها تعرضت مراراً للنزاع: في عام 1298م وعام 1303م عاد المغول مرة أخرى، وبعد مائة عام (1399م) قام ملك التتر تيمورلنك بتدمير المدينة إلى حد كبير. وبعد ذلك صمد السلاطين المصريون في سورية حتى مجيء العثمانيين. بينما كانت سلطة الخلفاء العباسيين تؤول إلى السقوط أسست قبائل تركية مختلفة في بلاد الرافدين وآسيا الصغرى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة. وحل محلهم فيما بعد، بعد انسحاب المغول والتتر، العثمانيون الذين استولوا في القرن الخامس

= الفلاحين العمل في خدمتهم بينما كانت علاقتهم مع السلطان، من جهة، ومع زبائنهم ومماليكهم الذين كانوا غالباً كثيرين جداً، من جهة أخرى، علاقة اقطاعية تشبه العلاقة التي كانت قائمة في أوروبا في العصور الوسطى. كان الملاكون الأغنياء (البكوات، أو البهوات) يديرون المناطق التي تقع أملاكهم فيها وكانت هذه الإدارة يتوارثها غالباً أبناؤهم من بعدهم على الرغم من التبدل المستمر للسلاطين. وفي نهاية العهد المملوكي كانت مصر بكاملها مقسمة إلى 23 منطقة من هذا النوع تخضع دون استثناء للبكوات الشركس.

في عام 1516م سقطت سورية، التي كانت تشكل جزءاً من الدولة المملوكية، مع مصر في يد السلطان العثماني سليم الأول ومنذئذ أصبح البلدان منطقتين منفصلتين تابعتين للدولة التركية. ظلت الإدارة في المناطق الداخلية من مصر محافظة، بشكل عام، على الوضع الذي كانت عليه عند مجيء العثمانيين وذلك حتى دخول الفرنسيين في عام 1798م. كان والي مصر يساعده في إدارة البلاد مجلس حكومي (ديوان) مؤلف من كبار رجال الدين وكبار ضباط الجيش المحتل وبكوات المماليك القدامى. كان من حق المجلس أن يطلب عزل الوالي. وقد استعمل الديوان المصري هذا الحق مراراً وتكراراً وكانت القسطنطينية تلبي طلبه دوماً باستثناء بعض الحالات النادرة. ولذلك فقد الولاة شيئاً فشيئاً اعتبارهم في مصر وأصبحوا أدوات طيعة في يد البكوات المماليك. وفي القرن الماضي استطاع بيكان شركسيان انتزاع السلطة بالكامل تقريباً في مصر. كان البكوات، بسبب لا مبالاتهم، هم الذين أعطوا الفرنسيين الحافز لاحتلال مصر لكنهم قاوموا أيضاً الغزاة أشد المقاومة. وبعد رحيل الفرنسيين عن مصر اصطدم الضباط الأتراك، الذين أرسلهم الباب العالي إلى هناك، مع المماليك وحاولوا التخلص منهم. لكن القضاء على سلطتهم نهائياً لم يتحقق إلا على يد محمد علي باشا.

عشر على العرش البيزنطي في القسطنطينية. ولم يتوجه المحتلون العثمانيون إلى الأجزاء العربية من الشرق الأدنى إلا في بداية القرن السادس عشر. في عام 1416م استولى العثمانيون على سورية ومصر حيث أرغم المتوكل، آخر وريث شرعي للخلافة العباسية، على التنازل عن الخلافة في احتفال رسمي لصالح السلطان العثماني. ومنذئذ صارت الخلافة في يد العثمانيين يتوارثونها جيلاً بعد جيل. ظلت دمشق منذ عام 1516م ملكاً للأتراك باستثناء فترة مؤقتة قصيرة (1832 ـ 1849م) حيث احتلها المصريون. وهكذا أصبحت دمشق، التي كانت في يوم من الأيام عاصمة الأمبراطورية الإسلامية العالمية ومقر سلاطين صغار، مرة أخرى عاصمة إقليمية لكنها تميزت منذ القدم بكثرة سكانها وهي اليوم في صدد ازدهار جديد.

تعود أقدم الآثار المتبقية في دمشق حتى اليوم إلى العهد البيزنطي. ومما يلفت الانتباه بشكل خاص بقايا أبواب دمشق المختلفة ومنها الباب الصغير في الجنوب الشرقي وباب شرقي في الشرق في نهاية «الشارع المستقيم» الوارد ذكره في العهد الجديد (قصة الرسل، الفصل 9، 11) والذي لم يزل قائماً حتى اليوم، بالإضافة إلى أجزاء متفرقة من سور المدينة وخاصة في الجهة الشرقية. وفي داخل المدينة نذكر من الآثار المتبقية من عهد ما قبل الإسلام أنقاض الأعمدة المزينة بالتيجان ونصف العتبة المقطوعة بقوس والتي كانت تشكل، حسب آخر الأبحاث[1]، جزءاً من معبد وثني هائل وهي جميعها مبنية في الوقت الحاضر مع مجمع الجامع الأموي الكبير والبيوت المجاورة له.

في بادئ الأمر حلت محل المعبد كنيسة مسيحية دشنت باسم يوحنا

---

(1) هناك عرض تفصيلي لبقايا المعبد مع مخطط عام ومصورات لدى A. C. Dickie, Quarterly Statement des Palestine Exploration Fund for 1897, ص 268 ومـــا بعدها. يتوصل ديكي إلى الاستنتاج أن الأمر يتعلق بمعبد كان جزؤه المقدس يقوم على ساحة محاطة بصفوف الأعمدة وتؤدي إليها مداخل شبيهة بأقواس النصر. ويعتقد ديكي أن المعبد مبني على شاكلة هيكل سليمان القديم. والمدخل إلى الباب الشرقي لم يزل حتى اليوم أعلى من الشارع.

المعمدان، ويحتل مكانها اليوم الجامع الأموي[1]. الجامع الأموي هو أهم وأعظم جامع في المدينة لكنه أصيب في الحروب الكثيرة اللاحقة وخاصة على يد تيمورلنك بأضرار بالغة مما استدعى إجراء إصلاحات وتحسينات مستمرة عليه بحيث لم يبق من أجزائه الأصلية سوى القليل. وبعد مغادرتي تعرض في عام 1893م لحريق كبير أصابه بأضرار جسيمة[2]

ومن المباني التاريخية الهامة التي تعود إلى العصر العربي الوسيط نذكر أيضاً المدرسة[3] الواقعة بالقرب من الجامع الأموي في سوق الخياطين وفيها قبر السلطان نور الدين الزنكي[4] وهي معروفة اليوم باسم مدرسة النورية. ويوجد مقابل هذه المدرسة مدرسة أخرى بنيت عام 676هـ (1277م) وفيها قبر السلطان المملوكي المصري الظاهر بيبرس ذلك المناضل الإسلامي العظيم الذي انتصر على الصليبيين وخلد ذكراه السكان المسلمون في مصر وسورية بأناشيد التكريم

---

(1) بشأن وصفه الدقيق راجع آ. فون كريمر، طوبوغرافيا دمشق، الجزء الأول، ص34 وما بعدها والمرجع الجديد عند رزينيه سبيرز، كوارتر لي. . (نفس مرجع ديكي)، ص282. كان المسلمون المنتصرون الذين انقسموا خارج المدينة إلى فرقتين قد دخلوها كمحتلين من الباب الشرقي ثم دخل الجزء الآخر سلماً بعد استسلام أهلها من الباب الغربي. ويقال بأن الفرقتين التقتا في وسط الكنيسة. ونتيجة لذلك تم الاستيلاء على الفور على الجزء الشرقي منها واعتبر ملكاً للدولة ثم حُوّل إلى جامع. أما الجزء الآخر فقد بقي في بادئ الأمر كنيسة. وفي وقت لاحق انتقلت ملكية هذا الجزء أيضاً إلى المسلمين.

(2) وجدت في عام 1897م قاعة الصلاة الشافعية الكبيرة في الجامع وقد احترق سقفها بالكامل؛ قطع كبيرة من التلبيسات الخشبية وأعمال الفسيفساء التي يعود بعضها إلى العصر البيزنطي كانت قد التهمتها النيران. أما الأعمدة والمحراب الرائع فكانت لم تزل على حالها. وكان العمل على إصلاحها يسير بنشاط كبير.

(3) المقصود بكلمة «مدرسة» هو مبنى يستخدم لتدريس العلوم الدينية. وتكون المدارس عادة مرتبطة بجامع أو بضريح أحد الأولياء أو أحد الرجال البارزين

(4) راجع لين بول، الممالك الإسلامية، لندن 1894م، ص74، 162.

لم يزل باقياً من نور الدين لوحة على الباب الجنوبي الغربي «باب الجابية» الذي قام ببنائه من جديد، راجع بورتر، خمسة أعوام في دمشق، لندن 1855م، الجزء الأول، ص47.

والتمجيد. كما أن قبر صلاح الدين الذي توفي عام 1193م في دمشق موجود هنا أيضاً لكن التربة (مبنى الضريح) التي بناها له ابنه الملك العزيز في حي الكلاسة لم تعد موجودة[1]. يشير فون كريمر[2] إلى أن قبر السلطان الظاهر بيبرس يوصف في أحيان كثيرة خطأ بأنه قبر صلاح الدين، بينما سمى لي سكان محليون قبر نور الدين على أنه قبر صلاح الدين وسمّوا المدرسة مع قبر الظاهر، التي يسكن فيها في الوقت الحاضر مفتي دمشق، بيت الظاهر.

أكبر صرح عمراني في المدينة، وإن كان بعض أجزائه مهدم الآن، هو القلعة[3] الواقعة في وسط الأسواق والتي تعود إلى العصور الوسطى، لا بل إن أصلها يعود إلى عصر أقدم لكن الملك الأشرف وسعها واستكملها في عام 1184م. وفي أوقات لاحقة تم ترميمها عدة مرات. ولكن هناك لوحة للسلطان قلاوون، خليفة بيبرس، تشير إلى حدوث تعديل أو ترميم واحد فقط. أما الباقي منها اليوم فهو بالدرجة الرئيسية أسوار القلعة المنيعة المحاطة جزئياً بخندق كبير وتمتد الثكنات على جدرانها الداخلية. والشيء المؤسف هو أن الجهة الخارجية المؤلفة من جدران لم تزل شاعرية جداً حتى اليوم تُحجب عن الأنظار بصورة متزايدة بالمباني التجارية الجديدة.

البيوت القديمة في المدينة، التي يسمح للغرباء بكل لطف الاطلاع عليها، لم تزل تذكر المشاهد بفن البناء المحلي القديم المناسب للمناخ السائد هناك. على الرغم من أن أقدم البيوت لا يزيد عمرها، على أرجح الظن، على مائتي عام فإن طريقة تصميمها تشير إلى أنها قد بنيت اقتداء بنماذج أقدم. يصل المرء من الشارع عبر ممر متقطع عدة مرات إلى فسحة مربعة كبيرة مغطاة بالرخام المزين بالفسيفساء وفي وسطها حوض مربع الشكل مصنوع من نفس المواد ومزين بشكل جميل. غرف الطابق الأرضي متوجهة جميعها، أبوابها وشبابيكها، على هذه الفسحة. وبما أنه لا يوجد نوافذ من الجهة الخارجية فإن الغرف تحمى بهذه

---

(1) انظر فون كريمر، سورية الوسطى ودمشق، ص68.

(2) انظر فون كريمر، طوبوغرافيا دمشق، الجزء الأول، ص50.

(3) انظر فون كريمر، طوبوغرافيا دمشق، الجزء الثاني، ص23.

الطريقة من غبار الشارع وضجيجه. فقط في بعض الأحيان توجد فتحات صغيرة في النصف الأعلى من الجدران المواجهة للشارع. عدة سلالم مزودة بالدرجات العالية الضيقة المألوفة في الشرق تؤدي إلى الطابق العلوي. أبواب وشبابيك الطابق الأرضي المواجهة للفسحة الداخلية تكون في العادة مزينة بأقواس ومتصلة مع بعضها بخطوط متناوبة بيضاء وملونة، بينما تكون واجهة الطابق الثاني، في أغلب الأحيان، بسيطة. في الجهة الجنوبية تنقطع الفسحة بقاعة كبيرة قوسية الشكل تسمى الليوان تمتد على ارتفاع الطابقين وتشكل خلال فصل الصيف الحار المكان المفضل لإقامة سكان البيت. على جانبي الليوان توجد القاعة التي تكون أحياناً درجة واحدة أوطى من الفسحة. وهي تتألف من جزأين يكون الجزء الأكبر الخلفي أعلى من الجزء الأمامي بمقدار قدم واحد أو قدمين. يحتوي الجزء الخلفي في كثير من الأحيان على حوض رخامي صغير وتكون أرضيته مبلطة بألواح الموزاييك بينما تكون أرضية الجزء الخلفي قطعة واحدة (من الطين أو الإسمنت) تغطى بالحصير وفوقها سجاد. جدران الغرفة ملبسة بالخشب ومزينة برسوم ملونة في غاية الذوق والأناقة وبكتابات وزخارف عربية. في بعض الأحيان يستعاض عن الألواح الخشبية بفسيفساء حجرية، أو تدمج معها، كما تستخدم الزخارف الجبسية مع الأعمدة والأقواس. يكون الجزء العلوي من الجدران مدهوناً غالباً باللون الأبيض البسيط. أما السقوف المسطحة فتتألف من حوامل خشبية غليظة من الحور وفوقها ألواح خشبية مزينة جميعها بزخارف ملونة. ومن زوايا السقف تنزل غالباً تزيينات بسيطة وفي غاية الأناقة تصل حتى منتصف الحائط. على بروزات جدارية على شكل رفوف تمتد غالباً على جهة كاملة من الغرفة، وفي تجاويف جدارية مقسمة بألواح خشبية ومزينة بمختلف الزخارف ولها سقف قوسي على شكل حدوة الحصان، توضع مختلف أنواع الأدوات المنزلية والأوعية والكتب وما شابه. والعائلات التي لم تزل محافظة على العادات القديمة تضع أثناء النهار الفرشات والألحفة وتوابعها في تجاويف جدارية كبيرة تشبه الخزائن. ففي البيوت العربية القديمة لا يوجد غرف نوم خاصة. بل إن كل غرفة من غرف البيت يمكن أن تتحول إلى غرفة نوم بمد

الفرشات على الأرض أو على الديوان المنخفض الممتد على طول الجدار. في الصيف تنقل معدات النوم غالباً إلى الأسطحة المسطحة ـ من سطح أحد البيوت العالية بدت لي في الليل أسطحة بعض الأحياء الدمشقية وكأنها مخيم واحد كبير. إلا أن الأسرَّة الأوروبية المزودة بحمالة لتركيب الناموسية الحامية من البعوض بدأت تنتشر في دمشق بصورة متزايدة. كما أن قطع الأثاث البسيطة القديمة، التي كانت تتألف من الدواوين والوسائد والكراسي والتربيزات الصغيرة والصواني المعدنية المزينة بالنقوش المحفورة، تخلي الساحة شيئاً فشيئاً لقطع الأثاث الأوروبية الفاخرة ذات الألوان الفاقعة. وفي الآونة الأخيرة أصبحت «موضة» أن يستعاض في البيوت القديمة عن تزيين أجزاء من الجدران بالزخرفة العربية والآيات القرآنية، برسومات كبيرة تظهر فيها مناظر طبيعية أو مباني وما شابه. ويعبر سكان البيت عن غناهم عن طريق عرض عدد كبير قدر الإمكان من اللمبات الأوروبية الملونة والساعات والمرايا وبطريقة تفتقر إلى أبعد الحدود إلى الحد الأدنى من الذوق الجمالي. وفي البيوت الراقية لا بد من وجود الكراسي الأنبوبية الفيينية (نسبة إلى فيينا) المعروفة والأرائك الأوروبية المنجّدة.

للأسف الشديد تتراجع بصورة متزايدة طريقة البناء الجميلة القديمة المناسبة للظروف السائدة هناك أمام أسلوب البناء الأوروبي الخالي من الذوق الجمالي. ويبدو أن البيوت الحديثة لم يبق فيها من الطراز القديم سوى الفسحة الداخلية. ومنذ فترة طويلة من الزمن تم التخلي عن خاصية رئيسية في البيوت القديمة وهي عدم فتح نوافذ على الشارع. إذ أصبح الشيء السائد اليوم هو العكس تماماً، أي فتح أكبر عدد ممكن من النوافذ في الجبهة المواجهة للشارع. وأكثر الأحياء تطبيقاً للأساليب الأوروبية هو الحي الشمالي الغربي، هناك حيث يدخل نهر بردى وطريق بيروت إلى المدينة يوجد أيضاً العديد من الفنادق الكبيرة المبنية والمجهزة على الطريقة الأوروبية. الشوارع القديمة ضيقة ومتعرجة وكثيراً ما يشاهد المرء بيوتاً تبرز طوابقها العلوية فوق الشارع من الجهتين بحيث تكاد تلامس بعضها البعض مما يؤدي إلى تظليل الشارع ولكن إلى حجب الضوء والهواء أيضاً.

لم يزل يوجد منذ العصر الإسلامي القديم العديد من الخانات الجميلة،

محطات القوافل، المبنية كالبيوت السكنية الخاصة حول باحة داخلية مربعة الشكل. ويتميز بعض هذه الخانات ببوابته الجميلة جداً، ومنها خان أسعد باشا الذي باحته الداخلية غير مكشوفة وإنما مغطاة بقبة بحيث تشكل قاعة كبيرة[1].

يوجد في دمشق كمية كبيرة من الخانات الجديدة، وهي نوعان: النوع الأول يأوي قوافل كاملة. في الإسطبلات البدائية أو في وسط الباحة أيضاً توضع الحيوانات الحاملة للبضائع وفي الطوابق العليا يقيم المسافرون والجمّالة. أما النوع الثاني فيستخدم للتجارة حصراً وعلى الأخص لتجارة الجملة. يسكن التجار في الحجرات المتراصة إلى جانب بعضها البعض في الطابق العلوي ويوجد في بعض الحجرات غرف صغيرة للبيع والشراء. أما الصفقات التجارية الرئيسية فتبرم في الغرف التحتانية حيث تخزن الكميات الأكبر من البضائع. يمثل النوع الأول في الشرق ما يوجد عندنا من بيوت المبيت والراحة، وهو موجود أيضاً حتى في أصغر القرى. ولكن لا يمكن تشبيه هذه الخانات بالفنادق الأوروبية: فالضيف لا يستقبله خدم أو عمال، وفي كثير من الأحيان يستدعى صاحب الخان من السوق أو من مقهى مجاور. يقوم الضيف بنفسه بربط حيواناته في المكان الذي يجده خالياً ثم ينقل أغراضه إلى الحجرة المخصصة له. تكون الحجرة غالباً خالية من أي أثاث. تكون الجدران عارية وفي أحسن الأحوال مدهونة باللون الأبيض، وتكون الأرضية من الحجر أو الأسمنت، وفي أحيان نادرة جداً مغطاة بحصير من القش. ولكن بالمقابل يوجد في الحجرة عادة عدد كبير من الحشرات من مختلف الأنواع، وأحياناً سكان أكبر حجماً أيضاً كالعقارب وما شابه يتعين على الأوروبي المدلل أن يخوض ضدها معركة قد تنجح وقد لا تنجح وذلك عن طريق غسل الغرفة بالماء غسيلاً كاملاً. يقوم المسافر بفرش ما جلبه معه من سجاد ووسائد في الغرفة ويتعين عليه أن يحضر طعامه بنفسه ويشتري حاجته من الماء من السقّا. في المدن الكبيرة تكون الخانات ذات أهمية كبيرة في كثير من الأحيان وتحتوي غالباً على دكان حلاقة ومحلات لشراء المواد الغذائية الضرورية ومقهى.

(1) راجع وصفه التفصيلي في: آ. فون كريمر، طوبوغرافيا دمشق، الجزء الأول، ص51.

دمشق هي مكان التجمع الرئيسي لقوافل الحجاج[1] المتجهة إلى مكة وتشكل آخر محطة كبيرة على الطرق المتوجهة من الشمال الغربي والشمال الشرقي إلى الأماكن المقدسة[2]. ينام معظم هؤلاء الحجاج في التكية الكبيرة التي بناها السلطان سليم (حوالي 1516) لهذا الغرض والتي يشاهد المرء من مئذنتها الجميلة منظراً رائعاً فوق المدينة. في باحة المبنى وفي الساحات المجاورة له، حيث ينصب عدد كبير من الخيام، يتجمع كل عام المؤمنون المتوجهون إلى مكة لأداء فريضة الحج.

تتمتع دمشق منذ زمن قديم بسمعة عظيمة بسبب حماماتها العربية الجميلة التي لم تزل بحالة سليمة تماماً؛ مع العلم أن بعض الحمامات التي لم تزل موجودة اليوم عمرها مئات السنين. وهي مزينة ببلاطات من القيشاني الجميلة التي تذكرنا بالعصر الذهبي لصناعة القيشاني (الفخار المزجج الملون) التي كانت في الماضي منتشرة في العالم الإسلامي بأسره وخاصة في سورية وبلاد الرافدين وكانت لها مكانة عالية. يقال بأن الفن نفسه قد استورد من فارس، واليوم أصبح بحكم المنسي في دمشق[3].

وينطبق الشيء نفسه على فن صناعة السيوف الذي كان مزدهراً في العصر

---

(1) انظر d'Avril: L'Arabie contemporaine avec la description de la Mecque, Paris 1868, P. 168 Burkhardt, Travels in syria and the Holy Land, London 1822, p. 657.

(2) تبقى القدس واقعة على اليمين. تمر الطريق إلى الشرق من البحر الميت. أما محطات درب الحج فهي حالياً التالية: دمشق ـ خان دنون 4 ساعات، كتيبة 8 ساعات، مزيريب 9 ساعات، الرمثا 5 ساعات، مفرق 10 ساعات، الزرقا 13 ساعة، بلقا 16 ساعة، قطرانه 14 ساعة، حسا 13 ساعة، عنيزة 13 ساعة، معان 10 ساعات، العقبة 18 ساعة، مدورة 12 ساعة، ذات الحج 8 ساعات، قاع الصغير 13 ساعة، عصي خرما 12 ساعة، أخضر 18 ساعة، المعظم 14 ساعة، دار الحمرا 16 ساعة، مدائن صالح 18 ساعة، بيار الغنم 10 ساعات، بئر الزمرّد 16 ساعة، بئر الجديد 8 ساعات، هدية 18 ساعة، فحلتين 18 ساعة، بيار ناصيف 10 ساعات، المدينة ساعة واحدة.

(3) انظر سازّ، رحلة في آسيا الصغرى، برلين 1896، ص63 وما بعدها.

الروماني المتأخر في دمشق، التي كانت تشكل آنذاك المركز الرئيسي لصناعة السلاح للمناطق الشرقية، إلى أن قضى عليه تيمورلنك الذي دمر المدينة ونقل صناع السيوف إلى الخانات الشرقية (بخارى وسمرقند والخ. . .). إضافة إلى ذلك يوجد في دمشق العديد من الأعمال الخشبية لصناعة الطربيزات والتابورات والديكورات الجدارية المصنوعة من الخشب الداكن الملمع والمرصع باللآلئ والأحجار الكريمة والمعادن، ولكنها ليست بجودة الأشياء المشابهة المصنوعة في القسطنطينية أو القاهرة من مواد أجود وأكثر تنوعاً. وتحظى صناعة الجلود في دمشق بسمعة ممتازة لدى السكان المحليين. كما أن الصناعة المعدنية مزدهرة جداً، وعلى الأخص أعمال النحاس والنحاس الأصفر التي تتميز بجمال أشكالها وبغنى زخرفتها وتصنع للسياح وللتصدير إلى أوروبا وهناك ورشات للأعمال المعدنية الدمشقية موجودة في مدن أخرى من مدن الشرق وعلى رأسها القاهرة.

وتجدر الإشارة إلى أن أسواق دمشق تحتوي على كل ما يحتاجه السكان المحليون والسياح الأوروبيون. ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن منتوجات الحرف اليدوية العربية القديمة الجيدة والثمينة فعلاً لم تعد موجودة إلا في حالات نادرة، بل إن الغالب في السوق هو السلع الرديئة والتقليد المستورد من أوروبا.

قام الإداري والمنظم المشهور مدحت باشا بحرق صفوف كاملة من الأسواق القديمة الضيقة وبنى مكانها شارعاً تجارياً عريضاً وعالي الارتفاع أصبح الآن يشكل المكان الرئيسي لبيع الأقمشة. وفي الآونة الأخيرة نشأت على أرض البازار اليوناني القديم أسواق أخرى أكبر وأوسع تمتد من مدخل القلعة إلى الجامع الأموي: قاعات عملاقة مقبية تتسع لخمس عربات في وقت واحد. أما محلات البيع فهي دكاكين مزودة في كثير من الأحيان على الطريقة الأوروبية بواجهات للعرض وأبواب. ويرتفع فوق الدكاكين طابق ثان، ولكنه مغطى من سقف السوق التجاري، يحتوي على مساكن ومخازن ومكاتب وعيادات لأطباء الأسنان والخ. . . .

إلا أن التجارة في دمشق لم يعد من الممكن اليوم مقارنتها بالتجارة في حلب

التي تمتاز بغنى المناطق الواقعة ورائها في بلاد الرافدين وكردستان. وفي حلب يوجد أيضاً منذ مئات السنين مراكز تجارية أوروبية يعود الفضل في نشوئها إلى أن الطريق التجاري المتجه عبر الصحراء إلى الموصل ثم إلى بغداد قد أصبح عملياً غير سالك بسبب انهيار الآبار التي كانت موجودة على امتداده وبسبب تزايد أخطار الهجمات البدوية على القوافل نتيجة لذلك. لكن تجارة دمشق تشهد في الوقت الحاضر نهضة قوية. فالجزء الجنوبي من دمشق، حي الميدان المتطاول، يشكل بمخازنه الكثيرة سوقاً كبيرة وحيدة للحبوب والصوف التي تزودها بها حوران ومنطقة البحيرات السهلية.

تتمتع دمشق بسمعة خاصة كسوق للخيول وخاصة لدى المستوردين المصريين. إلا أن الخيول العربية الجيدة (الخيول الأصيلة) لا يمكن الحصول عليها إلا نادراً هنا، ولا وجود لها في سوق الخيول العام الذي يعج بالحركة فالحيوانات التي تباع هنا هي فقط من نوع «الكديش»، حيوانات للحمولة والركوب من النوع العادي[1]. أما الحيوانات الجيدة فيبيعها تجار الخيول، كما هو الحال عندنا أيضاً، من الإصطبلات مباشرة. وسوق الخيول الأكثر حركة موجودة في الوقت الحاضر على نهر بردى في مكان غير بعيد عن الفنادق الأوروبية. وأما جمال الحمولة والركوب فتباع في الميدان. ولقد اشتريت من أجل رحلتي عدة خيول في دمشق بأسعار زهيدة جداً: كلف حصاني الخاص 20 ليرة تركية، وحصان سكرتيري العربي 9 ليرات، وأحصنة الخدم 4 ـ 5 ليرات للحصان الواحد.

تشتهر دمشق منذ العصور القديمة بفواكهها الجميلة. مع بداية الصيف يعرض المشمش للبيع، أنواع مختلفة حلوة وطازجة، لكنها أصغر وربما أقل نكهة من الأنواع المحسنة في أوروبا، تعرض في السوق بكميات كبيرة وبأسعار زهيدة جداً. ومن هذا المشمش يصنع مستحضر قاس يشبه صفائح الورق يسمى «قمر الدين» يؤكل جافاً أو منقوعاً في الماء ويعتبر من الأكلات الشهية لدى السكان

(1) انظر الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

المحليين وقابل للحفظ فترة طويلة. يصدر كثيراً إلى أوروبا حيث يستعمل لصنع المربيات (المارملاد).

تشكل البساتين دائرة واسعة حول دمشق وهي دون استثناء بساتين استثمارية تستعمل لزراعة الأشجار المثمرة وفي الوقت نفسه للزراعات الحقلية الأخرى. في ظل الأشجار المثمرة يزرع العنب والحبوب والخيار والعديد من الخضار الأخرى. يتم الري بواسطة نظام من المجاري (الخنادق) الكبيرة والصغيرة. وتفصل عن بعضها وعن الأزقة والشوارع بصفوف من النباتات الدغلية أو بجدران طينية يبلغ ارتفاعها غالباً عدة أمتار. وبصرف النظر عن أهميته الاقتصادية فإن هذا الإكليل العريض من البساتين يشكل حماية للمدينة من الهجمات المعادية لا يستهان بها لأنه يشبه السور الواقي. في داخل المدينة، وخاصة في بيوت الأغنياء، يشاهد المرء هنا وهناك حدائق زهور رائعة (رياض) على الطراز العربي القديم الذي لم يزل موجوداً في حدائق القصر في إشبيلية وفي حدائق فاس ومكناس في المغرب وفي شمال إفريقيا عموماً. تحيط أحواض الزهور بطرق ضيقة وفي بعض الأحيان مسورة وأعلى من محيطها، وتشكل الطرق أشكالاً هندسية تغطيها غالباً عرائش الياسمين العطرة أو غير ذلك من النباتات الملتفة.

خارج المدينة، بالقرب من الباب الغربي، توجد حديقة من نوع رهيب تحيط بقرية خاصة يقيم فيها المرضى المصابون بالجذام. فالناس الذين يصابون بهذا المرض المخيف ينفون إلى الأبد إلى هذه القرية حيث يبدأون حياة جديدة. يقوم جنود بحراسة المدخل، إلا أن الغرباء يسمح لهم بزيارة سكانها.

يبلغ عدد سكان دمشق حسب التقديرات الرسمية التركية لعام 1315هـ (1896م) 136917 نسمة، منهم نحو 11000 مسيحي و7000 يهودي[1]. إلا

---

(1) سكان دمشق حسب تقديرات «السالنامه» التركية لعام 1315هـ، ص324 وما بعدها: مسلمون: 119890، يهود: 6838، لاتينيون: 100، أرثوذوكس شرقيون: 4564، كاثوليك أرمن: 178، بروتستانت: 90، أرمن أرثوذوكس: 248، أرثوذوكس سوريون: 69، كاثوليك سوريون (سوريون موحدون): 337، كاثوليك شرقيون (ملكيون): 4270، موارنة: 333، المجموع: 136917.

أن هذه التقديرات هي، على الأرجح، أقل من العدد الفعلي، كما أن سكان الضواحي والقرى المجاورة الكثيرة غير داخلة في التعداد. أكبر هذه الضواحي الصالحية الواقعة في أسفل جبل قاسيون والتي يبلغ عدد سكانها نحو 40000 نسمة معظمهم من الأكراد والشركس والمهاجرين، أي من النازحين واللاجئين المسلمين القادمين من مناطق كانت في السابق تدار إسلامياً وأصبحت الآن تدار مسيحياً[1]. لم تزل الطوائف الدينية المختلفة تسكن مؤقتاً في أحياء منفصلة. لكن هذه الأحياء لم تعد، كما هو الحال مثلاً في المغرب أو في غيره من مدن الشرق، مفصولة عن بعضها بجدران، وإن كان يوجد داخل بعض الأحياء وفي العديد من الشوارع بوابات يتم إغلاقها في الليل.

لم تؤثر مجازر عام 1860م على حركة السكان المسيحيين في دمشق، وعلى الرغم من التقارير الكثيرة التي تتحدث عن تعصب المسلمين بدأ المسيحيون الدمشقيون ينتقلون من أحيائهم التي ضاقت بهم إلى أحياء إسلامية. إلا أن بيروت توفر لسكانها كمية أكبر من الملذات ووسائل الراحة الأوروبية ولذلك ينقل أحياناً بعض المسيحيين واليهود الذين صاروا أغنياء مقر سكنهم إلى هناك. تسود في دمشق ظروف منظمة للغاية وأظن أن الأمن حتى في الشوارع المتطرفة من المدينة لا يقل بأي حال عن الأمن في ضواحي عواصمنا الأوروبية. ومما يساهم بشكل حاسم في هذه الحالة الأمنية الجيدة الشرطة التركية المنظمة بشكل ممتاز. خلال الأسابيع التي قضيتها في دمشق قابلني السكان المسلمون على الدوام بمنتهى اللطف. مرة واحدة فقط منعت من زيارة أحد الجوامع؛ كان هذا في تكية الدراويش الراقصين الذين لم يحاولوا بعد، كما في أماكن أخرى، استثمار طقوسهم وعاداتهم الدينية لأغراض الكسب المادي.

تساهم الخطوط الحديدية مساهمة كبيرة في أوْربة دمشق، ولا شك في أنها ستلعب دوراً هاماً في تطوير المدينة وتحويلها إلى مركز تجاري كبير؛ فقد أدى بناء سكة الحديد منذ الآن إلى ازدياد عدد أفراد الجالية الأوروبية في دمشق وإن كان

---

(1) عندما عدت إلى دمشق في عام 1897م كان العديد من البيوت قيد البناء في شرقي الصالحية لإيواء اللاجئين القادمين من بلغاريا.

هذا العدد لا يزيد حتى اليوم على خمسين نسمة. يوجد في المدينة عدد من البعثات التبشيرية والمدارس المسيحية ويقيم فيها أيضاً عدد من القناصل الأوروبيين الرسميين. أما الجالية الألمانية في دمشق فهي صغيرة جداً. من الألمان الذين استقروا هناك التقيت عام 1893م بالسيد كونيش والسيد تسابف، كممثلين للشركة البيروتية «فانكهينل وشيفنر»، اللذين كان في وسعهما تسليمي تعليمات لتجار محليين موجودين في مناطق مختلفة حتى بلاد ما بين النهرين لإعطائي ما أحتاج من نقود. والتقيت أيضاً بالسيد بوتمان من شركة «لوتيكه وشركاه» التي يملكها القنصل الألماني لوتيكه المشهور بلطفه وكرمه والذي يتولى في الوقت الحاضر إدارة فرع الشركة في بيروت.

الحركة في المدينة نشطة إلى أبعد الحدود والجو السائد في الشوارع مفعم بالحيوية والتنوع. الملابس المتنوعة للمسلمين والمسيحيين واليهود من سكان المدينة، ثم الشركس وجنود الحامية العسكرية، والفلاحون والبدو القادمون من المناطق المجاورة، والتجار الفارسيون، وهنا وهناك بدو الصليب المرتدون فراء الغزلان، كل هذا يضفي على المدينة صورة غنية بالألوان أرقى وأجمل من الملابس الأوروبية التي يرتديها التجار المحليون المتعصرنون أو الموظفون الأتراك أو الزوار الغرباء.

تتألف الملابس التقليدية القديمة للنساء المحليات، بصورة عامة، من شروال فضفاض أبيض أو ملون ومن قميص وقفطان ملون ذي أكمام طويلة وواسعة، يُلبس فوقه الإزار عند الخروج إلى الشارع. والإزار هو عبارة عن رداء من القماش الملون بألوان مختلفة حسب الطائفة الدينية يغطي كامل الجسم ويثبت إلى بعضه البعض عند الخصر. إلا أن النساء المسيحيات يبدلن هذه الملابس شيئاً فشيئاً بملابس أوروبية مما يجعل الشارع يفقد شيئاً فشيئاً أحد المظاهر الأساسية لجاذبيته وسحره. وهن يتخلين بصورة متزايدة، كاليهوديات، عن الحجاب (غطاء الوجه) مما يبعث السرور في نفس الغريب الذي يجد هنا كثيراً من الوجوه الجميلة. كما أن الرجال أيضاً يتخلون شيئاً فشيئاً عن ملابسهم العملية الملونة المؤلفة من شروال وصدرية مطرزة (مقصبة) وجاكيت قصيرة (فرملية) ثم القفطان (القمباز) مما يلحق أكبر الضرر بمنظرهم الخارجي. إلا أن الدمشقيين المتأوربين

حافظوا على لبس الطربوش، وحتى التجار الأوروبيون المقيمون في بيروت يرتدون، عند مجيئهم إلى دمشق، الطربوش بدلاً من القبعات الأوروبية لكي يبدو للسلطات التركية وللمسلمين العرب، الذين يعتبرون لابسي القبعات دخلاء مشبوهين، كرعايا موالين للسلطات أو كمواطنين عاديين.

في الصيف ينزل الجميع، وخاصة في ساعات الصباح وبعد زوال حر الظهيرة، إلى الأسواق التجارية والمناطق المحيطة بها. الشيخ أو الأفندي يمر متأملاً والمسبحة في يده، والتجار المسيحيون واليهود يقفون في الشارع مصدرين مختلف الحركات والأصوات. والسيدات المسلمات يسيرنّ برفقة عبدات يحملن على رؤوسهن المشتريات أو المناشف التي استعملنها في الحمام. وبين الناس تسير الحمير والبغال والإبل المحملة بالأغراض وأيضاً العربات المستأجرة أو الخاصة التي تجرها خيول سيئة وتساق بشكل سيئ أيضاً والتي لا يستطيع المشاة الابتعاد عن طريقها في الأزقة الضيقة إلا بصعوبة بالغة. ومن بعيد يظهر موكب لحفلة عرس، أطفال يقرأون بصوت عال آيات من القرآن يسيرون في صفوف طويلة خلف بعضهم البعض، أو موكب للدفن حيث يحمل الميت على نعش مكشوف مغطى بقطعة قماش فقط إلى مثواه الأخير. باعة الماء والليموناضة، سماسرة وتجار متنقلون يعرضون بضائعهم بلغة غنية بالصور وبصيحات تقطع الأنفاس، وبين كل هذه الأصوات يسمع المرء في كل لحظة عواء أحد الكلاب الشاردة التي لا يقل عددها في دمشق عن عدد السكان. تنام الكلاب، عندما لا تبحث عن طعام، في وسط الطريق المزدحم بالناس ولا تتحرك إلا إذا ركلها أحدهم جانباً أو اقتربت منها عربة[1].

---

(1) الكلب الشارد ظاهرة معروفة لكل زائر في القسطنطينية وهي موجودة في جميع مناطق الشرق وشمال إفريقيا. في مناطق محددة، داخل الأحياء في الجهات التي لا يكون فيها سوى قليل من واجهات المنازل، تعيش هذه الكلاب الشاردة في قطعان يتراوح عدد أفراد القطيع الواحد منها بين 10 و50 كلباً وتبقى ليل نهار في العراء معرضة لمختلف العوامل المناخية. يتولى قيادة القطيع الكلاب القوية بشكل خاص ويجدها المرء عادة على حدود قطاعها التي تحرس بمنتهى العناية والحماس. ولا يسمح لأي كلب بالانتقال من قطاع إلى آخر. وإذا ما اقترب كلب غريب من الحدود يقفز فجأة قادة القطيع المقيم هناك ويتخذون وضعية قتالية. وتكفي زمجرة=

= خفيفة لتقوية الحراسة على الحدود. وإذا ما دخل الكلب الغريب إلى القطاع ينقضّ عليه كامل القطيع ليلحق به أسوأ الأذى إذا لم يولّ هارباً بأقصى سرعة أو لم يهرع أفراد قطيعه لنجدته. من المستحيل أن يستطيع المرء إغراء كلب بالانتقال من قطاع إلى آخر حتى ولا بأشهى العروض. ويعود السبب في إغلاق القطاعات في وجه الكلاب الغريبة إلى أن الكلب الدخيل سيقاسم أصحاب القطاع طعامهم وهذا شيء غير مقبول إطلاقاً. إلا أن هناك بعض الفروسية التي تتجلى في أن الكلاب القاصرة وغير القادرة على القتال يسمح لها بالدخول إلى جميع المناطق الغريبة والإقامة فيها دون أي منع أو مضايقة. وأشد الكلاب ضراوة تلك التي تقيم في الشارع وخاصة عندما يتجرأ كلب من حارة أخرى مصادقة كلبة من حارتها.
ويحدث مرور حيوانات غير مألوفة، في بعض أحياء القسطنطينية إبل، أو دببة يجرها نَوَرٌ، أو قردة، والخ. . . ، كثيراً من الصخب في أوساط الكلاب؛ وخاصة الكلاب أو القطط الأوروبية فلن تكون آمنة على حياتها إذا لم تحم بقوة من أصحابها أو تُحمل.
أما حجم القطاع فيبدو أنه يتحدد في ضوء كمية المواد الغذائية الموجودة في نفايات مساكن المنطقة وهي تكون دوماً ذات منشأ نباتي ومع ذلك تلتهمها الكلاب بنهم شديد. وبهذه الطريقة تمارس الكلاب ـ مثلها مثل العقبان التي تلتهم الجيف ـ مهمة تنظيف الشوارع في جميع بلدان الشرق. ألد أعداء الكلاب الشاردة ذلك الرجل الذي يجمع الثياب الرثة من القمامة، يسير ليلاً في شوارع القسطنطينية وعلى ظهره سلة كبيرة وفي يده اليسرى مصباح وفي اليمنى ملقط يبحث به في القمامة المنزلية عن ثياب رثة. من الواضح أن الكلاب تخشى أن الرجل يمكن أن يأخذ من القمامة أشياء تصلح طعاماً لها، ولذلك ما أن تشاهد المصباح من بعيد حتى تنقض على الرجل مزمجرة بغضب ومحاولة بكل السبل منعه من القيام بعمله.
يُعدّ الكلب الشارد بصورة عامة، على الرغم من أنه يبدو متكاسلاً وبليداً، حيواناً ذكياً. إلا أن محاولات ترويضه لا تحقق غالباً أي نجاح، لأن ميله إلى الحرية قوي جداً. وهو يبدي تعلقاً كبيراً تجاه الناس المقيمين في منطقته. وكما أنه يقوم بمهمة تنظيف الشوارع فهو يؤدي أيضاً في الشوارع التي لا يدخلها كثير من الناس مهمة الحراسة في الليل. فهو لا يزعج أبداً السكان المحليين بملابسهم الوطنية، إلا أنه يهاجم أحياناً الأوروبيين الموجودين في أحياء إسلامية. ولقد حدثني بعض السادة في القسطنطينية أنهم في بعض أجزاء اسطنبول، التي يضطرون إلى المرور فيها ليلاً، يسيرون بطريقة معينة لكي لا يختلفوا عن الأتراك ويتفادوا بالتالي مضايقات الكلاب الشاردة لهم. وتجدر الإشارة إلى أن الكلاب الشاردة في المدن جبانة تجاه الإنسان ولا تحاول عضه إلا من الخلف. وأفضل وسيلة للتخلص منها =

= هي الانحناء نحو الأرض والظهور بمظهر من يريد التقاط حجر أو حمل عصا على الظهر والتلويح بها بين حين وآخر. ومما أثبت جدارته أيضاً أن يرفع المرء قبعته من على رأسه ثم يعيدها. فقد حدثني رحالة فرنسي أنه تخلص وحيداً بقبعته الأسطوانية السوداء من قطيعين كبيرين من الكلاب الجائعة. خلال النهار تستلقي الكلاب منفردة، وفي أحيان كثيرة جماعات إلى جانب بعضها البعض، على الرصيف، وفي بعض الأحيان في وسط الشارع المزدحم. ولقد اعتاد المشاة على تفادي الحيوانات التي تسد الطريق بالانعطاف عنها أو بالقفز من فوقها. أما سائقو العربات فيطقطقون بألسنتهم دون توقف مما يجعل الكلاب تبتعد على الفور من الطريق وتنام في مكان آخر. ورغم ذلك يسمع المرء على الدوام نعيص كلب دعسته إحدى العربات. وتجدر الإشارة إلى أن الكلاب لا تجرؤ على عض الإنسان إلا في حالات نادرة مهما كان جرحها بليغاً.

وبصورة عامة تلاقي الكلاب في الأحياء الإسلامية معاملة أفضل من الأحياء الأوروبية. وعلى الرغم من أن الكلاب نجسة حسب القرآن فإن المسلم لا يسمح بسوء معاملة الكلاب في حيّه؛ بل إن تقديم الطعام لها يعدّ من أفعال الخير. ولقد فشلت فشلاً ذريعاً محاولة السلطان محمود الثاني، المصلح التركي الشهير، طرد الكلاب من القسطنطينية. فالكلاب التي نقلت إلى بعض جزر بحر مرمرة غادرت منفاها سباحة وبفضل قدرتها الهائلة على التكاثر امتلأت بها القسطنطينية مرة أخرى خلال وقت قصير. وليس أمامنا سوى الانتظار لنرى ما إذا كانت حملة التسميم الجماعي التي شنت مؤخراً في القاهرة والإسكندرية ستحقق نجاحاً أفضل في المستقبل.

يبدو أن الكلب الشارد هو الخلف، المتراجع بسبب هواء المدينة وقلة الحركة ونوعية الطعام، للكلب العربي الذي يحويه البدو، أي كلب الحراسة العادي لدى البدو، وليس لكلب الصيد العربي النبيل المسمى «السلوقي». ومن أقربائه في عائلة الكلاب كلب الراعي ذو الشعر القصير الموجود في دول البلقان وآسيا الصغرى. وهو يشبه إلى حد ما كلب الراين القوي والقصير الشعر. رمادي فاتح، نادراً مائل إلى الصفار، أسمر غامق أو منقط، غالباً بحجم كلب صيد عادي، نحيل، مجعد ولكن قصير الشعر. وذنبه يكون في الأوقات الجيدة فقط مكسو بشكل جيد إلى حد ما بالشعر. الرأس مدبب والأذنان قصيرتان والفك قوي فوق العادة.

إنه لمهم لو عرفنا ما إذا كانت القسطنطينية في العهد البيزنطي مأهولة بالكلاب الشاردة. ونحن نعرف من الصور التي وصلتنا أن بلاد الرافدين كان يوجد فيها في العهد الآشوري كلب كبير طويل الشعر تم تدجينه وأن مصر كان فيها في عهد الفراعنة كلب يشبه الكلب السلوقي.

تشكل الحدائق العامة في فصل الصيف عند غروب الشمس نقاط جذب رئيسية للناس، وهي موجودة بكثرة على ضفاف فروع بردى الواقعة قرب المدينة أو في محيطها الأبعد. الإنسان الشرقي يحب الماء الجاري ويشعر بسعادة خاصة بقربه. يفضل مسلمو دمشق الحدائق الواقعة غربي المدينة. ويحب الضباط والموظفون الأتراك الشباب الجلوس في المقاهي الموجودة مقابل التكية وعلى الطريق المتجهة إلى بيروت عند الهامة[1]. وخارج المقاهي يجد المرء هنا أيضاً على طرف النهر سيدات مسلمات وجيهات مع خادماتهن يجلسن قرب الماء ويتمتعن بما جلبنه معهن من مأكولات. أما السكان المحليون غير المسلمين فيفضلون الذهاب إلى الشرق من المدينة، إلى المكان الذي يغادر فيه بردى دمشق. هناك يجلسون تحت الأشجار الظليلة على كراسي أو مقاعد خشبية أو على الحصر المصنوعة من القش أو السجاجيد المفروشة على امتداد النهر. يجلس الرجال والنساء وأمامهم النرجيلة وصينية القهوة أو يرتشفون العرق، وهو شراب مصنوع من بقايا العنب والمصطكى ويشبه الليكور. يوضع العرق كشراب في طاسة كبيرة على الطاولة مع كثير قدر الإمكان من الثلج الذي يجلبه يومياً إلى المدينة سكان القرى الجبلية المجاورة. بواسطة وعاء صغير يعبأ المشروب من الطاسة في الكاسات ويمدد غالباً بالماء بحيث يتخذ لوناً أبيض يشبه الحليب. يتناولون مع العرق الخيار والفستق الحلبي والحمّص المملح والحلويات. يتحدث الجلوس غالباً بصوت هامس وبين حين وآخر يؤدي مغنون برفقة الغيتار [العود] وبصوت أخن أغنية غرامية. بناء على عادة قديمة لم يزل الرجال والنساء

---

(1) هناك أيضاً مقهى حديث وكبير يقع على نهر بردى في المدينة نفسها يزوره كثيراً المسلمون من أبناء المدينة. يقع في مكان غير بعيد من ساحة السراي. التقيت هنا أعضاء فرقة بهلوانية لا تقدم عروضها الفنية في الشرق وحسب بل وفي عواصم أوروبية أيضاً. وهم ينتمون إلى فرقة سيدي حمدو موسى شبه الدينية المؤلفة بصورة رئيسية من البربر المغاربة. وكان بين أعضاء الفرقة البهلوانية التي التقيتها في دمشق رجل شاب يتكلم الألمانية. كان ابناً لفنان مغربي تزوج من امرأة ألمانية من برلين وسافرت معه إلى بلده.

يجلسون في مثل هذه المناسبات وفي النزهات والاحتفالات في صفوف منفصلة مواجهة لبعضها البعض.

من الطبيعي أن المدينة نفسها أيضاً لا تخلو من المقاهي العربية التي تبنى غالباً في لسان ممتد في الماء ويقدم فيها أيضاً مغنون ومغنيات عروضهم. وفي المقاهي الكبيرة تقدم أيضاً عروض مسرحية[1]. الموسيقيون والمغنون والمغنيات هم غالباً من اليهود المحليين، وفي حالات نادرة، من المسيحيين. فالشعر والموسيقى لعبا منذ قديم الزمان دوراً كبيراً في الشرق، وفي سورية بالذات اكتسب منذ زمن قصير فن المسرحية الموسيقية مكانة رفيعة[2]. حضرت في دمشق في بيت الأسقف الكاثوليكي عرضاً لمسرحية موسيقية قدمتها فرقة من الرجال فقط على مسرح منصوب في باحة البيت. أما العروض الراقصة، وبالتحديد رقصات هز البطن المحبوبة جداً في مصر وغيرها من بلدان المشرق، فلا تعرض إلا قليلاً في سورية.

نود هنا أن نتحدث قليلاً عن مواد التمتع الأكثر استعمالاً في الشرق. إحدى أكبر متع الإنسان الشرقي التدخين. التشبوك الذي يرد ذكره كثيراً، والذي هو عبارة عن غليون طويل مستقيم له رأس صغير، لم يعد يستعمل إلا من بعض الوجهاء المسنين. يتولى عادة الاعتناء بالتشبوك خادم مخصص لهذا الغرض

---

(1) إلا أن مقاهي الغناء «المحلية» فهي في بيروت أكثر تطوراً منها في دمشق.

(2) أود الإشارة بهذه المناسبة إلى أنه يوجد في القاهرة مسرح عربي تعرض فيه يومياً أوبريهات عربية. والمغنون هم غالباً مسلمون مصريون، أما المغنيات فهن مسيحيات أو يهوديات سوريات. وبين حين وآخر تقدم الفرقة عروضها في دار الأوبرا الخديوية المجهزة بشكل محترم. وقد قام في الأعوام الأخيرة فنانون سوريون ومصريون بتأليف وتلحين العديد من الأوبرات العربية. في الأوبرا المحلية يدخل عادة العديد من الأغاني المديدة الإفرادية أو مع الكورس والتي موسيقاها تبدو ثقيلة بسبب نصف الدرجة التي تتكرر كثيراً في الآونة الأخيرة. ترجم أيضاً العديد من التمثيليات الأوروبية إلى اللغة العربية وعرضت على المسرح. وفي بداية عام 1897م قدمت فرقة أرمنية أيضاً عروضها في القاهرة؛ أما القطع المعروضة باللغة التركية فتشبه إلى حد بعيد الأوبريتة الموسيقية الأوروبية.

يقدمه للمدخن ويضع في الوقت نفسه على السجادة على مسافة مناسبة وعاء صغيراً من النحاس الأصفر لكي لا يسبب الفحم المتساقط أو التبغ المشتعل المتساقط من الغليون أي ضرر. الآن حل محل التشبوك، بصورة عامة، السيجارة والنرجيلة. تسمى النراجيل، التي يستخدم فيها لسحب دخان التبغ أنبوب صلب، غالباً من القصب، تسمى جوزه. تمسك هذه النراجيل باليد، وتبعاً لذلك يكون لوعاء الماء عادة أرضية مستديرة يتألف في أحيان كثيرة من قشرة جوز الهند المصقولة. أما في النراجيل ذات النربيج المرن (أركيلة، في مصر شيشة) فيوضع وعاء الماء، الزجاجي غالباً والذي يشبه القارورة، على الأرض أو على طاولة صغيرة. وتأتي صحون هذا النوع من النراجيل عادة من أوروبا وخاصة من النمسا؛ أما النربيج والرأس الذي يوضع عليه التبغ وما يتبع ذلك من قناني معدنية أو قيشانية، كما يأخذها معهم الرحالة الأوروبيون الأكابر مغلفة في أوعية من الزنك، فتصنع في البلد نفسه.

لا يدخن السيجار أبداً في سورية وبلاد ما بين النهرين. أما السجاير فتأتي جميعها من الريجي التركية[1]، فقط في الموصل وحولها لم تزل تصنع سيجارة خارج إدارة الريجي ومن تبغ مزروع هناك. تتألف هذه السيجارة من غلاف ورقي يشبه سيجار مانيلا ومن قطعة للفم. تؤخذ عشر إلى اثنتي عشرة قطعة من هذه الأغلفة الفارغة في اليد ثم تملأ بالتبغ المفروم، والناعم أحياناً كالغبار. الفلاحون، وخاصة البدو، يحبون التبغ إلى حد بعيد وهم يدخنونه في غلايين فخارية قصيرة تشبه إلى حد ما الغليون الإنجليزي.

لا يستعمل الكبريت «السويدي» على الإطلاق تقريباً وإنما شمع إيطالي وأعواد ثقاب نمساوية من أردأ الأنواع لكنها مع ذلك مرغوبة جداً بسبب الصور

---

(1) السجاير المصرية لا يجدها المرء إلا نادراً في سورية. مع العلم بأن السجاير المصرية لا تصنع من تبغ مصري لأن زراعة التبغ في مصر ممنوعة منعاً باتاً لأسباب لها علاقة بالسياسة الضريبية. ويأتي التبغ المستعمل هناك من جزيرة كريت وجزر الأرخبيل الأخرى، وأيضاً من غرب آسيا الصغرى ومقدونية واليونان.

غير المحتشمة الموجودة على العلب. ويستعمل لإشعال السيجارة نوع خاص من الورق المقوى يسمى بالعربية كو.

لا يدخن الأفيون بتاتاً في سورية، لكن تدخين الحشيش، وهو مستحضر مصنوع من القنب أو الخشخاش يشعر مدخنه بالنشوة، منتشر في أوساط الطبقات الدنيا، إلا أن السكان المسلمين معتدلون جداً في هذا الصدد. والشتيمة «حشاش» تقابل عندنا شتيمة «سكّير». لكن مساوئ تدخين الحشيش غير منتشرة على نطاق واسع كمساوئ تناول المشروبات الروحية عندنا[1]. لا يشرب النبيذ في سورية إلا نادراً جداً، ويقتصر شرب العرق على الطبقات الراقية.

هناك مشروب واحد آخر فقط معروف في سورية وبلاد الرافدين هو القهوة التي تشرب مع السكر أو بدون سكر (ساده) بعد غليها ثلاث غليات ثم صبها مع الرغوة في فناجين صغيرة. أما الشاي فلا يشرب إلا نادراً جداً ويقتصر شربه على العائلات الغنية. والنوع المستعمل منه هو الشاي الأسود فقط. أما في المغرب بأسره فالأمر مختلف تماماً، إذ إنهم هنا لا يعرفون القهوة بل يشربون بدلاً منها الشاي الصيني الأخضر في كاسات صغيرة يتعين على المرء في كثير من الأحيان تفريغ عدد كبير منها لكي يعتبر رجلاً محترماً ويسمح له بالمشاركة في الحديث. في أحيان كثيرة يضاف إلى الشاي العنبر والنعنع وتوابل أخرى ثم يحلّى بكثير من السكر.

* * *

(1) تدخين الحشيش منتشر بكثرة في مصر أكثر بكثير من انتشاره في سورية أو بلاد الرافدين. في المغرب يسمى الحشيش «كيف» ويدخن بشراهة كبيرة بعد فرمه، مخلوطاً مع التبغ أو دون خلط، في غلايين بطول قدم واحد ذات رؤوس فخارية صغيرة جداً. أما تدخين التبغ فيعد في المغرب حراماً وقد منعه السلاطين مراراً عديدة منعاً كاملاً. بين حين وآخر يشن رجال الشرطة حملات تفتيش مفاجئة في الأسواق فيصادرون كل ما يجدونه من التبغ ثم يحرقونه، الأمر الذي يعتبر عملاً ينال رضى الله. خلال زيارتي الأولى للمغرب عام 1886م كان في قافلتي رجل يدخن الكيف وكان كل 10 ـ 12 يوماً يدخن «نشوة» تستمر حوالي 24 ساعة؛ خلال هذه الفترة كان غير قادر على العمل إطلاقاً بينما كان في الأحوال العادية أفضل رجل في القافلة.

كان أحد أفضل أصدقائي في دمشق رئيس فرقة القادريين الشيخ الكيلاني الذي ينتمي إلى عائلة الكيلاني البغدادية المحترمة وهو سيد مسن وقور ومتنور جداً.

القادريون والرفاعيون هم من الفرق الدينية الصوفية الأكثر انتشاراً في تركيا العربية. كبير شيوخ الطريقة الأولى مقره في بغداد بينما مقر شيخ الطريقة الثانية في البصرة. أما السنوسيون الذين روي عنهم الكثير في الأعوام الأخيرة فلم أعثر لهم على وجود في سورية ولا في بلاد الرافدين، على الرغم من أن هـ. دوفاريه في كتابه عن السنوسيرديين[1] تحدث عن انتشارهم في هذه المناطق ـ ولقد بحثت عنهم في الأماكن التي ذكرها ولكن دون جدوى. ولكن تجدر الإشارة إلى أن الطرق الصوفية الإسلامية في دولة ذات بنيان متماسك كتركيا ليس لها نفس الأهمية كما في بلدان الصحراء الإفريقية مثلاً. فهي هنا مجرد روابط خاصة ذات توجهات دينية ترمي إلى المساعدة المتبادلة والقيام بالأعمال الخيرية وترسيخ الإسلام والعناية بالدين عن طريق إقامة الصلوات البسيطة والطقوس والتمارين الدينية المشتركة. في الحياة العادية لا يتميز أتباع الطريقة بمظهرهم الخارجي عن بقية الناس إلا في حالات نادرة جداً.

دمشق هي مقر الوالي[2] ومقر قيادة الجيش الخامس[3]. ويوجد في المدينة حامية عسكرية مهمة. تضم القوات مختلف أصناف الأسلحة وهي تجند عناصرها من مختلف مناطق تركيا الآسيوية[4]. يوجد في فرقة الخيالة في دمشق كثير من الشركس والأكراد ولكن لا يوجد فيها عرب. تجهيزات الجنود جيدة جداً وسلوك

---

(1) انظر الخريطة عند هـ. دوفاريه، الطريقة الإسلامية لسيدي محمد بن علي السنوسي، باريس 1886م.

(2) تتألف السراي من قصر يعود إلى بداية القرن، ويوجد إلى جانبه مبنى البريد ومبنى المحكمة وأهم فنادق المدينة. وفي ساحة السراي يوجد أيضاً مبنى البلدية الحديث.

(3) تشمل منطقة الجيش الخامس سورية بكاملها اعتباراً من طوروس بالإضافة إلى فلسطين والجزء الشمالي الغربي من بلاد الرافدين مع أورفة.

(4) في القسطنطينية يوجد لواء مشاة للحراسة مؤلف من جنود سوريين حصراً.

القوات منضبط وحازم[1]. يقع المبنى الفخم الذي يقيم فيه الحاكم العسكري وغالبية الثكنات العسكرية بالقرب من السراي، وفي غربي المدينة بنيت مؤخراً ثكنات عسكرية كبيرة. في بناية الحاكم أقام صاحب الجلالة القيصر فيلهلم الثاني وصاحبة الجلالة عقيلته عند رحلتهما الخالدة الذكر إلى الأراضي المقدسة وسورية في خريف عام 1898م.

من الأماكن القريبة التي تستحق الزيارة مزرعة العجوز محمد باشا سعيد أمير الحج مع ما فيها من حدائق وورود. وبما أن مقر السكن الدائم للباشا كان في المدينة فقد كان بيته في المزرعة لا يحتوي على أثاث كاف. ولذلك كان كلما ذهب مع حريمه إلى المزرعة يأخذ معه الأسرة والوسائد وأدوات المطبخ وغير ذلك. وكان لديه أيضاً مزرعة للخيول العربية الأصيلة من أرقى الأنواع. كانت الاصطبلات الواسعة والمعتنى بها على أكمل وجه محاطة بمساحة كبيرة من الأرض.

* * *

---

(1) تعرفت في دمشق على خمسة ضباط أتراك تحدثوا معي بلغة ألمانية ممتازة. حتى ما قبل وقت قصير كانوا مع عدد من الزملاء الآخرين موفدين للعمل عدة سنوات في الجيش الألماني. الضباط الخمسة كانوا: ناصر بك أرسل إلى لواء الحراسة الثالث في برلين وكان آنذاك مساعداً للسلطان، عقيد ومفتش في سلاح المشاة، ابن الجنرال نصرت باشا المشهور الذي كان ما زال يعيش في بغداد؛ رضا بك أرسل إلى لواء المدفعية رقم 27 في ماينتس وفيسبادن، كان مساعد السلطان وبرتبة عقيد؛ شوكت بك أرسل إلى لواء المدفعية في شارنهورست في هانوفر، كان برتبة رائد في سلاح المدفعية؛ صالح بك أرسل إلى لواء الفرسان رقم 9 في ترير، كان برتبة مقدم؛ حلمي بك أرسل إلى لواء المدفعية رقم 81 في فرانكفورت/ ماين، كان برتبة مقدم. كان هؤلاء الضباط الخمسة قد أنهوا للتو زيارات رسمية لمختلف قطعات الجيش في تركيا الآسيوية دامت عدة أشهر لغرض التفتيش وإعطاء التعليمات. وكانت تصرفاتهم وحركاتهم العسكرية الصارمة تشير إلى أنهم لم ينسوا قواعد المدرسة العسكرية البروسية. وكانوا قد أثبتوا كفاءتهم العالية في الحرب التركية اليونانية عام 1897م وحصلوا على أعلى الأوسمة. وكانوا يحفظون أطيب الذكريات لقطعاتهم الألمانية وزملائهم الألمان؛ وما زالوا يتبادلون الرسائل مع بعضهم ويحتفلون مع أصدقائهم في ذكرى وجودهم في ألمانيا.

كان من المقرر أن أقوم في دمشق بتنظيم رحلتي إلى بغداد. تأخر تحضير القافلة بعض الشيء ولم تتخذ بقية الاستعدادات إلا ببطء. كنت منذ البداية قد رفضت اصطحاب دليل محترف صاحب شركة سفريات لأن هؤلاء هم غالباً مسيحيون سوريون يمارسون مهنتهم، حسب الظروف، في مصر أو فلسطين أو سورية، ويغض النظر عن أنهم يأخذون من الغرباء مبالغ كبيرة، فهم معروف عنهم أنهم يخرجون عن طرق القوافل المعتادة ويسلكون طرقاً غير مريحة لا بل وخطيرة. وهم يفضلون طبعاً إعطاء معلومات ناقصة أو كاذبة على إجراء الاستطلاعات الصعبة والمكلفة. ولذلك فهم غير مفيدين إطلاقاً للمسافرين الذين يلاحقون اغراضاً علمية وللمناطق الواقعة خارج الطرق السياحية المألوفة.

كانت قافلتي تتألف في البداية من عشرة أشخاص، وبالتحديد من ثلاثة جمّالة وخادمين للخيل وخادمين سوريين وطباخ أمريكي وبدوي واحد اسمه «الشيخ» منصور نصر ومن طالب في المدرسة الطبية البروتستانتية الأمريكية في بيروت وهو مسيحي سوري شاب من مواليد حماه اسمه نجيب سلوم سمح له مديره السيد بليسّ وأستاذه السيد الدكتور بوست بمرافقتي. وقد كان مفيداً خلال الرحلة بشكل خاص لأنه كان قادراً على كتابة الأسماء بشكل صحيح باللغة العربية وعلى تجفيف النباتات التي نجمعها على الطريق. كان الجمالة وواحد من خادمي الخيول اسمه أشبان ينتمون إلى قبيلة عقيل؛ وكان السايس (خادم الخيل) الآخر فارسياً. كما أن الشيخ منصور الذي كان يزعم أنه بدوي من قبيلة عنزة، وبالتحديد من فرع سبعة، كان في الحقيقة من عقيل[1] أيضاً الذين أصبحوا مستقرين قرب بغداد وصاروا يكسبون رزقهم بالدرجة الأولى من قيادة قوافل الشحن. وهم يقدمون أيضاً الإبل المستعملة لنقل البريد في الصحراء[2]. في الماضي كان منصور يعمل، حسب قوله، في نقل البريد على طريق دمشق بغداد. وكانت له علاقة مع بدو السبعة عن طريق والدته، وبالتحديد مع الشيخ مجول

(1) تعد قبيلة العقيل من أقدم القبائل البدوية. انظر حوليات أبو الفدا، الجزء الرابع، ص83. جزء من العقيل ما زال يقيم اليوم في مناطق الواحات جنوبي نجد.

(2) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب.

الذي كان قد تزوج سيدة بريطانية غنية ومحترمة توفيت قبل بضعة أعوام. حياة هذه المرأة ومصيرها رومانسيان إلى أبعد الحدود وما زال الناس في سورية يتناولونها في أحاديثهم وحكاياتهم. كانت بعد أن تركت زوجها قد جاءت إلى القاهرة حيث عاشت بعض الوقت في بلاط الخديوي إسماعيل. في رحلة لها إلى تدمر كان الشيخ مجول مرافقاً لها بصفة دليل ففكر بخطة مليئة بالمغامرة لكي يحصل على المرأة وثروتها. بناء على طلبه قام رجال من قبيلته بالهجوم عليها فتصدى لهم بكل شجاعة وظهر بمظهر البطل الذي أنقذ حياتها في أعصب الأوقات. تم تنفيذ المسرحية الهزلية حسب الخطة وعرضت السيدة على حاميها الشجاع الإقتران به مدى الحياة. ما زال الناس في دمشق حتى اليوم يشيرون إلى البيت الذي كانت تقضي فيه جزءاً من العام؛ لكنها كانت تقضي عدة أشهر كل عام مع زوجها وقبيلته في الصحراء كامرأة بدوية حقيقية. لم أكن راضياً بأي حال من الأحوال عن الشيخ منصور؛ فقد ثبت أنه غير صادق ولا يمكن الاعتماد عليه وغير مفيد. كما أنه لم يكن يعرف سوى الطرف الشمالي الغربي للحماد، وبالتحديد منطقة بالميرا. وبما أنه لم يكن يعرف الطرق في المناطق الأخرى التي قررت المرور فيها وأبدى استهتاراً غير مسؤول بمسألة الماء والمؤن، فقد عرض الرحلة لخطر جسيم مما جعلني أهمله كلياً بعد ذلك. من بين خدمي الشخصيين أثبت بشكل خاص اللبناني طنوس معلوف أنه مخلص ويمكن الاعتماد عليه[1].

أما مجموعة الحيوانات التي أخذتها معي فكانت تتألف من ستة خيول، وعدة جمال للركوب (ذلول) لاستخدامها في حال فقدان الخيول، ومن 12 جملاً للحمولة؛ هذه الأخيرة كانت مستأجرة. خلال الرحلة اضطررت إلى إضافة عدة جمال إلى القافلة، في بعض المقاطع حتى عشرة جمال، من أجل أخذ كميات أكبر من الماء والمؤن.

كانت مسألة التزود بالمياه ذات أهمية خاصة بالنسبة للرحلة لأنها وقعت في

---

(1) عند زيارتي الجديدة عام 1897م لبيروت جاء على الفور إلى الباخرة وحمل أمتعتي ووقف في خدمتي ثانية وكان هذا أمراً بديهياً، وفي المرة الثالثة أيضاً عام 1898م عاد إلى خدمتي بمنتهى الرغبة.

صيف 1893م الذي كان حسب قول البدو حاراً بشكل غير عادي، ولأنه كان ينبغي نتيجة لذلك أن نضع في الحسبان أن المواقع التي يتوفر فيها الماء في الصحراء ستكون قليلة جداً. على أي حال كان يتعين علينا أن نضع في اعتبارنا أننا يجب أن نكون قادرين على قضاء ثلاثة أيام دون تزود بالماء. إذ بصرف النظر عن أن هذا البئر أو ذاك من الآبار القليلة المعروفة يمكن أن يكون قد جف أو أصبح غير صالح للاستعمال، كان من الضروري أيضاً أن يضع المرء في اعتباره، وفي فصل الصيف بالذات، خطر التعرض لهجمات البدو (الغزو) الذين يأتون من مسافات بعيدة في جماعات تصل إلى 100 رجل أو أكثر، وهم أيضاً في أمس الحاجة إلى مواقع المياه القليلة، وقد يخرجون عن الطريق ويضطرون للسير إلى أقرب موقع للماء. ولم يكن في وسعي أن أقاوم مثل هذا الغزو، لو حدث، بسبب قلة رجالي على الرغم من أنه كانت ترافقني على الدوام مجموعة حراسة تتألف من بعض رجال الشرطة الأتراك (الضبطية) أو من بعض رجال البدو من القبيلة التي تعتبر المنطقة التي نعبرها من مراعيها. ولكن تجدر الإشارة إلى أن الحراسة البدوية لا تحمي إلا من هجمات القبيلة ذاتها أو قبيلة صديقة لها. إذ إن مبدأ الثأر يجعل الاصطدام مع البدو وخيم العواقب فالمسافر الذي يقتل بدوياً يجب أن يتوقع أن أفراد القبيلة سيتعقبونه على مدى أسابيع وربما أشهر.

وكنت مصمماً على السير قدر الإمكان في النهار وذلك من أجل التعرف شخصياً وبشكل جيد على المناطق التي نمر فيها، من جهة، ولأن قوافل الغزو تسير في الصيف غالباً في الليل من جهة أخرى. على الرغم من ذلك كان مرافقيّ يريدون السفر في الليل فقط بسبب الحر الذي لا يطاق في النهار، وكان يتعين علي مرة تلو الأخرى التصرف بمنتهى الشدة لكي أفرض رأيي. من المهم جداً التحدث إلى البدو بلغتهم، باللغة التي يفهمونها، لأن الرغبات المنقولة إليهم عن طريق المترجم يقابلونها دوماً بكثير من الريبة لا بل إنها تؤدي بسهولة إلى سوء تفاهم من مختلف الأنواع.

في المسيرات الطويلة (في العادة 12 ساعة يومياً) كان يتعين علي ـ أيضاً ضد الاعتراضات الحادة لمرافقي ـ أن أصر على عدم التلكؤ أو التمهل لكي لا

يزداد خطر الموت عطشاً نتيجة نفاد ما معنا من الماء. كانت درجة الحرارة عالية جداً بالفعل؛ بلغ متوسط درجات الحرارة القصوى 47 درجة مئوية في أحد الأسابيع خلال رحلتي. وبلغت أعلى درجة سجلناها في الظل 54 درجة مئوية. وعلى الرغم من أن هذه الحرارة لا تعبر عن درجة حرارة الهواء وإنما تتضمن أيضاً الحرارة المنبعثة من الأرض الساخنة، فإنها تعطي فكرة عن الحرارة التي تعرضنا لها. حاولت حماية نفسي من أشعة الشمس بارتداء عدة أثواب خفيفة فوق بعضها البعض. ومما قدم أفضل خدمة عباءة بيضاء رقيقة وواسعة. ووضعت على رأسي قبعة عريضة الأطراف ولففت حولها غطاء غامق اللون يشبه العمامة. ورغم ذلك كانت الحرارة أثناء السير لا تحتمل. وعلى الرغم من النظارة السوداء التهبت عيناي عدة مرات.

يستوعب الجسم البشري كمية هائلة من السوائل عند السير يوماً حاراً في الصحراء. يضاف إلى حاجة الإنسان من مياه الشرب ما يحتاجه الأوروبي من ماء للطبخ وغسل الوجه والعيون. وهكذا يستطيع المرء أن يتصور كم هو مهم الوصول في الوقت المناسب إلى موقع فيه ماء. فالحصان، شأنه شأن الإنسان، لا يستطيع البقاء يوماً كاملاً دون ماء إذا ما تعين عليه فعلاً السير من الفجر حتى المغيب في حر الشمس اللاهب. أما الجمل فيستطيع البقاء دون ماء يومين، وعند الضرورة ثلاثة أيام، عند السير 12 ساعة يومياً في حر الصيف، ودون أن تتعرض صحته لأي ضرر. وفي فصول السنة الأبرد يستطيع البقاء مدة أطول دون ماء وخاصة إذا ما توفر له بعض الكلأ الأخضر.

من أجل نقل الماء استعملنا، كما هو شائع في البلاد العربية، في الصحراء وفي العالم الإسلامي بكامله تقريباً، القربة المصنوعة من جلد الماعز أو الغنم المدبوغ حيث يتم بعد قطع الرأس تخييط القوائم باستثناء واحدة منها أو باستثناء الرقبة. تستعمل الفتحة لإملاء القربة بالماء ثم تغلق بعد ذلك بعناية بربطها بخيط. وإياك أن تترك قطرة ماء واحدة تسقط من القربة على الأرض عند فتحها أو إغلاقها، لأنك عندئذ ستسمع من رفاقك ألذع الشتائم. يحمل الجمل أربع أو خمس قربات من هذه القرب التي تتسع الواحدة منها لحوالي 30 ـ 40 ليتراً.

ومن الطبيعي أن الماء يسوء شيئاً فشيئاً عند نقله في هذه القرب. بسبب ما تحتويه مياه الآبار والخزانات الجوفية في الصحراء من شوائب تكتسب القُرب بعد وقت قصير طعماً ترابياً فاسداً ورائحة كريهة تنتقل فيما بعد إلى ماء البئر مهما كان صافياً. وتجدر الإشارة إلى أن جزءاً كبيراً من ماء القرب يتبخر. فخلال سيري في الحرّة انخفضت كمية الماء الموجودة في القرب والتي لم تستعمل إطلاقاً إلى النصف في نهاية اليوم الثاني، مع الأخذ بعين الاعتبار أن المرافقين لا بد أن يكونوا قد سحبوا منها بعض الماء خفية رغم كل الاحتياطات ويجب ألا يستهين المرء بخطر انفجار القربة عند سقوطها على حجر مدبب. ويجب أن تعالج القرب بعناية فائقة بعد تفريغها وتجفف وتعبأ من جديد بمنتهى الحذر لكي لا تصاب الخياطة بأي ضرر.

قام الجيش الاستعماري الإنجليزي، وخاصة القوات الموجودة في عدن وصعيد مصر، بإجراء مختلف التجارب المتعلقة بنقل الماء في الصحراء. وقد تبين أن الأوعية الخشبية التي تشبه البرميل والمستعملة زمناً طويلاً غير مناسبة للحرارة الاستوائية. وهي علاوة على ذلك معرضة بسهولة لمختلف أنواع الحوادث ولذلك أوقف استعمالها، ويفضل الجيش الإنجليزي المصري في الوقت الحاضر أوعية حديدية مطلية بالقصدير. وقد يكون نموذجاً جيداً وعملياً الوعاء الذي صممته بنفسي قبل وقت قصير. لكي يجد الصندوق مكاناً على ظهر الجمل يجب أن يكون ارتفاعه وطوله أكبر من عرضه. يتألف نموذجي من الأبعاد التالية: الطول 60 سنتيمتراً. والارتفاع 47، والعرض 38. على الجهة المقابلة للحيوان يوجد في الأعلى والأسفل حلقتان (في كل جهة) يمر فيهما الحبل أو النطاق الجلدي المتصالب الذي يثبت الوعاء بواسطته على ظهر الجمل. وعلى الجدار العلوي توجد فتحة دائرية بقطر 4 سنتيمترات تقريباً تغلق بواسطة سدادة معدنية لولبية قوية وتستعمل لتعبئة الوعاء بالماء. وهناك فتحة ثانية صغيرة في الجزء السفلي من الجهة الضيقة تستعمل لسحب الماء وهي مزودة بصنبور نحاسي يمكن طيّه نحو الداخل في الوعاء بحيث يختفي، مثله مثل سدادة الثقب العلوي، في تجاويف الصندوق. فوق هذه التجاويف توجد صفائح مزودة

بمفاصل وقابلة للإغلاق. وعند إغلاقها يصبح ضياع الماء الثمين مستحيلاً. ومن أجل المحافظة على الماء بارداً إلى حد ما ومن أجل حماية الصندوق نفسه يغلف الصندوق باللباد. يتسع نموذجي 54,5 ليتراً من الماء ويزن، بدون توابعه من سرج وحبل والخ...، فارغاً 15,5 كيلو غرام. وبذلك سيبلغ وزن حمولة الجمل الذي يحمل صندوقين مملوءين بالماء نحو 150 كيلو غرام، وأكثر من ذلك لا يجوز تحميل الجمل في فصل الصيف وخاصة عند السير مسافات طويلة. قد يقوم مسافرون آخرون بتجريب النموذج الذي صممته وبتحسينه إن أمكن.

من أجل الاستعمال الشخصي أثناء المسير أو في الخيمة أخذنا معنا الأوعية المائية الصغيرة التي تشبه القارورة والمصنوعة من الجلد القوي والشائعة الاستعمال عموماً والمسماة في سورية زمزمية. على قاعدة بيضاوية ينتصب الوعاء الأسطواني الذي له في الأعلى فتحتان مغلقتان بسدادة من الجلد أو الخشب. ويتم تثبيت الزمزمية المزودة بكلاّب معدني بواسطة سلسلة على أمتعة الجمل أو سرج الحصان[1].

ومما يحتاج إلى عناية خاصة خوفاً من الكسر الوعاء الفخاري «الشربة» التي اخترتها لاستعمالي الشخصي. فهي مشوية بشكل ضعيف ومصنوعة من الفخار المسامي. لها عند الرقبة واقية مزودة بثقوب لمنع دخول الغبار والأوساخ. تحافظ الشربة على الماء بارداً وتستعمل في جميع بلدان الشرق بأشكال وحجوم مختلفة.

من أجل الاستعمال الشخصي للرحالة الأوروبيين المسافرين في الصحراء تصلح القوارير المصنوعة من الألمنيوم أو من الصفائح الحديدية المطلية أو النحاس المفضض أو من المطاط القاسي الملبس بلباد سميك، بسعة 1 ـ 3 ليتر. وفي جميع الأحوال يجب أن تكون السدادة مثبتة على القارورة نفسها. أخذت

---

(1) هذه الأوعية أيضاً موجودة في جميع أرجاء العالم الإسلامي. في المغرب يوجد أوعية مشابهة لها مصنوعة من الفخار، مشغولة بشكل جميل ومزينة بمختلف النقوش والألوان.

معي من معمل للمياه المعدنية في دمشق عدداً من صناديق المياه الغازية التي كانت مفيدة جداً نتيجة لسوء الماء في الصحراء.

إذا ما كنت قد أسهبت في الحديث عن مسألة نقل الماء فإنني قد فعلت ذلك لأنني أعرف من تجربتي الشخصية إلى أي مدى تتوقف حياة المسافر في الصحراء على الماء. وتاريخ الصحراء الليبية يعرف حكايات كثيرة عن قوافل كاملة قادمة من واداي ماتت عطشاً قبل ساعات قليلة من وصولها إلى الواحات المصرية. في كل مكان على طرق القوافل في الصحراء الإفريقية والصحراء العربية يشاهد المسافر عظام الخيول وغيرها من الحيوانات، وفي كل صيف يفقد هنا أناس حياتهم بسبب نقص الماء.

أحجمت خلال الرحلة قدر الإمكان عن تناول الكحول، إذ كنت أشرب من النبيذ السوري الذي أخذته معي كأساً واحداً كل يوم ولم أتناول فيما عدا ذلك أي مشروبات روحية. وقد كنت مرتاحاً جداً مع هذا الوضع. أما مؤنتي من المعلبات فكانت قليلة؛ ذلك أنني اقتصرت بصورة عامة على الأغذية المألوفة محلياً وخاصة مأكولات الدروز والبدو: الرز والبرغل، وعندما تتاح الفرصة، لحم الغنم والدجاج . أما ما أخذته معي من بسكويت، المأكول الذي يحبه العرب كثيراً أثناء السفر، فقد نفد بعد وقت قصير وأصبح الخبز بعد ذلك طعامنا الشهي.

كنت قد جلبت معي خيمتي من القاهرة حيث تصنع خيام أفضل بكثير للرحلات في المناطق الجافة والحارة. فقط الخيام المصنوعة في الهند تضاهي الخيام المصرية. الخيام القاهرية كثيرة الزوايا ولها عمود واحد في الوسط، السقف مزدوج لكي يوفر حماية كافية من أشعة الشمس. فيما يتعلق بخيمتي الشخصية فقد طلبت تزويدها بمظلة أمامية كنت أستقبل تحتها في أيام الاستراحة زواري من الأهالي المحليين.

أود الحديث أيضاً عن شيء يبدو تافهاً ولكنه في الواقع بالغ الأهمية وهو: المصباح. كل من شارك في رحلات علمية كبيرة يعرف المصاعب التي تسببها قضية الإنارة. لقد قمت بتصميم نموذج جديد خاص بي أنصح أيضاً بأن يقوم

آخرون باستعماله وتحسينه[1]. يشبه هذا المصباح فانوس العربات عندنا ويوضع أثناء النقل في غلاف؛ عند استعماله يربط مع الغلاف بواسطة شمعدان مزود بنابض مزروع في غطاء الغلاف. والمصباح مزود بمسكة، وبذلك يمكن استعماله معلقاً أو واقفاً. هناك صفيحة معدنية يمكن إدخالها عند الحاجة في المصباح، ولها مكان في جيب في الغلاف، تمكننا من تحويل المصباح إلى فانوس عاكس.

من أجل تقديم الهدايا للبدو أخذت معي معاطف وجزمات طويلة لركوب الخيل وأغطية للرأس، بالإضافة إلى كميات كبيرة من التبغ الذي كثيراً ما يطلبه منك البدو. كما أن الغلايين الغضارية (الفخّارية) المذكورة سابقاً، والتي أخذت معي كميات كبيرة منها، كسبت من ورائها في وقت لاحق كثيراً من الأصدقاء.

بفضل تكرم البارون رادولين، سفيرنا آنذاك في القسطنطينية، بتزويدي بتوصيات رسمية من وزارة الداخلية التركية موجهة إلى ولاة المناطق التي سأمرّ فيها، حصلت من رؤوف باشا والي دمشق آنذاك على كتاب توصية موجه إلى متصرف حوران المقيم في الشيخ سعد. ولا يسعني إلا أن أعرب عن الامتنان من أن السلطات التركية قابلتني خلال رحلتي كاملة بمنتهى اللطف والمودة وقدمت لي كل الدعم والمساندة. من الطبيعي أنني كنت مضطراً، عند عبوري مناطق تعود لقبائل غير ملتزمة بالنظام العام، إلى عقد اتفاقيات خاصة بين حين وآخر مع هذه القبائل.

انطلقت القافلة في 24 يونيو/ حزيران 1893م. فضلت استعمال قطار حوران حتى الشيخ مسكين. تقع محطة قطار حوران في غرب دمشق في نقطة غير بعيدة عن تكية الدراويش. في الساعة الخامسة صباحاً صعدت إلى قطار مخصص لنقل العمال والمواد. مرت الرحلة في البداية أمام محطة دمشق الرئيسية التي كانت آنذاك لما تزل قيد البناء والواقعة في غرب حي الميدان الجنوبي المتطاول، ثم عبر البساتين الخارجية للمدينة إلى داريا التي يشكل المسلمون ثلاثة أرباع

(1) أعطيت النموذج لشركة «فون تيبلسكيرش وشركاه» البرلينية المتخصصة بالتجهيزات الاستوائية.

سكانها والمسيحيون من الأرثوذوكس الشرقيين الربع الآخر، وفيها مئذنة وقبة (ضريح على شكل قبة)[1] مهداة للقديس حزقيل. من داريا، وهي قرية كبيرة، يأتي إلى دمشق عنب فاخر حبّه كبير وقشرته سميكة. بعد ذلك يمر القطار في حقول الشعير والقمح التي تتخللها شجيرات العرق سوس البرية. وبعد وقت قصير تظهر قرية الأشرفية التي يملكها ورثة الأمير عبد القادر الجزائري[2]. وخلف قرية صحنايا، الواقعة على بعد 13 كيلو متراً من دمشق، اجتزنا سلسلة هضبية بركانية هي جبل المانع. هنا تظهر امتدادات المنطقة البركانية الرهيبة حوران: موجات من الحمم البركانية الواضحة المعالم، وبعيداً في السهل كتل الحجارة البركانية المستديرة غالباً والمتناثرة في كل مكان. عند الكيلومتر 16 تبلغ سكة الحديد أقصى ارتفاع لها؛ وعند الكيلومتر 20 عبرنا نهر الأعوج الذي كان آنذاك خالياً من الماء. على يمين السكة كانت تقع قرية المقيلبية وعلى يسارها قرية الكسوة. وبعد وقت قصير تجاوزنا الثكنة المحصنة خان دنون، وبعدها جنوباً المدينة الأثرية الصنمين.

أصبحت المنطقة هنا رتيبة عديمة التضاريس وظلت كذلك حتى الشيخ مسكين. وطالما سمحت الكتل الصخرية بذلك نشأت هنا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة يحدها من اليمين جبل حرمون الجبار المغطى بالثلج ومن اليسار سلسلة من التلال الصغيرة وفي وقت لاحق منطقة اللجاة السوداء. وكان بعض السكان المحليين الذين جاؤوا من قرى اللجاة إلى السهل لجني المحصول، والذين وقفوا مدهوشين وهم يراقبون القطار العابر، التنوع الوحيد في

---

(1) تسمى في مناطق أخرى في سورية وبلاد الرافدين «ولي» وفي جنوب الرافدين «إمام».

(2) كان عبد القادر قد سجن بعد هزيمته بضعة أعوام في فرنسا ثم أطلق سراحه بعد أن أقسم على القرآن أنه لن يعود إلى الجزائر ولن يقوم بأي نشاط ضد فرنسا. وقد خصص له راتب سنوي قدره 70,000 فرنك. أقام في البداية في بروسا ثم انتقل إلى مكة لكنه اختار في النهاية دمشق مقراً له حيث توفي في مايو/ أيار 1883م. وما زال بعض أبنائه يعيشون في دمشق مع عدد كبير من المهاجرين الجزائريين في حي صغير خاص.

طبيعة الأرض المتجانسة.

وصلنا إلى الشيخ مسكين[1] في الساعة العاشرة صباحاً؛ هنا كان في انتظاري منصور ونجيب سلوم الذي كان قد جلب لنا من الشيخ سعد كتب توصية إلى جميعقائمقاميّ المنطقة. هنا وصلني خبر يفيد بأن معركة قد وقعت قبل بضعة أيام بين الدروز قتل فيها قائمقام قضاء السويداء إبراهيم باشا الأطرش الذي كان الأمير أرسلان الدرزي قد أعطاني كتب توصية موجهة له. ولذلك توقع الناس حدوث حالة من الفوضى التامة في جبل حوران ونصحوني بالحاح أن أغيّر خط سيري المرسوم مؤكدين أنه من المستحيل أن أتوغل في الحرّة اعتماداً على الدروز. ولكن مثل هذه الاعتراضات والتحذيرات كنت قد اعتدت عليها منذ أن كنت في دمشق.

غادرنا الشيخ مسكين في الساعة الثالثة بعد الظهر متوجهين على الدواب إلى بصر الحريري الواقعة على بعد 22 كيلو متراً (خط جوي) إلى الشرق. قبل حوالي الساعة من وصولنا تعين علينا اجتياز موجة بركانية عرضها عدة دقائق ممتدة من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي وارتفاعها 30 ـ 40 قدم. على هذا اللسان البركاني تقع قرية أزرع، مدينة زوروا القديمة التي تغطي التربة البركانية الداكنة آثارها التاريخية.

نصبت مخيمي في بصر الحريري في الأسفل على طرف اللّجا: ثلاث خيام، إحداها لي والثانية الصغيرة لنجيب سلوم التي اقتطعنا منها في وقت لاحق خيمة الفطور، والثالثة للخدم والمطبخ. كانت خيمتي تحمل العلم الألماني والخيمة الثانية العلم التركي. وأمام الخيام كانت تقف الخيول في صف واحد مربوطة، حسب التقليد المحلي، بحبل طويل مشترك في قوائمها الأمامية، وإلى جانبها تبرك الجمال. كان خدامي ومرافقي يحيونني بسرور ـ كان مخيماً جميلاً يلفت الانتباه. لبضعة أشهر من الآن أصبحت خيمتي هي بيتي.

---

(1) مسكين تعني باللغة الألمانية: الفقير، باللغة الفرنسية: مسكان

الفصل الثالث

حوران ومبانيها

حوران اسم جغرافي وسياسي ـ سهل حوران (النقرة) ـ جبل حوران ـ التراخونة ـ اللجاة ـ الحرّة وديرة التلول ـ صحراء المدن في حوران ـ تاريخ حوران ـ سكان الكهوف ـ مهاجرون يمنيون ـ التنوخيون، الجفنيون، الغساسنة ـ سيادة روما، العصر البصراوي ـ الساسانيون في حوران ـ الفتح الإسلامي ـ الازدهار الثاني لحوران في العهد الصليبي ـ الإقفار الكامل ـ الاستيطان الجديد على يد الدروز ـ مباني حوران ـ مزيج من الفن الإغريقي الروماني مع أفكار يمنية ـ ملامح بابلية وآشورية ـ مؤثرات فارسية أم تطور مستقل ـ سورية وحوران كمهد للفن العربي.

* * *

يطلق اسم حوران ليس فقط على جبل حوران، جبل الدروز، وإنما أيضاً بالمعنى الواسع على كامل المنطقة الواقعة جنوب سهل دمشق والتي يحدها من الغرب امتدادات جبل حرمون والجبال الفلسطينية الشمالية ومن الجنوب البادية السورية ومن الشرق الصحراء الصخرية الحرة. وتتطابق هذه المنطقة بشكل عام مع المنطقة الإدارية السياسية متصرفية حوران التي يقيم رئيسها في الشيخ سعد، ويتبع له ست قائمقاميات هي: قائمقامية جبل حوران ومركزها السويداء، وبصر الحريري، والقنيطرة، ودرعا، وعجلون ومركزها إربد، والسلط.

يُعدّ سهل حوران، المسمى النقرة، من أخصب بقاع الأرض وكان منذ قديم

الزمان مخزن حبوب سورية. وهناك الكثير من الآثار التي تدل على أن المنطقة كانت مأهولة منذ أقدم العصور؛ في الآونة الأخيرة يعيش هنا فلاحون عرب أصبحوا مستقرين إلى حد ما وتترك لهم تركيا بعض الحرية وتعفيهم حتى الآن، شأنهم في ذلك شأن الدروز والبدو، من الخدمة العسكرية.

جبل حوران هو أعلى مرتفع في المنطقة البركانية الكبيرة على حدود شرقي الأردن والصحراء السورية، وهو سلسلة جبلية يبلغ طولها في الاتجاه الشمالي الجنوبي نحو 70 كيلومتراً ويبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها 1800 متر. في الجنوب ينحدر الجبل شيئاً فشيئاً حتى البادية السورية؛ فيما عدا ذلك يصعد فجأة وبانحدار شديد من السهول الواقعة تحته والتي تنخفض عنه بضع مئات الأمتار، من الغرب يصعد من النقرة، ومن الشمال من سهل دمشق ومن الشرق من الحرة. نتيجة لعوامل الحت والتعرية والمؤثرات المناخية المستمرة منذ آلاف السنين تحولت المخلفات البركانية، في كل مكان لا تظهر فيه الصخور والكتل الحممية على وجه الأرض، إلى تربة حمراء بنية لا تقل خصوبة عن التربة البنية الصفراء في سهول حوران. أعلى قمة في جبل حوران هي تل الجينة (1840م) والفوهة البركانية لجبل القليب (1724م)؛ إلى جانبها يوجد عدة فوهات مخروطية أقل ارتفاعاً.

في عهد حديث نسبياً خرجت من الفوهتين البركانيتين الواقعتين في الجزء الشمالي من حوران وهما الحبيس والغرارة القبلية كميات كبيرة من الحمم البركانية التي سالت نحو الشرق والغرب في سهل دمشق. تشكل منطقة الغمر البركاني في الغرارة، وتسمى اللّجاة، التراخون الغربي[1]، هضبة حميمة مربعة

---

(1) حتى (المؤرخ والجغرافي الإغريقي ـ 63 ق.م.) سترابو (16، 755/ 756) يتحدث عن التراخونتين، منطقتين وعرتين هضبيتين قرب حوران. كتب حرفياً يقول:

ὑπέρκεινται δ' αὐτῆς
δύο λεγόμενοι λόφοι τραχῶνες· ἔπειτα πρὸς τὰ Ἀράβων μέρη καὶ τῶν Ἰτουραίων ἀναμὶξ ὄρη δύσβατα, ἐν οἷς καὶ σπήλαια βαθύστομα, ὧν ἓν καὶ τετρακισχιλίους ἀνθρώπους δέξασθαι δυνάμενον ἐν καταδρομαῖς, αἳ τοῖς Δαμασκηνοῖς γίνονται πολλαχόθεν,

وهذا يعني: «خلف دمشق (انطلاقاً من البحر) يوجد مرتفعان، ما يسمى التراخونة، وبعد ذلك يأتي بعد المناطق التي يسكنها العرب والإيتوريون جبال صعبة المسالك=

الشكل يبلغ طول ضلعها نحو 40 كيلو متراً ترتفع عن المنطقة المحيطة بها نحو 15 متراً وسطياً ولا يوجد فيها مرتفعات خاصة تستحق الذكر. لم يعثر حتى الآن على فوهات بركانية مستقلة داخل اللجاة. فقط بين حين وآخر توجد في الكتل الصخرية المشققة بقع منخفضة خالية من الصخور تسمى «قاع» يزرع فيها بعض الحبوب. بعض هذه البقع هي مناطق مرتفعة قليلاً من الأرض الأصلية التي لم تغطها الحمم البركانية عند سيلانها، وبعضها الآخر تراكم من التربة الزراعية التي تجمعت فوق الأرضية البركانية. يسمى الطرف المتشقق لهذا الركام البركاني، الذي يدخل في السهل مشكّلاً غالباً أشكالاً عجيبة ويصل إلى ارتفاع يتراوح بين 10 و30 متراً، اللّحف.

الصحراء الصخرية البركانية الواقعة في شرقي حوران يعود أصلها إلى فوهات بركانية مختلفة واقعة داخل مجالها، وهي فوهات لخروج حمم لبراكين ناشطة تحت الأرض، ولم ترتفع في أغلب الأحيان إلا قليلاً جداً فوق السطح الأصلي لصحراء الحماد. وقد تكون الفوهات البركانية الموجودة في الجزء الشرقي من جبل حوران قد شاركت أيضاً في تشكيل الصحراء الصخرية. ومن الممكن التعرف بكل وضوح في الحرة على حدود السيلانات البركانية المنفردة المختلفة من حيث الزمن والمنشأ، وذلك عن طريق الألوان المختلفة لحقول اللافا (الحمم) أو عن طريق درجة الحت المختلفة من حقل إلى آخر. وفي بعض الأحيان يبدو أن طبقة من الحمم قد امتدت فوق طبقة سابقة. كانت الأرض الأصلية للصحراء متموجة الشكل ولقد اتخذ الغطاء البركاني الذي ترسب فوقها شكلاً متموجاً أيضاً. يجاور الحرة الحقيقية من جهة الشمال «التراخون الشرقي»،

= يوجد فيها مغاور عميقة تتسع إحداها لأربعة آلاف شخص عند الهجمات التي يتعرض لها الدمسكانيون (أي سكان دمسكانه) من جهات كثيرة». من الاسم تراخون تم في العهد الروماني اشتقاق التسمية تراخونيتيس. «التراخونيتيس» موجودة عند لوقا (3، 1)؛ وأيضاً عند بلينيوس، وترد مراراً وتكراراً عند يوزفوس (1، 6، 4، 15، 10، 1؛ 16، 9، 2، الخ... الخ...). ويفهم الأخير (يوزفوس) تحتها اللجاة حصراً. انظر أيضاً: ريندفلايش، طبيعة حوران في العهد الروماني وفي الوقت الحاضر، في مجلة .Z. D. P. V، الجزء 21، لايبزيغ 1898، ص2.

المنطقة البركانية الكبيرة التي تضم الهضبة البركانية المسماة ديرة التلول وتلول الصفا الواقعة قرب الرحبة، الواحة الوحيدة في الحرة، ثم تلول الضرس وتلول الرغيلة ومرتفعات أخرى، تصل شرقاً حتى سهول الحماد التي تمتد حتى الخليج العربي، وشمالاً حتى الضمير أو بالأحرى حتى النهاية الغربية للحماد أي حتى خط العرض 35° 33° شمالاً[1]. في الصيف تكون الحرة خالية تماماً تقريباً من النباتات: صحراء صخرية قاحلة رهيبة. في الجنوب نجدها مرسومة في خريطة دوتي[2] حتى مستوى جرش أي حتى خط العرض 15° 32°. امتدادها من الغرب إلى الشرق أقل لكنه يبلغ في أكبر عرض له نحو 100 كيلومتر.

يعتقد بأن المناطق البركانية في حوران والحرة ترتبط بها أيضاً تشكلات قمعية مختلفة واقعة إلى الشمال والشرق وعلى رأسها البركانان التوأمان المسميان العبد والعبدة والواقعان جنوب شرق القريتين. ومن الممكن أيضاً أن يكون للينابيع المعدنية الساخنة في منطقة شريعة المنذوري (المناذرة)، وللنهر المكبرت الذي يمر قرب المقصورة، لا بل وربما للينابيع الساخنة في أبو رباح شمال غرب القريتين، وللينابيع الكبريتية في تدمر والسخنة، صلة ما بالحرة. ينبغي أن تدرس الأبحاث اللاحقة نوع بعض المرتفعات الظاهرة إلى الجنوب من تدمر وإلى أي مدى لها علاقة أو روابط مشتركة مع النظام البركاني المدروس هنا. في الخريطة المرسومة في «رحلة هوبر إلى مركز الجزيرة العربية»[3] تسمى الأرض الواقعة على بعد خطي عرض إلى الشرق من حوران «المنطقة البركانية». ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الجغرافي العربي ياقوت الحموي[4] (توفي 1229م) يتحدث عن 29 حرة

---

(1) انظر الخريطة وقائمة الأسماء في رحلة الدكتور آ. شتوبل إلى ديرة التلول وحوران 1882م، مع مقالات بقلم الدكتور هانس فيشر، والبروفسور هـ. غوته، والبروفسور م. هارتمان، والقنصل الدكتور فتسشتاين، إصدار هـ. غوته في مجلة Z. D. P. V.، الجزء 12، (لايبزيغ 1889م).

(2) خريطة تشارل م. دوتي، رحلات في الصحراء العربية، كامبريدج 1888م.

(3) مجلة «الجمعية الجغرافية» 1884م، تريمستر 3.

(4) انظر لوت، المنطقة البركانية في شبه الجزيرة العربية حسب ياقوت، Z. D. M. G. لايبزيغ، 1868م، الجزء 22، ص368.

(صحراء صخرية بركانية) في شبه الجزيرة العربية لم يعرف منها حتى الآن سوى عدد قليل. وحرة حوران هي الحرة الواقعة في أقصى الشمال من بين هذه الحرات. وهو يسميها حرة الراجل ولم يزل هذا الاسم حتى اليوم يطلق على الجزء الجنوبي من حرة حوران.

خصص آ لفونز شتوبل لتكوين هذه المناطق البركانية[1] فصلاً مستقلاً في دراسته القيمة «عن كنه البراكين»[2]. فقد برهن شتوبل على أن فتحات الفوهات البركانية في ديرة التلول وحوران كانت بؤرتها في داخل الكتل البركانية التي تشكل هي نفسها الهضبة البركانية وتشكل القاعدة لمخاريط التدفق البركاني، وهو برهان على أن الحمم الملتهبة السائلة هي نفسها حاملة القوة البركانية وأن «الغرض الحقيقي لجميع النشاطات التدفقية هو بصق كتل صخرية نارية سائلة»[3]. بخصوص اللجاة والحبيس يُبرز شتوبل بشكل خاص السيولة الزائدة للحمم البركانية والتي تعبر عن نفسها في أنها في بعض المواقع تمتد على شكل ألسنة ضيقة إلى مسافة بعيدة داخل السهل. أما نشوء الأعداد الكبيرة من الحجارة المتناثرة في الحرة كالبذار فقد فسرته شخصياً[4] بأنه ناجم عن تكسّر طبقات رقيقة من الحمم البركانية؛ شيئاً فشيئاً تجزأت السيول البركانية عن طريق التحطم بعد تبردها الأول، ثم بفعل عمليات الحت والتعرية المتكررة، إلى عدد لا حصر له من الحجارة الصغيرة. في بعض المواقع في الحرة تنتشر الأحجار الصغيرة بكثافة كبيرة تبدو من الجو مثل عروق الخزف الآسيوي. ويؤيد آ لفونز شتوبل[5] وجهة

---

(1) بخصوص الكتل الصخرية نفسها انظر برونودوسّ، الصخور والحمم البركانية البازلتية في منطقة حوران وديرة التلول في سورية، في: منشورات تشيرمان عن المعادن والصخور، عدد جديد، الجزء السابع، فيينا 1886م.

(2) مقتطف خاص من الكتاب: الجبال البركانية في الإكوادور، برلين 1897م، ص16 وما بعدها.

(3) شتوبل، نفس المصدر السابق، ص24.

(4) حول خريطة طريق رحلتي من دمشق إلى بغداد في عام 1893م (طبعة خاصة من نشرة بيترمان الجغرافية، غوتا 1898م، العددان 3 و4). مع خريطة، ص2.

(5) نفس المصدر السابق، ص24.

نظري بشأن نشوء الحرة. إلا أن المعلومة التي جلبها الرحالة الإنجليزي هـ. س. هـ. كافنديش في عام 1897م من بلاد الصومال تؤيد تفسيراً آخر. لقد وجد كافنديش أن الجبل البركاني الذي اكتشفه البارون تيليكي عند الطرف الجنوبي لبحيرة رودولف قد دمره زلزال كبير تدميراً كاملاً ولم يبق منه سوى سهل مغطى بالحمم البركانية. ومن الممكن أن تكون الحرة أو بعض أجزائها قد نشأت بطريقة مشابهة لاسيما أن منطقة حوران قد تعرضت بعد بداية التاريخ لهزات أرضية عنيفة[1] متكررة[2].

على الرغم من هذه الهزات الأرضية العنيفة يوجد في كل مكان في جبل الدروز، واللجا، وعلى تلال مختلفة في النقرة، وحتى في الرحبة، بقايا مباني أثرية تثير اهتمام الرحالة مثل الظروف الجيولوجية الفريدة لمنطقة حوران. مدن وقرى ومعابد وحصون تبدو للوهلة الأولى محافظة على شكلها الأصلي إلى درجة أن المرء يظنها مأهولة. أما في الحقيقة فهي مهجورة منذ ألف عام ولم يزل معظمها خالياً حتى اليوم. وهذه البقايا الأثرية كثيرة جداً إلى درجة أنه أطلق على حوران اسم «صحراء المدن»[3]. عند تدقيق النظر يشاهد المرء في كل مكان تقريباً آثار دمار مخيف يعود بعضه دون شك إلى عدوان خارجي[4]، ولكن معظمه نجم عن الهزات الأرضية المذكورة. تتألف المواد التي بنيت منها مباني حوران،

---

(1) انظر إحصاءات الهزات الأرضية في سورية، لدى ديبر: لبنان، الخطوط الأساسية للجغرافيا الفيزيائية والجيولوجيا في سورية الوسطى، فيينا 1886م، ص258.

(2) لا يحدثنا التاريخ عن اندلاع أي براكين في منطقة حوران بينما حدثت مثل هذه البراكين في شبه الجزيرة العربية وشمال سورية حتى في العصور الوسطى.

(3) أطلق هذا الاسم على حوران فيتسشتاين، تقرير عن رحلة إلى حوران والتراخونات، برلين 1860م، ص44.

(4) بالدرجة الأولى الفرس في عهد قورش الثاني. ينسب خطأ إلى المسلمين تدمير كثير من المباني والصروح الفنية ما قبل الإسلام، وخاصة في الشرق الأدنى والتي تدمرت، فيما عدا الزلازل، على يد الفرس والمغول والتتر. انظر أيضاً ترجمة نولدكه للطبري، لايدن 1879م، ص299. ولقد قام كريل في كتابه «عن أسطورة حرق مكتبة الإسكندرية على يد العرب»، فلورنسا 1880م، بنقل هذه الحكاية إلى عالم الأساطير الخرافية.

ودون استثناء تقريباً، من حجارة بركانية سوداء أو من صخور الدوليريت بدون طينة. وعندما يدخل المرء إلى داخل المبنى يفاجأ باستعمال الحجارة لجميع الأشياء تقريباً التي اعتاد المرء على رؤيتها مصنوعة من الخشب. الأدراج إلى الطابق الثاني موجودة على الجهة الخارجية من الجدار وتتألف من درجات حجرية طويلة داخلة في الجدار. وسقوف الغرف مؤلفة من بلاطات ضخمة، غالباً قليلة العرض بشكل ملفت للانتباه، متراصة مع بعضها البعض أو متقوسة على شكل قبة. وهنا وهناك يجد المرء أبواباً منحوتة من حجر واحد وتدور على مفاصل كبيرة مصنوعة من الحجر أيضاً. كما أن درفات النوافذ التي تتخللها فتحات لدخول الضوء تشكل مجموعاتها أشكالاً هندسية، والخزن المبنية في الحيطان، والمقاعد المنصوبة على امتداد الجدران، والحوامل المثبتة على الأعمدة والمخصصة لحمل المصابيح أو أشياء أخرى مشابهة، كلها مصنوعة من الحجر. وفي جميع المدن الأثرية الكبيرة يجد المرء أحواضاً مائية[1] ضخمة مبنية من صخور جبارة مربعة الشكل يبلغ طول محيطها مئات الخطوات وتؤدي إلى قاعها أدراج حجرية عميقة. وقد استخدم السكان اللاحقون أجزاء من المباني القديمة المهدمة كمواد لتشييد مبانيهم بحيث يجد المرء صخوراً تحتوي على نقوش وكتابات[2] مستعملة بصورة اعتباطية ودون أي قاعدة كعتبات أو جسور فوق فتحات الأبواب أو النوافذ أو كمواد في وسط الجدران والخ... إن الانطباع الذي تولده الشوارع الخالية والمباني المنتشرة في هذه المدن المقفرة والمنقرضة منذ زمن طويل، لدى المسافر عظيم جداً دون أدنى شك ولكنه يثير الرهبة في النفس.

يعلمنا التاريخ كيف نشأت هذه الصحراء من المدن المندثرة ويعطينا في الوقت نفسه فكرة تساعدنا على تفسير الأسلوب المعماري الغريب الذي نشاهده في مباني حوران وصروحها المعمارية.

---

(1) مستودعات عدن المشهورة ليست أهم من السورية بأي حال.

(2) حوران غنية جداً بالحجارة المزخرفة بالكتابات، وهي غالباً مزودة بميداليون مستطيل الشكل مزين في الداخل بكتابة وجوانبه الضيقة تحتوي على بروزات مزخرفة.

يجب أن يكون أقدم سكان حوران قد عاشوا في مغائر[1] كالتي نشاهدها اليوم في مواقع مختلفة في منطقة حوران، في النقرة وفي السفوح الشرقية لجبل الدروز، والتي لم يزل فلاحو حوران حتى اليوم يستعملونها مأوى لقطعانهم وأحياناً لهم أنفسهم. إلى جانب المغائر الطبيعية المجهزة بشكل بسيط جداً يجد المرء مغائر مزودة بنوع من الجدار أو البوابة، كما يجد أيضاً مدناً كبيرة تحت الأرض كالتي وصفها لنا فتسشتاين عند حديثه عن درعا.

يبدو أن الأبحاث المتعلقة بما جاء في الإنجيل بخصوص المنطقة الشمالية من شرقي الأردن، بسان، موطن الملك الأسطوري أوغ، الخ. . . ، لم تكتمل بعد[2]. في تقرير آشور بانيبال عن الحرب الذي يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد يرد ذكر العرب كسكان لحوران. وقد ذكرت آنذاك بعض القرى التي لم تزل قائمة حتى الآن على الطرف الشرقي للجاة ومنها على سبيل المثال: ذكير وخلخولة. إلا أن حوران لم تلعب دوراً معيناً في التاريخ قبل القرن الأول الميلادي. كان الرومان قد أصبحوا في ذلك الوقت السادة الحقيقيين للبلاد لكنهم كانوا يمارسون سلطتهم بصورة غير مباشرة عن طريق التترارشيين وهم ملاّك محليون صغار. في عهد المسيح كانت حوران تابعة لمملكة الأنباط[3] المرتبطة بروما. هناك كتابة تعود إلى هيرودس أغريبا، على الأرجح إلى أغريبا الأول الذي توفي عام 44 قبل الميلاد، عثر عليها في قنوات، ولكنها في حالة مشوهة جداً، وهي، حسب وادينغتون[4]، نداء موجه إلى سكان المغائر يدعوهم إلى الإستيطان

---

(1) حسب فيلهلم فون تيروس يعود السبب في إطلاق اسم التراخونة على المنطقة المحيطة بجبل حوران إلى أنه كان يوجد هناك كثير من المغاور المأهولة. انظر فيلكن، تاريخ الحروب الصليبية، الكتاب الثالث، ص213.

(2) انظر أقوال غوته عن كتاب الدكتور آ. شتوبل «رحلة إلى ديرة التلول وحوران»، نفس المصدر السابق، ص230 وما بعدها؛ انظر أيضاً فتسشتاين، نفس المصدر السابق، ص112 وما بعدها.

(3) راجع مومزن، التاريخ الروماني، الجزء الخامس (1894م)، ص446 وما بعدها.

(4) راجع وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، باريس 1870م، ص533 وما بعدها.

وبناء البيوت. ونحن نعرف أن أغريبا الأول قد خاض معارك عنيفة لتدمير المغائر التي كان السكان اللصوص وقطاع الطرق يستعملونها كملاجئ يختبئون فيها[1].

في أواخر القرن الأول بعد الميلاد بدأت، على الأرجح، عملية استيطان جديدة في حوران. وكان القادمون الجدد مهاجرين قادمين من جنوب غرب شبه الجزيرة العربية واليمن.

بعد الموجة الأولى من المهاجرين جاءت في القرون اللاحقة موجات أخرى. لم تزل المعارف التي توصلنا إليها عن طريق الكتابات الأثرية وغيرها عن هذه الهجرات شحيحة جداً. ولقد درج المؤرخون والجغرافيون العرب على إعادة هذه الهجرات إلى انهيار سد مأرب[2]، ويقولون بأن النبوءات التي تحدثت عن

---

(1) انظر فلافيوس يوزفوس، أنتيكفيتاته يودايكا، الجزء 14، 15، 5.

(2) من المصادر العربية الكتاب السابع من الحوليات لصاحبه حمزة الأصفهاني، الذي أصدره غوتفالت، ليبسيا 1848م؛ أبو الفدا، تاريخ ما قبل الإسلام، الجزء الرابع. ومن الكتب التاريخية الأوروبية بشكل خاص أعمال نولدكه: آ ـ أمراء الغساسنة من عائلة جفنة، أكاديمية برلين 1887م؛ ب ـ تاريخ العرب والفرس في عهد الساسانيين، مترجم من تاريخ الطبري، لايدن 1879م؛ حـ ـ حول كتاب مومزن عن الحكم الروماني والسياسة الرومانية في الشرق (مجلة الجمعية الألمانية لشؤون المشرق، الجزء 39). انظر مومزن، التاريخ الروماني، الخامس، 446 ـ 486. فتسشتاين: آ ـ تقرير عن رحلة عبر حوران والتراخونة، برلين 1860م، ب ـ كتابات نقشية مختارة. بلاو: آ ـ هجرة القبائل السبئية في القرن الثاني بعد الميلاد، مجلة الجمعية الألمانية. . ، الجزء 22، 1868م، ص654 وما بعدها. ب ـ الجزيرة العربية في القرن السادس، دراسة عرقية، المجلة الألمانية. . . ، الجزء 23، ص559 وما بعدها. كوسّان دي برسيفال، دراسة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، باريس 1847م ـ 1848م. برغر، العرب قبل محمد. . . . كونت دي فوغيه، سورية المركزية، هندسة العمارة الدينية والمدينة والكتابات السامية، باريس 1865م ـ 1877م. وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، باريس 1870م. هاليفي، دراسة عن كتابات الصفا، باريس 1882م. تشارل دوتي، وثائق كتابية في شمال الجزيرة العربية، باريس 1884م. غلازر، نقشان كتابيان عن انهيار سد مأرب، مجلة جمعية الشرق الأدنى، برلين 1897م؛ انظر أيضاً هومّل، رحلة علمية إلى جنوب الجزيرة العربية (ملحق جريدة «الغيماينه تسايتونغ»، ميونيخ 22 أكتوبر 1898م) والكونت دي لاندبرغ، آرابيا.

قرب حدوث الكارثة دفعت عائلات كثيرة إلى ترك مواطنها. ويرى غلازر[1] في الكتابة الموشورية اللوحة 554 «البرهان التاريخي على صحة التقليد العربي القائل بأن هجرة القبائل اليمنية كانت نتيجة لانهيار سد مأرب (في عام 450م)». ويرى أنه من المحتمل أن تكون بعض أجزاء القبائل قد هاجرت قبل ذلك[2] بسبب الحالة السيئة للسد وبسبب هجمات الأحباش على المملكة السبئية الحِمْيَرية. حسب الروايات المتناقلة توجهت الهجرة الأولى في بادئ الأمر من اليمن نحو الشمال الشرقي إلى داخل شبه الجزيرة العربية. حصلت القبائل السبئية المهاجرة، التي عقدت فيما بينها حلفاً للحماية والدفاع، على اسم «التنوخيين» (أي المتحالفين)[3].

بعد ذلك انقسمت الهجرة إلى مجموعتين: تابع رهط من التنوخيين بقيادة أسرة أزدية، الأسرة اللخمية، مسيره نحو الشمال الشرقي وأسس الحيرة على الفرات. أما الرهط الآخر فقد توجه نحو الشمال الغربي إلى حوران.

كان القادمون السبئيون، وإن كانوا قد عاشوا خلال الهجرة في الخيام حياة البداوة، معتادين في وطنهم في جنوب الجزيرة العربية على أسلوب الحياة المستقرة وجلبوا معهم حضارة عمرها ربما آلاف السنين. ولذلك لم يتصرفوا، كما يفعل البدو، كشعوب تمارس سياسة الغزو، ونتيجة لذلك استقبلهم أهالي حوران وسادتهم استقبالاً ودياً. وكانت المملكة السبئية، التي تأسست في حوران الخاضعة للسلطة الرومانية، بقيادة السلحيين. وبعد انهيار سد مأرب فعلاً جاءت موجة ثانية من المهاجرين، الجفنيين والغساسنة[4]، من اليمن إلى حوران حيث استقبلوا في البداية استقبالاً ودياً ولكنهم ما لبثوا أن اصطدموا بعد وقت قصير مع آخر الحكام السلحيين. أسفرت المعارك عن هزيمة السلحيين ومنذئذ أصبح

---

(1) نفس المرجع السابق، ص28 وما بعدها.

(2) حسب الروايات العربية التقليدية دامت الهجرة بضع مئات السنين؛ ويبدو أن التزايد السكاني كان أحد أسباب هذه الهجرة الأولى من اليمن.

(3) انظر فتسشتاين، نفس المصدر السابق، ص105.

(4) حول أصل كلمة الغساسنة انظر فتسشتاين، نفس المصدر السابق، ص114.

الغساسنة أمراء حوران والتراخونة دون منازع. وكان السلحيون قد اعتنقوا المسيحية في وقت مبكر؛ وما لبث الغساسنة أن ساروا على نفس الطريق[1].

كانت روما قد قضت في هذه الأثناء على الدولة النبطية، التي صارت تشكل خطراً على السلطة الرومانية في الشرق الأدنى، وحوّلت شرقي الأردن إلى مقاطعة رومانية ولم تختر العاصمة النبطية البتراء مركزاً لها وإنما مدينة بوسترا (بصرى) المؤسسة حديثاً والتي اتخذت منها أيضاً القوة العسكرية الرومانية السورية مقراً مركزياً لها[2]. في الوقت نفسه أصبح عام تأسيس بصرى، 105 بعد الميلاد، بداية تأريخ جديد في حوران أي بداية العصر البوسترانسي (البصراوي)[3]. في ذلك الوقت كان المهاجرون الأوائل الذين جاؤوا من جنوب الجزيرة العربية قد استقروا بشكل نهائي في حوران. تحت التسمية «فيلارخ» أي أمير قبيلة (باللغة العربية: شيخ) مارس قادتهم الحكم تحت السيادة الرومانية. قام الرومان كعادتهم بشق طرق عسكرية في الجبال عبرت حتى اللجاة ووصلت إلى الحرة. لكن قادة السبئيين الذين توارثوا الحكم كانوا يتمتعون فيما يتعلق بشؤونهم الداخلية باستقلال كامل. وهكذا شكلت مملكتهم نوعاً من الدولة الفاصلة ضد غزوات البدو والحامية للوديان الخصبة والمدن السورية يبدو أن روما اكتفت بأن يقوم سكان حوران بتوفير المؤن اللازمة لجيشها وبدفع الضرائب. وعندما انتقلت السلطة، عند تقسيم الأمبراطورية الرومانية، على النصف الشرقي من الأمبراطورية إلى بيزنطة بقيت العلاقة السياسية للغساسنة مع الحكومة الجديدة على حالها، لا بل إنهم قد حصلوا بسبب ضعف

---

(1) يرى فتسشتاين (نفس المصدر السابق، ص122) أن السلحيين لم يسمحوا للغساسنة بالدخول إلى حوران إلا بشرط اعتناق المسيحية ولذلك يرى أن الغساسنة كأمة هم «الابن البكر للكنيسة». نولدكه، الأمراء الغسانيون من عائلة جفنة، ص52، يقول إن قائمة أمرائهم في حوران غير مستقاة من مصادر أصلية فعلاً إلا ابتداء من حوالي سنة 500 بعد الميلاد.

(2) انظر السجلات الحكومية «نونيسيا ديغنيتاتوم»، غيدو بانزيرولوس، لوغدوني 1608م، ص93.

(3) حتى ذاك الحين كان التأريخ السلوقي (يبدأ مع تأسيس الدولة السلوقية عام 311 قبل الميلاد) هو المعتمد في حوران أيضاً. وتجدر الإشارة إلى أن مدناً سورية أخرى كان لها مثل بصرى تأريخاً خاصاً بها.

هذه الحكومة على مزيد من الاستقلال. فقد وسعوا نطاق سلطتهم إلى مسافة بعيدة وراء حوران، إلى الحماد، ولم نزل نجد آثارهم في الضمير. وظلوا فترة من الزمن سادة تدمر. وحتى أبناء عمومتهم من القبيلة نفسها، الذين استوطنوا على الفرات الأدنى قرب الحيرة وأصبحوا أمراء المنطقة، كانوا يدخلون معهم في معارك مختلفة النتائج. في ظلال تلك الدولة العربية الصغيرة شهدت حوران عصراً ذهبياً لم يتكرر منذئذ حتى الآن[1].

في عام 611 بعد الميلاد دمر الملك الساساني كسرى الثاني مع جماعته من الفرس منطقة حوران ويبدو أنه قد حكم هناك فترة من الزمن بسلام. وبعد أن اضطر الفرس إلى الانسحاب خضعت حوران للفتح الإسلامي. في عام 635م هُزم آخر ملوك الغساسنة جبلّة بن الأيهم أمام القائد الإسلامي أبو عبيدة الجراح الذي استولى مع خالد بن الوليد في العام نفسه على دمشق. اعتنق جبلة الإسلام لكنه عاد إلى المسيحية (بسبب لطمة) وتوفي لاجئاً في بلاط القيصر البيزنطي في القسطنطينية.

مع مجيء الإسلام اختفى الغساسنة وشعبهم من التاريخ[2]. ومنذئذ شكلت سورية بما فيها حوران فصيلاً قوياً من الجيش الإسلامي الذي أرسله الخلفاء

---

(1) يشير العديد من كتابات هذا العصر المتأخر إلى أن النشاط العمراني الحقيقي في حوران لم يبدأ إلا بعد مجيء الهجرات العربية القادمة من الجنوب. لقد تم العثور فعلاً على بعض الكتابات النبطية في حوران ومنها تلك التي نشرها زاخاو (محاضر جلسات أكاديمية العلوم في برلين 1896م، ص1056 وما بعدها)، ثم ليدبارسكي، دليل الكتابات السامية الشمالية، ص148، الذي عالج الكتابة المنقوشة على حجر عثر عليه في العرة وعليه صورة ثور. لكن الأشياء التي تذكّر بالعناصر النبطية، التي حكمت هنا في أحد الأيام، قليلة جداً. وعلى أي حال فقد استعمل عرب الجنوب الكتابة الإغريقية، فقط في الرسومات الكثيرة الموجودة في الحرة والرحبة وجبل سيس والخ... نجد آثار الكتابة السبئية الحميرية القديمة.

(2) حسب حكاية يرويها فتسشتاين (في: كتابات إغريقية ولاتينية مختارة جمعت خلال رحلات في التراخونة وحول جبل حوران، دراسات الأكاديمية الملكية للعلوم في برلين، 1863 [1864م]) أن الغساسنة هاجروا بعد طردهم على يد خالد بن الوليد في حوالي عام 640م إلى القوقاز ليعودوا بعد ذلك من روسيا ويحتلون بلادهم من جديد.

المسلمون الأوائل إلى الشمال والغرب (إلى إفريقيا وإسبانيا)؛ وفي القرن السابع أصبحت دمشق عاصمة الخلافة وجذبت دون شك كثيراً من سكان حوران إليها. ويعتقد بأن حوران قد هجرها سكانها آنذاك بشكل كامل تقريباً. إلا أننا نجد في الشمال من جبل الدروز أسرة أمراء عربية صغيرة استقرت هنا بعد الفتح الإسلامي: أجداد آل شهاب الذين أصبحوا أمراء لبنان فيما بعد. في عهد نور الدين هاجرت هذه الأسرة مع أتباعها إلى سفوح جبل حرمون. على الرغم من ذلك اكتسبت حوران خلال الحملة الصليبية الأولى أهمية كبيرة مرة أخرى. كانت الحملة المسيحية دفاعاً عن الديار المقدسة قد انضم إليها كثير من الفرنجة الذين انضم إليهم على الأرض السورية كثير من المسيحيين المحليين. نتيجة النجاحات التي حققتها الأسلحة المسيحية طرد المسلمون من المناطق السهلية الموجودة في بعض أجزاء فلسطين وسورية ووجدوا مع المحاربين المسلمين، الذين جاؤوا آنذاك بأعداد كبيرة من الشرق إلى الغرب (من الأكراد والأتراك وغيرهم)، في مدن حوران المتداعية، والتي كانت كل منها تشكل حصناً طبيعياً منيعاً، نقطة ارتكاز ممتازة لمحاربة الغزاة المسيحيين. وهذا أمر معروف بشكل خاص عن بصرى وصلخد في عهد الملك فولكو ملك القدس والملك رايموند ملك أنطاكية في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي[1]. في عهد الدولة الأيوبية تم تحصين الحصون القديمة في بصرى وصلخد كما يتبين من كتابات كثيرة خلال الأعوام 600 ـ 650هـ (1203م ـ 1252م). ولم تزل حتى اليوم البقايا الباقية من الأسواق والجوامع تشير إلى الازدهار الذي شهدته آنذاك بعض مدن حوران التي حاول ملوك فلسطين المسيحيون عبثاً القضاء عليها. في هذا العصر الذهبي الثاني تمت إعادة بناء البيوت في بعض قرى حوران والمناطق المحيطة بها والتي أصبحت مهجورة فيما بعد نتيجة الدمار الذي لحق بها بسبب الزلازل أو الأحداث الأخرى. بعد انسحاب الفرنجة فقدت هذه المدن أهميتها مرة أخرى لأن معظم سكانها المسلمين عادوا إلى أماكن إقامتهم السابقة. ونتيجة للحروب الأهلية

---

(1) انظر فيلكن، تاريخ الحملات الصليبية، الجزء الثالث، ص209 وما بعدها، والجزء الرابع، ص3.

العديدة في سورية تداعت قرى حوران ومدنها بصورة متزايدة ثم جاءت جيوش تيمورلنك لتوجه لها الضربة القاضية.

منذ ذلك الحين لم يسكن في حوران على مدى عدة قرون سوى عدد قليل من السكان وفي مناطق محددة، ولبعض الوقت كانت تسكن الجبل قبائل بدوية كانت تأتي في الصيف والخريف ثم ترحل في الشتاء والربيع عندما توفر البادية لقطعانهم الكلأ والماء.

على هذه الحالة وجد سيتزن[1] جبل حوران خلال رحلة له في عام 1805م. ورأيت أنا نفسي ظروفاً مشابهة على سفح حوران بجوار الحرة. وشيئاً فشيئاً حصلت قبائل صغيرة بحكم العادة على حق قضاء الصيف في حوران، وهؤلاء هم منذ عدة قرون من يطلق عليهم اسم عربان الجبل الذين ما زالوا حتى اليوم يقيمون في المنطقة البركانية وكانت أسماؤهم معروفة في العصور القديمة ومنهم الصلط (الجمع: صلوط) الذين يقيمون الآن بصورة دائمة في اللجاة، والمساعد (مصائد) وغيات الذين يقضون الشتاء في الحرة والصيف في السفوح الشرقية لحوران، والزبيد في الحرة الجنوبية، وغيرهم. ولعل هذه القبائل كانت في الأزمنة القديمة أيضاً، كما هي اليوم، تمارس الغزو مستفيدة من المخابئ الكثيرة الموجودة في الجبال والتي لا يعرفها أحد غيرهم، لكنها بدورها لم تكن أبداً، تماماً كما هو الحال اليوم، في مأمن من غزوات القبائل الصحراوية العربية القوية لها[2]. ويعتقد بأن عربان الجبل كانت لهم منذ القدم علاقات سيئة مع من بقي في حوران من سكانها.

ليس مستبعداً أن تكون العائلات المسيحية (من الكاثوليك الشرقيين) القليلة التي لم تزل موجودة اليوم في جبل حوران نفسه وفي اللجاة، وكذلك بعض العائلات الإسلامية الموجودة في قرى اللجاة، من البقية القليلة المتبقية من

(1) رحلات عبر سورية وفلسطين والخ...، الجزء الأول، ص46.

(2) انظر زيتسن، نفس المرجع السابق، وبوركهاردت (رحلات في سورية والديار المقدسة، لندن 1822م) اللذين يتحدثان عن تنقل ولد علي، أحد فروع قبيلة عنزة، في النقرة والخ... في بداية هذا القرن.

الهجرات السبئية القديمة. في بداية هذا القرن (القرن التاسع عشر) كان عدد السكان المسيحيين والمسلمين في جبل حوران، حسب تقارير الرحالة الذين زاروا المنطقة آنذاك، أكبر بكثير مما هو عليه اليوم. ويعود السبب في تراجع العنصر المسيحي والإسلامي في المنطقة إلى استيطان دروز لبنان في جبل حوران والذي بدأ في مطلع القرن الماضي ولكنه لم يحدث بمقياس كبير إلا في هذا القرن[1]. في الوقت الحاضر أصبح الدروز سادة الجبل بلا منازع أما عربان الجبل فقد هجروا المنطقة نهائياً أو أصبحوا في علاقة تبعية مع الدروز. وجد الدروز في المباني القائمة من الأزمنة القديمة بيوتاً تحتاج إلى إصلاحات بسيطة فقط لكي تصبح صالحة للسكن. ولكن على الرغم من أنه يعيش في الوقت الحاضر نحو 40,000 درزي في حوران فلم يزل هناك عشرات القرى والمزارع الخالية من السكان.

للوهلة الأولى تبدو مباني حوران كنواتج لانحدار الفن الروماني الإغريقي كما نجده في آسيا الصغرى وأيضاً في سوريا. ولكن هناك بعض الزخارف والكثير من الخصائص المعمارية الأخرى ذات الطابع الثانوي التي تشير إلى لون فني آخر لا يعود إلى أصل روماني إغريقي، ومنها تيجان الواجهات المتدرجة والمسننة، والاستعمال الكثيف لصور الحيوانات في الزخرفة، واستعمال الأقواس الكبيرة التي تحمل السقف وتقسم الغرفة إلى حجرتين، والسقوف المذكورة سابقاً المؤلفة من بلاطات حجرية طويلة وقليلة العرض، والسطوح القببية الشكل، والسلالم الخارجية وتشكيل النماذج الزخرفية بواسطة الأشكال الهندسية، والخ... ومن الصعب معرفة الحدود الفاصلة بين أسلوب البناء الروماني الإغريقي وذلك الاتجاه الفني الذي يستعمل العناصر الغريبة المذكورة آنفاً.

من أجل حسم هذا السؤال يجب أولاً إخضاع آثار حوران لدراسة مستفيضة يقوم بها أناس مختصون؛ وبعد ذلك يجب أن تكون لدينا أيضاً معلومات أفضل عن البقايا العمرانية المتبقية في المواطن الأصلية لمباني حوران. إضافة إلى ذلك يجب أن نعرف الطريق الذي سلكه عرب الجنوب عند انتقالهم من موطنهم

---

(1) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص189 وما بعدها.

الأصلي اليمن إلى حوران وذلك لكي نتعرف على الخبرات التي اكتسبوها خلال رحلتهم وعلى آثار نشاطاتهم العمرانية. في شمال الحجاز في مِدْيَن (تيماء، الحجر، الخ. . .) يوجد مبان تشبه مباني منطقتنا وقد يعود هذا التشابه إلى المهاجرين السبئيين الذين وصل قسم منهم في وقت لاحق إلى حوران[1]. يعتقد البارون فوغيه[2] أن المباني الحجرية في تيماء ـ بوابات ضخمة لقبور منحوتة في الصخر ـ هي منتوجات أولية لمعماريين تعلموا في شمال سورية على يد أساتذة رومانيين إغريقيين ثم تركوا أعمالهم دون تكميل على أمل أن يقوم فنانون أفضل منهم من المدرسة الرومانية ـ الإغريقية بإكمالها[3]. لكن ما يلفت الانتباه أن هذه المباني أيضاً تنتشر فيها زخارف الأدراج وصور الحيوانات المذكورة أعلاه، وأن شواهد القبور[4] التي عثر عليها هوبر وأويتينغ في تيماء توجد عليها صور بشرية تشبه الصور الآشورية[5].

يبدو أن هذه الحقائق تؤيد الظن أن الفن البابلي الآشوري كان معروفاً ومستخدماً في جنوبي الجزيرة العربية وكان راقداً في الوعي الشعبي إلى أن عاد إلى الظهور بصيغة متميزة بعد الهجرة إلى حوران وكإضافة مستقلة لأفكار فن البناء الروماني الإغريقي الذي كان موجوداً في سورية وكان دون شك قد تعرض لكثير من التعديل والتطوير. ولكن كما قلنا لن نتمكن من إلقاء الضوء على هذه المسألة إلا بعد تكوين صورة واضحة عن بقايا مباني الزمن القديم وعن الأشكال والصور المستعملة اليوم في الصناعات اليدوية الفنية وفي الزخرفة في اليمن وحضرموت ووسط شبه الجزيرة العربية.

---

(1) انظر رسومات أويتينغ وملاحظات نولدكه عند أويتينغ، كتابات نبطية في بلاد العرب، برلين 1885م، ص78، وكذلك رسومات دوتي في كتابه «الصحراء العربية» (آرابيا ديزرتا).

(2) انظر دوتي، آرابيا ديزرتا «الصحراء العربية»، الجزء الأول، ص104 وما بعدها.

(3) انظر فوغيه عند دوتي 1، نفس المرجع السابق، ص623.

(4) انظر فولدكه، كتابات آرامية قديمة من تيماء، تقرير إلى آكاديمية العلوم الملكية البروسية، برلين 1884م، الجزء 29، ص813 وما بعدها.

(5) انظر أيضاً رسمة الثور في «مخطط ساحة المعركة في آشور قبل عام 1824م» الذي قدمه البروفسور إيهرنبرغ (ريتر، نفس المرجع السابق، الجزء 13، ص201).

نستطيع اليوم أن نثبت في حالات منفردة كيف تمت المحافظة في سورية وبلاد الرافدين، وبصورة بطركية محافظة، ليس فقط على العادات والمبادئ الحقوقية القديمة وإنما أيضاً على الأشياء الاستعمالية وعناصر الديكور والزينة وأفكار الهندسة المعمارية العائدة إلى عصور مغرقة في القدم. عثر في الحفريات الأثرية في تل لو على منحوتات ناتئة في غاية الروعة لم يحدد عمرها بعد ولكنها قد تعود إلى الألف الرابعة قبل الميلاد. في أحد هذه المنحوتات، الموجود في متحف اللوفر في باريس، تظهر جرة لها أذنان يتدفق منها الماء إلى اليمين واليسار وفي الوسط على شكل نافورة ثلاثية[1]. من الممكن أن تكون هذه الجرة قد اقتدت بها الجرة الإغريقية الرومانية وكذلك أوعية نقل الماء التي لم تزل مستعملة في الشرق حتى اليوم. من الممكن للحظة الأولى تفسير الشلال المائي (صورة كانت آنذاك ترمز إلى انسكاب الماء تكريماً للآلهة) بأنها غصن نباتي واعتبار الوعاء المزهرية التي تحمل هذه الأغصان. وبالفعل فإن صورة الورود أو غيرها من الأزهار الموضوعة في وعاء هي من الصور المستعملة بشكل عام في الشرق وخاصة في فارس، في العهد الساساني وأيضاً الآن في العهد الإسلامي، وهي صورة لها قرابة مع الجرة التي عثر عليها في تل لو.

هناك أيضاً عتبة بوابة عثر عليها في تل قويونجيق، في آثار مدينة نينوى القديمة، تذكرنا زخرفتها بالزخرفة التي نجدها اليوم في الشرق على بعض أنواع السجاد[2]. آثار أخرى من العهد الآشوري تظهر فيها بيوت أسطحتها مقببة بشكل لم يزل مستعملاً حتى اليوم في بعض القرى في شمال بلاد الرافدين وفي المناطق

---

(1) قارن الصورة المقابلة حسب ليون هوزي، اكتشافات في خلده من قبل إرنست دي سارزيه، الجزء 3، باريس 1893م.
(تمت إعادة النشر بترخيص من دار النشر ليرو) هناك جرة مشابهة ولكنها أبسط مأخوذة من تل لو أيضاً قام الأب شيل بوضعها في المتحف في اسطنبول. ولكن لا يتدفق هنا من الوعاء سوى شلالين مائيين إلى اليمين واليسار؛ يحمل الوعاء مقدّم الأضحية بيده.

(2) قارن الصور في الفصل 14. وتجدر الإشارة إلى أن فسيفساء من فينيقيا وشمال إفريقيا موجودة في متحف اللوفر في باريس تشبه إلى حد كبير العناصر الفنية لهذه العتبة.

المجاورة لمدينة حلب، كما نجدها أيضاً بصيغة بيوت الحمام في مصر السفلى، وقد تكون النموذج الذي اقتدى به بناء القبب الأكثر دائرية في العهدين البيزنطي والإسلامي. ويبدو أن الليوان في داخل القصور الدمشقية والكثير من البيوت السورية تربطها صلة قربى مع واجهة تاكي كسرى (كتيسيفون). قوس كبير يشكل هنا في كل مكان الخط الوسطي الذي تلتصق به على الجانبين حجرات مزودة بتجاويف جدارية ونوافذ وعلى عدة طوابق. والمسننات المتدرجة التي ذكرناها سابقاً، والمحبوبة في الشرق بكامله وفي كل مكان من العالم الإسلامي، موجودة بنفس الشكل تماماً في برسيبوليس (فارس) ونينوى. وبما أن الفن الآشوري ليس أصيلاً وإنما متأثر بشكل خاص بالفن البابلي فمن الممكن أن يكون موجوداً أيضاً في المباني الأقدم جداً الموجودة في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين[1].

ولكن لنعد إلى مباني حوران! لقد قلنا إن الانطباع الأول الذي يتولد عنها هو أنها تمثل نوعاً متدنياً من الفن الإغريقي الروماني، إلا أن هذا اللون الأساسي الكلاسيكي تمتزج معه ملامح كثيرة من الأفكار الشرقية القديمة التي من الممكن أن يكون العرب الجنوبيون قد جلبوها معهم من مواطنهم الأصلية. وإذا ما كانت مباني حوران الجديدة متأثرة بالفن الساساني أم لا، فهذه مسألة لم تزل غير محسومة. لتأييد هذا الزعم يذكر عادة قصر المشتّى الواقع شرقي الطرف الشمالي للبحر الميت والذي خططه الفرس[2] في بداية القرن السابع بعد الميلاد ليكون مقراً للملك الساساني كسرى الثاني، ولكن بناءه لم يكتمل أبداً[3]. كما أن القصر الأبيض[4] الموجود في الرحبة يمكن أن يكون أيضاً قد بني على يد مهندسين

---

(1) تتألف مواد المباني في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين، للأسف، وحسب ما هو مكتشف منها حتى الآن، من آجر غير مشوي (وإنما مجفف تحت الشمس) ولذلك لا تقدم لنا سوى قليل من الزخارف والنقوش.

(2) انظر الصفحة 114 أعلاه.

(3) انظر تريسترام، بلاد المؤاب، ص197. راولينسون، الممالك الشرقية الكبيرة السبع، لندن 1876، ص594.

(4) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب، ص249 وما بعدها.

معماريين ساسانيين أو مهندسين تعلموا المهنة عندهم. بالمقابل أشار برونّو[1] إلى أن زخرفة واجهة قصر المشتّى المؤلفة من مثلثات مزخرفة، والتي اعتبرت في بادئ الأمر فارسية، عُثر عليها منقوشة على إبريق في قرية خسفين في الجولان أي في منطقة كان يقيم فيها الغساسنة؛ إضافة إلى ذلك يبدو أن لهذه الزخرفة صلة بنقش على الحائط في السويداء. ولذلك يفترض برونّو أن قصر المشتى قد بني على يد مهندس بيزنطي بتكليف من أمير عربي جنوبي مرتبط ببيزنطة.

ويستند برونّو في نظريته إلى قصر الأبيض أيضاً. فهو يشير إلى التشابه بين قصر المشتى وقصر الأبيض، الشكل المربع للجدران الخارجية مع الحصون الدائرية، الرسوم المنقوشة على التماثيل من حيوانات وشجيرات العنب، كل ذلك نجده هنا وهناك. ولكن من الممكن أيضاً أن يكون الفن في قصر المشتى وقصر الأبيض لا علاقة له بالفن الساساني ولا بالفن البيزنطي وإنما هو، كما في بعض الزخارف المعمارية الأخرى في حوران، تطوير لأفكار فنية للحورانيين جلبوها معهم من اليمن[2].

عندما قضى المسلمون على مملكة الغساسنة في حوران واستقروا في سورية وجدوا هنا مدنية أعلى جداً من المدنية التي جلبوها معهم من الحجاز. وهذا الوضع بالذات يدعونا إلى التفكير بمنشأ الفن العربي والفن الإسلامي عموماً. فالمباني التي تجدها في أجزاء مختلفة من سورية تشبه في كثير من الجوانب مباني حوران، لكن القصر الغساني كان يتميز في ذاك الوقت بحب الأبهة والتشكيل

---

(1) نشرة جمعية فلسطين الألمانية، الجزء 17، ص80 وما بعدها.

(2) ليس من المناسب أن نتحدث هنا عن الاختلافات والقرابات بين الفن البيزنطي والفن الساساني. لكنني أود الإشارة هنا فقط إلى أن كثيراً من الآثار الفنية البيزنطية والساسانية لها شبه كبير بالفن الآشوري بحيث يبدو لي أن الفن الساساني والبيزنطي على حد سواء قد نشأ بصورة مستقلة على أساس هذه النماذج الشرقية القديمة مرتبطة بالفن الإغريقي الروماني. فالتطور السياسي للأمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية حدث في نفس الفترة تقريباً. وفي وقت لاحق جاء فنانون بيزنطيون متقدمون إلى البلاط الساساني وساهموا في تطوير الفن الساساني، وعلى الأرجح أثر بدوره الفن الساساني الأقرب إلى أفكار الفن الشرقي على البيزنطيين.

المعماري. والدليل على ذلك العدد الكبير من الآثار الباقية حتى اليوم من القصور والبيوت الغنية بالآثار الفنية. إن مجرد النظر إليها يدعوني إلى الاعتقاد بأن الفن العربي، ومعه الاتجاه الفني السائد اليوم في مختلف المناطق الإسلامية، مقتبس في بعض النواحي عن الفن الحوراني أو متأثر به على الأقل. فنحن نجد هنا أشكالاً معينة من الزخرفة بالإضافة إلى استعمال الكتابة العربية: استعمال الأشكال الهندسية، استعمال أشكال معينة من المشبكات، أغصان أو أزهار منبثقة من مزهرية أو وعاء، أسوار مسننة متدرجة، استعمال قوس متوسط كبير تجاوره من الجانبين وفي عدة طوابق أقواس أصغر ونوافذ وفجوات جدارية - وهذه الأشكال جميعها تطغى على فن البناء والحرف اليدوية الفنية في جميع أرجاء العالم الإسلامي ويظهر تأثيرها واضحاً جداً على الفن المحلي في جميع الدول التي احتلها المسلمون. وجميع الأشكال المذكورة نجدها في مباني حوران قبل مجيء الإسلام، وبشكل كان على الأرجح القدوة التي اهتدت بها الظواهر الإسلامية الحالية.

لا يوجد في التاريخ ما يعارض هذه الفرضية. بل كما رأينا وجد المسلمون الأوائل الذين توجهوا إلى سورية أقرباء لهم في حوران وسكاناً عرباً شارك بالتأكيد كثيرون منهم في الحملات العسكرية التي فتحت خلال وقت قصير لا يصدق جزءاً كبيراً من العالم، بينما انتقل جزء منهم إلى مركز الأمبراطورية العالمية الجديدة أي إلى دمشق التي أصبحت عاصمة الخلافة الأموية. وعلى أي حال فإن حب الحكام الأمويين للفخامة والأبهة قد أدى إلى انتقال جميع الفنانين ومهندسي العمارة إلى دمشق، حيث ساهموا بما ورثوه من خبرات فنية عن أجدادهم، وبالتعاون مع الفنانين البيزنطيين والساسانيين الذين جاؤوا إلى بلاط الخلافة، في خلق الفن الإسلامي بالشكل الذي لم يزل عليه منذ القرن الأول الهجري.

* * *

الفصل الرابع

الدروز وتاريخهم

فكرة عامة عن الديانة الدرزية والشعب الدرزي. ـ المنشأ العرقي ـ المصادر ـ أقوال شفهية لدرزي مثقف كمصدر للعرض التالي. ـ دخول الحيريين من عرب الجنوب بقيادة الأمير عون إلى سورية. ـ الأمير أرسلان يقود قومه إلى لبنان، إلى منطقة المردة. ـ هجرات عربية أخرى ـ. تنوخ، علم الدين، معن. ـ مجيء جماعات غير عربية. ـ جنبلاط، عماد، نكد. ـ شجرة نسب آل أرسلان. ـ عدم تحديد خليفة للنبي محمد كسبب في تفكك دولته. ـ حروب الأمويين والعباسيين. ـ مكانة الفرس. ـ تشكل الطوائف في فارس. ـ نظريات التجسد الإلهي والخليفة المنصور. ـ الزنادقة. ـ فكرة المهدي. ـ الإسماعيليون.ـ عبد الله بن ميمون. ـ تعاليمه.ـ الهرب من فارس ومتابعة النشاط في السلمية في سورية. ـ حمدان القرمطي ابن أحمد. ـ سعيد عبيد الله المهدي يؤسس حكم القرامطة في شمال إفريقيا. ـ سيطرة العباسيين على السلمية. ـ قرامطة بدو يبحثون عن ملجأ في لبنان. ـ لحسا في البحرين، مقر القرامطة. ـ اصطدام الفاطميين والبحرينيين. ـ الخليفتان المعز والعزيز. ـ الخليفة الحاكم بأمره يحيي الأفكار الإسماعيلية. ـ داعيته الدرزي يفر إلى سورية ويجد في وادي التيم أول أتباعه. ـ حمزة. ـ شيخ الجبل والحشاشون. ـ النصيرية. ـ الدروز. ـ إحصائيات. ـ النظام الديني الدرزي. ـ العلاقة مع الإسلام. ـ الأخلاق الدرزية.ـ النظام الاقطاعي. ـ العائلات والطبقات. ـ الزي الشعبي. ـ تاريخ لبنان ـ. آل معن. ـ آل شهاب.ـ

فخر الدين الأول، قرقماز وفخر الدين الثاني. ـ قيسي ويمني. ـ معركة عين داره، هجرة اليمني إلى حوران. ـ يزبكي وجنبلاطي. ـ الغزو المصري. ـ الأمير بشير شهاب الأول. ـ الهروب مرتين إلى مصر. ـ تمرد ونهاية بشير جنبلاط. ـ محمد علي يصبح سيداً على سورية. ـ ثورة دروز حوران. ـ نهاية الحكم المصري في سورية. ـ الأمير بشير شهاب ينقل إلى مالطا. ـ تطور العلاقات بين الدروز والموارنة. ـ الأمير بشير شهاب الثاني. ـ معارك بين المسيحيين والدروز. ـ الإصلاح الإداري في لبنان. ـ القنصل العام الفرنسي والبطريرك الماروني. ـ حمامات الدم في حاصبيّا ودير القمر. ـ التدخل الأوروبي وتنظيم الأمور بشكل جديد في لبنان. ـ تشكل أحزاب جديدة، الشقراوي والصمدي. ـ موقف فرنسا وبريطانيا من المسألة السورية. ـ دروز حوران. ـ نهب بصر الحريري. ـ التدخل التركي الأول والإصلاح الإداري في حوران. ـ شبلي الأطرش. ـ محاصرة الأتراك في المزرعة. ـ عفو عام وهيجان جديد. ـ الكسّارة والسرّابة. ـ بعثة أدهم باشا. ـ معركة قراته. ـ تغيير التشكيلة الإدارية وإذلال الدروز. ـ معركة العيون. ـ محاصرة السويداء. ـ الغضب العارم في دمشق. ـ القتال قرب تل الحديد. ـ سقوط السويداء. ـ معركة تل قليب. ـ سقوط شهبا. ـ خضوع الدروز. ـ الوضع الحالي في حوران.

لم نعثر في المراجع عن أصل وديانة الشعب الدرزي[1] الملفت للانتباه إلا على عدد قليل من الأخبار المتفرقة والمتناقضة في كثير من الأحيان. ولم تنتبه أوروبا إلى وجود الدروز إلا في وقت متأخر جداً، في القرن السابع عشر، وذلك عن طريق وجود الأمير الدرزي اللبناني فخر الدين المعني في إيطاليا، ولم يحصل الأوروبيون إلا في هذا القرن (القرن التاسع عشر) على بعض الكتب الدينية الدرزية السرية جداً وذلك نتيجة الحروب في لبنان.

الديانة الدرزية ديانة سرية؛ ونتيجة لذلك نشأت حكايات كثيرة حول هذا

(1) يحب الدروز، مثلهم مثل جيرانهم الموارنة في لبنان، أن يعتبروا شعباً مستقلاً (ملّة، أي جماعة دينية).

المذهب ومعتنقيه اتهم فيها الدروز من قبل جيرانهم وأعدائهم بأشنع التهم. وعند تقييم المعلومات التي جمعها الأوروبيون نقلاً عن الدروز أنفسهم يجب، فوق ذلك، أخذ العلم بأن هذا المذهب الغريب والمعقد والرائع لا يعرف تفاصيله إلا جزء من الدروز. ويعود الفضل الأول إلى الباحث الفرنسي سيلفستر دي ساسي[1] في استخلاص النظام الديني الدرزي، بشكل صحيح قدر الإمكان، من الكتابات الدرزية التي تم العثور عليها[2]. وهناك بعض الأخبار المستقلة الأخرى التي جمعها في المناطق الدرزية كل من الضابط الإنجليزي تشرتشل[3] والباحث الألماني بيترمان[4].

ليس من السهل التوصل، من خلال المواد والمعلومات المتوفرة حتى الآن، إلى معرفة تاريخ الدروز بشكل صحيح. حتى منشؤهم العرقي من الأمور المختلف عليها. فهناك من يعتقد أن معظمهم من أصل فارسي أو كردي أو غير ذلك من العناصر غير العربية التي جاءت إلى المنطقة، أو إنهم البقية الأكثر نقاء من الآراميين القدامى أي السكان الأصليين للبنان وحوران. ويقدم أصحاب هذا الرأي دليلاً على زعمهم أن شكل الدروز يختلف عن شكل المسيحيين والمسلمين.

إلا أن تقاليد الدروز، حسبما تأكدت بنفسي من خلال اتصالاتي المتكررة مع السكان الدروز، تناقض هذا الرأي، والملاحظات التاريخية القليلة المتوفرة

---

(1) سيلفستر دي ساسي، عرض للمذهب الدرزي، باريس 1838م، جزءان. هذا الكتاب يعتمد عليه غالبية الباحثين الذين يدرسون الديانة الدرزية، ومنهم: فولف: الدروز وأسلافهم، لايبزيغ 1845م.

(2) يعد الدروز بالنسبة للمسلمين كفرة وضالين، أكثر كفراً من المسيحيين واليهود. وقد كتب ضدهم رجال الدين المسلمون بمختلف طوائفهم. انظر فوستنفلد. فخر الدين، أمير الدروز، ومعاصروه، غوتنغن 1886م، ص9 وما بعدها.

(3) تشرتشل، جبل لبنان، إقامة لمدة عشر سنوات، لندن 1853م 3 أجزاء، ثم: الدروز والموارنة تحت الحكم العثماني 1840م ـ 1860م، لندن 1862م (الجزء الرابع من «جبل لبنان»).

(4) هـ. بيترمان، رحلات في المشرق، لايبزيغ 1860، جزءان.

لدينا عن لبنان والمناطق القريبة منه ـ وإلى هنا تعود جذور الديانة الدرزية والشعب الدرزي ـ تؤيد هذه التقاليد وما يتخللها من أخبار. حسب هذه الأخبار يعود أصل الدروز الحاليين إلى أجزاء من قبائل عربية جاءت في القرن الثاني الهجري إلى لبنان الذي كان آنذاك آرامياً مسيحياً. انضم إليهم فيما بعد بعض العناصر التركية والكردية ولكن هؤلاء امتصهم العنصر العربي الغالب. صحيح أن الدروز يبدون، بسبب نظرتهم الحربية المعاندة ولحيتهم الشعثة وبنيتهم الجسمية القوية، مختلفين عن عرب السهول أو عرب البادية، ولكن إذا ما علمنا أن هؤلاء المهاجرين انعزلوا في الجبال مئات ومئات السنين، بعضهم منذ ألف سنة، حيث شكلوا كلاً مغلقاً، فإننا نفهم سبب اختلاف شكلهم وتميزهم عن غيرهم.

لقد تمكنت خلال إقامتي مجدداً في سورية في عام 1897م من الحصول، من رجل درزي مثقف ومتنور جداً تلقى تعليمه في الجامعات الفرنسية السورية ولديه اطلاع واسع على كتب المؤرخين العرب[1]، على معلومات متماسكة عن تاريخ

---

(1) لا يوجد لدى الجغرافيين والمؤرخين العرب في العصور الوسطى سوى ملاحظات قليلة جداً عن تاريخ الدروز كما أن بنيامين فون توديلا لا يذكر عنهم سوى خبر قصير. ولم يذكرهم الصليبيون على الإطلاق؛ لا شك في أنهم اعتبروا الدروز داخلين ضمن «المسلمين» و«الكفار»، و«الإسماعيليين»، و«الحشاشين» أتباع «شيخ الجبل» المخيفين. وأدى ظهور فخر الدين في القرن السابع عشر إلى نشر كثير من الكتب عن تاريخ الدروز، نورد فيما يلي أهمها:
ف.ي. روجيه: الديار المقدسة، تاريخ حياة وموت الأمير فخر الدين أمير الدروز...، باريس 1664م؛ دولاروكيه: رحلة إلى سورية وجبل لبنان، أمستردام 1723م، وكذلك: رحلة إلى فلسطين، باريس 1717م؛ الأخبار التي جمعها السيد فون آرفيو ونقلها عن الفرنسية لابات، ستة أجزاء، كوبنهاغن ولايبزيغ 1753م ـ 1756م؛ ماريتي: تاريخ فخر الدين، أمير الدروز الكبير وتاريخ بقية الأمراء الكبار حتى 1773م، مترجم عن الإيطالية، غوتا 1790م. في الأوقات الأخيرة صدر في بيروت بعض الكتب التي ألفها سوريون مسيحيون وتروي تاريخ عائلات لبنانية، إلا أننا نلاحظ أن مصالح العائلة تغلبت في بعض الأحيان على الموضوعية في العرض. أهم هذه الكتب كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» تأليف الماروني طنوس الشدياق، مطبوع في بيروت 1859م. يعتمد هذا الكتاب بصورة رئيسية على ملاحظات كانت مجمعة في أراشيف العائلات اللبنانية المرموقة وعلى المحاضر=

وديانة شعبه وعن الأحداث الأخيرة في حوران وخاصة المعارك الدامية بين دروز حوران والقوات الحكومية. في جلسات طويلة كتبت كثيراً من القصص نقلاً عنه ثم توفرت لي الفرصة فيما بعد لتدقيق أقواله مع شيوخ دروز آخرين أكدوا بصورة عامة صحة أقوال مصدر معلوماتي. ومما يثير الدهشة أن التقاليد بقيت في أغلب الأحيان، وحتى في التفاصيل غير الهامة، مئات السنين دون أي تغيير وظل الناس يروونها بنفس الطريقة على الرغم من أنها لم تسجل أبداً[1]. تشكل المعلومات التي

= التي كتبتها المحاكم في الأديرة والخ... ويبدو أن المصادر التي اعتمد عليها الشدياق شكلت أيضاً إلى حد ما الأساس الذي اعتمد عليه روجيه وغيره من المؤلفين في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومن المراجع العربية الأخرى عن لبنان والمطبوعة في بيروت: تاريخ المعاملة الكسروانية وتاريخ البطرك اسطفان الدويهي، تاريخ الموارنة، أصدره الشرتوني (انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص16 وما بعدها). راجع أيضاً: نيبور: رحلة في بلاد العرب، أمستردام 1780م الجزء الثاني، ص348 وما بعدها؛ بوركهاردت: رحلات في سورية والأراضي المقدسة، لندن 1822م. أما تاريخ لبنان في هذا القرن والمعارك بين الدروز والموارنة التي اختتمت بالأحداث الدامية الشهيرة عام 1860م وبإعادة تشكيل لبنان سياسياً، فنجده في كتب فرنسية وإنجليزية عديدة ولكنها منحازة ضد الدروز أو معهم حسب موقف أصحابها. أذكر منها: دمشق ولبنان، لندن 1861م (بدون مؤلف)؛ جوبان: سورية في عام 1860م وعام 1861م، ليل 1880م؛ لوي دو بانديكور: فرنسا في لبنان، باريس 1879م؛ ريشارد إدوار؛ سورية 1840م ـ 1862م، باريس 1862م؛ أويجين بوجاد: لبنان وسورية 1845م ـ 1860م، الطبعة الثالثة، باريس 1867م؛ فليلس منغان: تاريخ مصر تحت حكم محمد علي، جزءان، باريس 1813م؛ فرديناند برنييه: سورية تحت حكم محمد علي، باريس 1842م؛ بارون دارمانياك: نزيب وبيروت، باريس 1844م؛ فرانسوا لينورمان: تاريخ المجازر في سورية، باريس 1861م؛ إرنست لويه: رحلة علمية في سورية، باريس 1862م؛ جورج روبنسون: رحلة في فلسطين وسورية، باريس 1838م؛ سير تشارل نيبير: الحرب في سورية، جزءان، لندن 1842م؛ آ. باتون: تاريخ الثورة المصرية، جزءان، لندن 1863م؛ إدوارد ب. باركر: سورية ومصر تحت حكم آخر خمسة سلاطين أتراك، جزءان، لندن 1876؛ الدكتور فرانتس آليولي: سورية في عام 1840، فيينا 1842م؛ مقالات مختلفة في مجلة «دو موند»، 1860م، 1861م، 1862م

(1) لا يوجد أي تناقض بين المعلومات الأرشيفية الواردة في «أخبار الأعيان» والمعلومات التي رواها لي مصدري من ذاكرته.

حصلت عليها من أصدقائي الدروز وأكدتها أطراف أخرى مصدر العرض الذي سأقدمه الآن في هذا الكتاب. إلا أنني أعتقد أنه من الأفضل، من أجل فهم السياق التاريخي، أن أتطرق قليلاً إلى تاريخ الإسماعيليين الذين خرج منهم الدروز.

عندما توجه في عام 636 ميلادي، عام 14 هجري، الجيش الإسلامي بقيادة أبو عبيدة الجراح إلى سورية وحاصر دمشق طلب أبو عبيدة العون من الخليفة عمر. وبناء على أمر عمر توجه عما قريب فاتح بلاد الرافدين وأعظم قائد عسكري في زمانه خالد بن الوليد، المسمى «سيف الله»، مع جزء كبير من سكان الحيرة إلى سورية. وكان الحيرانيون، أحفاد القبيلة اليمنية المذكورة سابقاً، «اللخميين»[1]، بقيادة أميرهم أمير عون، ابن ملك الحيرة المنذر بن النعمان الذي كان المسلمون قد خلعوه عن العرش. شارك الأمير عون في جميع المعارك التي خاضها المسلمون في سورية وحصل لقاء ذلك على منطقة معرة النعمان الواقعة إلى الجنوب من حلب. بقي هنا مع جماعته طيلة الحكم الأموي. في الحروب الأهلية اللاحقة التي انتهت بسقوط الحكم الأموي قاتل أحفاد عون إلى جانب العباسيين وشاركوا في معركة الزاب. وعندما جاء الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور (136 ـ 158هـ = 754 ـ 775م) إلى دمشق توجه إليه أرسلان، الحفيد الخامس للأمير عون (حسب سجلات الأسرة توفي عام 171هـ) وطلب منه إعطاءه منطقة أخرى بدلاً من منطقته الحالية القليلة الخصوبة. بناء على ذلك طلب منه أبو جعفر الانتقال مع قومه إلى لبنان وأعطاه جميع الأراضي التي ينتزعها من المردة (أو الجراجمة) الموجودين هناك على شرط أن يؤمن الاتصال بين دمشق والبحر عبر منطقة المردة.

كان المردة[2] يشكلون السكان الأصليين لمنطقة جبل لبنان ويعتبرون أسلاف الموارنة الحاليين. وكانوا في عهد النبي محمد قد أصبحوا مسيحيين منذ زمن طويل. واستطاعوا بحماية الجبال الدفاع عن عقيدتهم وحريتهم ضد الإسلام. من

---

(1) أنظر الفصل الثالث، ص112 من هذا الكتاب.

(2) انظر إسطفان الدويهي الإهدني: تاريخ الموارنة، نشره وعلق عليه رشيد الخوري الشرتوني، بيروت 1890م، ص68 وما يليها. مولر: الإسلام في بلاد المشرق والمغرب، برلين 1885م، الجزء الأول، ص352، يسميهم المردئيين «المردة».

الناحية القومية كانوا دون أي شك آراميين[1]. وكان سكان لبنان في عهد القيصر البيزنطي أيضاً في صراع مع الحكومة، آنذاك دفاعاً عن شعائرهم الدينية ضد المذهب الأرثوذوكسي الإغريقي الذي يعتنقه البلاط البيزنطي.

يعتقد أنهم قد حصلوا في ذلك الوقت على اسم «المردة» (المتمردون). ويبدو أنهم سببوا للأمويين بعض المتاعب[2]. تلبية لطلب الخليفة أبو جعفر المنصور قام أرسلان وجماعته بنصب خيامهم على جبل المغيثه، ظهر البيدر الحالي. ومن أميرهم آنذاك حصلت على اسمها أسرة أرسلان التي ما زالت مزدهرة حتى اليوم[3]. خاض القادمون الجدد من عرب الجنوب معارك دامية مع المردة، ما زال يذكّر بها الموقع الذي دارت فيه المعركة الحاسمة والمسمى «وادي الموت»، تمكنوا خلالها من توسيع أملاكهم. وخلال وقت قصير استولوا على كامل جنوب غرب لبنان وطردوا المردة من هذه المناطق. وقام ابن الأمير المظفر أرسلان وخليفته الأول ببناء الشويفات، المقر الحقيقي لآل أرسلان في لبنان، والذي لم يزل حتى اليوم في يد العائلة. وشيئاً فشيئاً جاءت إلى لبنان عائلات شيوخ أخرى مع أتباعهم الكثر. وكان أشهر هذه العائلات ينتمون، مثلهم مثل آل أرسلان، إلى مجموعة عرب الجنوب الذين تطلق عليهم جميع المراجع عادة اسم «تنوخ»[4] وإلى عائلة معن من عرب الشمال التي تنتمي

---

(1) انظر الفصل الأول أعلاه، ص20 وما بعدها وص29.

(2) انظر مولر، نفس المرجع السابق، الجزء الأول، ص376.

(3) تزعم عائلة أرسلان (تلفظ في صيغة الجمع رسلان أيضاً) أن لها صلة قربى بأسرة المعتضد التي حكمت إشبيلية وكانت من اللخميين أيضاً؛ كما أن لها علاقات مصاهرة مع العباسيين والعلويين.

(4) في الأوقات اللاحقة اتخذ أفراد أسرة تنوخ أسماء خاصة بهم. ومن الفروع التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ لبنان الفرع الذي حمل اسم «تنوخ» دون أي إضافة، ثم فرع «علم الدين» وفرع «أرسلان». أما الفرعان الأولان فقد انقرضا. ولقد مر معنا سابقاً الاسم «تنوخ» (الفصل الثالث، ص112) وتفيد التقاليد المتوارثة بأنه كان يطلق على جميع القبائل العربية التي هاجرت من اليمن والتي توجه جزء منها (تحت قيادة اللخميين) إلى الفرات الأدنى وأسس هناك مدينة الحيرة. بينما توجه جزء آخر إلى حوران وأسس أول مستوطنة سبئية في هذه الجبال.

إلى قبيلة بني ربيعة التي استوطنت في بداية القرن الثاني عشر في بعقلين في الشوف[1]. شكل جميع هؤلاء القادمين جزيرة مختلفة عن سكان لبنان الآراميين المسيحيين من جميع الجوانب: فهم مسلمون من ناحية العقيدة وعرب من ناحية الأصل واللغة. وما زال هذا التناقض قائماً حتى اليوم. وفي القرون اللاحقة جاءت إلى لبنان فصائل صغيرة من أصل غير عربي ومنهم: آل جنبلاط الأتراك، وآل عماد الأكراد من العمادية في بلاد الرافدين، وعائلة النكد[2] التي انقرضت الآن في سورية. إلا أن هذه الأجزاء الغريبة، ولكن المسلمة أيضاً، كانت بلا أهمية بالنسبة للوسط العربي الذي تعيش فيه. إذ ما لبثت أن ذابت في محيطها العربي واكتسبت اللغة والعادات العربية. كان لجميع هذه العائلات علاقة ارتباط فضفاضة مع حكام سورية المسلمين. كانوا يعرفون جيداً كيف ومتى يمجدون حكام دمشق الأقوياء. وشيئاً فشيئاً طردوا المردة إلى مناطق أبعد وأصبحوا سادة الجزء الأكبر من لبنان. في الحرب مع الصليبيين كانوا منذ اللحظة الأولى من ألد خصوم الفرنجة. ويبدو أن بعض العائلات قد عانت بشكل مخيف في ذلك الوقت. وكان على رأس المتضررين آل أرسلان، الذين كانوا الأسرة الحاكمة حتى ذاك الحين. فقد دافعوا عن بيروت، التي كانت تحت حكمهم، دفاع الأبطال ولكن دون جدوى. وما زالت العائلة تتذكر حتى اليوم صمود الأمير علي عضد الدولة. ويذكر أن 25 فرداً من أفراد العائلة قد قتلوا في المعارك مع الصليبيين. وقام الصليبيون بتدمير مقر العائلة في الشويفات وكادت العائلة أن تنقرض. وكان السليل الوحيد الذي بقي من العائلة على قيد الحياة بحتر بن علي المذكور أعلاه، الذي خبأته أمه وهو طفل في أحد الأقبية (في قرية عرامون)[3] والذي أصبح فيما بعد جد العائلة الجديدة[4].

---

(1) عائلة «معن» انقرضت أيضاً.

(2) تفيد إحدى الروايات بأن النكد جاؤوا من المغرب حيث ما زالوا موجودين تحت اسم «الألكد». وهناك اختلاف في الرأي حول ما إذا كانت هذه العائلة من أصل عربي أم بربري.

(3) انظر شدياق، نفس المرجع السابق ص225.

(4) فيما يلي نعرض شجرة تسلسل النسب لعائلة أرسلان مع ذكر الابن البكر للجيل الأحدث. الأمير مصطفى باشا أرسلان قائمقام الشوف الحالي هو عم الأمير شكيب الوارد اسمه في آخر الجدول. جميع آل أرسلان يسمون أنفسهم «أمير».

تسلسل نسب الأمراء من عائلة ارسلان

1 ـ ابن الملك امرئ القيس ابن ماء السماء.

2 ـ ابن الملك المنذر اللخمي.

3 ـ ابن الملك المنذر.

4 ـ ابن الملك النعمان أبي قابوس.

5 ـ ابن الملك المنذر المغرور.

6 ـ ابن الأمير عون المتوفى سنة 12هـ.

7 ـ ابن الأمير مسعود الملقب بقحطان المتوفى سنة 45هـ.

8 ـ ابن الأمير المنذر الملقب بالتنوخي المتوفى سنة 78هـ.

9 ـ ابن الأمير بركات المتوفى سنة 106هـ.

10 ـ ابن الأمير مالك المتوفى سنة 134هـ.

11 ـ ابن الأمير ارسلان المتوفى سنة 171هـ.

12 ـ ابن الأمير مسعود المتوفى سنة 223هـ.

13 ـ ابن الأمير هاني المتوفى سنة 258هـ.

14 ـ ابن الأمير عامر المتوفى سنة 272هـ.

15 ـ ابن الأمير النعمان المتوفى سنة 325هـ.

16 ـ ابن الأمير المنذر المتوفى سنة 260هـ.

17 ـ ابن الأمير عز الدولة تميم المتوفى سنة 387هـ.

18 ـ ابن الأمير أبي الفضل مطوع المتوفى سنة 410.

19 ـ ابن الأمير عماد الدين موسى المتوفى سنة 428هـ.

20 ـ ابن الأمير أبي المحامد عيسى المتوفى سنة 444هـ.

21 ـ ابن الأمير شجاع الدولة عمر المتوفى سنة 481هـ.

22 ـ ابن الأمير عضد الدولة عليّ المتوفى سنة 504هـ.

23 ـ ابن الأمير ناهض الدين أبي العشائر بحتر المتوفى سنة 561هـ.

24 ـ ابن الأمير قوام الدين عليّ عرف الدولة المتوفى سنة 627هـ.

25 ـ ابن الأمير بدر الدين يوسف المتوفى سنة 690هـ.

26 ـ ابن الأمير زين الدين صالح أبي الجيش المتوفى سنة 695هـ.

27 ـ ابن الأمير سيف الدين مفرج المتوفى سنة 748هـ.

28 ـ ابن الأمير نور الدين صالح المتوفى سنة 790هـ.

29 ـ ابن الأمير سيف الدين يحيى المتوفى سنة 827هـ.

30 ـ ابن الأمير صلاح الدين مفرج المتوفى سنة 888هـ.

31 ـ ابن الأمير بهاء الدين خليل المتوفى سنة 916هـ.

32 ـ ابن الأمير جمال الدين المتوفى سنة 994هـ.

33 ـ ابن الأمير محمد المتوفى سنة 1014هـ.

34 ـ ابن الأمير مذجح المتوفى سنة 1026هـ.

35 ـ ابن الأمير يحيى المتوفى سنة 1042هـ.

36 ـ ابن الأمير فخر الدين المتوفى سنة 1063هـ.

37 ـ ابن الأمير سليمان المتوفى سنة 1107هـ.

38 ـ ابن الأمير حيدر المتوفى سنة 1135هـ.

39 ـ ابن الأمير فخر الدين المتوفى سنة 1195هـ.

40 ـ ابن الأمير يونس المتوفى سنة 1237هـ.

41 ـ ابن الأمير حسن المتوفى سنة 1269هـ.

42 ـ ابن الأمير حمود المتوفى سنة 1305هـ.

43 ـ الأمير شكيب المولود سنة 1286هـ.

يتعين علينا الآن أن نعود في التاريخ عدة قرون إلى الوراء. قبل أن تتوسع الدولة التي أسسها النبي محمد وتصبح بعد انتصارات لا مثيل لها أعظم أمبراطورية في ذلك الزمان[1]، كانت تحمل في داخلها بذرة الشر التي عملت

(1) في القرن الثامن الميلادي كان الإسلام قد سيطر على شبه الجزيرة العربية والشرق=

= الأوسط، باستثناء المناطق المرتفعة من آسيا الصغرى ومنطقة القوقاز، وعلى بلاد فارس وعلى أجزاء كبيرة من ترانس أوكسانيا ثم شمال إفريقيا بالكامل وجزء كبير من شبه الجزيرة الإسبانية ومنطقة ناربون في جنوب فرنسا (انظر الخريطة الموجودة عند مولر، الإسلام، الجزء الثاني، ص18؛ ثم ل. منكه، بلدان الإسلام، في: أطلس شبرونر ـ منكه، غوتا 1877م، رقم 78، 81 ـ 83). وبعد وقت قصير خضعت زنجبار والساحل الشرقي من إفريقيا بالإضافة إلى مناطق واسعة من هذه القارة، لحكام مسلمين. ومن العصور الوسطى كانت صقلية وأجزاء من سردينيا وكورسيكا، بالإضافة إلى جنوة ومدن أخرى على الساحل الإيطالي الشمالي والساحل الفرنسي، تحت الحكم الإسلامي لفترات مؤقتة. أما المناطق الجبلية من آسيا الصغرى وتركيا الأوروبية مع القسطنطينية فقد خضعت في وقت متأخر نسبياً، في القرن الخامس عشر، للحكم الإسلامي الذي كان قبل ذلك بوقت طويل قد طرد من أوروبا. بالمقابل حققت العقيدة الإسلامية في آسيا وإفريقيا مزيداً من التقدم. وفي الوقت الحاضر يحتل الإسلام بعد المسيحية المرتبة الثانية من حيث الانتشار الجغرافي. جميع المناطق التالية تعتبر مناطق إسلامية: في أوروبا: أجزاء من البلقان، القرم وجنوب شرق روسيا؛ الشمال الإفريقي بكامله، بلدان الصحراء، بلدان مختلفة في وسط وغرب إفريقيا، زنجبار، أجزاء كبيرة من شرق إفريقيا؛ كامل تركيا الآسيوية تقريباً؛ شبه الجزيرة العربية، إيران، الإمارات الواقعة في غرب ووسط آسيا والمندمجة بشكل أو بآخر مع الأمبراطورية الروسية؛ أجزاء واسعة من الهند والأرخبيل الماليزي، وكذلك جزر صغيرة مختلفة في المحيط الهندي وبحر الجنوب، من جزر القمر حتى غينيا الجديدة؛ في الصين المناطق الغربية وحوض تاريم مع الإمارات التركستانية والتترية التي كانت سابقاً مستقلة مع اثنين من شريط البلدان المحيطة من الغرب إلى الشرق بصحراء آسيا الوسطى والتي يمتد شريطها الشمالي عبر كولدث حتى منشورية وشريطها الجنوبي عبر التيبت إلى جنّان. وحتى في أقصى الشرق في بكين وهونغ كونغ توجد جاليات إسلامية هامة جداً وهناك جاليات إسلامية متفرقة نجدها في بلدان أخرى مختلفة: أشير هنا بشكل خاص إلى الأعداد المتزايدة للمستوطنات الماليزية غالباً في جنوب إفريقيا وأستراليا. وفي الآونة الأخيرة تشكلت جاليات إسلامية حتى في بريطانيا وأمريكا من مسيحيين منشقين عن المسيحية.

في عام 1855م أحصى رافنشتاين (نظرة إحصائية إلى السكان حسب توزعهم الديني واللغوي في أوروبا وما وراء القوقاز وتركيا في آسيا، لندن 1855م، ص13) العدد الإجمالي للمسلمين فبلغ، حسب تقديره، 105,688,000 نسمة أي 8,37 بالمائة من سكان الأرض البالغ عددهم 1,263,574,860 نسمة. وفي الإحصاء الذي أجراه =

أكثر من الأعداء الخارجيين على نخر الدولة من الداخل عن طريق تمرد الحكام البعيدين وغير ذلك من الأخطار. جاء هذا من حركة كانت تحمل اسم علي، ابن عم النبي محمد وصهره، وترفع اسمه شعاراً لها لكنها تسببت في تفكك الأمبراطورية الإسلامية الموحدة القائمة على الخلافة العربية وفي تحولها إلى عدد من الدول الإسلامية القائمة، باستثناء الأمبراطورية العثمانية الوريث الرئيسي للخلافة، على أساس قومي بالدرجة الأولى. بعد وقت قصير من وفاة النبي بدأت الحركة التي كانت لها عواقب وخيمة. كان الخطأ الأكبر الذي وقع فيه النبي محمد، الذي فيما عدا ذلك وضع نظاماً عبقرياً للدولة الثيوقراطية، هو عدم تحديد خليفة له أو عدم وضع قواعد لاختيار الخليفة. لو كان للنبي ولد ذكر لكان ، من يعلم، قد وضع ربما قواعد لاختيار الخليفة الذي يتولى القيادة الدنيوية للمسلمين. لكن النبي توفي دون أن ينظم في القرآن أو في الحديث قضية الخلافة البالغة الأهمية. أدى تجاوز علي بن أبي طالب، صهر النبي، في الانتخابات الثلاثة التي جرت خلال 22 عاماً إلى تذمر عدد كبير من الناس ولكن من سخرية القدر الملفتة للانتباه هو أنه عندما تولى أخيراً منصب الخليفة، الذي كان يعتقد غالبية الناس أنه من حقه، حدثت لأول مرة معارك بين مسلمين

= فريدريك مارتينس (الكتاب الإحصائي السنوي لعام 1875م، ص35) بلغ عدد المسلمين 204,200,000 أي 15,81 من إجمالي سكان الأرض البالغ عددهم 1,292,000,000. أما البروفسور يوراشيك فيقدر عدد المسلمين عام 1889م في «الجداول الإحصائية الجغرافية لأوتوهوبنر (فرانكفورت/ ماين 1889م، ص45)، وكذلك فيشمان في أطلس الجيب يوستوس برتس لعام 1895م، بـ171,000,000 فقط أي 11,3 بالمائة من سكان العالم البالغ عددهم 1,500,000,000 نسمة. أما ميشائيل غ. مولهال فيقدر في «قاموس الإحصاء» (لندن 1892م ص513) عدد المسلمين في عام 1892م بـ200,900,000 نسمة أي 18,95 بالمائة من عدد سكان الأرض البالغ 1,060,120,000 نسمة.

هناك إحصائيات أخرى نجدها عند الدكتور هوبرت يانزن عن أماكن انتشار الإسلام مع معلومات عن مختلف الطوائف والمذاهب والطرق الصوفية في مختلف بلدان الأرض 1890م حتى 1897م (فريدركسهاغن قرب برلين 1897م، ص72). يتوصل يانزن، مستنداً بعناية إلى المراجع الخاصة المتعلقة بكل قارة على حدة إلى الجدول التالي: =

نسبة المسلمين السنّة والشيعة في العالم

القارات (الجزر الرئيسية)	عدد السكان الإجمالي	سنّة	شيعة	مسلمون عام 1890م	النسبة المئوية من إجمالي سكان الأرض	المسلمون عام 1897م
أوروبا	372,459,634	11,452,138	1470	11,453,608	3,075	11,515,402
آسيا	862,704,461	124,155,037	10,076,414	134,231,451	15,5577	140,235,864
ماليزيا	44,627,587	30,455,633	-	30,455,633	68,244	31,042,144
آسيا مع ماليزيا	907,422,048	154,610,670	10,076,414	164,687,084	18,149	171,278,008
أوقيانوسيا	2,483,353	700	-	700	0,028	700
أستراليا	3,473,556	17702	-	17702	0،510	18746
أستراليا وأوقيانوسيا	5,956,909	18,402	-	18,402	0,309	19446
إفريقيا	200,000,000	74,953,541	1000	74,954,541	37,477	76,818,253
أمريكا	130,104,288	48,922	635	49457	0,038	49563
الكرة الأرضية بكاملها 1890	1,615,942,879	241,083,673	10,079,519	251,163,192	15,543	259,680,672
			نسبة الشيعة من المسلمين 4,013%			

الكرة الأرضية بكاملها عام 1897م 1,672,500,000 نسبة المسلمين = 15,543% = حوالي 260 مليون.

من الطبيعي أن الأرقام المذكورة أعلاه تستند إلى تقديرات يجب التعامل معها بحذر. ولكن على أي حال يتبين منها أن الإسلام ازداد قوة في هذا القرن، وهو تطور ما زال مستمراً ويلعب دوراً رئيسياً فيه خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد.

ومسلمين[1]. وبعد ذلك انقسم أنصار علي أنفسهم إلى قسمين: الخوارج وشيعة علي. وفي وقت لاحق أطلق اسم «شيعة»، أي أتباع أو أنصار، على الفرقة التي ترى أن خلافة النبي محمد كانت منذ البداية من حق علي ثم من حق أبنائه وأبناء أبنائه من بعده وحدهم دون استثناء لأنهم آل البيت ومن نسل الرسول. ثم صارت كلمة شيعة تطلق على كل حركة تناصر رجلاً من عائلة النبي (آل البيت) ضد الحكومة القائمة.

بعد وفاة علي حُرم آل النبي مرة أخرى من منصب الخليفة. فبدلاً من الحفيدين الوحيدين للرسول الحسن والحسين اللذين فقدا حياتهما في الصراع مع خصومهما، تولى الحكم الدنيوي والروحي معاوية بن أبي سفيان الذي ينتمي إلى قبيلة النبي، قريش، ولكن لا تربطه به أي قرابة مباشرة. أصبح معاوية مؤسس الدولة الأموية التي اتخذت من دمشق مقراً لها وتولت الخلافة من عام 661 حتى عام 750 ميلادي. انتزع الخلافة من يد الأمويين العباسيون الذين نقلوا العاصمة من دمشق إلى بغداد والذين لم ينحدروا من نسل علي وفاطمة بنت الرسول ولكنهم كانوا، على أي حال، أقرب إليه من الأمويين. فهم ينحدرون من عباس عم النبي محمد ومنه أخذوا اسمهم. وهم يزعمون أن أحد أحفاد عباس حصل على حق تولي الخلافة من عبد الله أحد أحفاد الخليفة علي ولكن من امرأة من قبيلة «بنو حنيفة»[2]، أي ليس من فاطمة بنت النبي. وعلى أي حال فقد استولى العباسيون على الخلافة والحكم بمساعدة العليين الذين كانوا ضد السلالة العلوية المنحدرة من علي وفاطمة وكانوا يريدون من حربهم ضد الأمويين، بالدرجة الأولى، الانتقام لمقتل الحسن والحسين[3].

---

(1) انظر مولر، الإسلام، الجزء الأول، ص316.

(2) انظر مولر، نفس المرجع السابق، الجزء الأول، ص379 وص444.

(3) بقيت الخلافة منذ ذلك الحين في يد العباسيين حتى في وقت لاحق عندما أصبحت السلطة الدنيوية جزئياً أو كلياً في يد قادة جيوشهم. بعد تدمير بغداد على يد المغول نقل السلطان المملوكي المصري بيبرس الخليفة العباسي المستنصر إلى القاهرة حيث بقي خلفاؤه من بعده يمثلون هنا السلطة الدينية للخلافة حتى عام 1517م. في ذلك العام نقل السلطان التركي سليم الأول، الذي استولى على سورية ومصر، السلطة الروحية أيضاً من المتوكل آخر خلفاء بني العباس له ولأسرته العثمانية في احتفال رسمي.

أما أتباع علي الذين صاروا اعتباراً من الآن يسمون بحق «الشيعة» فقد عرفت الخلافة العباسية كيف تحاربهم وتشتتهم. ولأن العباسيين لم يكونوا من نسل علي وفاطمة فقد كان هذا كلمة السر للتحولات التي بدأت في القرن الأول لحكمهم. لكن الحركة المناوئة للعباسيين كانت تحمل في طياتها، وبدرجة أعلى من التحولات التي أدت إلى سقوط الأمويين، إلى جانب العامل الديني طابعاً سياسياً قومياً. فالمركز الحقيقي للثورات المتجددة ضد الحكم العباسي كان موجوداً في النصف الشرقي من الأمبراطورية، في فارس، وهنا كان الجانب الديني بالنسبة للكثيرين مجرد غطاء يختبئ خلفه حقد قومي يختلج في صدور الفرس الذين قضى أبناء الصحراء العرب على حضارتهم التي كانت أكثر تطوراً من الحضارة العربية وأخضعوهم لسيطرتهم.

عندما أعلن العباسيون الحرب على الأمويين وقف الفرس معهم على أمل أن يحصلوا هم أنفسهم من وراء ذلك على حريتهم. لكن خيبة الأمل التي منيوا بها فيما بعد زادت من حقدهم على العرب وعلى العباسيين الذين يمثلونهم إلا أن العامل الديني لعب هنا دوراً لا يجوز التقليل من أهميته. كان حكم العرب الذي لم يكن من الممكن التخلص منه، يفرض باسم الله، الإله الجديد، وكانت هذه الديانة الجديدة تلقى الرفض من الديانات القديمة التي كانت موجودة عند الفرس ولديها أفكار مختلفة عن مفهوم الله تميل إلى التصوف بالمعنى الرجعي. وكانت عواقب الحروب التي دارت بين العنصر العربي والعنصر الفارسي رهيبة وأدت إلى دمار الأمتين.

منذ العهد الساساني انتشرت في فارس أفكار تؤمن بوحدة الوجود (وحدة الخالق مع الطبيعة أو انحلاله فيها) وأفكار شيوعية لا بل وأفكار متحررة كلياً من كل قيد، وكذلك أفكار أخرى مقتبسة من الديانات الشرقية مثل التناسخ (التقمص) وبالأخص نظرية التجسد الإلهي أي ظهور الإله مجسداً بهيئة الإنسان يجسد أعلى سلطة دنيوية. خلال فترة حكم الخلفاء العباسيين الأوائل رفع رؤوسهم أتباع التعاليم الزرادشتية القديمة وبعد القضاء عليهم ابتدعت أنظمة جديدة تعتمد على الأفكار الوثنية القديمة المذكورة آنفاً التي لم تكن مهتمة بالديانة الجديدة الإسلام: كثير من الدجالين الطموحين ادعوا أنهم هم أنفسهم التعبير المجسد عن

الروح الإلهية أو إنهم مفوضون بتمثيله على الأرض. ولكن كلما اتسع مع مرور الزمن انتشار الإسلام في فارس وازداد نفوذ المسلمين هناك، كلما دخل مزيد من الأفكار الإسلامية إلى هذه الأنظمة الدينية الجديدة.

بناء على ذلك من السهل أن نفهم أن جزءاً من المسلمين في فارس بالذات ما لبثوا خلال وقت قصير أن طبقوا تعاليم التجسيد الإلهي على أبناء الأسرة النبوية أي آل البيت وبحيث إن التجسد الإلهي ينتقل بالوراثة من الأب إلى الابن. ففي عهد المنصور، الخليفة العباسي الثاني والذي كان من أقوى الخلفاء العباسيين، (754 ـ 775م) ظهرت صيغة غريبة لنظرية التجسيد لم تكن في الواقع سوى تمجيد عظيم للمنصور نفسه. إذ جاء عدد كبير من الفرس من أماكن بعيدة إلى بلاط الخليفة وتحدثوا عنه بصفته إلههم واعتبروا اثنين من كبار موظفيه في مركز آدم والملاك جبريل[1]. لكن المنصور أدرك الخطر الذي يكمن في تطبيق هذه النظرية على الأسرة العباسية التي لا تنحدر بخط مستقيم من علي وزوجته فاطمة ابنة الرسول. ولذلك أمر بزج أصحاب الفكرة في السجن، وعندما حدث تمرد إثر ذلك أمر بقتلهم. ولكن سرعان ما نهض أتباع جدد لنظرية التجسيد وأصبحوا اعتباراً من الآن ضد الخلافة العباسية. نذكر منهم، على سبيل المثال، عطا المقنّع، فارسي من مرو، الذي ادعى أنه هو التجسيد الأخير للإله وكان لا يسمح للناس برؤيته إلا من خلال خمار ذهبي، ومن برجه في سنام كسب تأييد أجزاء واسعة من ترانس أوكسانيا. لم يكن من الممكن إيقاف الحركة إلا بجهد كبير ولم يقض عليها إلا في عام 780، بعد عامين من النشاط، حيث توفي النبي المزيف مع جميع نسائه في قصره الجبلي الذي قام هو نفسه بحرقه. كان هذا «نبي خراسان المقنع» حسب توماس مور (لالّا روخ)[2]. ولكن مع ذلك ازداد عدد أصحاب هذه النظريات الدينية الجديدة إلى درجة أن العباسيين كلفوا جهازاً حكومياً خاصاً بملاحقتهم والقضاء عليهم. وأطلق على جميع هؤلاء الكفرة والملحدين وأصحاب الأفكار الحرة والمعارضين اسم «الزنادقة»، وهو اسم كان

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص494.
(2) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص495.

يطلق في العهد الساساني على السحرة وغيرهم من المنشقين عن الدين السائد، وأعلنت عليهم حرب لا هوادة فيها. ولذلك لجأ هؤلاء المتعصبون إلى العمل في السر وأصبحوا بالتالي أشد خطورة.

نشأت هذه الحركات في البداية، كما ذكرنا، على الأرض الفارسية ولكن شيئاً فشيئاً تخلصت من طابعها المعادي للإسلام ثم من عدائها للعرب أيضاً. وهكذا حفل بلاط الخلافة العباسية بالعديد من المستشارين ورجال الدولة غير العرب. وشيئاً فشيئاً أصبحوا هم الحكام الفعليون وأصبح دور الخليفة يقتصر على السلطة الدينية. ولكن هذا المظهر الأخير من مظاهر السلطة كان الزنادقة يريدون نزعه عن الخليفة. وساعدهم على تنفيذ مآربهم الوضع الاقتصادي الصعب الذي شهدته الدولة العباسية.

في هذه الظروف نشأت وانتشرت فكرة المهدي (المنقذ أو المخلّص) التي تقول إن الخليفة الحقيقي المختار من الله سيظهر في يوم من الأيام من السلالة المباشرة لعلي ويؤسس على الأرض حكماً يقوم على العدل والمساواة. هذه الفكرة التي لم تزل حتى يومنا هذا تحرض في بلدان مختلفة وفي أزمان مختلفة الجماهير المستاءة من الوضع القائم، وسبّبت وتتسبب في سقوط ممالك ونشوء ممالك جديدة، جعلت الزنادقة، عند انهيار السلطة العباسية في فارس، يحصلون على الدوام هناك، وأيضاً في العراق والمناطق العربية الأخرى، على أنصار جدد[1].

في هذه الأثناء كان العلويون أنفسهم قد انشقوا، لكنهم كانوا يلتفون عموماً حول اتجاهين رئيسيين: الأول يعتبر الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر بينما يرى الثاني أن الإمام السابع هو المهدي المنتظر. ويقصد بكلمة «إمام» بهذا المعنى أولئك الأشخاص الذين يحق لهم وحدهم خلافة النبي محمد في «حكم المسلمين» وهم بالتحديد علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وزوج ابنته، ثم ولداه الحسن والحسين وأبناء الحسين وأحفاده من بعده.

---

(1) تجدر الإشارة إلى أن العباسيين أنفسهم استفادوا في بداية الأمر من فكرة المهدي واستثمروها لصالحهم. انظر غ. فان فلوتن، تاريخ العباسيين، لايبزيغ 1898م (مجلة الجمعية الجغرافية).

كان الإمام السادس جعفر الصادق، الحفيد الثاني للحسين. يرى أتباع امامية السبعة [السبعية] في ابنه إسماعيل الإمام السابع والمهدي المنتظر، بينما يرى أتباع الاثني عشرية أن المهدي هو الإمام محمد المنتظر، أي حسب حسابهم الإمام الثاني عشر الذي ينحدر من ابن آخر لجعفر الصادق غير إسماعيل اسمه موسى الكاظم[1]. يسمى أتباع السبعة [السبعية] «الإسماعيليين» نسبة إلى إمامهم السابع إسماعيل، وهم منذ القديم الفئة الأكثر تطرفاً بين الشيعة[2].

يعتقد أن الإسماعيليين والاثني عشرية تشكلوا كفرقة دينية متميزة في حياة الإمام السابع والإمام الثاني عشر، أي حوالي عام 765م بالنسبة للأولين وحوالي عام 873 بالنسبة للأخيرين[3]. ولكن عندما لم تستطع أي من الفرقتين تحرير الناس من جور الحكام القائمين أخذ الناس فيما بعد يعيشون على الاقتناع بأن المهدي يبقى متخفياً عن أعين الناس ليظهر ربما بعد عدة أجيال كمخلّص ومنقذ ويقيم على الأرض حقبة جديدة ملؤها السعادة.

معظم الأديان التي نشأت في القرن التاسع في الأرض الفارسية على أرضية

---

(1) فيما يلي جدول بأسماء الأئمة:

1 ـ علي ـ فاطمة
2 ـ الحسن توفي 50هـ
3 ـ الحسين توفي 61هـ
4 ـ علي زين العابدين توفي 94هـ
5 ـ محمد الباقر توفي 113هـ
6 ـ جعفر الصادق توفي 148هـ
7 ـ موسى الكاظم توفي 183هـ   7 ـ إسماعيل أو محمد
8 ـ علي الرضا توفي 202هـ
9 ـ محمد الجواد توفي 220هـ
10 ـ علي الهادي توفي 254هـ
11 ـ حسن العسكري توفي 260هـ
12 ـ محمد المنتظر، اختفى عام 260هـ.

(2) انظر ستان غوريار: نصوص عربية عن مبادئ الإسماعيليين، باريس 1874م.

(3) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص588.

الديانات الوثنية اعترفت بمهدي الإسماعيلية كمهدي لها أيضاً. وكما أن الفرس تبنوا، متأثرين بتطورات العصر، إلى جانب شخصيات الأئمة من أسرة النبي محمد، جميع التوابع الإسلامية الأخرى فإن الأفكار المختلفة التي نشأت على الأرض الفارسية دخلت أيضاً إلى سورية وشبه الجزيرة العربية، أي إلى الموطن الأصلي للإسلام، وإلى جميع الأماكن التي استقر فيها العرب. ويبدو أن الرجل الذي بلور الأفكار والمطامح الإسماعيلية وحوّلها إلى مبدأ كان فارسياً واسمه عبد الله بن ميمون، ابن طبيب عيون ومفكر حر كان طموحاً جداً وعدواً لدوداً للعرب بصورة عامة وللعباسيين بصورة خاصة. وإليه ينسب ذلك النظام الشيطاني الذي يحوّل الناس، عن طريق تحفيز خيالهم وتشويشه، إلى أدوات عديمة الإرادة في يد رئيس الفرقة، وخلق بذلك عدداً كبيراً من القتلة والمخربين واستطاع، بواسطة منظمته الإرهابية الناشطة سراً في جميع أرجاء العالم الإسلامي، إقامة ممالك وإسقاط عروش. ظل هذا التنظيم العامل الأقوى في العالم الإسلامي آنذاك إلى أن قضى عليه الزحف المغولي الرهيب أيضاً بعد معارك ضارية ودامية. أما البقايا الإسماعيلية التي ظلت موجودة بعد ذهاب السوط الإلهي المتمثل في جنكيزخان وهولاكو خان، والأشكال الشاحبة المسالمة للمذهب الإسماعيلي التي لم تزل موجودة حتى اليوم، فهي عديمة الأهمية قياساً إلى ما كانت عليه الفرقة في الماضي. وعلى الرغم من كل التشويش الموجود في نظام ابن ميمون فلا يمكن أن ننزع عنه صفة العبقرية. فهو يرى أن الإله قد ظهر سبع مرات بهيئة بني الإنسان: تجسد في آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وفي المهدي، الذي لم يعد هنا إسماعيل نفسه وإنما ابنه محمد. وهذا الأخير، أي محمد بن إسماعيل، لم يمت وإنما أصبح غير مرئي وسيظهر في يوم من الأيام مرة أخرى. وكل تجسيد للذات الإلهية كان له معاون، إمام يتولى التعبير عن الإرادة الإلهية ونشرها. وهكذا كان بطرس إمام المسيح وعلي إمام الظهور المحمدي. وكل إمام له ستة خلفاء حتى الظهور التالي للإله في هيئة البشر. وهكذا كان يوحنا المعمدان آخر إمام قبل ظهور المسيح، وكان علي أول إمام عند محمد يليه بقية أئمة الشيعة الإسماعيلية الذين كان آخرهم إسماعيل قبل ظهور المهدي المنتظر سيد الحاضر

وبالتالي «سيد الزمان». أما إمام هذا المهدي ومعاونه فهو عبد الله بن ميمون الذي له على الناس حق الطاعة العمياء مثل المهدي. ومن عنده ينطلق الدعاة الذين ينتشرون في كل مكان ويظهرون تحت مختلف الأقنعة ساعين إلى كسب الأنصار. وعند تنسيب الأتباع إلى الدين الجديد يطلب منهم المحافظة على السرية التامة وعدم البوح بأي معلومة أمام غير المنتسبين، والإخلاص المطلق للداعي، ثم دفع مبلغ من المال لصالح الجماعة يتناسب مع القدرة المالية للعضو. لكن الدعاة لا يعطون ضحاياهم على الفور كامل المعرفة، بل يتعين على المنتسب المرور في أربع درجات للوصول إلى الطبقة العليا من النظام الديني. وعندما يصل إلى هذه المرتبة تبدأ الدروس اللاحقة التي تمر في خمس درجات أخرى عبر خليط من الأفكار الوثنية القديمة والفلسفة الإغريقية والفلسفات المبتدعة الجديدة بحيث ينتزع من المرء إيمانه بأي دين آخر. وحتى في الدرجة الرابعة يكون المنتسب قد فقد إيمانه بالإسلام. وحتى المنهاج التعليمي للدرجة الأولى من الدرجات الأربعة يجعل المستمع، بسبب ما يتخلله من تفسيرات مرمزة، لا يعرف سوى شيء واحد: أبدية المادة واستحالة التعبير عن جوهر الأشياء بالمفاهيم الدينية. المطلوب أن تكون الثمرة الروحية لهذه التربية التشكك الكامل والمادية المطلقة والأنانية المفرطة[1].

كان الغرض الحقيقي لهذه التربية بالنسبة لابن ميمون وخلفائه تشويش الأغبياء أو البسطاء إلى أبعد الحدود وتأهيل الأذكياء ليصبحوا، إما بسبب الخوف أو التعصب أو المنفعة الشخصية، خاضعين كلياً لإرادته. وقد حقق هذا الهدف فعلاً. مارس هذه الحماقات بمساعدة أتباعه في بادئ الأمر في فارس حيث اضطر فيما بعد إلى الهرب من هناك. لكنه استقر بعد ذلك في السلمية في سورية التي كانت تسود فيها أفكار إسماعيلية في أزمنة سابقة (قبل عام 873م). اعتباراً من الآن أصبحت السلمية، ولفترة طويلة، مقر المعلم الكبير للفرقة المخيفة ومركز الدعوة الإسماعيلية. فمن هنا تابع خلفاء ابن ميمون العمل على تفكيك

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص589 وما بعدها.

أوصال السلطة العباسية. وهناك حكاية تقول إن أحد دعاة الخليفة الثاني لابن ميمون نجح في كسب تأييد فلاح اسمه حمدان كان متضرراً من السياسة الاقتصادية السيئة لحكومة بغداد. ويقال بأن حمدان كان يعاني من جميع العلل الجسدية الممكنة وأنه أصبح فيما بعد داعية الفرقة في شرقي بلاد الرافدين والمناطق المحيطة بها. وبسبب عيوبه الجسدية حصل حمدان على لقب القرمط ونسبة له حصل إسماعيليو ابن ميمون على اسم القرامطة[1]. وشيئاً فشيئاً تزايد أتباع تعاليم ابن ميمون في جنوب بلاد الرافدين (العراق) أيضاً وفي شبه الجزيرة العربية بحيث إنهم صاروا في عام 890م يظهرون علناً هناك ويؤسسون مراكز ثابتة لهم. عندئذ رأى أحمد، ابن أو حفيد عبد الله، أن الوقت قد حان لنقل جميع الصفات الصوفية، المنسوبة في تعاليم ابن ميمون إلى الأئمة من أحفاد النبي محمد، إلى أفراد أسرته نفسه. ولهذا الغرض ادعى القرابة مع النبي محمد لكنه لم يجرؤ في بادئ الأمر على الزعم بأنه ينحدر من سلالة علي زوج ابنة الرسول بل ارجع شجرة نسبه إلى عقيل بن أبي طالب، أحد أخوة علي. لكن هذا لم يرق لحمدان القرمطي ورفض الاعتراف بهذا التجديد. على أثر ذلك اختفى حمدان ولم يعثر له على أثر. ولا شك في أنه قد قتل على يد أحد الأنصار المسلوبي الإرادة بناء على أمر من المعلم الأكبر[2]. ويوماً بعد يوم انتشرت الحركة القرمطية، أو القرامطة كما أصبح اسمهم فيما بعد، بصورة متزايدة في العراق؛ وفي البادية السورية وخاصة في البحرين، الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، انضم إلى القرامطة عدد كبير من البدو. ومما يلفت الانتباه أن العباسيين تركوا لهذه الحركة حرية واسعة نسبياً. وفي جنوب شبه الجزيرة العربية، وخاصة في اليمن، حيث كان للعلويين منذ زمن طويل كثير من الأتباع وحيث لم يزل يوجد حتى اليوم في بعض الأماكن عائلات الشرفاء المتحدرين من سلالة النبي محمد والمعتمدين كأمراء في مناطق متفرقة صغيرة، استطاعت الفرقة ترسيخ أقدامها.

---

(1) بخصوص أصل كلمة القرامطة انظر دي غوييه، مذكرات عن قرامطة البحرين والإسماعيلية، لايدن 1886م، ص199.

(2) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص594.

بعد وقت قصير من بداية القرن العاشر الميلادي بدأ عصر جديد بالنسبة للقرامطة: كان المعلم الأكبر آنذاك رجل اسمه سعيد[1]، يقال بأنه ابن أخ أو حفيد، أو ابن حفيد، أحمد المذكور لكن خصومه يقولون إنه لم يكن له حتى ولا هذا النسب بل كان طفلاً غريباً احتضنته أسرة المعلم الأكبر ونشأ في كنفها، لا بل إنه كان حسب بعض الروايات ابن حداد يهودي من السلمية. إلا أن سعيد الذي كان على أي حال قد أعد منذ أول شبابه لدور المعلم الأكبر للفرقة، حقق الخطة التي كان يحلم بها عبد الله بن ميمون: فقد أسس مملكة متماسكة الأجزاء ولكن ليس في آسيا وإنما في شمال إفريقيا.

كان الدعاة المرسلون إلى هناك، وخاصة الداعية المخلص عبد الله الشيعي، قد هيأوا له الجو لتأسيس الدولة هناك. في عام 902م غادر السلمية بلا رجعة لكي يذهب إلى إفريقيا. وعندما وصل إلى هنا أصبح إنساناً آخر. إذ سمى نفسه عبيد الله المهدي وأرجع شجرة نسبه إلى علي وفاطمة مباشرة أي لا إلى عقيل، أخي علي، كما كان الأمر حتئذ. وعرف كيف يلعب بذكاء دور المخلّص الموعود. فقد طلب من أتباعه أن يحبسوه عدة أعوام في سجلماسه، تفليلة الحالية، إلى أن حان وقته حيث حرره من سجنه دعاته المخلصون لكي يتولى بنفسه زمام الأمور في الدولة الجديدة. اتخذ مقره في المهدية قرب القيروان. ثم قام البربر الناقمون على حكم الأغالبة بتعزيز وتقوية سلطته أكثر فأكثر مما دعاه إلى التفكير بتوسيع مملكته نحو الغرب والشرق.

وعلى الرغم من أنه أصبح بهذا الشكل حاكماً دنيوياً فقد ظل مع ذلك المعلم الأكبر للفرقة التي كانت مزدهرة في الشرق الأوسط وفارس. وكان عبيد الله محظوظاً من جميع الجوانب. فكما أنه لم يقع في أيدي العباسيين خلال مروره عبر مصر، شنت الحكومة العباسية حملة على القرامطة بعد خروجه من سلمية مباشرة. في البداية كانت المعركة سجالاً بين الطرفين ولكن في النهاية قضي على

(1) انظر فوستنفلد، تاريخ الخلفاء الفاطميين حسب المصادر العربية، غوتنغن 1881، ص3.

العش الموجود في السلمية الذي كان لم يزل يعتبر بالنسبة للعالم الخارجي المقر الرئيسي للفرقة. لا شك في أن وضع الإسماعيليين في سورية أصبح آنذاك سيئاً جداً وكذلك وضع عرب البادية السورية الذين كانوا متحالفين معهم. ومن المحتمل أن تكون أجزاء كبيرة من البدو السوريين قد لجأوا آنذاك إلى أقربائهم العرب الذين كانوا، كما رأينا سابقاً، قد أقاموا موطناً جديداً لهم في منطقة المردة الجبلية الوعرة في لبنان. ومن الممكن أن يكون هذا النزوح إلى جبل لبنان قد تكرر في وقت لاحق نتيجة المعارك اللاحقة مع القرامطة في سورية. وأنا أقول هذا لأن مصدر معلوماتي المذكور أعلاه أكد مراراً وتكراراً، وبما يتطابق مع أقوال كثير من الدروز الآخرين، أن القبائل العربية في لبنان والمناطق الجبلية المجاورة له كانت لديها، قبل مجيء الديانة الدرزية، ميول باتينيدية[1] أو بالأحرى إسماعيلية[2].

بعد الهزائم الأولى التي مني بها القرامطة في سورية نقلوا مركز نشاطهم إلى لحسا في البحرين على الخليج العربي التي يصعب على جيوش الخليفة العباسي الوصول إليها. من الواضح أن التعاليم الإسماعيلية اتخذت آنذاك هنا شكلاً يناسب طبيعة البدو إذ أصبح بدو نجد والبوادي والواحات المحيطة بها اعتباراً من الآن ولفترة طويلة من الزمن الحملة الحقيقيين للفكر القرمطي. كان سكان شبه الجزيرة العربية المستقرون أو نصف الرحل قد حافظوا على طبيعتهم البدوية الطبيعية وعلى القوة التي جعلت تعاليم محمد تسيطر على جزء كبير من العالم. وكانت شبه الجزيرة العربية مهد الشعوب العربية جميعها قد نشأ فيها مقاتلون جدد حلوا محل المقاتلين الأوائل ومحل الجيل الأول بعد الرسول الذين كانوا قد هاجروا إلى خارج الجزيرة وأصبح أبناؤهم وأحفادهم من بعدهم، نتيجة الاحتكاك بشعوب أخرى أكثر تطوراً، ذوي تفكير سياسي أممي ولأن عودهم نتيجة الحياة المرفهة والعيش في المدن. في عهد النبي محمد ـ ولكن أيضاً في مطلع القرن التاسع عشر عندما ظهر الوهابيون المتقشفون وأسسوا مملكة عربية

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني ص 61

(2) انظر أيضاً سيلفستر دو ساسي في دراسته عن ديانة الدروز.

ضمت الأماكن المقدسة في الحجاز ولم يوقف مدها إلا بعد معارك طويلة استمرت عدة سنوات وقام بها المصريون بأمر من السلطان - تبين أن عرب الصحراء لديهم استعداد لقبول الأفكار الصوفية وخاصة عندما تتيح لهم هذه التعاليم الفرصة لأن يمارسوا أحب عمل لهم وهو الغزو. ومن الواضح أن القرامطة أدركوا هذا الميل واستغلوه لمصلحتهم. تنامت دولة القرامطة في بادئ الأمر تحت قيادة دعاة، ولكن في وقت لاحق تولى قيادتها مجلس مؤلف من ستة أشخاص أو أكثر، والغريب في الأمر أنهم كانوا متفقين فيما بينهم. وانطلاقاً من الحسا انتقم القرامطة للهزيمة التي منيوا بها في سورية، وظلت سورية والمناطق المحيطة بها أعواماً طويلة تدفع الضرائب لهم. ويبدو أن القرامطة في البحرين ظلوا يرون في عبيد الله وخلفائه زعماءهم الروحيين. إذ عندما تجرأوا في عام 930م على سرقة الحجر الأسود من جدار الكعبة في مكة وأخذوه إلى الحسا لم يعيدوه إلى مكانه، على الرغم من احتجاج العالم الإسلامي بكامله، إلا بعد أن أمر بإعادته إلى مكة في عام 951م حفيد عبيد الله، منصور. على الرغم من ذلك حدث في عهد المعز، ابن منصور، نزاع بين قرامطة البحرين وأحفاد ابن ميمون. إذ إن جيوش الفاطميين - هذا هو الاسم الذي أطلقه أبناء عبيد الله على أنفسهم بناء على انتسابهم الكاذب إلى فاطمة ابنة الرسول - كانت خلال حكم المعز قد احتلت مصر وانتزعت أيضاً سورية من أيدي أعدائهم الألداء العباسيين(1). على إثر ذلك توقفت هذه المنطقة عن دفع الضرائب للقرامطة مما أدى إلى نشوب نزاع بين حكام البحرين والفاطميين. كانت الحرب سجالاً بين الطرفين، مرة لهذا وأخرى لذاك. وفي إحدى المرات وصلت قوات القرامطة إلى أبواب الفسطاط - القاهرة - لكن الحظ بقي وفياً لأسرة ابن ميمون: وقد اتخذ هذا الوضع فرصة تجاه الخارج لإقامة احتفالات ضخمة جداً بمناسبة انتقال «الخليفة» المعز إلى القاهرة (في عام 973م) كانت بداية للحكم الفاطمي الذي دام عدة قرون في بلاد النيل الغنية التي كان جميع سكانها من أهل السنة، الاتجاه الأرثوذكسي في

---

(1) في الحقيقة من أيدي الإخشيديين وهم أسرة استقلت عن الخلافة في بغداد وحكمت مصر فترة قصيرة.

الإسلام، على عكس الفاطميين الذين هم من أهل الشيعة. بعد ذلك بوقت قصير توفي المعز. حقق ابنه عزيز انتصارات عديدة في الحرب ضد القرامطة التي كان أبوه المعز قد بدأها لكنه وافق (في عام 977م)[1] على دفع مبلغ سنوي لهم وأعاد بذلك إلى حد ما العلاقة الجيدة القديمة بين الفرقة الإسماعيلية وزعمائها الأصليين. إلا أن المعز والعزيز لم يستعملا هذه المكانة إلا نادراً ـ وكان هذا دون شك مراعاة للسكان السنة في وطنهم الجديد.

كان الحاكم، حفيد المعز، أول من عمل بكل قوة على فرض الأفكار الإسماعيلية في مصر أيضاً. وكان الهدف النهائي، الذي سعى إليه المعز[2] وكذلك عبيد الله وأيضاً عبد الله بن ميمون نفسه، لم يزل قائماً حتى الآن ألا وهو: إسقاط العباسيين وتنصيب الأسرة الفاطمية مكانهم. لكن هذه الرغبة العليا للفاطميين لم تتحقق أبداً. إلا أن اسم الخليفة الفاطمي المستنصر صار في الوقت الذي بدأ فيه تدهور السلطة الفاطمية في عام 450هـ (1059م) يذكر في مساجد بغداد بعد صلاة الجمعة. لكن انتصار الفاطميين على العباسيين بهذا الشكل لم يكن إلا لفترة قصيرة جداً. فضلاً عن ذلك فإن الحدث لم يكن بأي حال نتيجة انتصارات فاطمية ولم تكن له أيضاً أي أهمية عملية[3]. إذ إن العباسيين، أو بالأحرى حراسهم ورجال بلاطهم الأقوياء، ردوا بقوة على الحقد الذي أبداه الفاطميون تجاههم. فقد استغلوا بلباقة محاولة التقرب التي قام بها الخليفة الفاطمي عزيز لكي يجعلوا العلويين في بغداد يعلنون في عام 980م (369هـ) أن شجرة نسب الفاطميين مزورة[4].

لا شك في أن دحر العباسيين كلياً عن طريق إحياء الأفكار الإسماعيلية شكل الفكرة الرئيسية في حياة الخليفة الحاكم (بأمر الله) أبو علي منصور. كان الحاكم

---

(1) انظر فوستنفلد، تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص140.
(2) انظر فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص130.
(3) انظر فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص242 وما بعدها.
(4) انظر فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص3 وما بعدها، ص142.

(بأمر الله) الحاكم السابع في الأسرة الحاكمة التي أسسها عبيد الله والثالث بين الفاطميين الحاكمين في مصر، ويقال بأن أمه كانت مسيحية. تولى الحكم وهو صبي في الحادية عشر من عمره وبعد ذلك بخمس سنوات صار يتصرف بشكل مستقل وقام بعدد من الأعمال الجنونية ولكنها أعمال توحي بشيء من العبقرية والقوة الداخلية الهائلة. كان المعز قد فرض عندما جاء إلى القاهرة الطريقة الشيعية في إقامة صلاة الجمعة، وفيما عدا ذلك لم يفرض أي شيء شيعي آخر، لا هو ولا ابنه عزيز. أما الحاكم فقد عيّن معلّمين لنشر الأفكار الإسماعيلية في جوامع القاهرة، وفجأة وقف رجل إسماعيلي جاء من فارس، كان من الناحية القومية ربما تركياً، وكان يسمى «الدرزي»، وراح يدعو إلى نظرية التجسيد القديمة ثم طبقها على الحاكم الحالي الخليفة الحاكم (بأمر الله) نفسه. كان هذا بالنسبة لسكان القاهرة السنة مغالاة غير مقبولة، فانقضوا على الدرزي وكادوا يقتلونه لكنه استطاع الهرب إلى سورية ومعه مبلغ كبير من المال زوده به الخليفة. هناك لجأ إلى منطقة جبل حرمون حيث كسب في عام 1017م[1] في وادي التيم أول الأتباع الذين آمنوا بألوهية الحاكم. بعد ذلك كرر الحاكم بأمر الله المحاولة التي فشلت في المرة الأولى والرامية إلى إحياء الأفكار الإسماعيلية بالشكل المذكور، فظهر نبي آخر في القاهرة لكنه اختفى بعد وقت قصير دون أن يحظى بأي أهمية خاصة؛ وفي عام 1019م ظهر رجل آخر، وهو فارسي اسمه حمزة، ولم يحقق سوى قليل من النجاح لكنه استطاع، بفضل الحكم الرهيب للحاكم بأمر الله، نشر أفكاره فترة من الزمن، غير أنه ما لبث أن اضطر إلى الهرب أيضاً وتوجه إلى الدرزي في سورية.

في عام 1021م وصل العمل الحكومي العام للحاكم بأمر الله إلى نهايته. وكما كانت حياته غريبة كان موته غريباً أيضاً. في صباح أحد الأيام ركب على حمار أبيض وذهب إلى جبل المقطم المجاور للقاهرة والمليء بالمغائر

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص632. هذا التاريخ ذكره لي في سورية أيضاً الدروز أنفسهم. أما فوستنفلد (تاريخ الخلفاء الفاطميين، ص206) فيضع هذه الأحداث في وقت لاحق، في آخر عام من عهد الحاكم.

والشعاب ولم يعد من هناك أبداً. فُسّر هذا الاختفاء في المستقبل بأنه اقتداء بآخر أئمة الاثني عشرية والإسماعيلية. فقد قيل إنه لم يمت وإنما توارى عن الأنظار فقط. ولكنه بذهاب الحاكم دفنت آمال الإسماعيليين في الغرب. وكان القرامطة في البحرين قد خرجوا من المسرح[1]. إذ إن تنظيمهم الدنيوي وإقامتهم دولة حقيقية أزال عنهم تلك القوة الصوفية الجذابة. كما أن قبائل بدوية قوية كقبيلة المنتفق التي قاتلت في الماضي إلى جانب الإسماعيليين حققت انتصارات في حربها ضد سادة البحرين. وفي مكة نفسها التي كان السُّنة مستائين من سيطرة الإسماعيليين عليها وصل إلى الحكم أشراف علويون يعود نسبهم بشكل مؤكد إلى النبي محمد. بعد عدة عقود استعادت الإسماعيلية بعض قوتها ولكن هذه المرة في موطنها الأصلي في فارس، مركز الأفكار الشيعية الأولى، وبالصيغة التي أعطاها إياها ابن الصباح المخيف «شيخ الجبل» مؤسس فرقة الحشاشين[2].

حسن بن الصبّاح، فارسي طموح، عرف، مثله مثل عبد الله بن ميمون، كيف يستغل لصالحه الأفكار الإسماعيلية الموجودة وأتباعها ويؤسس مشيخة تورثها أفراد أسرته من بعده. كان حسن الصباح قد احتك عام 1078م مع الفاطميين في مصر لكنه اختلف هنا مع الشيعة المعتدلين في البلاط القاهري الذين نصبوا على العرش الابن الأصغر للخليفة المستنصر بدلاً من نزار الذي كان حسب الأفكار الإسماعيلية، كونه الابن البكر، صاحب الحق في أن يرث

---

(1) انظر دي غوج، نهاية القرامطة، الصحيفة الآسيوية 1895م (العدد 1).

(2) انظر بخصوص الحشاشين ي. فون هامّر، تاريخ الحشاشين من المصادر الغربية، شتوتغارت وتوبنغن 1818م، ص330 وما بعدها؛ م. سي. دفريموري، أبحاث جديدة عن الإسماعيليين والباطنيين في سورية المشهورين تحت اسم الحشاشين، باريس 1855م؛ ست غويارد، معلم الحشاشين الكبير في زمن صلاح الدين، المجلة الآسيوية باريس 1877م، ص324 وما بعدها؛ فان برشم، كتابات الحشاشين في سورية، المجلة الآسيوية، مايو - يونيو 1897.

العرش[1]، وأيضاً الصفة الإلهية للأب. أدرك حسن أن الفاطميين فقدوا نهائياً أهميتهم بالنسبة للإسماعيلية ولذلك ذهب إلى فارس حيث كانت الأفكار الإسماعيلية ما زالت حية كما في العراق. متسلحاً بمرونة عالية ومطلعاً على علوم زمانه، بالإضافة إلى كونه جريء ولا يعرف الرحمة، تمكن حسن بن الصباح في عام 1090م من الاستيلاء على حصن آلموت الواقع في جبال البرز الفارسية شمال غرب قزوين. كان يعطي أنصاره الحشيش، زاعماً أنه مستحضر القنب، بحيث يشعرون بنشوة جنونية ويعيشون في الحلم، ربما بإعطائهم مواد إضافية أخرى، أقصى درجات البهجة والسرور مما يجعلهم، تحت تأثير الحشيش وتأثير زعيمهم، مستعدين لتنفيذ أي مهمة تطلب منهم. ونسبة إلى الحشيش أطلق على أتباع حسن الصباح اسم «الحشاشين»، التسمية التي حوّرها الصليبيون الفرنجة إلى «أسّاسانيين» ثم دخلت إلى اللغة الفرنسية بكلمة «أسّاسان» (مجرم).

بعد وقت قصير مدّ الحشاشون نشاطاتهم إلى ما وراء الحدود الفارسية. وفي عام 1102 وصلوا إلى سورية بواسطة أمير في حلب أراد الاستفادة منهم كرفاق له. وفي عام 1126م احتلوا مدينة بانياس (الشام) قرب جبل حرمون لكنهم اضطروا إلى التخلي عنها بعد ثلاثة أعوام. وبعد ذلك بوقت قصير استولوا على القصر الجبلي القدموس وأخيراً في عام 1140م على المعقل الصخري مصياف في جبال النصيرية[2] الذي أصبح مركزاً لنشاطاتهم التخريبية في سورية. ثم نشأ

---

(1) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص100.

(2) يعتنق سكان جبال النصيرية ديانة ذات طبيعة إسماعيلية أيضاً ولكنها ممزوجة بكثير من الأفكار المسيحية إلى درجة أن المرء يكاد أن يقتنع بأنها نشأت على أساس مسيحي. فقد يكون النصيريون أحفاد الآراميين المسيحيين الذين كانوا يقيمون في شمال لبنان. وليس مستبعداً أن يكون الحشاشون قد أملوا، عندما وسعوا دائرة نفوذهم إلى جنوب حلب، في أن يجدوا عند النصيريين قاعدة لهم. لكن النصيريين وقفوا ضدهم. بخصوص النصيريين انظر سليمان العدني، الباكورة السليمانية في ديانة النصيرية بلا مكان ولا تاريخ (بيروت، المطبعة الأمريكية)؛ انظر أيضاً كليمنت هيوارت، الشعر الديني للنصيرية في المجلة الآسيوية 1879م ، الجزء الثاني ص190 ـ 261. فولف، مقتطفات من تعاليم النصيرية، في مجلة الجمعية الجغرافية.

بعد ذلك في سورية العديد من القصور الواقعة في مناطق وعرة يصعب الوصول إليها والتي أصبحت قواعد لأعمالهم الخطيرة الموجهة في المقام الأول ضد الحكم المسيحي الإفرنجي. العديد من الصليبيين اغتيلوا بسيوفهم. فقد كان أتباع «شيخ الجبل» ـ هذا هو الاسم الذي أطلق على حسن الصباح ـ يعرفون أين يصطادون ضحاياهم، في أماكن الازدحام الكثيف أو في الحصن الملكي، أو أمام المذبح في الكنيسة. فما الذي كان يدفع الفدائيين للتضحية بحياتهم طاعة لزعيمهم؟ كانوا واثقين بأنهم سينعمون على الدوام بتلك السعادة التي كانوا قد تذوقوها في ذروة الانتشاء بالحشيش[1]. ونظراً لأن معظم الصليبيين كانوا غير متعلمين فقد صاروا ينسبون إلى الحشاشين كل جريمة قتل مجهولة الفاعل، لكنهم صاروا في الوقت نفسه يعتبرون جميع الناس الذين يعتنقون ديناً غير مفهوم بالنسبة إليهم من الحشاشين. تم القضاء على الحشاشين أثناء الزحف المغولي. في عام 1256م دمر هولاكو خان حصن ألَموت المخيف وقتل المعلم السابع والأخير للفرقة[2]، كما قضى على الإسماعيلية كلياً في جميع أرجاء فارس. وفي آسيا القريبة أيضاً لوحق الإسماعيليون في كل مكان. في سورية قاومت بعض الأوكار الصخرية للحشاشين الزحف المغولي ولكن هذه الجماعة الرهيبة ضعفت جداً إلى درجة أن السلطان المملوكي الجبار الظاهر بيبرس، ملك مصر، استطاع في عام 1273م الاستيلاء على آخر حصونهم والقضاء على كل تنظيم لهم. وقد يكون

---

(1) يصف ماركو بولو الذي عاصر آخر «شيوخ الجبل» في رحلته إلى الشرق فنون الإغراء التي كان يستعملها آخر سادة ألموت في تربية أتباعه الفدائيين. كان لدى «شيخ الجبل» قرب قصره حديقة سحرية يعيش فيها شباب لا يسمح لهم أبداً بمغادرتها لكنهم يتمتعون فيها بكل مسرات الحياة ولذائذها. كان الرجال الشجعان الذين لا يهابون الموت، والذين كان المعلم يريد استعمالهم أدوات في يده، يُجلبون مخدرين بشراب معيّن إلى هذه الجنة حيث يقضون مع سكانها الدائمين عدة أيام يتمتعون خلالها بكل الملذات ثم يخدرون مرة أخرى وينقلون إلى خارج الحديقة الفردوسية. كان وعدهم بالتمتع بنفس الملذات إذا ما ماتوا في خدمة «شيخ الجبل» يدفعهم إلى تنفيذ أجرأ العمليات. (انظر ماركو بولو، رحلة في الشرق خلال الأعوام 1272م ـ 1295م، إصدار فليكس بيرغيرين، لايبزيغ 1802م، ص37 وما بعدها.

(2) انظر مولر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص230.

بيبرس أو خلفاؤه قد استعملوهم بين حين وآخر لتنفيذ بعض عمليات الإغتيال. أما اليوم فإن المجموعات الإسماعيلية القليلة التي لم تزل موجودة في سورية حتى اليوم تتألف من مواطنين وفلاحين مسالمين[1].

أما الآن فلنعد إلى رسول الحاكم بأمره. كان الدرزي[2] قد كسب في سورية كثيراً من الأتباع وسميت التعاليم التي نشأت هناك باسمه[3] على الرغم من أنه عارض الحاكم وأنه قد لُعن بعد وقت قصير من وصول حمزة ومات على أرجح الظن قتلاً.

يعدّ حمزة المؤسس الحقيقي للديانة الدرزية التي يمكن اعتبارها فرعاً أو استمراراً للفكر الإسماعيلي. إلا أن هذه الديانة الجديدة فقدت القيادة الإسماعيلية المعادية للعباسيين ولحكم العرب وركزت اهتمامها، بدلاً من الجانب السياسي، على الجانب الفلسفي للأفكار الإسماعيلية القديمة. كان أتباعها الأوائل في وادي التيم عرباً كانت لهم دون شك علاقة مع القبائل العربية التي جاءت إلى منطقة المردة في جبل لبنان. لا بد من أن هذه القبائل العربية كانت آنذاك، كما ذكرنا سابقاً، متأثرة جداً بالأفكار الإسماعيلية[4].

---

(1) بصرف النظر عن الدروز يعدّ النصيريون الفئة الأكثر عدداً من أتباع الأفكار الإسماعيلية القديمة التي لم تزل موجودة في سورية حتى اليوم. أما المتاولة والفرقة التي تسمي نفسها اليوم إسماعيلية هم أقل عدداً إلى حد كبير. ويبدو أن من يسمون «الإسماعيليين» هم، حسبما يتبين من تقاليدهم، الأحفاد الحقيقيون للحشاشين بينما يشكل المتاولة بقايا الفرقة القرمطية التي تشكلت في غرب سورية في القرن العاشر الميلادي.

(2) بخصوص معنى كلمة «درزي» انظر فوستنفلد، فخر الدين، أمير الدروز، ومعاصروه، ص8.

(3) يرد ذكر التسمية «درزي» عند بنيامين فون توديلا الذي توفي عام 1173م. أما اشتقاق كلمة «درزي» من البارون المسيحي دي دروز فما هي إلا خرافة نشأت في عهد فخر الدين الذي استغلها لكسب تأييد المسيحيين في حربه ضد الأتراك.

(4) انظر الصفحة 144 و145 وما بعدها.

يعتقد الدروز أن الحاكم أرسل دعاة آخرين إلى مختلف المناطق، إلى إيران وأفغانستان وإلى أماكن أبعد شرقاً، إلى الهند والصين، وأيضاً إلى اليمن وأجزاء مختلفة من إفريقيا. وحسب رأي مصدر معلوماتي الدرزي لم تزل التقاليد الدرزية موجودة حتى اليوم في إفريقيا في جزيرة جربا التونسية، فالمسلمون في اليابسة يطلقون على سكان الجزيرة اسم «الخوارج»، وهو اسم أطلق على الدروز أيضاً»[1]. ومن المؤكد أن الخوجة[2] والبُهره في الهند أقرباء لهم.

---

(1) من المنظور السني تنطبق هذه التسمية على جميع الكفار.

(2) يدعي مصدر معلوماتي أن الخوجة، وإن كانوا لا يتفقون مع الدروز في كل شيء، كانوا يحجون إلى نجران في اليمن لكي يمجدوا الداعي الحاكم هناك الذي يعتبر تجسيداً للإله من نوع خاص يتجدد دوماً وأبداً في خلفائه. ولقد تحدثت شخصياً مع أحد الخوجة عن الأسس الدينية لهذه الفرقة التي تلقي عليها أيضاً الضوء محاكمة أجريت في حزيران 1866م أمام المحكمة العليا في بومباي. أجريت هذه المحاكمة بهدف تبيين ما إذا كان الخوجة سنيين أم شيعة وما إذا كان آغا خان له الحق في أن يسمي نفسه إمام الخوجة وحسب هذه المصادر تم التوصل إلى المعلومات التالية: الخوجة هم أحفاد الهندوس الذين اعتنقوا المذهب في البداية في كوتش على يد مبعوث اسمه صدر الدين. ترك لهم هذا الداعي كتاباً اسمه «أهل داس فاتر» (أي «أصحاب التجسيدات الإلهية العشر») يصف «الفشنو» أي أطوار التجسد التسعة وظهور الإله على الأرض بهيئة الخليفة علي. الكتاب مكتوب بحروف سندية وبلغة عامية مركبّة من الكوتشي. والقوزراتي. لم يزل الجزء الأخير من هذا الكتاب المقدس يتلى حتى اليوم في مراسم الدفن عند الخوجة. يسمي الخوجة أنفسهم «إمامي إسماعيلي» وأعلى كائن عندهم هو الآغا خان الذي يعتبرونه «الفيض المجسد للألوهية». وهم يعتقدون أن الآغا خان يعود نسبه بصورة مباشرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وتربطه، فضلاً عن ذلك، صلة قرابة مع «شيخ الجبل». بعض خانات الخوجة كانوا يقيمون في خيخ في فارس حيث كان أتباعهم يزورونهم لتقديم الهدايا والأموال لهم. يقال بأن الحج إلى مكة هو من الحالات النادرة عند الخوجة، كما أن الحج إلى كربلاء وغيرها من الأماكن الشيعية المقدسة قليل جداً عندهم أما الحج إلى نجران والعلاقة مع الدروز فلا يعرف عنهم الخوجة الحاليون أي شيء. كان الآغا خان الذي توفي مؤخراً، وهو بالمناسبة رجل غني جداً، متنور، ومهتم جداً بالرياضة الأوروبية، متزوجاً من ابنة شاه إيران وكان أبوه وجده يشغلان منصب القائمقام في كرمان في فارس. ليس=

لم يحقق الحاكم نجاحاً دائماً بواسطة الدعاة الذين أرسلهم هو نفسه إلا في سورية. أما ديانته التي وجدت أتباعها الأوائل في وادي التيم ثم انتشرت بسرعة بين عرب لبنان فلم تزل حتى اليوم تحتفظ بوفاء للمبدأ والأخلاق يثير الإعجاب؛ لكنها لم تخرج خارج إطار لبنان والمنطقة المجاورة له. ويقدر مصدر معلوماتي الدرزي العدد الإجمالي لأبناء طائفته بحوالي 132,000 شخص. وحسب تقديره يوجد في لبنان في أقضية الغرب، والجرد، والمتن، والشحار، والمناصف، والشوف، والعرقوب، نحو 40000 درزي. إضافة إلى ذلك هناك نحو 30000 درزي في النواحي الواقعة على سفوح جبل حرمون، حاصبيّا وراشيّا وقطنه. وفي حوران ذاتها يوجد نحو 40,000، وفي القرى المجاورة لدمشق، جرمانه، وصحنايا، والأشرفية، ودير علي، والخ. . . نحو 5000، وهناك أيضاً في جبل العلا بالقرب من حماه نحو 2000، وفي صفد قرب عكا نحو 15000 درزي.

* * *

تؤكد ديانة الدروز بشكل صارم على وحدانية الله. وهم يسمون أنفسهم «موحدين» ولا يحبون تسميتهم «دروز». وحسب رأيهم تشكل ديانتهم الصيغة العليا للفلسفة؛ فهم يزعمون أن إخوان الصفا، والمدارس الفلسفية الصوفية المختلفة في الإسلام والمفكرين الإغريقيين والهنود والفرس الكبار، هم جميعاً أسلاف لأفكارهم. ويقولون بأن تاريخ العالم يمر في سبعين مرحلة وفي كل

= معروفاً عدد الخوجة في الهند، في عالم 1866م قدّر عددهم بأربعة آلاف فقط، أما الآن فيصل عددهم في بومباي وحدها إلى عشرة آلاف على الأقل. وهم غير متعصبين وليس لهم أي أهمية سياسية، لكنهم تجار جيدون ويجيدون اللغات الأجنبية. وفي الآونة الأخيرة استوطن عدد كبير منهم في زنجبار وفي شرق إفريقيا الألمانية حيث يسيطرون على جزء كبير من الحركة التجارية. ويقال بأن كتاب التاريخ العربي «خطط وآثار» يتضمن وصفاً كاملاً لحياة مؤسس فرقة الخوجة. أما البهُره فهم شيعة إسماعيليون لكن عاداتهم الدينية الظاهرية لا تختلف إلا قليلاً عن العادات الإسلامية.

مرحلة من هذه المراحل يظهر الإله مرة واحدة بهيئة بشرية[1]. ولكن لا يحدث تجسد بالمعنى الحرفي للكلمة بل إن الله يتجلى كشبح على الأرض دون حاجات بشرية. فمن الممكن اختراق هيئته بالإصبع دون اصطدام الإصبع بلحم. ومن بين التجسيدات التي حدثت في الماضي التجسد بهيئة أرسطو وبعض علماء الهنود وأخيراً، تجسد الخليفة الفاطمي الحاكم. وعند اختفاء الحاكم أغلق «باب العقيدة»، فمنذ ذلك الحين لم يعد يوجد معتنقون جدد. فقط أولئك الذين اعتنقوا آنذاك العقيدة الصحيحة وأبناؤهم من بعدهم هم دروز، لكن هؤلاء يبقون دروزاً حتى ولو غيّروا ديانتهم لأسباب دنيوية غير مبالين بالعقاب الأبدي. ولعل السبب الرئيسي في إيمانهم باصطفائية الشعب الدرزي يعود إلى أن الديانة الدرزية ظلت محصورة ضمن منطقة ضيقة نسبياً لم تتعداها.

إلى جانب الإله يحظى، بالدرجة الأولى، خمسة رجال بالتكريم والتعظيم وهم الرجال الذين ينفذون إرادته أي وزراء الألوهية في العالم المرئي[2]. وروح هؤلاء «الوزراء» تحل بانتظام عند كل تجسد للإله في نفس المناصب على الأرض. في عهد الخليفة الحاكم احتل المكانة الأولى بينهم حمزة، المؤسس الفعلي للديانة الدرزية والذي ظهر في السابق بهيئة عيسى المسيح وفي أيام النبي محمد بهيئة سلمان الفارسي. وهو يعدّ الوزير الأكبر للإله ويمثل «العقل». وتسمى كينونته التي تتكرر دوماً «مولاي عقل». أما وزير الإله الثاني فهو «مولاي النفس» الذي كان يسمى في عهد النبي محمد مقداد الأسود[3] وفي أيام الحاكم بأمره محمد بن وهب. يليه في المرتبة الثالثة «مولاي كلمة»، وهذا هو «سيد البلاغة». وبالفعل فإن الدروز يعلقون أهمية كبيرة على الكلمات الجميلة؛ ولكن وكأن أجمل كلمة عندهم هي كلمة «سيف»، إذ إن «مولاي كلمة» يسمى أيضاً

---

(1) انظر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص18 وما بعدها.

(2) انظر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص1 وما بعدها وأماكن أخرى متفرقة. ثم «الوسطاء» عند فولف، «الدروز وسابقوهم»، لايبزيغ 1845م، ص353.

(3) أحد صحابة النبي محمد، توفي عام 34هـ. انظر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص252.

«الروح المحاربة»؛ وكان يجسد هذا الاسم في عهد الحاكم بأمر الله أبو إبراهيم إسماعيل[1] وزير الحربية عند الخليفة المؤله[2]. أما الرجل الرابع في سلسلة الوزراء فهو «سيد العلم» واسمه «مولاي بهاء الدين»، وهو أيضاً الاسم الذي كان يحمله تحت حكم الحاكم حيث كان قاضياً في الإسكندرية[3]. وتنسب له أربعة من الكتب الدينية المقدسة للدروز.

وأما وزير الألوهية الخامس والأخير فهو «مولاي السابق» الصوفي الغامض الذي ظهر في عهد الخليفة الحاكم تحت اسم سلامة.

يعيش دروز اليوم في مقطعهم الزمني قبل الأخير. وكان الخليفة الحاكم آخر ظهور بشري للإله. عندما تبدأ المرحلة الأخيرة من تاريخ العالم ويظهر الرب على الأرض مرة أخرى بهيئة بشرية، أي عندما يظهر الحاكم ثانية، عندئذ سيأتي أخوة الدروز في العقيدة من الشرق الأقصى، من الصين، ويتحدون خلال رحلتهم مع بقية الدروز ثم يتوجهون جميعاً عن طريق هجر[4]، المدينة المقدسة عند القرامطة في البحرين إلى مكة حيث سيحتلون مدينة النبي ثم يتابعون طريقهم من هناك إلى

---

(1) «أبو إبراهيم إسماعيل» صيحة حرب عند الدروز. في تمردهم الأخير ضد الحكومة كان الدروز الحوارنة ما زالوا يستعملونها عند دخولهم المعركة.

(2) العرض الذي قدمه لي مصدر معلوماتي الدرزي يتناقض هنا مع دي ساسي، حسب أقواله كان أبو إبراهيم إسماعيل يجسد في عهد الحاكم مولاي النفس وكان محمد ابن وهب يجسّد مولاي كلمة.

(3) دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص240 وما بعدها يعطيه المرتبة الخامسة.

(4) تحظى مدينة الهجر بقدسية عالية إلى درجة أن المشايخ المحترمين بشكل خاص يحصلون على لقب الهجري. وبناء على ذلك فقد حصل جد شيخ حوران الأكبر الشيخ حسن القنوات الذي يعيش الآن في المنفى على هذا اللقب التكريمي لأنه حرض الدروز في اللجاة على مقاومة القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا بنبوءة تقول بأنهم لن يهزموا. وتقديس مدينة الهجر دليل آخر على قرابة الديانة الدرزية مع التعاليم والتقاليد الإسماعيلية. إذ إن هجر كانت إحدى عواصم الدولة القرمطية (انظر دي غوييه، مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين، ص197. سيلفستر دي ساسي، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، مدخل، ص240).

القدس. في هذا الوقت سيكون جميع الحكام الأوروبيين في حرب مع حاكم المؤمنين (السلطان العثماني)[1]. سيقف الدروز الصينيون ضد جميع هؤلاء ويبيدونهم جميعاً أمام القدس[2]. وعندئذ ستعتنق البشرية بكاملها الديانة الدرزية. وبذلك ستوضع نهاية للعالم ويحدث فصلٌ للأرواح البشرية: أولئك الذين كانوا طيبين وعادلين في تجسداتهم السابقة ـ يؤمن الدروز بانتقال الأرواح، أو التقمص، لدى الناس العاديين أيضاً ـ وعوقبوا على خطاياهم سيعيشون حياة أبدية يمارسون فيها نفس الوظائف التي مارسوها على الأرض منعمين بسعادة بشرية لا حدود لها. أما الأشرار الذين لم يكفّروا عن ذنوبهم فسيتعرضون لعقاب شديد لقاء ما اقترفوه من جرائم.

أسس الديانة الدرزية مسجلة في «كتب الحكمة» الستة التي ينسب أربعة منها، كما ذكرنا سابقاً، إلى سيد المعرفة مولاي بهاء الدين. أما الكتابان الآخران فينسبان إلى الحاكم نفسه. وقد جرى نوع من الإصلاح في القرن الخامس عشر على يد الأمير عبد الله الذي ينحدر من الأسرة التنوخية المرموقة. ويعود إليه الفضل في تفسير الكتب المقدسة وبالتحديد صياغة رائعة للتعاليم الأخلاقية. ويقال بأنه كان ينوي نفي ألوهية الحاكم لكن رجال الدين المتنفذين منعوه من تحقيق مشروعه. وعلى أي حال فقد كان هو نفسه مقدساً وما زال المسيحيون والدروز حتى اليوم يزورون قبره في قرية عبيه في لبنان.

لا يعرف أسرار الدين إلا العقّال[3]، وهؤلاء وحدهم يشاركون في اجتماعات

---

(1) من الواضح أن هذه النبوءة يجب أن تكون حديثة التاريخ لأنه عند نشوء الديانة الدرزية لم يكن أحد يفكر بانتقال الخلافة إلى العثمانيين. أم إن هذا الانتقال تم التنبؤ به أيضاً؟

(2) انظر بهذا الخصوص العرض الرائع عند بيترمان، رحلات في الشرق، لايبزيغ 1860م، الجزء الثاني، ص396.

(3) كلمة «عاقل» (جمعها: عقّال) تعني من يتمتع بروح المعرفة والحكمة التي تنبه عن التورط في المهالك. وهذه التسمية لحملة الديانة الدرزية الحقيقيين لها صلة بكون وزير الله الأول «مولاي عقل» يعتبر تجسيداً للروح. وهذا دليل على المكانة الرفيعة التي يعطيها الدروز للعقل والمعرفة، الأمر الذي يعتزون به بشكل خاص.

المؤمنين التي تنعقد كل يوم خميس. ويسمى المكان الذي يجتمعون فيه، والذي يجب أن يكون هادئاً ومنعزلاً قدر الإمكان، الخلوة. يقابل العقّال الجهّال الذين يحرمون من ممارسة الطقوس الدينية لكنهم مع ذلك يشعرون بأنهم من أتباع الديانة الدرزية. فقط عند دفن أحد العقّال يطلب من الله أن يشمله بالعطف والرحمة. ولكي يصبح الدرزي «عاقلاً» يجب ألا يقل عمره عن 15 عاماً ويجب أن يطلب ذلك في الخلوة. يخضع المنتسب الجديد لفترة اختبار أطول أو أقصر يتعين عليه أن يكيف خلالها طريقة حياته مع المبادئ الصارمة للعقال، وفي الوقت نفسه يتعرف في الخلوة على النظام الديني. وتبعاً لسمعته، وتقيده بالقواعد الأخلاقية، وتقدمه في اكتساب المعارف، قد يمر شهور أو سنين حتى يُقبل في دائرة العقّال. ومن الممكن أن يصعد النساء أيضاً إلى مرتبة العقّال. تعود كلمة الفصل في هذا الصدد إلى شيخ العقّال في المنطقة ذات العلاقة. وبما أن العقّال يشكلون أقلية صغيرة جداً فإن الجزء الأكبر من الدروز يبقى غير مطلع على حقيقة دينه. ففي الكتب المقدسة تعدّ المحافظة على السرية من أول الواجبات.

وكما أن العقيدة الدرزية تحتوي على كثير من الأفكار المستمدة من الديانات الوثنية ومن المدارس الفلسفية القديمة فإن المسيحية أيضاً تركت آثارها عليها، لكن مرتكزها الأساسي هو الإسلام. يعتبر الإنجيل والقرآن كتابين روحانيين دون أن يكونا مرجعين دينيين[1]. لكن الدروز يؤكدون للحكام المسلمين، لأسباب عملية، أنهم مسلمون وذلك لكي لا يبدون معارضين لهم دينياً. وبالفعل هناك كثير من التشابه بين الدروز والمسلمين في المظاهر الخارجية للممارسات الدينية، وبالتحديد فيما يتعلق بعادات الأعراس ودفن الأموات. وهذا الوضع يسهل على الدروز التأكيد في الأوقات الصعبة[2] على قربهم من المسلمين دون أن يضطروا إلى التخلي عن عقيدتهم أو مخالفة تعاليمها. فالصبيان يُختنون أيضاً عند الدروز. وهم يحتفلون بعيد الأضحى بأقصى درجات الأبهة ويبقون قبل يوم العيد طوال الليل في الخلوة يقظين.

---

(1) انظر دي ساسي، نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، ص103 وما يليها.
(2) هذا ما حدث في ثورات حوران الأخيرة. انظر الصفحة 197.

بالمقابل يعفى الدروز صراحة من تطبيق أربعة أركان من أركان الإسلام وهي: الصلاة والحج إلى مكة والصيام والزكاة. ومن تعاليم أخرى يشتقون تقدمهم على بقية أتباع الديانة الإسلامية. فهم يحرمون العبودية ويساوون بين المرأة والرجل.

يؤمر الدروز صراحة بتعلم القراءة والكتابة. كما يعتبر حب الحقيقة والإخلاص للإخوان واجباً على كل درزي. وخاصة العقّال يحرصون على التقيد الصارم بهذه التعاليم. والعاقل لا يجوز أن ينهب أو يسرق؛ وتعد قلة الكلام والبساطة في المظهر والاقتصاد في الإنفاق من الفضائل، بينما تعتبر المبالغة في الحديث والكذب واستعمال ألفاظ السبّ والشتيمة من الصفات المكروهة. وحتى أعداء الدروز يعترفون أنهم في الحروب لا يعتدون أبداً على نساء خصومهم.

ومما يعدّ مقدساً بشكل خاص أن ينتج المرء بنفسه حاجاته المعيشية وأن يزرع ويحصد ويحضّر خبزه بنفسه. ويتجنب العقّال المتشددون التعامل مع المشايخ الذين، حسب رأيهم، لم يحصلوا على ثروتهم بطريقة نظيفة. والأتقياء جداً لا يحتفظون بمال حصلوا عليه من شخص غير درزي، بل يبدلونه في البداية عند درزي آخر لم يصبح «عاقلاً» بعد.

بعض طبائع الدروز تجعل المرءَ يحبهم. وهناك عدد من الفضائل الشرقية النوعية القوية عندهم بشكل خاص وعلى رأسها: كرم الضيافة ومساعدة المحتاج والتهذيب الشديد جداً والاهتمام بالشكل الخارجي.

لقد سبق وذكرنا الاحترام الكبير الذي يكنه الدرزي للمرأة. تعدد الزوجات مكروه، والطلاق صعب جداً، ولا يقبل سبب للطلاق إلا عقم المرأة أو عدم إخلاصها. تحصل الزوجة المطلقة على نصف ثروة الرجل. وإذا ما انفصلت المرأة عن زوجها أو كانت المسؤولة عن حدوث الطلاق يتعين عليها التنازل عن نصف ثروتها لزوجها. ويحرص الدروز بغيرة شديدة على عفاف نسائهم، وليس نادراً أن يقوم رجل بقتل زوجته أو أب بقتل ابنته أو أخ بقتل أخته إذا ما اشتبه بعدم أخلاقيتها. وفيما عدا ذلك فالدروز شعب جبلي خشن وقوي الجسم مع كل ما يتمتع به من فضائل وصفات سيئة، لديهم اعتزاز كبير بالنفس، شجعان

ومحاربون، لكنهم عنفويون وسمعتهم سيئة بسبب ميلهم إلى السلب والثأر[1].

حتى أواخر هذا القرن كان النظام الاقطاعي ما زال سائداً عند الدروز كما كان في أوروبا في العصور الوسطى. كانت السلطة العليا في لبنان في يد حاكم ينتمي إلى أسرة أمراء قديمة أو جاءت حديثاً إلى الحكم، يعينه كوكيل له الحاكم السوري مقابل التزامه بدفع ضريبة معينة. وتحت الحاكم، الذي يشبه الدوق الكبير في أوروبا، يوجد أمراء أصغر وزعماء بعض العائلات المحترمة الذين يمارسون السلطة في بعض المناطق دون أن يحملوا لقب أمير.

كان يتبع الأمراء المشايخُ وهؤلاء كانت تتبعهم العائلات الفلاحية. كان الأمراء يجبون من أتباعهم ضرائب أو حصصاً من الإنتاج بشكل دوري ثم في المناسبات الخاصة. وكان يتعين على كل رجل بالغ وسليم جسدياً أن يقاتل تحت قيادة الأمير أو الشيخ في حالة الحرب. وكان الأمراء يعينون المشايخ بمنحهم لقب «شيخ». أما الوكيل الاقطاعي فكان ينتقل في عائلات مختلفة من جيل إلى آخر بالوراثة. وإذا ما أصبح الاقطاعي غير راض عن وكيله يعزله ويعين وكيلاً آخر محله غالباً من نفس القبيلة أو من نفس العائلة لكي يكون الخصم المعارض للوكيل المعزول. في أيام ازدهار الأمة الدرزية كان الحاكم والأمراء وكذلك الشيوخ يعيشون حياة مترفة. وكان زعماء العائلات المرموقة في لبنان يسكنون في قصور برجية تشبه الأبراج الموجودة عندنا على جانبي نهر الراين. وهي تكون مبنية عادة على قمم الجبال ويسكن بجوارها بقية أفراد العائلة وأقرب الناس الموالين للزعيم. وكان كرم الضيافة كبيراً جداً. فعندما يذهب شيخ لزيارة أميره كان يجلب معه مئات الناس الذين يقضون أسابيع في ضيافة الأمير. وفي أثناء ذلك كان يجري تبادل للهدايا الثمينة بين المضيف والضيوف بما في ذلك الخيول وقطع السلاح. كان الصيد يشكل التسلية الرئيسية أثناء هذه الزيارات وكان يشارك في أعمال الخدمة عدد كبير من الناس.

---

(1) عند الحكم على الدروز لا يجوز تطبيق المعايير الأوروبية كما يحدث في كثير من الأحيان وعلى أي حال فإن حبهم للسلب والنهب في الأوقات العادية أقل جداً من حب أبناء عمهم من البدو الذين ما زالوا يعيشون متنقلين حتى اليوم.

كان القضاء الجزائي في يد الأمراء أو المشايخ، طالما كان هؤلاء يمارسون السلطة فعلياً. أما القضايا المدنية فكانت في أيدي قضاة مختصين.

كان أبناء العائلات الدرزية مصنفين في فئات طبقية مفصولة عن بعضها فصلاً صارماً بحيث إن صاحب أدنى مرتبة في الطبقة الأعلى يكون أعلى من صاحب أعلى مرتبة في الطبقة الأدنى. أما العائلات التي تعدّ في أعين الدروز، بسبب نسبها، الأقدم والأنبل فهي تنوخ وأرسلان وعلم الدين وهي عائلات تنحدر جميعها، كما ذكرنا أعلاه[1]، من نفس عائلة الأمراء الكبيرة القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية (أي من عرب الجنوب) ولم يبق منها حتى اليوم إلا فرع أرسلان. وتقف على نفس الدرجة في الاحترام والمعاملة عائلة معن العربية الشمالية. جميع هذه العائلات، وكذلك عائلتا شهاب وأبي اللمع اللتين هاجرتا لاحقاً، تحمل لقب أمير[2]. وتأتي بعدهم مباشرة عائلة جنبلاط[3] التي حققت كثيراً من الثروة والنفوذ. وبعد ذلك يأتي آل عماد[4] وآل نكد[5] وآل تلحوق[6] وآل عبد الملك[7]، على سبيل المثال لا الحصر. ويستمر التمييز الطبقي الحاد حتى أدنى فئات الشعب ولم يزل حتى اليوم يعبر عن نفسه في أوساط عامة الشعب بأن العائلة ذات المرتبة الأولى في القرية هي العائلة التي استقرت فيها أول الأمر.

يتألف الزي الدرزي اليوم من قميص وسروال واسع (لباس) وفوق القميص

(1) انظر الصفحة 129 من هذاالكتاب.
(2) في الأزمنة السابقة كان آل أرسلان لا يتزاوجون إلا مع آل تنوخ وآل علم الدين وآل معن. أما اليوم فلا يتزاوجون إلا مع آل شهاب المسلمين، إضافة إلى ذلك يتزوجون من نساء شركسيات. وقبل أن يصبح آل أبي اللمع مسيحيين كانت لهم مع هؤلاء أيضاً صلات قرابة.
(3) انظر الصفحة 172 أدناه.
(4) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص161.
(5) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص144.
(6) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص154.
(7) انظر شدياق، نفس المصدر السابق، ص159.

تلبس عباية قصيرة بدون أكمام مخططة بالأسود والأبيض أو الأحمر، وفي كثير من الأحيان رداء طويل يشبه القميص (قمباز) ملون بألوان مختلفة. ويرتدي العقّال غالباً فوق هذه الملابس عباءة كبيرة سوداء اللون تغطي كامل الجسم. يتم تصنيع العبايات من قبل الدروز أنفسهم. ويسمى حزام الوسط الذي يكون بصورة عامة من الصوف، وعند العقّال من الجلد، الزنّار. ويسمى الحذاء المنزلي «مداس». أما غطاء الرأس فيتألف من الطربوش والعمامة. وتكون العمامة دائماً بيضاء ويجري لفها بلفات منتظمة وخالية من التجاعيد، بينما يستعمل المسلمون قماشاً ملوناً أو منقّطاً يلف فوق الجبهة بشكل متصالب. يستعمل الرجال المسنون وأصحاب المراكز الموقرة قطع قماش طويلة وعريضة لكي يحصلوا على عمامة عالية وسميكة بشكل خاص. وفي حوران يلبس الدروز الشباب، الذين لم يصبحوا عقّالاً بعد، في كثير من الأحيان، بدل العمامة «العقال» الذي يستعمله عادة البدو والمصنوع من شعر الجمل، وهو يشبه الخيط الثخين، لتثبيت الكوفية. وفي الأوقات الأخيرة بدأ بعض الدروز المتنورين يلبسون الطربوش بدون عمامة، وكذلك الأزياء الأوروبية أو الإسطنبولية التي يلبسها الأفندية الأتراك.

يتألف لباس النساء من قميص وسروال ورداء أو عدة رداءات تشبه روب النوم وصدرية واسعة جداً غامقة اللون غالباً تكون بمثابة حامل للثديين. وفي كثير من الأحيان يبقى الثدي حراً خارج الصدرية. أما اللباس الخارجي فهو القمباز. وعند الخروج تغطي المرأة النصف السفلي من جسمها بقطعة قماش سوداء خاصة بالدروز تسمى «صايه» وتكون عند النساء الغنيات من الحرير وتثبت من الأمام برباط من الفضة. وتضع المرأة على النصف العلوي من جسمها غطاء أبيض رقيقاً يشبه الشال يثبت على الرأس وتستعمله لتغطية وجهها، ما عدا إحدى العينين، عند اقتراب رجل غريب[1]. تحت الغطاء تلبس المرأة كغطاء للرأس قبعة من القماش أو الحرير أو المخمل مزينة بقطع فضية أو ذهبية مصفوفة بشكل منتظم.

---

(1) يعتقد بأن هذا النوع من الحجاب قديم جداً في المناطق الإسلامية. في المغرب لم يزل مستعملاً حتى اليوم، ولكن يستعمل عادة بدلاً من الغطاء الرقيق قماش غير شفاف.

أما غطاء الرأس القديم «الطنطور» فقد بطل استعماله تماماً. وكان الطنطور يصنع من المعدن على شكل أسطواني أو أنبوبي مع صفيحة صغيرة على مقدمته يتدلى منها الغطاء. وتجدر الإشارة إلى أن النساء المسيحيات اللبنانيات والسوريات كن يلبسن أيضاً الطنطور.

يتألف تاريخ لبنان من سلسلة من الصراعات التي لا تتوقف، وقد شهد تاريخ الشعب الدرزي على الأخص كثيراً من الانشقاقات والانقسامات. ولعل هذا الأمر قد ساهم عما قريب، على الرغم من أن الدروز قد استولوا على الأرجح في القرن الحادي عشر على كامل المنطقة الغربية في لبنان، في انتقال الدور القيادي من أيدي العائلات الدرزية إلى أيدي عائلات إسلامية. ولكن الشيء الملفت للانتباه والمهم بالنسبة إلى المكانة الاتنوغرافية (العرقية) للدروز هو أن أمراء لبنان الكبار كانوا حتى هذا القرن على الدوام من أصل عربي وكانت العائلات الدرزية المرموقة تتعامل معهم كأقرباء.

عندما ثبتت تعاليم الدروز أقدامها في لبنان كانت عائلات الشيوخ من عرب الجنوب هي السائدة هناك. وعندما أبيد، كما ذكرنا سابقاً، آل أرسلان في الحروب ضد الصليبيين حلت مكانهم عائلة تنوخ القريبة جداً منهم. وفي بداية القرن الثاني عشر جاء إلى لبنان آل معن، وهم من عرب الشمال، الذين ظلّوا ستة قرون تقريباً سادة المنطقة هناك. ويقال بأن جد العائلة كان ينتمي إلى بني ربيعة وكان رجلاً مشهوراً بشجاعته وحبه للمغامرة، اسمه أيوب، دفعته غيرة رفاقه منه إلى الهجرة إلى الجزيرة (شمال الرافدين). ومن هنا انتقل أحد أحفاده إلى منطقة حلب؛ وأصبح ابنه مؤسس الأسرة المعنية التي حصلت على اسمها منه. في عام 1117م، أي بعد مائة سنة من حصول التعاليم الدرزية على أول أتباعها في سورية، انتصر الفرنجة على الأمير معن في معركة الجبل الأسود[1]، وفي عام 1119م هاجر مع جميع قومه إلى الجهة الغربية من لبنان حيث استقر بموافقة حاكم دمشق طغتكين بن عبد الله، الذي طلب منه دعم الدروز الذين ناصروا قضية

---

(1) انظر تورنبرغ، ملاحظات حول المخطوطات المحفوظة في مكتبة جامعة لوند، 1851م، ص486.

الإسلام ضد الصليبيين والمساعدة على الدفاع عن الساحل ضد أي غزو صليبي. ولذلك سميت المنطقة التي استقر فيها «شوف»، أي انظر وراقب، وبالفعل فإن المرء يستطيع من المكان الذي أقام فيه مخيمه أول الأمر رؤية المنطقة بكاملها حتى البحر. استقبل آل تنوخ المعنيين بكل مودة واحترام وبنى المعنيون بمساعدتهم بالقرب من مخيمهم الأول مدينة بعقلين وتخلوا منذئذ عن العيش في الخيام. ويبدو أن المعنيين أصبحوا بفضل مهاراتهم الحربية قادة الدروز في المعارك ضد الصليبيين. وعندما انحلت الممالك المسيحية التي تشكلت في سورية وفلسطين واضطر الفرنجة إلى مغادرة البر السوري حصل المعنيون في لبنان على مكانة مرموقة، في بادئ الأمر إلى جانب التنوخيين الذين ارتبطوا معهم بعلاقات مصاهرة ولكن فيما بعد عرفوا كيف يبعدونهم عن مراكز القيادة شيئاً فشيئاً. وبعد ذلك سيطروا، عبر سلسلة من الحروب المتواصلة حتى نهاية القرن السابع عشر، ليس فقط على الدروز وإنما أيضاً على الموارنة والمتاولة في المناطق المجاورة لهم. ولكن ينبغي التأكيد بحزم على أن المعنيين، على الرغم من أنهم اعتمدوا بالدرجة الأولى على الدروز وأن الأوروبيين اعتبروهم دوماً من أمراء الدروز، ظلوا مسلمين[1]. إذ إن شدياق يضعهم صراحة في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» بين العائلات الإسلامية[2].

في نفس الوقت تقريباً مع ظهور المعنيين في تاريخ سورية برز آل شهاب، المسلمون أيضاً، والذين اتحدوا مع المعنيين بروابط القربى وبتقديم المساعدة لهم في عدد لا حصر له من المعارك وحلوا فيما بعد مكانهم في حكم لبنان[3].

---

(1) القول الخاطئ بأن المعنيين دروزاً نجده أيضاً عند فوستنفلد، فخر الدين المعني أمير الدروز ومعاصروه، ص75 وما بعدها.

(2) انظر شدياق، ص161 ـ 163 وص274. انظر أيضاً الفصل الأول من هذا الكتاب، ص47، الملاحظة 1.

(3) بخصوص العرض التالي انظر، بالإضافة إلى كتاب شدياق المذكور، تقارير تورنبرغ، المجلة الجغرافية، الجزء الخامس، ص483 وما بعدها؛ ثم: فلايشر، عن أسرة الأمراء السورية بني شهاب، نفس المكان، ص46. ثم: بلاو، عن تاريخ سورية، نفس المجلة، الجزء الثامن، ص475.

يعيد آل شهاب نسبهم إلى خالد بن الوليد الذي جاء في القرن السابع، كما ذكرنا أعلاه، مع جماعته من الحيرة إلى دمشق. بعد الاستيلاء على دمشق عين أحد أقربائه، وهو الأمير الحارث، حاكماً على منطقة حوران لكي يمنع المسيحيين الذين هربوا إلى هناك من العودة إلى دمشق. وظل أحفاد الحارث، الذين اتخذوا من شهبا (فيليبوبوليس القديمة) مقراً لهم، حكاماً على حوران حتى عهد السلطان نور الدين. أدت الخلافات بين نور الدين في سورية وصلاح الدين في مصر إلى خروج آل شهاب بقيادة الأمير منقذ مع جميع رجالهم وأتباعهم، ما مجموعه نحو 15000 رجل، من حوران ليبحثوا عن مقر جديد لهم على سفوح جبل حرمون. في جسر اليعقوبي اصطدموا مع الفرنجة بقيادة القائد العسكري قنطورة (الكونت دوريا)[1]. بعد معركة دامت عدة أيام انهزم قنطورة ولجأ إلى قلعة حاصبيا التي سلمها أيضاً للمنقذ بعد أن دافع عنها دفاع الأبطال (1172م). ومنذئذ أصبحت حاصبيا والمنطقة المحيطة بها مقر إقامة الشهابيين. وعندما سمع الأمير يونس، الذي خلف أباه الأمير معن المتوفى عام 1149م، بانتصارات الأمير منقذ توجه إليه ليقدم له التهاني. وبعد وقت قصير (1173م) حدث عرس مزدوج[2] بين العائلتين تم تزيينه تقليدياً بطريقة شاعرية إذ أعطى يونس ابنته طيّبة لابن المنقذ شهاب، محمد، وفي الوقت نفسه تزوجت بنت المنقذ سعدة من يوسف، ابن يونس وخليفته فيما بعد. وبعد ذلك ظلت الإمارة في عائلة معن تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن، وكان الأمراء حسب التسلسل التالي: سيف الدين، عبد الله، علي (متزوج من ابنة عامر شهاب، حفيد منقذ شهاب)[3]، بشير محمد[4]، سعد الدين،

---

(1) انظر شدياق، نفس المرجع السابق، ص45؛ تشرتشل، جبل لبنان، إقامة عشر سنوات من 1842م حتى 1852م، لندن 1853م، الجزء الأول، ص142 يسميه: الكونت أورا.

(2) حسب تورنبرغ ارتبط آل معن بعلاقة قربى مع آل شهاب في عام 558هـ (1162/1163م)، ولكن يبدو أنه قدّم تاريخ العرس المزدوج.

(3) في عهد علي وقع الزحف المغولي على سورية. وأن يكون للمعنيين آنذاك قوة منيعة فهذا ما تثبته حقيقة لجوء آل شهاب إليهم وإيجاد الحماية عندهم بعدما تعرضوا للتهديد المغولي عند وادي التيم.

(4) يختلف التسلسل قليلاً عند فوستنفلد، نفس المصدر السابق، ص77.

عثمان (المتزوج من ابنة أبي بكر شهاب)، أحمد، ملحم. كان لملحم ولدان[1]: يوسف وعثمان[2]، وابن عثمان كان فخر الدين الأول.

عندما كان فخر الدين أميراً على لبنان بدأ الأتراك تحت قيادة سليم الأول باحتلال سورية. على الفور انتقل فخر الدين مع أمراء الدروز الآخرين، وخاصة جمال الدين أرسلان وزعيم عائلة علم الدين آنذاك، إلى السلطان العثماني (1516م) وقدموا له خدمات جليلة. وكما يبدو استغل فخر الدين تغير الحكم لكي يوسع نطاق حكمه إلى خارج حدود لبنان. «في عهده انطفأ بريق عائلة تنوخ وسطع بدلاً منه نجم آل معن»[3]. وما لبث بعد وقت قصير أن شعر أنه صار قوياً جداً إلى درجة القدرة على رفض دفع الضرائب والأتاوات لحاكم دمشق التركي. لكنه اضطر فيما بعد إلى تقديم عصا الطاعة. وعندما قبل دعوة من حاكم دمشق قتل هناك أثناء الزيارة (1544م). لم يغفر ابنه قرقماز (يسمى عادة بالتركية: معن أوغلو أي ابن معن) للأتراك قتل أبيه غدراً وإن كان قد عرف كيف يتعامل مع الحكومة بنوع من المجاملة والحذر. لكنه هو أيضاً مات ميتة غير طبيعية (1584م). في عهده وعهد خليفته فخر الدين الثاني الكبير بلغ المعنيون أعلى مكانة لهم رغم الدسائس المتواصلة من أمراء لبنان والمناطق المجاورة. بسبب انشغال الأتراك في أماكن أخرى استطاع الرجلان أحياناً مدّ سلطتهما من حلب حتى سانت جان داكري، لا بل وسيطرا على المناطق القريبة من دمشق. وتنسب قلعة تدمر حسب رواية محلية إلى معن أوغلو ويقوم بترميمها في الوقت الحاضر أمراء لبنان[4]. آثر فخر الدين التجار الأوروبيين والمبشرين المسيحيين في

---

(1) حسب تورنبرغ، نفس المرجع السابق، ص496، جاء بعد ملحم ابنه يونس الذي يذكره أيضاً شدياق، نفس المرجع السابق، ص163 ولكن دون أن يحدد صلة القربى.

(2) عثمان هو أول المعنيين الذي نعرف أنه قد دفن (1507م) في صيدا (شدياق، نفس المرجع السابق، ص163). ومنذ ذلك الحين يبدو أن صيدا أصبحت المكان الذي دفن فيه غالبية المعنيين.

(3) بلاو، نفس المرجع السابق، ص480، يذكر أن التنوخي سعد الدين كان خال فخر الدين الكبير ومربيه. انظر بلاو، نفس المصدر السابق، ص481.

(4) انظر الفصل الثامن، ص325 من هذا الكتاب.

الساحل السوري. وبنى في المرافئ الرئيسية اللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا القلاع وأيضاً القصور والمنتزهات[1]. وكان يحب الإقامة في بيروت، وفي وقت لاحق في صيدا وعكا، وفعل الكثير من أجل تطوير غرب سورية[2]. ويبدو أن فخر الدين كانت لديه خطط بعيدة المدى وكان يفكر بإعادة الفرنجة إلى الأراضي المقدسة[3] لكي يمد سلطته بمساعدتهم نحو الشمال ولربما حتى القسطنطينية. لكن الحكومة التركية تدخلت أخيراً بكل قوة ضده. استغلت بطريقة لبقة خصوم فخر الدين، ومن بينهم عائلة أمراء ابن سيفا التي استقلت في طرابلس وآل حرفوش أمراء المتاولة في بعلبك وغيرهم[4]، لتحقيق أغراضها. في ذلك الوقت يبدو أن التناقض القديم بين القيسي واليمني، أي بين عرب الشمال وعرب الجنوب، القائم في جميع أرجاء العالم العربي منذ أيام النبي محمد والذي تسبب بحدوث نزاعات دامية ليس فقط في الجزيرة العربية وبلاد الرافدين بل وأيضاً في بلدان إسلامية نائية كإسبانيا مثلاً، قد انتعش في لبنان لأول مرة من جديد وسبّب للمعنيين، الذين هم كما نعلم من عرب الشمال، مصاعب حقيقية. وحتى قسم من آل شهاب وقف ضد فخر الدين بينما وقف أعضاء آخرون من هذه الأسرة إلى جانب المعنيين، محافظين على ولائهم التقليدي لهم، وكوفئوا على ذلك[5]. في عام 1614م بدأ باشا دمشق حرباً حقيقية ضد فخر الدين الذي اضطر إلى التراجع شيئاً فشيئاً باتجاه الساحل وأخيراً لم يبق أمامه أي سبيل سوى مغادرة سورية واللجوء، بناء على اتفاقيات سابقة مع أسرة ميديتشي، حكام فلورنسا[6]، إلى بلاط الدوق

---

(1) انظر موندريل، رحلة من حلب إلى القدس. . في عام 1697م، ص65 وما بعدها. ريتر، نفس المرجع السابق، الجزء 17 ـ 1، ص446 وأماكن أخرى متفرقة.

(2) ينسب إليه بناء الجسر على نهر الكلب وغرس غابات الصنوبر قرب بيروت. انظر موندريل، نفس المرجع، ص60.

(3) انظر روجيه، الأراضي المقدسة. . . .، ص346.

(4) انظر فوستنفلد، نفس المرجع السابق، ص104 وما بعدها.

(5) انظر بلاو، نفس المرجع السابق، ص486.

(6) انظر ماريتي، نفس المرجع السابق، ص95 وما بعدها.

فرديناند الأول دوق التوسكانا. بقي أكثر من خمسة أعوام في إيطاليا[1] ولفت لأول مرة انتباه أوروبا إلى وجود الدروز. وقام آنذاك بنشر الحكاية المختلقة بأن أصل الدروز يعود إلى صليبي مسيحي هو البارون دي درو[2]. وأعاد هو نفسه نسبه إلى غوتفريد فون بويّون. ولكن عندما خاب أمله في الحصول على سفن وقوات لمحاربة الأتراك عاد إلى لبنان. في عام 1619م نزل في صيدا وتولى على الفور زمام الحكم الذي كان خلال فترة غيابه في يد أخيه يونس وابنه علي[3]. وبعد وقت قصير اندلعت الاضطرابات من جديد. فانتصر فخر الدين على خصومه في لبنان وفي غرب سورية وسعى مرة أخرى إلى مد سلطته إلى شرق سورية. وفي عام 1633م أرسل الباب العالي أخيراً كوچك أحمد باشا على رأس جيش قوامه 50,000 رجل لمحاربة فخر الدين، وقتل في المعارك التي دارت بين الطرفين كل من أخيه يونس وابنه علي. أما فخر الدين فقد انسحب إلى منطقة الشوف الجبلية الوعرة ثم لجأ بعد حصار طويل إلى مغارة حيث ألقي القبض عليه. ثم نقل مع أبنائه إلى القسطنطينية (1633م).

حل محله أميراً على لبنان الأمير علي علم الدين اليمني، أي من عرب الجنوب[4]. ولكن بعد عامين جمع ملحم، بن يونس أي بن أخ فخر الدين، القيسيين حوله وطرد علم الدين. وعلى إثر ذلك صدر حكم بالإعدام على جميع آل معن وهو أمر تم تنفيذه فعلاً بحق فخر الدين واثنين من أبنائه في القسطنطينية (1635م). فقط حسين، أحد أبناء فخر الدين، الذي كان قد وقع في يد الأتراك قبل أخذ أبيه أسيراً، نجا من الموت وتبوأ في وقت لاحق مكانة رفيعة في القسطنطينية لكنه لم يعد أبداً إلى سورية. إلا أن ملحم كان قادراً على المحافظة

(1) في هذه الأثناء يبدو أن فخر الدين قد جاء إلى سورية مرة واحدة ولفترة قصيرة.
(2) انظر الصفحة 152، الملاحظة 3.
(3) كان علي هذا قد تزوج عام 1618م من إحدى بنات علي شهاب.
(4) شدياق، نفس المرجع السابق، ص144، يذكر في حديثه عن نسب آل «تنوخ من اليمن» أن هذا الأمير علي علم الدين قد قتل في قصر عبيه آخر الأمراء التنوخيين الحقيقيين.

على حكمه في لبنان وفي أجزاء من الساحل السوري ولكن ليس في الاتساع الذي كان في عهد عمه فخر الدين. توفي عام 1658م ودفن في صيدا[1]. خلّف ملحم وراءه ابنين: قرقماز وأحمد اللذين توليا الحكم في بادئ الأمر معاً[2]. في هذا الوقت تم رفع صيدا إلى مرتبة الباشوية وأرسلت قوات تركية إلى هناك لمحاربة الأخوين المتمردين حيث قتل قرقماز في المعارك التي دارت بين الطرفين (1662م)، أما أخوه فقد نجا من الموت رغم إصابته بجروح بليغة وظلت السلطة في يده حتى وفاته في عام 1697م.

كان أحمد آخر حاكم من آل معن، إذ إن ابنه الوحيد ملحم كان قد توفي في عام 1679م. وبما أنه كان مدركاً لانطفاء أسرته من بعده فقد استغل بطريقة ذكية الانقسام بين القيسيين واليمنيين لتأمين السيطرة من بعده في لبنان لآل شهاب الذين كانوا مرتبطين مع عائلته بعلاقات مصاهرة كثيرة منذ مئات السنين. تحت حجة تجنيب الشعب الدرزي حروباً بين الأخوة جمع أحمد حوله جميع العائلات النافذة ونجح في جعلها تنتخب الأمير الشاب حيدر شهاب، الذي هو حفيده لابنته (ابن صهره زوج ابنته موسى شهاب) حاكماً على لبنان. بعد وفاة أحمد معن تولى الحكم في بادئ الأمر بشير شهاب بدلاً من حيدر شهاب الذي كان لم يزل قاصراً[3]. واعتباراً من الآن انتقل آل شهاب من حاصبيا إلى دير القمر التي كانت قد أصبحت في أيام فخر الدين مقراً لحكومة الشوف، المنطقة الأصلية لآل معن، بدلاً من بعقلين. في عام 1708م توفي بشير شهاب في عكا مسموماً، ويقال بأن

(1) انظر ماريتي، نفس المرجع السابق، ص303.

(2) هناك وصف معبر لطريقة الحياة المستهترة التي كان يتبعها الأميران؛ انظر آرفيو، أخبار غريبة، الترجمة الألمانية، الجزء الأول، كوبنهاغن ولايبزيغ 1753م، ص355 وما بعدها.

(3) موسى شهاب كان حفيد قاسم شهاب الذي كان بدوره ابن علي شهاب الذي كان علي ابن فخر الدين متزوجاً من ابنته. وكان لأخ علي شهاب، أحمد شهاب، ابن اسمه حسين الذي كان ابنه بشير شهاب الشهابي الأول الذي حكم لبنان فعلاً. أما بلارو، نفس المرجع السابق، ص492، فيقول إن الأمراء انتخبوا بعد وفاة أحمد معن ابن أخته الأمير بشير شهاب حاكماً على لبنان. وأما خليفته حيدر شهاب فيعتبره هذا المصدر ابن عمه.

حيدر شهاب أو أصدقاؤه هم الذين وضعوا له السم. بعد ذلك تولى حيدر شهاب بنفسه زمام الحكم. في هذه الأثناء كان اليمنيون قد رفعوا رأسهم مرة أخرى[1]. وانحاز إلى صفهم باشا صيدا لا بل إنه سمح لليمني محمود أبو هرموش باستعمال لقب باشا لبنان. ضمن هذه الظروف اضطر حيدر شهاب إلى الهرب فترة من الزمن وتعرض القيسيون لكثير من الضغوط. لكن حيدر نجح أخيراً في تجميع أنصاره. فهجم عليه أبو هرموش أملاً في تلقي الدعم من باشا صيدا وباشا دمشق، ولكن قبل وصول القوات التركية لمساندته وقعت المعركة قرب عين داره (عام 1711م)[2] وأسفرت عن إصابته بهزيمة نكراء. على إثر ذلك أبيدت عائلة علم الدين بكاملها وقطع لسان هرموش وأصابع قدميه لكنه أبقي على قيد الحياة احتراماً للقب الباشوية الذي يحمله. في ذلك الوقت هاجر جزء كبير من اليمنيين إلى حوران[3] ومن بينهم عائلة حمدان التي أصبحت زعيمة دروز حوران وظلت تقيم في السويداء حتى انقراضها قبل 30 عاماً تقريباً.

بسبب معركة عين داره قويت جداً سمعة ومكانة حيدر شهاب واستغل هو مركزه القوي الذي أصبح بلا منازع تقريباً لإضعاف اليمنيين، وبالتحديد آل أرسلان، وإثراء نفسه والعائلات المتصادقة معه على حسابهم. فقد انتزع من آل

---

(1) أما ماريتي، نفس المرجع السابق، ص307 وما يليها فيرسم نسب المعني الأخير وتسلسل الأمراء الكبار بعد وفاة ملحم الأول بشكل مختلف بعض الشيء عن بقية المراجع. حسب رأيه كان قرقماز وأحمد ابني علي بن فخر الدين المقتول في عام 1633م (أو في عام 1635م حسب ماريتي). بعد قرقماز جاء، «دون أن يستطيع المرء ذكر السبب»، الأمير فارس شهاب. ثم خلفه في بادئ الأمر يونس شهاب وبعد ذلك تولى أحمد معن الحكم. كان أحمد حسب هذا المصدر، متزوجاً من ابنة يونس شهاب، وبعد موته في عام 1695م أصبح صهره منصور حاكم لبنان. وحسب ماريتي فإن الذي توفي عام 1708م بالسم في عكا هو بشير منوقلي بن أحمد وابنة يونس. وقام ابنه خلافاً لكل تقاليد الأسرة بالوقوف إلى جانب اليمنيين ثم قتل في العشرينات (1723م). وبعد ذلك أصبح حيدر شهاب، الذي كان متزوجاً من إحدى بنات منوقلي، الأمير الأكبر.

(2) انظر شدياق، نفس المرجع السابق، ص364.

(3) انظر الفصل الثالث، ص117، ثم ص189.

أرسلان شمال «الغرب» والجرد وأعطاهما لآل تلحوق وآل عبد الملك[1] الذين كانوا قد أثبتوا كفاءة عالية في معركة عين داره. وحصل آل أبي اللمع، الذين تميزوا بشجاعة عالية أيضاً، على حق حمل لقب أمير واتخذ حيدر شهاب نفسه فتاة من أبي اللمع زوجة له.

عد معركة عين داره فقد التناقض بين القيسيين واليمنيين أهميته لأن العناصر اليمنية التي بقيت في لبنان أضعفت إلى أبعد الحدود[2]. ومنذ ذلك الحين نشأ انشقاق جديد بين عائلات لبنان: ظهر حزب الجنبلاطيين واليزبكيين (أو اليزبكجي). تجمع خصوم الشهابيين الحاكمين، وعلى رأسهم العائلات اليمنية، حول عائلة جنبلاط التي كانت قد أصبحت بعد الشهابيين أقوى عائلة في لبنان. الجنبلاطيون هم من ناحية المنشأ أكراد (أو أتراك؟). في بداية القرن السابع عشر نجدهم كأمراء محليين مستقلين في بلدة كلّز (كليز) قرب حلب حيث لم يزل بعض أفراد العائلة حتى اليوم يعتنقون الإسلام. لا بل إنهم كانوا قد تولوا الحكم في حلب فترة من الزمن. في وقت لاحق اختلفوا مع باشا حلب وكان هذا السبب في جعلهم يتركون كلّز ويهاجرون إلى جنوب سورية حيث لعبوا دوراً مهماً في الاضطرابات الحربية التي حدثت في ذلك الوقت. وفي عام 1630م لبوا دعوة من فخر الدين للاستقرار في لبنان. وكان لآل جنبلاط علاقات صداقة سابقة مع آل معن، ولا شك في أن فخر الدين الذي كان آنذاك يتعرض لضغط شديد من خصومه أراد من وراء دعوته لآل جنبلاط الحصول على حليف قوي وموثوق في بلده ذاتها. وهكذا جاء الشيخ جنبلاط[3] مع ولديه سعيد ورباح إلى غرب لبنان واستقر في الشوف غير بعيد عن دير القمر. وأصبح فيما بعد مستشاراً لفخر الدين الذي كلفه عام 1631م بقيادة حملة عسكرية.

---

(1) ومما أزعج آل أرسلان أشد الإزعاج أن آل تلحوق وآل عبد الملك كانوا يعملون في خدمتهم.

(2) في عام 1767م تنازل إسماعيل أرسلان، الذي تخاصم مع عائلته، عن جزء كبير من ثروته لزوجته الشهابية. فاستغل ملحم شهاب الذي كان حاكماً آنذاك هذا الوضع ليضع يده على الجزء الأكبر من الأملاك المتبقية لآل أرسلان.

(3) شدياق استعمل أيضاً الصيغة «جان بولاد» (نفس المرجع السابق، ص129).

بعد وفاة جنبلاط الأب (1640م) صار ابنه رباح شيخاً في الشوف. وكان لرباح ثلاثة أبناء: علي وفارس وشرف الدين. علي جنبلاط تزوج ابنة قبلان القاضي التنوخي، أي اليمني[1]، وهو رجل ثري جداً وله نفوذ كبير بسبب مركزه كقاضي أعلى وزعيم روحي. وعندما توفي قبلان في عام 1712م ترك نصف ثروته لزوج ابنته علي والنصف الآخر للأمير حيدر شهاب الحاكم. لكن الدروز لم يكونوا يريدون انتقال الأملاك إلى أيدي الشهابيين المسلمين، فاشتروا هذه الأملاك بمبلغ هائل بمقاييس ذلك الزمان قدره 25000 قرش وأعطوها لعلي جنبلاط الذي كانوا قد تعوّدوا على اعتباره واحداً منهم. ويبدو أن النفوذ الديني لـ لقبلان القاضي جعل الدروز يعتقدون أن عائلة جنبلاط هي، بسبب قربها من القاضي، عائلة درزية حكماً وأن قبول أفرادها كأخوة كان أمراً طبيعياً تماماً. نتيجة لهذه الملكية الجديدة ازدادت ثروة آل جنبلاط بشكل هائل. في هذا الوقت انتقل علي إلى بزران وبنى هناك قصر المختارة الذي لم يزل حتى اليوم مقر إقامة عائلة جنبلاط[2]. وبناء على اقتراح العائلات البارزة في الشوف عيّن حيدر شهاب علي جنبلاط محافظاً لهذه المنطقة.

يبدو أن تنامي نفوذ الجنبلاطيين دفع الشهابيين إلى دعم تشكل حزب مضاد. إلى جانب عائلة أبي اللمع كان آل تلحوق وآل عبد الملك، الذين يعود الفضل في تحسن وضعهم المادي إلى الأمير حيدر شهاب، من أوفى أتباع الأسرة الحاكمة. هذه العائلات اتحدت مع عائلة عبد السلام اليزبكي الغنية والقوية وشكلت معاً مجموعة واحدة أطلق عليها اسم يزبكي[3]. وهكذا انقسمت العائلات الدرزية إلى

(1) هذا هو تفسير آخر لانضمام اليمنيين إلى الجنبلاطيين.

(2) انظر الفصل الأول، ص46 أعلاه.

(3) انظر نيبور، نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، ص365، الملاحظة 6 («بيت شويفات» المذكورون هناك بانتمائهم إلى الحزب المضاد هم بيت أرسلان). ثم ص367 حيث يذكر نيبور أن مقر إقامة عبد السلام هو مدينة الباروك في العرقوب، ويصف الشيخ نفسه بأنه «رئيس الحزب الذي يدعم حالياً الأمير الحاكم». إلا أن مصدر معلوماتي الذي كان نشوء هذه التسمية الحزبية غير معروف بالنسبة له، يرى أنه، من أجل تجنب العداوات لم يذكر اسم العائلات المشاركة وإنما اسماً ما لا على التعيين.

حزبين ملأت خصومتهما والعداوات بينهما العقود التالية وانجرف إليها في كثير من الأحيان الموارنة والمتاولة أيضاً.

في هذه الأثناء كان حيدر شهاب قد خلفه في عام 1729م ابنه ملحم الثاني الذي اهتم بشكل خاص بإخضاع المتاولة الذين طردهم من شمال لبنان وأجبرهم على الاستيطان عند جبل عامل قرب صيدا وصور. أما أملاكهم فقد أعطاها لعائلات مارونية للإستثمار الاقطاعي. في عام 1756م اعتزل ملحم وبدلاً من أن يحل محله ابنه يوسف، الذي كان لم يزل قاصراً، تولى الحكم أخواه أحمد ومنصور. وعلى الفور نشبت خلافات بينهما فاعتمد أحمد على اليزبكيين واعتمد منصور على الجنبلاطيين. لكن الجنبلاطيين كانت لهم اليد العليا واضطر أحمد إلى الهرب. إلا أن منصور المنتصر عامل اليزبكيين بمنتهى القسوة والظلم فلجأوا إلى يوسف بن ملحم الثاني ودعوا إلى حقه في الحكم[1].

بينما كان الصراع بين منصور ويوسف مستمراً أرسل علي بك، أحد بكوات المماليك في مصر الذين استولوا في نهاية القرن الماضي على السلطة في كامل بلاد النيل، جيشاً إلى سورية. وكان علي بك قد تفاهم مع ضاهر العمر سيد عكا لكن المصريين اضطروا إلى الانسحاب دون أداء مهمتهم على الرغم من أن منصور وقف إلى جانبهم. وبعد وقت قصير نشبت معركة بين يوسف، الذي أرسل باشا دمشق قوات لمساندته، والمتاولة الذين تحالفوا مع ظاهر العمر. مُني يوسف والأتراك بهزيمة نكراء، وفي الوقت نفسه ظهر أمام بيروت، بناء على طلب ضاهر وعلي بك، أسطول روسي قام بقصف المدينة. فأرسل باشا دمشق أحمد الجزار[2] إلى بيروت. سيطر الجزار على المدينة لكنه لم يسلمها للأمير يوسف بل أعلن تابعيتها للأتراك. نتيجة لذلك تحالف يوسف مع ضاهر العمر الذي استدعى الأسطول الروسي مرة أخرى، فقام الأسطول

---

(1) انظر بلاو، نفس المرجع السابق، ص497؛ ماريتي، نفس المرجع السابق، ص314 وما بعدها.

(2) كان أحمد الجزار مملوكاً بوسنياً لعلي بك الذي كان يتولى في مصر مهمة قاضي تنفذ أحكام الإعدام (ولهذا لقب بالجزار)؛ انظر لوكروي، أحمد الجزار، باريس 1888م، ص13، 15، 27.

بمحاصرة بيروت شهراً كاملاً. اضطر الجزار إلى التراجع لكنه تمكن فيما بعد، بعد مقتل ضاهر العمر على يد جماعته أنفسهم، من احتلال عكا وصفد وأصبح والياً على عكا. استغل سلطته لابتزاز مبلغ كبير من الأمير يوسف ولجعله لعبة لأهوائه وتعسفه. كان يوسف يسلم الحكم بين حين وآخر لابن أخيه بشير شهاب، وعندما أرسله في مهمة دبلوماسية إلى الجزار استغل بشير هذه الفرصة لكي يحصل من الباشا على أمر بتعيينه حاكم لبنان. وكان ابن الأخ نفسه قد تنبأ لعمه بالتحول الذي حدث حيث قال: «الآن أنا ابنك وأخشى أن أعود من مهمتي ابناً للجزار». عندئذ هرب يوسف خوفاً من بشير وذهب إلى عكا أملاً في أن يعيد له الباشا حقوقه لكن أمله خاب. وعندما عجز عن إشباع الجشع المادي للباشا، الذي كان يوزع تأييده على العم وابن الأخ حسب قدرة كل منهما على الدفع، قُتل في عكا.

قاد الأمير بشير شهاب الحكم في لبنان 54 عاماً ولكن مع العديد من التقطعات. وقام، من أجل المحافظة على مركزه في السلطة، بخيانة بلده أكثر من مرة وبإذلال الدروز بطريقة مهينة معتمداً دوماً على الموارنة. وكان التقرب من الموارنة، الذين يشكلون ثاني أكبر قوة بعد الدروز في لبنان، قد بدأ منذ أيام ملحم شهاب[1]. وفي عام 1756م كان الأميران الشهابيان علي وقاسم قد اعتنقا المسيحية[2]، وليس مستبعداً أن يكون الأمير بشير - ابن قاسم المذكور - قد اعتنق المسيحية أيضاً[3] وإن كان ظل نحو الخارج متمسكاً ظاهرياً

(1) ولذلك قام علي جنبلاط بدعم الملكيين (الكاثوليك الشرقيين) ضد الموارنة. ويعود الفضل في حصول الملكيين على دير المخلّص إلى جنبلاط.

(2) انظر بلاو، نفس المصدر السابق، ص496.

(3) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني عشر، ص693؛ روبنسون، رحلة في فلسطين وسورية، باريس 1838م، الجزء الثاني، ص427. كما أن أبي اللمع اعتنقوا المسيحية لكي يستطيعوا البقاء في الحكم في قضاء المتن ذي الغالبية المسيحية. بعد صدور قرار «التنظيم العضوي» تعين أن يكون القائمقام أيضاً في هذا القضاء مسيحياً (انظر الفصل الأول، ص51)، ولم يزل أبو اللمع يتولون هذا المنصب حتى اليوم. من بين الشهابيين الذين اعتنقوا المسيحية عاد البعض في وقت لاحق إلى الإسلام، لأسباب سياسية ومالية.

بعقيدته الإسلامية[1]. وعلى أي حال فقد ظل في الصراعات الداخلية الكثيرة، التي هزت لبنان في فترة حكمه، يعتمد بشكل ممتاز على الموارنة. وكان بشير رجلاً ظالماً لا يتورع عن استعمال العنف ضاعف ثروته عن طريق الاستيلاء على أراضي الغير، ليس فقط أراضي خصومه بل وأراضي أقربائه أيضاً. إضافة إلى ذلك احتكر مواد استهلاكية مختلفة كالحرير والصابون وغيرهما. ويقال بأنه لم ينظر أبداً إلى امرأة غريبة ولم يضحك أبداً ولم يتلفظ أبداً بكلمة نابئة أو شتيمة، لكنه أمر مراراً وتكراراً بقتل كثير من الناس وتعريضهم لأبشع أنواع التعذيب.

عندما أصبح بشير، بعد اغتيال يوسف، حاكماً معترفاً به في لبنان رأى أنه من الأنسب أن يقيم علاقة جيدة مع الشيخ بشير جنبلاط الذي أصبح بعد إخضاع اليزبكيين أقوى رجل في لبنان وقائد الدروز اللبنانيين. لكن الجزار، الذي لم تكن له بأي حال مصلحة في قيام علاقات منظمة في لبنان، رأى نفسه مضطراً إلى محاربة البشيرين. وعندما جاء الأمير بشير إلى عكا لكي يتسلم قلادة الحكم رافقه الشيخ بشير جنبلاط فاعتقل الإثنان في وقت واحد وألقيا في السجن عشرين شهراً[2]. لكن الشهابي عرف وهو في السجن كيف يستغل جشع الجزار ويجعله يعيده إلى منصبه. وبعد ذلك تمكن بشير وصديقه جنبلاط من التغلب على ابن عم يوسف شهاب، الذي كان في هذه الأثناء قد تولى بالقوة دور الأمير الأكبر، وقتله خنقاً. والآن حكم بشير في لبنان عشرة أعوام تقريباً دون خصم يستحق الذكر. في هذه الفترة جاءت حملة نابليون إلى مصر وسورية. لم يتخذ بشير قراراً بالوقوف

---

(1) ما زال الناس حتى اليوم يتحدثون عن وجود ممر تحت الأرض في قصر بيت الدين كان يؤدي من الحمام إلى الكنيسة المارونية الموجودة خارج حديقة القصر. كان الناس في لبنان يقولون في منتصف هذا القرن إن الأمير بشير ولد مسيحياً وعاش مسلماً وتوفي درزياً. (انظر جيرار نرفال، مجلة العالمين، الجزء 18، باريس 1847م، ص639). وهناك قصة طريفة معبرة تقول أن مارونياً ومسلماً ودرزياً اختلفوا حول عقيدة الأمير بشير فقرروا سؤال الأمير نفسه. فما كان منه إلا أن أمر بمعاقبتهم «بالفلقة» (الجلد على أسفل القدمين) بسبب فضولهم الزائد؛ انظر راي، رحلة في سورية، باريس 1862م، ص73 وما بعدها.

(2) انظر بريه، سورية تحت حكم محمد علي حتى عام 1840م، باريس 1842م، ص330.

مع نابليون أو ضده بل انتظر سير الأحداث، وعندما فشل نابليون في حصار سانت جان داكر (1801م) التي دافع عنها الجزار دفاع الأبطال ضد الفرنسيين، تبين أن قراره كان صائباً[1].

إلا أن ما كان أخطر من جميع الصعوبات السابقة على حكم بشير ذلك التمرد الذي حدث في بداية القرن الجديد بقيادة ابني سلفه يوسف. اضطر بشير للهرب إلى حوران، وعندما تمكن من العودة بمساعدة الجزار تعين عليه تقاسم الحكم في لبنان مع أبناء عمه. ومن الطبيعي أن الدسائس والصراعات ظلت مستمرة في ظل هذا الحل. إلا أن الظروف لم تكن في صالح بشير، ولذلك فضل أخيراً السفر إلى مصر عن طريق قبرص وآسيا الصغرى ومالطا (1805م). هناك عقد مع محمد علي، المؤسس الكبير للسلالة الحاكمة حالياً في مصر، معاهدة صداقة ظل الإثنان وفيين لها حتى نهاية حياتهما السياسية الأمر الذي يثير الاستغراب. كان هذا التحالف مبنياً على المصالح المشتركة. ويبدو أن بشير شجع محمد علي آنذاك على خططه البعيدة المدى ووقف إلى جانبه عند تنفيذها. أما ما كان يأمله مقابل ذلك، وما حصل عليه فعلاً، فهو أن يتمكن عن طريق محمد علي من تعزيز سلطته في سورية. في بادئ الأمر أعيد بفضل تدخل محمد علي إلى مركزه السابق.

وما أن عاد بشير إلى لبنان حتى بدأ حملة انتقام من خصومه. ألقي القبض على ابني يوسف وقلعت عيونهما بقضيب حديدي متوهج واقتلع لساناهما بالكماشة. كما قتل العديد من الشخصيات المتنفذة من أنصار الأميرين الشابين وصودرت جميع أملاكهم (1807م). وبعد وقت قصير توفي أخو بشير، الذي كان قد لعب دوراً أساسياً في قمع التمرد الأخير، بطريقة غامضة. وبذلك لم يبق للأمير أي منافس على مركز الحاكم.

في هذه الأثناء كان الجزار أيضاً قد غاب عن مسرح الأحداث. ونظراً لميل بشير إلى الدسائس والمناورات فقد حاول التدخل في النزاعات القائمة بين باشا

---

(1) عرف نابليون كيف يقدر ذكاء الشهابي وكرمّه بإهدائه بندقية مزينة بالذهب تعبيراً عن الصداقة.

عكا الشاب عبد الله وباشا دمشق. فصدر فرمان (أمر) من السلطان العثماني حكم بموجبه على عبد الله بالموت وعزل بشير من منصبه. وبينما كان الجيش التركي يحاصر عبد الله في سان جان داكر هرب بشير للمرة الثانية إلى مصر. ومرة أخرى تمكن محمد علي من استصدار أمر من السلطان بالعفو عن بشير وعبد الله باشا، ومرة أخرى عاد بشير شهاب سيداً إلى لبنان (1823م). وكان قبل سفره قد سلم الحكم لأخيه عباس الذي كان يبدو بسبب قدراته العقلية الضعيفة الضمانة لأن يستقيل في اللحظة المناسبة دون أي معارضة. غير أن الشيخ بشير جنبلاط استغل ضعف عباس ليستولي هو نفسه على السلطة. وفي الحرب التي دارت بعد ذلك بين الأمير والشيخ وقف أخوة بشير شهاب الثلاثة إلى جانب جنبلاط. إلا أن الأمير بشير انتصر بفضل المساعدة التي تلقاها من عبد الله باشا. فقام بخنق الشيخ بشير جنبلاط وبإلقاء جثته للكلاب[1]. أما أخوة بشير فقد لقوا نفس المصير الذي كان قد لقيه ابنا عمه: فقد قلعت عيونهم وقُصّت ألسنتهم.

في بداية الثلاثينات بدأ تنفيذ خطط محمد علي الجريئة. وكان قد نشب نزاع حاد بينه وبين عبد الله باشا. وعندما احتل إبراهيم، بن محمد علي وقائد حملته العسكرية، قلعة عكا التي كانت حينئذ تعتبر منيعة عن الاحتلال، أعلن بشير وقوفه إلى جانب المنتصر (1832م). خلال وقت قصير استولى إبراهيم على سورية بكاملها واستقر المصريون في البلد حيث قضوا على نظام الباشاوات والأمراء القديم وحصل بشير شهاب على مناطق واسعة خارج لبنان وعلى جزء من الساحل السوري حيث كان يحكم بصورة شبه مستقلة. وكانت قوة شخصيته وميله للعنف، مرتبطاً بما أظهره سابقاً من ظلم وبطش، قد جعلت الدروز والموارنة يهابونه بمزيج من النفور والاحترام. مستنداً إلى ثقته بدعم المصريين له استغل بشير سلطته إلى أبعد الحدود لكي يبتز من اللبنانيين مبالغ لا حدود لها.

في قصر بيت الدين الذي بناه قرب دير القمر مباشرة كان بشير يعيش حياة فخمة مرفهة. كان الصيد بواسطة الصقور من هواياته المحببة وكانت سمعة رحلات صيده وما يرافقها من احتفالات قد وصلت إلى أوروبا. لكن بشيراً كان

---

(1) انظر بريه، نفس المرجع السابق، ص336.

زوجاً نموذجياً ورب أسرة مثالياً. فعندما توفيت زوجته الأولى، التي كان يعاملها بكل المحبة واللطف جلب عبدة (جارية) شركسية من القسطنطينية واتخذ منها زوجة له وعاش معها أيضاً حياة زوجية في غاية السعادة. لكن هذا الزواج أيضاً كانت له بالنسبة لبشير خلفيات سياسية. فلم يختر زوجته من عائلة لبنانية لكي لا يرفع مكانة العائلة التي يتزوج منها. تعين على الجارية الشركسية أن تعتنق أولاً المسيحية لكي يكون للأمير نقطة احتكاك أخرى مع الموارنة. ومنذ الآن كان استعداء الموارنة على الدروز وتحريض الدروز ضد الموارنة الوسيلة الفعالة التي استخدمها بشير للمحافظة على مركزه في لبنان.

ولكن عندما أجبرت السياسة التوسعية للمصريين إبراهيم باشا على متابعة التقدم نحو الشمال تطلّب هذا مزيداً من الأموال والرجال. أبدى اللبنانيون قبولاً لدفع مزيد من الضرائب لكن مطالبتهم بإرسال رجال للخدمة في القوات المصرية النظامية قوبلت بغضب شديد من الدروز والموارنة على حد سواء. ولذلك طلب إبراهيم جمع السلاح من جميع السكان. فقام بشير في أول الأمر بنزع أسلحة الموارنة بمساعدة الدروز الذين وعدهم بأنه لن ينزع أسلحتهم. ولكن ما أن انتهى من جمع أسلحة المسيحيين حتى ظهرت القوات المصرية في لبنان وأجبرت الدروز على تسليم بنادقهم حيث قدم لهم الموارنة خدمات استطلاعية واستخباراتية. وبعدما أصبح السكان عزلاً من السلاح استغلهم جباة الضرائب بصورة بشعة مما تسبب في نشوب ثورات في مختلف أرجاء لبنان. وبناء على نصيحة بشير قام إبراهيم باشا بتسليح الموارنة ضد الدروز. وعلى الرغم من أن الدروز كانوا متفوقين على المسيحيين بقدراتهم الحربية وشجاعتهم فقد اضطروا إلى الخضوع والانسحاب أمام تفوق الأسلحة المارونية والمصرية الموحدة إلى غرب سورية.

إلا أن الأخطر من كل الاضطرابات التي حدثت حتى الآن كانت ثورة دروز حوران التي اندلعت في نهاية عام 1839م[1]. وكان السبب المباشر للثورة أن

(1) انظر راي ،رحلة في حوارن خلال عامي 1857م و1858م، باريس، بدون تاريخ، ص23 وما بعدها.

إبراهيم باشا أراد تجنيد 175 رجلاً من حوران في الخدمة العسكرية وكلف والي دمشق شريف باشا بتنفيذ هذا الأمر. وعندما اعترض زعيم دروز حوران الشيخ حمدان على هذا الأمر وقال إنه لا يستطيع التخلي عن هذا العدد من الرجال القادرين على حمل السلاح لأنه يحتاجهم للدفاع عن الجبل ضد هجمات البدو والمسيحيين، أرسل شريف باشا قوة قوامها أربعمائة رجل إلى أم الزيتون لكي يجند الرجال المطلوبين بقوة السلاح. فقام الدروز بقتل جميع أفراد القوة ولم ينج منها إلا قائدها الذي ولّى هارباً. على إثر ذلك أرسل إبراهيم ست كتائب إلى حوران. لكن الدروز انسحبوا إلى اللجاة حيث تبعتهم القوات المصرية إلى هناك. وعانى المصريون جهداً من وعورة المنطقة وصعوبة التحرك فيها ولم يفسح الدروز أي مجال لنشوب معركة نظامية، بل ألحقوا بالعدو من مخابئهم التي يصعب الوصول إليها خسائر فادحة. وكان الجنرال محمد باشا قد قتل في بداية الحملة، وفي اصطدام قرب جدّل، حيث حاولت ثلاث كتائب مصرية احتلال مواقع الدروز، قتل جنرالان وأكثر من ثلاثمائة عسكري. أدت هزائم المصريين إلى تولد الانطباع في جميع أنحاء سورية بأن دروز حوران يتلقون الذخيرة والدعم من جميع الأطراف. ولذلك قرر إبراهيم تغيير خطته العسكرية. فأمر باحتلال مواقع المياه في اللجاة واحداً تلو الآخر وتجفيفها وأجبر بذلك الجزء الأكبر من الدروز على الخروج من مخابئهم والتوجه إلى سفوح جبل حرمون، إلى منطقة راشيّا وحاصبيّا. إلا أنه اضطر، من أجل مراقبة اللجاة، لترك جزء من القوات هناك بقيادة سليمان باشا الذي اتخذ مقره الرئيسي مقابل المسميّة.

لم يساهم انتصار إبراهيم باشا على القوات التركية في نزب (1839م) في تعزيز مركزه في سورية. ونظراً لانتشار إشاعات متكررة بأن هناك نية لقيام الحكومة بحملة تجنيد إجباري عامة ساد جو من القلق العارم لدى سكان جبل لبنان، وتحت ضغط الخطر المشترك اتحد أخيراً الدروز والموارنة[1]. وعندما أراد محمد علي تشكيل حرس وطني لحماية السواحل المصرية، وطلب من

---

(1) آنذاك تقدم الدروز والموارنة بالتماس إلى السلطان طلبوا فيه منه طرد المصريين وبشير.

الموارنة تسليم الأسلحة التي كانت قد أعطيت لهم ليسلّح بها الحرس الجديد، اندلعت ثورة عارمة في الجبل (1840م). أفواج من الثوار الغاضبين، وكان بينهم في مراكز قيادية بعض المغامرين الفرنسيين، زحفوا نحو طرابلس وصيدا وبيروت. ويوماً بعد يوم ازداد عدد الثوار وانضم إليهم ليس فقط أمير المتاولة كنج بل وأيضاً العديد من الشهابيين. وعلى الرغم من ذلك بقي بشير في قصره في بيت الدين دون أن يتعرض لأي أذى. شكل المصريون ثلاثة جيوش للسيطرة على الموقف[1]، وحدث اصطدام عند زحلة تحمل الموارنة وحدهم خسائره لأن الدروز تخلوا فجأة عن مساندة رفاقهم متأثرين بما دبره بشير من دسائس. وبذلك بلغت الثورة نهايتها قبل الأوان. صحيح أن الموارنة أبدوا بعد ذلك بعض المقاومة في أماكن متفرقة، وخاصة في دير القمر، إلا أنه سرعان ما تم التغلب عليهم وأرسل قادتهم إلى المنفى.

في هذه الأثناء كان الرأي العام في أوروبا قد أصبح ضد محمد علي. وكان الأتراك قد أرسلوا قوات لمحاربة القوات المصرية التي كانت لم تزل تحتل سورية. وجاء أسطول إنجليزي نمساوي إلى بيروت واحتل المدينة لصالح الأتراك. فأعلن الدروز صراحة وقوفهم إلى جانب سيدهم السابق السلطان. عندئذ سحب محمد علي آخر قواته من سورية وانتهى بذلك الحكم المصري لها الذي دام ثمان سنوات. في هذا الوقت العصيب حاول الأمير بشير مرة أخرى اللجوء إلى عقد التحالفات[2] لكن السلطان عزله من منصبه، فصعد في 12 أكتوبر/ تشرين الأول 1840م في صيدا إلى سفينة إنجليزية نقلته إلى مالطا. وفي وقت لاحق تم احتجازه في القسطنطينية حيث توفي عام 1851م.

يتحمل الأمير بشير بالمقام الأول المسؤولية عن أن التناقض بين الموارنة والدروز كانت له في العقود اللاحقة عواقب وخيمة. كجزيرة عربية في لبنان وجدنا أتباع تعاليم الدرزي في القرن الحادي عشر. وتحت قيادة عائلات إسلامية

---

(1) انظر بريه، نفس المرجع السابق، ص380.

(2) انظر باتون، تاريخ الثورة المصرية، الجزء الثاني، ص190.

احتلوا مكانة مهيمنة على جيرانهم الموارنة، الذين كان المهاجرون من عرب الجنوب قد طردوا في ماضي الزمان أسلافهم من أماكن سكنهم، وعلى المتاولة أحفاد الإسماعيليين السوريين القدامى. ولكن شيئاً فشيئاً تكونت علاقة صداقة بين الدروز والموارنة، فسكنت عائلات درزية في المناطق المارونية واستوطن موارنة في الشوف ومناطق درزية أخرى. وتم الاعتراف بالدروز على أنهم الفئة الأرقى والسادة الاقطاعيين. إلا أن الصراعات المتواصلة بين العائلات الدرزية، والخوف من تعاظم قوة بعض العائلات على حساب الأخرى، جعلت الموارنة في عهد بشير يكتسبون أهمية متزايدة في التنافس على المركز الأول في لبنان. أما المتاولة فقد أخرجهم الدروز والموارنة من لبنان. بعض الحسابات السياسية دفعت بعض الشهابيين وأبي اللمع إلى اعتناق المسيحية[1] وبذلك ازداد بطبيعة الحال نفوذ الموارنة. لكن بشير شهاب هو الذي أذل الدروز عامداً متعمداً وشد من أزر الموارنة بحيث صاروا يتعالون بطريقة مهينة على سادتهم الدروز كمالكين للأراضي. وهو بذلك يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية التاريخية عن الأحداث المشؤومة التي هزت لبنان وسورية بكاملها بعد عزله مباشرة.

كان الموارنة قد تخلوا منذ زمن طويل عن الانقياد وراء شيوخهم العائليين. فقد حاول الشهابيون جعلهم تابعين لهم وقاموا لهذا الغرض بدعم عنصر كان حتى ذلك الحين ذا تأثير ضعيف هو رجال الدين. فعن طريق السخاء في منح رجال الدين الموارنة الأملاك والثروة أصبح هؤلاء أصدقاء للشهابيين وأعدوا في الوقت نفسه ليكونوا قادة للجماهير. وقد سبق وأشرنا[2] إلى العلاقات الودية القائمة بين فرنسا والكنيسة المارونية. والسياسة الودية التي اتبعها بشير تجاه الموارنة، والذي كان حليفاً لمحمد علي الذي يدعمه الفرنسيون، ومشاركة مغامرين فرنسيين في الثورات التي قام بها الموارنة، وسلوك القناصل الفرنسيين في سورية[3]

---

(1) انظر الصفحة 172 من هذا الكتاب، الملاحظة 3.

(2) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص30 وما بعدها.

(3) انظر بريبه، نفس المرجع السابق، ص381 وما بعدها؛ تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص114 وما يليها.

ـ كل ذلك جعل كل فرد ماروني يعتقد أنه متمتع بحماية فرنسا.

بدلاً من الأمير بشير العجوز تم تعيين بشير شهاب قاسم، الذي كان يجاهر علناً بعقيدته المارونية، حاكماً على لبنان، وكان بشير هذا رجلاً وضيعاً غير قادر بأي حال على أداء المهمة الصعبة التي أسندت إليه[1]. تلقى الدروز هذا التعيين، الذي كان يعني تنازلاً للسكان المسيحيين في لبنان، بكثير من الريبة والحذر لأنهم توقعوا مزيداً من الإهانات لشعبهم. وبعد وقت قصير أصدر البطريرك الماروني تعميماً طالب فيه الموارنة بتعيين رجلين في كل قرية توكل إليهما مهام الحكومة المحلية. وعند تنفيذ هذا الإجراء كان ذلك بمثابة سلب الشيوخ الدروز الامتيازات الاقطاعية التقليدية التي كانوا يتمتعون بها. ومن المفهوم أن هذا الإعلان، الذي رحب به الموارنة بسرور صاخب في دير القمر، أثار لدى الدروز أشد المخاوف. وهكذا وقع بعد وقت قصير، في 14 سبتمبر/ أيلول 1841م، في دير القمر الاصطدام الدموي الأول بين أتباع الحزبين والذي قتل فيه خمسة مسيحيين وستة عشر درزياً وجرح العديد من الأشخاص[2]. كان هذا الحدث الشرارة التي أدت إلى قيام الدروز بفرض حصار كامل على دير القمر. وأشعلت النيران في المدينة التي كان موجوداً فيها الأمير بشير قاسم ودمرت القرى المجاورة وراح العديد من الموارنة ضحية الغضب الدرزي. إلا أن القنصل العام الإنجليزي تمكن أخيراً من إنقاذ دير القمر من الإبادة الكاملة وتجنيب سكانها مجزرة شنيعة عامة. غير أن محاصرة المدينة استمرت ثلاثة أسابيع أخرى تعين على الموارنة خلالها تسليم أسلحتهم والموافقة على الانسحاب من المدينة بطريقة مهينة، وكان على رأس المغادرين الأمير بشير نفسه. ومما يعبر عن الظروف التي كانت سائدة آنذاك أن الملكيين[3]، أي الكاثوليك الشرقيين، وقفوا هذه المرة أيضاً، كما في جميع

---

(1) انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص37.

(2) كان القائد على الجانب الدرزي ناصيف بك أبو نكد.

(3) يقال بأن جزءاً كبيراً من اللبنانيين الكاثوليك الشرقيين لم يهاجروا إلى الجبل إلا في العصور الوسطى. ويبدو أنهم ظلوا حتى أحداث 1860م يعانون الكثير من غرور رجال الدين الموارنة وعدم تسامحهم.

النزاعات السابقة بين الدروز والموارنة، إلى جانب الدروز. حقق الدروز نصراً حاسماً لا جدال فيه، وإذا ما كانوا لم يستغلوه إلى ما هو أبعد من ذلك فإن الفضل في ذلك يعود إلى اعتدال قائدهم المحترم نعمان جنبلاط.

في يناير/ كانون الثاني 1842م عزل الأمير بشير شهاب من منصبه وأرسل إلى القسطنطينية، وكلف عمر باشا، وهو منشق هنغاري حصد أكاليل الغار في وقت لاحق في حرب القرم، بتسيير الأمور في لبنان. لكن الدروز أصابهم بعض الغرور بسبب انتصاراتهم وأصر شيوخهم على امتيازاتهم الاقطاعية القديمة وصمموا على عدم الاعتراف بالإدارة التركية. واتهموا عمر باشا، الذي لا ينكر أصله المسيحي، بأنه يحابي الموارنة. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني 1842م قام الدروز بزحف على بيت الدين حيث كان المعسكر الرئيسي لعمر باشا. غير أن كتيبة من القوات التركية والألبانية هجمت على الدروز من الخلف بينما كان عمر باشا يتصدى لهم مع حاميته وفصيلة من الخيالة الموارنة. بعد مقاومة شجاعة تفرقت صفوف الدروز وفر شيوخهم إلى حوران وأُلقي بكثير من الدروز المرموقين بالسجن في بيروت.

الآن قسم الباب العالي لبنان إلى قضاءين إداريين واعتبر خط بيروت دمشق الحد الفاصل بينهما. في المناطق الشمالية عيّن قائمقام ماروني وفي المناطق الجنوبية قائمقام درزي. تم في هذا التعيين تجاوز الشهابيين كلياً، إذ كان الباب العالي قد اقتنع بأنه لم يعد يستطيع حكم لبنان بواسطتهم، كما أنهم لم يوضعوا في الاعتبار عند إجراء التعيينات القيادية اللاحقة. أما في القضاء الجنوبي الدرزي فلم يعيّن القائمقام من بين أفراد أقوى وأغنى عائلة، آل جنبلاط، وإنما من عائلة أرسلان التي كانت تحظى بسبب نسبها باحترام كبير لدى جميع الدروز لكنها كانت قد فقدت كثيراً من ثروتها ونفوذها. في المنطقة المارونية عيّن الأمير حيدر إسماعيل أبي اللمع قائمقاماً الذي كان أفراد عائلته سادة المتن منذ زمن طويل. أصبحت الشويفات، التي كانت يقيم فيها آل أرسلان، مقر الحكومة الدرزية، وأصبحت بكفيّا المقر الرسمي للحكومة المارونية. وفي دير القمر، التي رفض سكانها الرضوخ للدروز مهما كانت الظروف تم تعيين مديراً تركياً.

ولكن بعد أقل من عامين وقعت مجدداً نزاعات دامية بين الدروز والموارنة في لبنان. هذه المرة أرسل الباب العالي شكيب أفندي من القسطنطينية إلى مسرح الاضطرابات. قام شكيب أفندي بعزل الأمير أحمد عباس أرسلان من منصبه وعين مكانه الأمير الأذكى أمين أرسلان رئيساً للقضاء الدرزي. انتهت العداوة بانتصار الدروز وعاد السلام إلى لبنان. في عام 1859م توفي الأمير أمين أرسلان وعين مكانه ابنه الذي كان رجلاً مثقفاً خضع لتربية نصف أوروبية، وكان يتكلم لغات أجنبية ويؤلف الكتب، لكنه لم يكن رجلاً محارباً.

بعد وقت قصير اندلع النزاع مجدداً بين الدروز والموارنة. كان على رأس الحركة المارونية الأسقف المخادع وذو النفوذ الواسع طوبيا في بيروت الذي كانت علاقاته الجيدة مع القنصلية الفرنسية معروفة للجميع. كان قائمقام لبنان الشمالي في ذلك الوقت الأمير بشير أبي اللمع الذي خلف أحمد أبي اللمع. هذا الثالوث[1] المؤلف من القنصل العام الفرنسي والأمير أبي اللمع والبطريرك الماروني عزز النفوذ المسيحي في سورية فترة طويلة من الزمن إلى درجة أن السكان المسلمين في بعض المناطق شعروا بأنهم مهددون وسعوا إلى التحالف مع الدروز. إلا أن اتحاد الدروز والمسلمين دفع الملكيين إلى الوقوف إلى جانب الموارنة على الرغم من أنهم عانوا الكثير من غرورهم وعدم تسامحهم وخاصة في زحلة[2]. وهكذا أصبح الآن جميع مسيحيي لبنان في حالة استنفار. قدّر المسيحيون عدد رجالهم في الجبل بما لا يقل عن 60,000 مسلّح بينما قدروا عدد القوات الدرزية بأقل من 13,000 رجل. عندما وقع الصدام بعد وقت قصير وقفت الحكومة التركية في بادئ الأمر على الحياد المحسوب بمنتهى الدقة. كان الدروز في نهاية المطاف هم المنتصرون في هذه المعارك وذلك بفضل انضباطهم العسكري الذي ألغى العلاقة الاقطاعية بين الشيخ وأتباعه وحقق الطاعة العمياء للقائد والاستعداد للتضحية غير المشروطة. رغم ذلك انتهى اختبار القوى الدامي بهزيمة سياسية للدروز وأدى إلى تغيير الظروف السائدة في لبنان تغييراً كاملاً.

---

(1) انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص119، 121، 125.

(2) انظر جول فيريته في مجلة العالمية، الجزء 28، باريس 1860م، ص1009.

في البداية حدثت (في 30 أغسطس/ آب 1859م) في قرية بيت مري مشاجرة بالأيدي مُني الدروز خلالها بهزيمة منكرة. أمضى الدروز الخريف والشتاء التالي في اتخاذ الاستعدادات الحربية الشاملة. جمع سعيد بك جنبلاط جميع شيوخ الدروز في المختارة وبعد وقت قصير بدأت في جميع قرى الجبل الاحتكاكات بين الدروز والمسيحيين. وأخيراً وقعت في عين داره قرب زحلة معركة (27 مايو/ أيار 1860م) انتصر فيها 600 درزي على 3000 مسيحي وأجبروهم على الفرار. استغل الدروز انتصارهم بلا رحمة أو هوادة. فقاموا بحرق القرى وقتل كثير من الناس في الطريق التي مرت بها قواتهم. ركّز سعيد بك الآن قواته على دير القمر التي كانت قد سقطت في يد الدروز في 2 يونيو/ حزيران؛ سمح للمسيحيين في بادئ الأمر بالاحتفاظ بأسلحتهم لكنهم منعوا من مغادرة المدينة. وفي الثالث من يونيو/ حزيران ظهر جيش درزي أمام حاصبيّا؛ وبعد مقاومة قصيرة تم احتلال البلدة، ثم تخليص السكان الذكور أسلحتهم وحبسهم في السراي. وبعد ذلك حدثت أولى المجازر الشنيعة بحق المسيحيين العزل. فقد قام الدروز، الذين كانت تحرضهم أخت جنبلاط المتعصبة، الست نايفة، بذبح مئات المسيحيين في ساحة السراي دون أن يتدخل عثمان باشا بما لديه من قوات احتلال[1].

شن الدروز هجومهم الثاني على زحلة التي تعد قلعة المارونية. وكان قد جاء من دروز حوران 3000 رجل بقيادة إسماعيل الأطرش لمساندة رفاقهم اللبنانيين، كما أن الأكراد والبدو، وحتى المتاولة، هبّوا لمساعدة الدروز الذين تقدموا بقيادة خطّار بك عماد. وبعد عدد من الاشتباكات الصغيرة المتكررة وقعت في 18 يونيو/ حزيران 1860م المعركة الحاسمة التي مني فيها الموارنة بهزيمة نكراء. فدخل الدروز إلى زحلة وأشعلوا النيران في المدينة، وقتلوا كل من طالته يدهم ممن لم يستطيعوا الهرب إلى الجبال أو إلى المناطق المارونية، لكنهم حافظوا على حياة النساء والأولاد القاصرين. وبعد يومين تكررت في دير القمر

---

(1) أن يكون موقف عثمان باشا لم ينل إعجاب زملائه فهذا ما تؤكده أقوال فيريتّه، نفس المرجع السابق، ص1011.

مجزرة حاصبيا، فذبح في سراي المدينة 1200 مسيحي[1]. وهنا أيضاً اتخذ جنود الاحتلال الأتراك موقف المتفرج.

الآن أخذ الهيجان الرهيب الذي هز منطقة لبنان ينتقل إلى مناطق أخرى وصعّد تعصب المسلمين إلى خطر مباشر على المسيحيين في سورية بكاملها. وأخيراً حدثت في 9 يوليو/ تموز 1860م مجازر دمشق المعروفة. وبذلك أصبحت الاضطرابات السورية حدثاً يهم السياسة الأوروبية. فأرسل السلطانُ فؤاد باشا، وهو من أكفأ رجالات الأمبراطورية، لكي يعيد حالة السلام وتدخلت القوى الأوروبية أيضاً، فنزل 10,000 فرنسي بقيادة الجنرال ديفور في سورية لكنهم لم يطلقوا طلقة واحدة. وضحّت الحكومة التركية بمبالغ ضخمة لكي تحسن حالة المسيحيين البائسين. فأعيد بناء دير القمر، التي كانت قد دمرت تماماً، على حساب الحكومة، وأعيد العمل بالنظام الجديد الذي عرضناه سابقاً[2].

منذ ذلك الحين بقي الوضع هادئاً في لبنان ولم تحدث معارك بين الحزبين الدينيين. وبسبب تدخل القوى الكبرى حُرم الدروز من قطف ثمار انتصاراتهم وأعمالهم البشعة. صحيح أنه أصبح عند شغل المناصب الإدارية المحلية تؤخذ بعين الاعتبار العلاقة العددية للدروز والموارنة، والأقضية ذات الغالبية الدرزية ترسل مندوبين دروزاً إلى المجلس الإداري. لكن السلطة الكاملة للحاكم السابق أصبحت الآن في يد محافظ مسيحي، وفقط في قضاء واحد من الأقضية اللبنانية السبعة[3]، وهو قضاء الشوف، يحتل منصب القائمقام رجل درزي. فضلاً عن ذلك فقد ذهب نفوذ العائلات الدرزية الوجيهة ولم يبق سوى مظاهر الاحترام التقليدية في التعامل الشخصي أو المخاطبة الخطية لأبناء

---

(1) زعم مصدر معلوماتي أمامي أن أبناء العائلات الدرزية المحترمة لم يشاركوا في هذه الأعمال البشعة وفعلوا كل ما في وسعهم لوقف إراقة الدماء، وأن المجازر كانت حصراً من فعل الأشرار والسفلة. ولكن انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص191.

(2) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص48.

(3) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص51.

العائلات القديمة[1] والتي تذكر بالحقبة الاقطاعية من تاريخ لبنان. ويفسر ماضي الدروز السبب الذي يجعلهم لا يتكيفون إلا بصعوبة وبطء مع شروط الحياة العصرية المنظمة. ولذلك غادر العديد من الدروز لبنان وتوجهوا إلى حوران.

لم يزل الفرق الحزبي التاريخي بين الجنبلاطيين واليزبكيين قائماً من ناحية الاسم حتى يومنا هذا ولكنه أصبح الآن بدون أهمية عملية وتحول إلى منافسة على المناصب المخصصة للدروز وعلى مراكز النفوذ في لبنان. يقف في هذا التنافس على الجهة الأولى آل جنبلاط الذين هم اليوم أغنى عائلات الجبل وأوسعها ملكية عقارية وعلى الجهة الأخرى آل أرسلان الذين هم العائلة الأوجه من ناحية النسب ويتزعمهم قائمقام الشوف الحالي الأمير مصطفى باشا أرسلان[2]. أما في أوساط الشعب الدرزي العادي فقد تشكل منذ حوالي نصف قرن انقسام غريب من نوعه بين الشقراوي والصمدي. حصل الشقراويون على اسمهم من العائلة الفلاحية الغنية والقوية «أبو شقرا» وسُمي خصومهم نسبة إلى العائلة الفلاحية «أبو صمد». كلا العائلتين ينحدران من عماطور. جميع دروز لبنان، وأكثر من ذلك فحتى السكان المسيحيون في القرى الدرزية في الجبل، منضمون إلى هذه المجموعة أو تلك، لا بل إننا نجد في جنوب لبنان قرى مسيحية بالكامل منضمة إلى هذا التحزب. وعلى الرغم من العداوة القائمة بين المجموعتين فإن أفرادهما يتزاوجون فيما بينهم لكن نزاعاتهما تكون غالباً دموية جداً. قبل 40 عاماً سقط في عماطور في نزاع كهذا أكثر من 40 قتيلاً من الجانبين، وظل القتال مستمراً إلى أن أوقفه النساء اللواتي فقدن على هذا الجانب إخوتهن وعلى ذاك الجانب أزواجهن.

---

(1) انظر أيضاً ريتّر، نفس المرجع السابق، الجزء 17، ص715، 716. كما أن تقييد الزواج داخل المجموعات الأسرية المختلفة ظل قائماً (انظر ص161 من هذا الكتاب).

(2) من عائلة أبي اللمع هناك بعض الفروع التي تقف إلى جانب الجنبلاطين ومنها مراد أبي اللمع وعيد أبي اللمع بينما يقف قاضي بك أبي اللمع إلى جانب آل أرسلان.

كما أن ظروف السكان المسيحيين في لبنان تغيرت أيضاً. يشكل الموارنة، كما ذكرنا أعلاه[1]، الكتلة العريضة من السكان وهم يخضعون عموماً لسلطة رجال الدين التي يسعى كثير منهم في الآونة الأخيرة إلى التحرر منها عن طريق «الاغتراب». فالجزء الأكبر من الملكيات العقارية اللبنانية موجود في يد رجال الدين الموارنة الذين ظلوا أيضاً على الدوام أحد عوامل القوة السياسية. بالمقابل ترسخ في لبنان إلى جانبِ الموارنة الكاثوليك الشرقيون وأعضاء الطوائف المسيحية الأخرى الذين يشكلون نتيجة حبهم الكبير للتعلم الجزء المتنور والمتفوق فكرياً من السكان المسيحيين، كما أن حالتهم المادية أفضل على وجه العموم. وهؤلاء العناصر بالذات هم الذين يشغلون في الوقت الحاضر جميع المناصب العالية في الحكومة اللبنانية ويملكون بالتالي السلطة الحقيقية.

بقيت علاقات فرنسا مع السكان المسيحيين في لبنان دون تغيير. بالمقابل وقفت بريطانيا منذ نهاية حكم بشير شهاب إلى جانب الدروز. وعندما طالبت فرنسا في المفاوضات التي دارت بين القوى الأوروبية والباب العالي بعد أحداث عام 1860م بإعدام 1500 درزي، من بينهم رؤساء جميع العائلات الوجيهة، طلبت بريطانيا إعدام عدد مماثل من الموارنة من ضمنهم الأسقف طوبيا[2]. كان هذا الموقف يرمي بشكل واضح إلى المحافظة على الدروز كقوة مقابلة للمسيحيين في لبنان والحيلولة بهذه الطريقة دون نشوء في يوم من الأيام «محمية» فرنسية في سورية. حتى ذاك الحين كان الجنبلاطيون يعتقدون أنهم المفضلون لدى الإنجليز[3]، ولكن منذ عام 1860م صار اليزبكيون أيضاً يعتبرون الإنجليز أصدقاءهم. وأنا شخصياً شاهدت في المختارة، مقر إقامة بيت جنبلاط، صور

(1) انظر الفصل الأول، ص20 وما بعدها، أعلاه.

(2) نتيجة لذلك تخلى الباب العالي عن الإعدامات وتم نفي قادة المشاغبين الدروز إلى تركيا الأوروبية وطرابلس (الغرب).

(3) بتأثير النفوذ الإنجليزي استعاد نعمان جنبلاط، خليفة بشير جنبلاط المخنوق، الأملاك التي صادرها المصريون في عهد الأمير بشير شهاب. كما أن إسماعيل جنبلاط، الابن الأصغر للشيخ بشير جنبلاط، تلقى تربيته في بريطانيا (انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص88).

اللورد دافرين وغيره من الشخصيات الإنجليزية البارزة موقعة من أصحابها مع إهداء لطيف جداً ومعلقة في غرف استقبال القصر في أفضل مكان. من المؤكد أن موقف الإنجليز كانت له إلى جانب الحسابات السياسية دوافع مذهبية: فرنسا كانت تسعى دائماً، بمساعدة الموارنة، إلى إفشال كل نشاط للبعثات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية في لبنان وبالتالي منع انتشار المذهب البروتستانتي هناك[1]. وعلى عكس الجنبلاطيين يتحاشى آل أرسلان، لأنهم الخصوم السياسيون لآل جنبلاط في لبنان، الظهور بمظهر الأصدقاء لبريطانيا؛ وهم يعتمدون الآن على الحكومة التركية اعتماداً كاملاً. العديد من أبناء مصطفى أرسلان يعملون في القسطنطينية وأحدهم موظف في وزارة الخارجية التركية.

بدأ الاستيطان الجديد للدروز في حوران، كما ذكرنا أعلاه[2]، بعد معركة عين داره عام 1711م. ولكن منذ ذلك الوقت لم تتوقف هجرة عائلات درزية من لبنان والحرمون إلى حوران، ثم اتخذت هذه الحركة حجماً أكبر عندما أصبحت، في عهد الأمير بشير شهاب، اليدُ العليا للموارنة، وعلى الأخص عندما أصبحت الظروف في وقت لاحق، بعد عام 1860م، لا تناسب طباع الدروز الذين يرفضون الطاعة وعلاقة التبعية المنظمة. في حوران كان الدروز يعيشون مستقلين تماماً، لم يكونوا يدفعون ضرائب وكان النظام الاقطاعي المتوارث منذ القدم ينظم وحده العلاقة بين فوق وتحت. وكان السادة الحقيقيون للبلد بعض عائلات الشيوخ التي يقودها آل حمدان. وكان الفلاحون يقدمون لهم ما يفيض عن حاجتهم من إنتاج الأرض التي كانت خصبة جداً مما جعل الجميع يعيشون في حالة من الرخاء. وكانت البيوت الحجرية المهجورة، المبنية منذ مئات السنين والتي كان يقيم فيها سكان حوران السابقون، توفر على الفور للقادمين الجدد مساكن شبه جاهزة، إذ لم يكن ينقصها سوى الأبواب. كما أن حب الدروز للقتال لقي ضالته هنا، ففي كل مساء تقريباً يطلق إنذار الخطر (الفزعة). في البداية كان الاهتمام منصباً على محاربة بدو الجبال الذين كانوا معتادين على رعي قطعانهم

---

(1) انظر تشرتشل، نفس المصدر السابق، ص40 و42.

(2) انظر ص170 والفصل الثالث أعلاه، ص116.

هناك جزءاً من السُّنة على الأقل وكانوا يعتبرون أنفسهم حراس الجبل. وعندما طردوهم أو فرضوا عليهم علاقة التبعية والطاعة، تعين عليهم التصدي للهجمات المتواصلة التي يشنها لصوص البدو أو القبائل الأكبر المقيمة في السهل.

ساعدت الهجرات الجديدة إلى حوران التي كان سببها وصول الأخبار إلى الحرمون ولبنان بأن الظروف المعيشية في حوران أفضل جداً من ظروفهم، ساعدت العائلات القيادية على تعزيز مركزها لأنها كانت تدعم القادمين الفقراء بالأموال والمؤن. وكان آل حمدان قد استقروا في جنوب حوران حيث كان يعيش آل نصر أيضاً، بينما كان يعيش في الشمال آل عمرو. وبعد انقراض آل حمدان بعد واكد حمدان حل مكانهم آل الأطرش[1] الذين كان رئيسهم إسماعيل الأطرش قد ذهب في عام 1860م، كما ذكرنا سابقاً، مع ثلاث آلاف رجل من دروز حوران للمشاركة في المعارك الدائرة في لبنان[2].

أدى الرخاء المتنامي، والشعور بالتفوق العسكري على البدو، وذكرى الانتصارات على المصريين، إلى جعل دروز حوران يغترون بقوتهم إلى درجة أن الحكومة التركية رأت نفسها في عام 1852م مضطرة إلى إرسال قبرصلي باشا إلى حوران على رأس جيش قوامه 35,000 رجل. وقبل الوصول إلى الجبل حدث في السهل عند غباغب الاشتباك الأول، لكن اندلاع حرب القرم[3] أدى إلى إيقاف الحملة مبكراً. أدى هذا الحدث إلى تعاظم ثقة الدروز بأنفسهم وازدياد غرورهم. على الأخص في دمشق كانوا يتصرفون بأقصى درجات العنجهية، وكان الدمشقيون لا يواجهونهم لأنهم لم يكونوا يستطيعون التخلي عن علاقاتهم التجارية مع الحوارنة ولأنهم كانوا يعرفون أن قتل أي درزي سيؤدي إلى انتقام مضاعف.

ولكن عندما نهب الدروز في عام 1879م قرية الشرفاء الإسلامية بصر

(1) عندما تجولت في حوران عام 1893م وجدت العديد من أفراد عائلة الأطرش في الجزء الجنوبي من الجبل بصفة شيوخ أو كمدراء أرسلتهم الحكومة.
(2) انظر الصفحة 185 أعلاه.
(3) شارك في حرب القرم حفنة من الدروز تحت إمرة علي بك عماد.

الحريري أرسل مدحت باشا، الذي كان آنذاك والياً على دمشق، الجنرال جميل باشا إلى حوران. وقعت المعركة عند قراته بالقرب من بصر الحريري وفقد فيها الدروز بسبب تفوق الأسلحة التركية 150 رجلاً من خيرة الخيالة. فانسحبوا ظاهرياً لكنهم فاجأوا الأتراك أثناء تناول الطعام وقتلوا 500 جندي مما جعل جميل باشا يولّي هارباً. فجهز مدحت باشا الآن قوة أكبر لمحاربة دروز حوران لكنه سرعان ما أدرك أن الحرب مكلفة جداً مادياً وبشرياً. ولذلك فضل الاتفاق مع الدروز بالطرق الودية. وكانت هناك أسباب مختلفة تؤيد مراعاتهم بشكل خاص. فقد كانت لهم علاقات جيدة مع دروز لبنان الذين كانوا يشكلون قوة مقابلة للموارنة الموالين لفرنسا ومن أصدقاء المسلمين في سورية. ومن ناحية أخرى كانوا يشكلون سداً ضد غزو الوديان السورية الخصبة من قبل القبائل البدوية الكبيرة الموجودة في الصحراء العربية. إذ حتى أقوى القبائل كولد علي والرولة لم تعد تجرؤ على الاقتراب من جبل حوران. فالسلسلة الجبلية التي كانت في السابق خالية من السكان أصبحت بوجودهم مأهولة من جديد وتحولت إلى منطقة زراعية خصبة. وكانت دمشق تحقق أرباحاً كبيرة من تجارة الحبوب مع حوران، كما تبين أيضاً إن أي حملة ضد دروز حوران كانت تؤدي إلى ارتفاع كبير لأسعار الحبوب في جميع أنحاء سورية.

لذلك عيّن مدحت باشا أحد شيوخهم، شبلي بك تلحوق، قائمقاماً لحوران مع مقره السويداء، وقد تمكن تلحوق من إقناع الدروز باتخاذ موقف ليّن ومن تنظيم الأمور من جديد. تم تقسيم المنطقة إلى ثمان مديريات وتعيين مدراء لها من الدروز حصراً، كما تم تشكيل محاكم وإقامة ثكنات عسكرية في السويداء وبصرى، وفي وقت لاحق أرسلت مفارز عسكرية إلى بصر الحريري والمسميّة والمزرعة. وأصبحت السويداء أيضاً مقر القيادة العسكرية للقوات التي نقلت إلى حوران لدعم القائمقام ومراقبته في آن واحد. لم يكن الدروز مرتاحين ضمن هذه الظروف الجديدة، ولذلك ظل الإصلاح الإداري مسألة ظاهرية فقط وعمّ الاستياء في كل مكان. استغل هذه الظروف الرجل الماكر إبراهيم الأطرش، الذي أصبح بعد وفاة أبيه إسماعيل المذكور أعلاه، زعيم العائلة

لطرد شبلي بك تلحوق وأخذ مكانه كقائمقام لقضاء حوران.

في هذه الأثناء كانت قد نشأت في أوساط الفلاحين الدروز في جبل حوران حركة تطالب برفض العرف التقليدي القديم الذي ينص على إعطاء الشيخ ثلث المحصول. تزعم هذا الحزب الفلاحي (العاميّة) الرجل الطموح والمحب للمراتب شبلي الأطرش، أخو إبراهيم، الذي كان مدير العيرة. وبسبب نشاطاته التحريضية المستمرة اتخذت الحركة طابعاً ثورياً واضطر العديد من الشيوخ إلى الهرب خوفاً من أتباعهم المتمردين[1]. ولعب الاستياء من النظام الإداري المفروض بالقوة دوراً كبيراً في هذه الاضطرابات. فطلب الدروز من إبراهيم الأطرش التخلي عن لقب القائمقام والعودة إلى لقب شيخ المشايخ[2]. وأخيراً اضطر إلى الهرب إلى دمشق حيث طلب الدعم من الحكومة فوضع والي دمشق تحت تصرفه قوة كبيرة بقيادة منصور بك لكي يحارب بها، مع من بقي موالياً له من الدروز، أبناء شعبه. وبعد انتصاره في المعركة التي وقعت قرب السويداء عاد سيد الموقف. فأعيد تعيينه قائمقاماً لحوران وأعيد المدراء السابقون إلى مناصبهم[3].

إلا أن الأوضاع ظلت مضطربة في الجبل. وأدرك إبراهيم أنه، لكي يستطيع البقاء في مركزه، لا يمكنه الاستغناء عن دعم الحكومة. وعندما دار الحديث عن تشكيل قوات غير نظامية (حميديّة) من الدروز على غرار ما حصل مع السكان الأكراد في جبال آسيا الصغرى، حاول إبراهيم الأطرش الطلب من الباب العالي دعم هذا المشروع. ولذلك توجه في بداية عام 1893م إلى القسطنطينية مع بعض أصدقائه ومن بينهم محمد نصّار. لكن دمشق حاكت الدسائس ضده واعترضت

---

(1) كان بينهم أيضاً الشيخ محمد نصار شيخ سالي.

(2) كان إبراهيم قد لبس الطربوش كعلامة على أفكاره التقدمية، لكن الدروز طالبوه بالعودة إلى غطاء الرأس الشعبي التقليدي، العمامة. انظر الصفحة 162 أعلاه. وعندما زرته في السويداء عام 1893م كان قد عاد إلى العمامة.

(3) منذ هذا الوقت ازداد الوجود العسكري في حوران قوة. عندما جئت إلى هناك عام 1893م كان يوجد حوالي 4 كتائب.

الحكومة الفرنسية بشدة على تزويد الدروز بأسلحة حديثة[1]. وفي النهاية تخلت القسطنطينية عن المشروع واستقبلت إبراهيم الأطرش بقليل من مراسم التكريم، لكنه مع ذلك حصل مع مرافقيه على أوسمة ومنح هو نفسه لقب «باشا». وعند عودته إلى حوران لقي استقبالاً سيئاً لأنه لم يستطع إقناع الباب العالي بتحرير بعض الدروز الذي نفيوا إلى رودوس بسبب أحداث عام 1890م[2]. وبعد وقت قصير نشبت خلافات جديدة بين الأخوين المتخاصمين شبلي وإبراهيم أصيب إبراهيم خلالها بجرح في قدمه. وبعد ذلك بفترة قصيرة، في يونيو/ حزيران 1893م، زرته في السويدا[3]، وبعد سفري بأشهر قليلة فارق الحياة.

بعد وفاته كلف عمر بك، الذي كنت قد التقيته عام 1893م كقائد عسكري في السويداء، بتسيير الأمور مؤقتاً مع الاحتفاظ بمنصبه العسكري. في هذه الفترة بقي كل شيء هادئاً في حوران لأن شبلي الأطرش كان يأمل في أنه سيصبح هو نفسه قائمقام جبل الدروز. ولكن عندما تولى المنصب عربي مولود في دمشق بدأت دسائس شبلي من جديد. وقام أتباعه بغزوات سلب ونهب في سهل حوران حتى وصلت شكاوى المتضررين إلى دمشق. فطُلب من عمر بك اعتقال شبلي. نفذ عمر الأمر في خريف 1893م ولكن عند نقل شبلي إلى دمشق هجمت مجموعة من الدروز على الفصيلة المرافقة له بالقرب من قلعة المزرعة وأجبرتهم على الفرار واللجوء إلى القلعة. قام الدروز بمحاصرة القلعة عدة أيام، وعندما تمكنوا من قطع الماء عنها اضطر المحاصَرون إلى تسليم شبلي الأطرش الذي أصيب أثناء الاشتباك بالأيدي بجروح ألحقها به جماعته أنفسهم. بعد ذلك عاد شبلي إلى العبرة. كانت الخسائر على الجانبين كبيرة، وعلى إثر ذلك حلت الحكومة حاميتي السويداء والمزرعة لكي، حسب رأي الدروز، تتخذ من ذلك

---

(1) حتى هذا الحين كان تزويد الدروز ببنادق عسكرية يقتصر على عدد قليل ممن كانوا يعملون كسبتية للمدراء.

(2) في وقت لاحق تم تحرير هؤلاء المنفيين بمساعدة آل أرسلان الذين كانوا من أصدقاء إبراهيم الأطرش ـ كان شبلي الأطرش يعتبر صديقاً لآل جنبلاط.

(3) انظر الفصل الخامس أعلاه من هذا الكتاب، ص212.

حجة للثأر. تم تشكيل لجنة من عدد من الوجهاء الدمشقيين برئاسة متصرف الشيخ سعد، التابع له جبل حوران، قامت بالتحقيق في الحادثة وبناء على تعليمات مباشرة من القسطنطينية أعطي الدروز الأمان وتُرك شبلي الأطرش في منصبه مديراً للعيرة. وبعد عدة أشهر عزل قائمقام جبل الدروز الموجود في السويدا وعُيّن مكانه يوسف باشا زيّا الخالدي. لم يكن هذا المعلم[1] الهادئ مناسباً للمحافظة على الهدوء في حوران. فبعد أقل من عام اندلعت الاضطرابات من جديد، وعزل يوسف زيّا وعيّن مكانه خسرو باشا قائمقاماً لحوران. في هذه الفترة حدثت نزاعات دامية بين الشركس[2] ودروز مجدل شمس على سفوح جبل حرمون. وكادت حالة انعدام الأمن تعم جنوب سورية بكامله. فقامت الحكومة في يوليو/

(1) قام بتأليف كتاب عن قواعد اللغة الكردية وأشياء أخرى.

(2) استوطن الشراكسة عند جبل حرمون، كما في أماكن أخرى كثيرة في سورية، بأعداد كبيرة منذ نهاية الحرب الروسية التركية الأخيرة. يأتي الشركس في المرتبة الأولى بين اللاجئين (المهاجرين) الذين جاؤوا في هذا القرن من مناطق كانت في السابق إسلامية ثم أصبحت في وقت لاحق مسيحية وخاصة منذ التوسع الروسي الكبير في بلدان القوقاز حيث بحثوا عن مأوى في أراضي الأمبراطورية التركية. وجد الجزء الأكبر من هؤلاء الشراكس في بادئ الأمر موطناً جديداً لهم في بلغاريا التي غادروها بعد ذلك بعد التحولات التي طرأت على الظروف في تركيا الأوروبية بعد الحرب الروسية التركية الأخيرة باحثين عن مأوى في المناطق الآسيوية. فأعطى الباب العالي هؤلاء القادمين الجدد أراض تعين عليهم غالباً الدفاع عنها في معارك شديدة ضد السكان المقيمين وتعرضوا فيها في بعض الأحيان إلى الإبادة الكاملة. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الشركس الذين لا وطن لهم كانوا يسعون دوماً إلى التقرب من الحكومة التي كانت تستخدم الشركس في كثير من الأماكن كرجال أمن (جندرمة) وموظفين، وخاصة في سورية (دمشق، تدمر) وفي بعض مناطق بلاد الرافدين. وكان الشراكسة قد لعبوا منذ مئات السنين أدواراً معينة في بعض البلدان الإسلامية. وكان هؤلاء أحفاد الشراكسة الذين نشأوا وتربّوا في قصور وبيوت العائلات الوجيهة وكان بعضهم من الشركس المسلمين الأحرار وبعضهم الآخر من الشركس الذين تمّ بيعهم في سوق النخاسة وكانوا مسيحيين في الأصل، وبعضهم من أهالي البنات الشركسيات اللواتي أصبحن جواري في بيوت الأكابر. بخصوص سلاطين المماليك من الشركس. انظر من البحر المتوسط إلى الخليج: ، ص52، الملاحظة 3.

تموز 1894م بعزل والي دمشق رؤوف باشا وتعيين عثمان باشا الذي كان في السابق والياً على دمشق وأخيراً على حلب. نجح عثمان في تحقيق السلام بين الشركس والدروز في الحرمون. ولكن في حوران كان النظام الآن قد تخلخل تماماً. إذ اتحد الدروز مع جماعات من البدو وشكلوا معاً عصابات للسلب والنهب سمّت نفسها «كسّارة» وزحفت على السهل، ويقال بأن مسيحيين ومسلمين مستقرين انضموا إليها أيضاً. وكانت جماعات درزية أخرى سمّت نفسها «زغابة»، ومقرها الرئيسي في صلخد، قد وضعت لنفسها، حسب زعمها، هدفاً وحيداً هو محاربة الظلم ومساعدة المظلومين. فانتعشت بين الشعب الدرزي الخلافات والانقسامات القديمة وسادت الفوضى في كل مكان، ولم يبق أي نفوذ لأحد إلا للشيخين الدينيين حسن الهجري في قنوات وحسين طربيه في السويدا.

أما السبب المباشر للتدخل المسلح الحكومي الجديد ولنشوب أشد المعارك دموية في تاريخ حوران الحديث فكان هجوماً وقع في عام 1895م على قريتي كحيل والحراك في النقرة. وأما سبب الهجوم فهو أن تاجراً دمشقياً اسمه عثمان النوري كان له دين على بعض أهالي قرية كحيل المسلمين لم يستطع تحصيله، فلجأ إلى الزغابة لكي يحصل على ماله بمساعدتهم. وافق الزغابة على تقديم المساعدة وهجموا في آخر خريف 1895م على قرية كحيل ونهبوا مواشيها. على إثر ذلك هجم سكان قرية كحيل والقرية المجاورة الحراك على قافلة درزية فنهبوها وقتلوا عدة أشخاص من مرافقيها. وعندما وصل الخبر إلى حوران زحف الدروز الغاضبون على السهل وحاصروا حصن الحراك الذي كان قد تم تحويله إلى جامع كان مسلمو القريتين المذكورتين قد فروا إليه خوفاً من الدروز. خلال الحصار قتل من الدروز 22 رجلاً، إلا أن المسلمين اضطروا إلى الاستسلام وطلبوا السلام؛ فوُهبت لهم حياتهم لكن جامع الحراك تم تدميره. وكان متصرف منطقة حوران آنذاك، الكردي بدري بك، قد حضر إلى الموقع مع بعض رجاله لكي يعيد حالة السلام لكنه هوجم من قبل الدروز الذين يحاصرون الحراك واضطر إلى الانسحاب إلى الشيخ سعد بعد أن قتل حصانه من تحته بنيران الدروز.

أثار تدمير جامع الحراك غضب المسلمين ليس فقط في سهل حوران بل وفي

جميع أنحاء سورية واستياءهم الشديد من الدروز. في ذلك الوقت كان الهيجان شديداً جداً نتيجة الاضطرابات الأرمنية. واعتقد الباب العالي أن الاضطرابات الدرزية الأخيرة يقف وراءها أيضاً النفوذ الإنجليزي[1]، ولذلك قرر، لكي لا يسمح بأن تنشأ إلى جانب القضية الأرمنية «قضية درزية»، إخضاع دروز حوران فوراً وبكل قوة وفرض السيطرة الكاملة على جبل الدروز بنفس الطريقة المطبقة في المناطق الإسلامية من سورية. حاول الدروز معالجة النزاع في بادئ الأمر بطريقة التسويف والمماطلة وطلبوا تشكيل لجنة مختلطة من الدروز والمسلمين للتحقيق في حادثة الحراك ومعاقبة المذنبين من الجانبين؛ وعرض شبلي الأطرش نفسه للمشاركة في اللجنة ثم حمّل الكسارة، الذين كان يريد التخلص منهم، المسؤولية عن الاضطرابات الأخيرة. لكن الحكومة التركية لم تقبل، وإنما أرسلت أدهم باشا على رأس قوة كبيرة إلى الجبل تمركزت في بصر الحريري. عندئذ أعرب الدروز عن استعدادهم للخضوع، وفُرضت عليهم إثر ذلك الشروط التالية: عليهم دفع تعويضات لمسلمي حوران عما لحق بهم من خسائر، وعليهم أداء الخدمة العسكرية ودفع الضرائب وتسديد المتخلف منها، والتقيد بصورة عامة بجميع القوانين والتعليمات النافذة في المناطق الإسلامية البحتة.

بينما كانت هذه المفاوضات جارية قام دروز قراته بقطع الماء عن القوات المتمركزة في بصر الحريري. وبذلك أصبح لا مفر من المعركة. أرسلت في بادئ الأمر وحدات صغيرة، وفي وقت لاحق وحدات أكبر، إلى قراته وبدأت معركة استمرت ثلاثة أيام وامتدت حتى نجران دون أن تصل إلى نتيجة حاسمة. وشارك في القتال من الجانب التركي 15,000 ـ 16,000 رجل. نصح قادة الدروز بالعودة إلى السلام، وبالفعل وافقت تركيا وأصدرت مرة أخرى عفواً عاماً (أمان)[2] إلا أن جزءاً من شيوخ الدروز، المنتمين لحزب الشعب، رفضوا

(1) في الحقيقة كان الدروز بعيدين كل البعد عن السياسة العالمية، ويعتقد بأن ثورة حوران تعود لأسباب محلية فقط

(2) استولى الدروز خلال المعركة على مدفعين مع بعض الذخيرة وعلى عدد من البنادق تعين عليهم فيما بعد إعادتها.

الرضوخ وانسحب الرجل العنيد أبو طالب عمرو مع أنصاره إلى الحرّة. فأمرت القوات التركية بالتقدم إلى السويداء. لكن أدهم باشا لم يفعل في بادئ الأمر أي شيء، ولذلك استبدل بعد وقت قصير بعمر رستم الذي قام بعد ذلك بنزهة عسكرية في حوران كلها.

اعتقد شبلي الأطرش أنه يستطيع استغلال الوجود العسكري التركي لأغراضه. وقد يكون انطلق من الافتراض أن الظروف الاقطاعية القديمة ستعود إلى حوران في المدى المنظور، ولذلك رأى أنه من الأفضل له أن يتخلى عن موقفه السابق المؤيد لحزب الفلاحين ويتولى رئاسة حزب الشيوخ على أمل أن يحصل عما قريب على منصب قائمقام حوران ثم يستغل هذا المنصب لتحويل الضرائب التي يدفعها سكان الجبل إلى جيبه. وبناء على إخبارية (فسديّة) منه تم اعتقال عدد كبير من أنصاره السابقين. وأعلن عمر رستم أن جميع الدروز الذين يأتون إلى السويداء ويعلنون الطاعة سيعفون من العقاب. لكنه لم يف بهذا الوعد. ثم جاء أبو طالب عمرو لكي يدعي على شبلي الأطرش بأنه هو الذي أرسل الدروز للهجوم على الحراك وكحيل، لكن الأتراك ألقوا القبض على الاثنين، شبلي الأطرش وأبو طالب عمرو. وأرسلا مع عدد كبير من وجهاء الدروز، من بينهم جميع آل الأطرش تقريباً وسليمان خالد والشيخ حسن الهجري، إلى قلعة دمشق. وعند دخولهم إلى المدينة قوبلوا بكثير من الشتائم من أهالي دمشق المستائين من أفعالهم. وأرسل رستم باشا مئات المجندين الدروز إلى جزيرة كريت لكن معظمهم فروا من الخدمة. بعد وقت قصير نُقل شبلي إلى الأناضول عن طريق بيروت بسبب الاشتباه بأنه يشارك في تحريض الدروز ضد الحكومة من داخل السجن. ثم صدر أمر بنزع أسلحة دروز حوران، لكن كثيراً منهم طمروا بنادقهم وتخلصوا بهذه الطريقة من تسليمها.

في هذه الأثناء كان قد تم في كل مكان تعيين مدراء أتراك وشركس بدلاً من الشيوخ الدروز السابقين؛ فقط إبراهيم القضماني ومحمد نصار بقيا في منصبهما، الأول في شهبا والثاني في سالي. وأُعيدت جميع القوات التركية باستثناء ست كتائب بقيت بقيادة ممدوح باشا في السويداء وبصر الحريري؛ وأرسل حوالي

100 عسكري إلى بصرى إسكي شام، وهُدمت قلعة المزرعة ولهذا الغرض جُلب إلى حوران عدد كبير من السبئية الأكراد الذين ساهمت تصرفاتهم وتطاولاتهم في انفجار غضب الشعب الذي كان راقداً تحت الرماد. كان هؤلاء الرجال يسخرون من عاداتهم الدينية ويزعجونهم أثناء أدائهم شعائرهم. ونظراً لاتساع سلطة الحكومة بشكل غير عادي، حاول بعض الأفراد التكيف ظاهرياً مع شعائر الدين الإسلامي. فبنوا جامعاً صغيراً في السويدا، ولكن عندما كان يذهب درزي إلى الصلاة كان يوصف بأنه منافق. ومما كان يؤلم جداً الدروز، الحساسين جداً تجاه قضية الشرف النسائي، أن بناتهم كن يؤخذن كجواري إلى حريم الأتراك والعرب. ثم أضيف إلى كل هذه الإهانات أن بدو الجبال الحورانيين، الذين كانوا في السابق خداماً ورعاة للدروز، تمردوا على سادتهم السابقين بطريقة في غاية الوقاحة.

ولذلك كانت الظروف مهيأة لاشتعال لهيب الثورة من جديد. وعندما وقع حادثان سيئان كانت الأمة بكاملها مصممة إلى أقصى الحدود على خوض المعركة. وقع الحادث الأول في القنوات حيث اصطدم بدو الجبال مع الدروز فأرسل القائد العسكري في السويداء جماعة من الخيالة لتسوية النزاع. ولكن بدلاً من إلقاء القبض على الدروز المتهمين، حاول الجنود الأتراك اعتقال جميع وجهاء القرية. وعندما أبدى الدروز مقاومة أرسل من السويداء مائة خيال آخر وطُلب منهم حرق القرية بكاملها إذا اقتضى الأمر. وبالفعل فقد تم حرق خمسة بيوت وجلب وجهاء القنوات إلى السويداء. أما الحادث الثاني فقد كان دامياً. قام درزي من عمران بإطلاق النار على بدوي جبلي.

على إثر ذلك أرسل البمباشي التركي عبد الله أفندي مع 30 شرطياً كردياً، ومعهم رجل درزي كان برتبة ضابط في خدمة الأتراك[1] وابنه، إلى عمران. نزل رجال السبئية والرجلان الدرزيان عند الشيخ أبو خير الذي استقبلهم بكرم الضيافة المعهود. وفي أثناء تناول الطعام طلب الضابط الدرزي من مضيفه وبطريقة فظة

(1) اليوم أيضاً لم يزل العديد من أبناء شيوخ الدروز يخدمون كضباط أتراك في دمشق.

إعلامه عن مكان وجود الدرزي الذي أطلق النار. وعندما جاء الرد رافضاً، سحب مسدسه وأطلق النار على أبو خير فأرداه قتيلاً؛ وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الفعل ذبح الجاني وأفراد السبئية الكردية المرافقة له. وعندما سمع الخبر مدير المنطقة جنبلاط بك، الشركسي، الذي كان مقره في ملح جاء إلى المكان مع سبعة خيالة لكنه قتل أيضاً مع رجاله. نجا من الموت رجل واحد ونقل الخبر إلى السويداء. في السويداء كانت الآراء مختلفة حول الخطوات الواجب اتخاذها. في نهاية المطاف قرروا تأديب الدروز في عمران على الفور وليس، كما اقترح الفريق الآخر، القيام أولاً بحشد قوة عسكرية أكبر في السويداء.

وهكذا توجهت كتيبتان، حوالي 800 رجل، مع مدفعين إلى عمران. إلا أن الدروز كانوا مستعدين وهجموا على القوات التركية عند عيون قرب صلخد، ودارت معركة استمرت ست ساعات انتهت بإبادة الجزء الأكبر من القوات الحكومية بينما فقد الدروز 110 قتلى. أما محمد آغا من جيرود، الذي كان قد أرسل في الوقت نفسه إلى عمران مع فصيلة صغيرة من الخيالة البدو غير النظاميين، فقد وصل متأخراً وطلب منه الدروز الانسحاب لأنهم يعتبرونه من أصدقائهم. ففضّل محمد آغا تجنب السويداء واختفى في البادية. بعد ذلك زحف الدروز على السويداء وحاصروا القلعة الواقعة على مرتفع على بعد كيلو متر واحد تقريباً إلى الغرب من المدينة والتي كان لم يزل فيها كتيبتان من الجنود بالإضافة إلى نساء الضباط والموظفين الأتراك الكبار، أي ما مجموعه حوالي 1000 شخص. سكان السويداء المسلمون هربوا إلى السهل، ونساء الدروز غادرن المدينة مع أمتعتهن وتوجهن إلى قنوات. بعد ذلك بدأ الدروز، الذين كان شيوخهم قد تجمعوا قبل ذلك في قنوات، بقصف قلعة السويداء بمدفع كانوا قد استولوا عليه في معركة عيون، وتولى مهمة استعمال المدفع أحد الأسرى الأكراد. ولكن بعد أن تدمر جزء كبير من شرفة الثكنة وارتفعت ولولة النساء المحاصرات في القلعة أوقف القصف بناء على نصيحة محمد نصار، كما أن شيوخ الدروز الآخرين تولدت لديهم القناعة بعدم تصعيد العداء إلى أقصى الحدود. وعندما حاول المحاصرون قطع الماء عن القلعة أفشل العملية قسم من

الدروز المقيمين في السويداء، وهي خدمة لم تنسها لهم الحكومة فيما بعد.

في هذه الأثناء كانت أخبار الأحداث في جبل حوران قد وصلت إلى دمشق وأثارت هناك غضباً شديداً. فقررت الحكومة المركزية في القسطنطينية القضاء على الثورة الجديدة بجميع الوسائل. ولهذا الغرض عزلت والي دمشق عثمان نوري باشا وعينت مكانه حج حسن باشا الذي كان يتمتع بسمعة جيدة لدى الباب العالي بسبب إدارته الناجحة لولاية بغداد. وحتى وصوله إلى دمشق تولى محافظ بيروت نصوحي بك إدارة الأمور بصفة مؤقتة. وفي الوقت نفسه عزل قائد الجيش الخامس عمر رشدي باشا وعيّن مكانه المشير طاهر باشا. ومن جميع الأنحاء أرسلت قوات نظامية إلى دمشق واستدعيت إلى التجنيد الإجباري عدة قرعات في سورية. وكان القلق في دمشق كبيراً جداً وخاصة لأن الناس كانوا يخشون أن يهب الدروز اللبنانيون لنجدة إخوانهم في حوران[1]. فضلاً عن ذلك لم يكونوا يثقون بالقبائل البدوية الكبيرة التي كان جزء منها موجوداً في البادية السورية في مواقع غير بعيدة عن دمشق ـ ولكن على غير وجه حق: إذ إن البدو وقفوا على الفور إلى جانب الحكومة وخاصة شيخ الرولة سطّام بن شعلان الذي شارك في القتال ضد الدروز وقدم للأتراك الجمال لنقل المستلزمات والمؤن العسكرية من الشيخ مسكين إلى السويداء. فالعنزة، الذين ينتمي إليهم الرولة، يعتبرون الدروز من ألد أعدائهم لأنهم وضعوا حداً لأعمال السلب والنهب التي كانوا يقومون بها ولأنهم، أي الدروز، شملوا بحمايتهم البدو الجبليين في حوران واللجاة والرحبة بحيث أصبحت هذه القبائل الصغيرة تتجرأ على شن غزوات ضد جيرانها من القبائل الأخرى الأكبر جداً والأقوى. هؤلاء البدو الجبليون فقط بقوا أثناء الأحداث الأخيرة أيضاً مخلصين للدروز[2].

---

(1) يعود الفضل في عدم حدوث هذا التعاون إلى حاكم لبنان نعوم باشا وإلى الأمير مصطفى أرسلان.

(2) بلغت الحركة ذروتها في دمشق عندما قام الشيخ إسماعيل الهزل من صلخد، في يوليو/ تموز أثناء الزحف العسكري على حوران، مع حوالي 400 درزي بالاستيلاء، على مقربة من غباغب قرب قرية حبّة على بعد 8 ساعات تقريباً من=

في أول يوليو/ تموز 1896م زحف طاهر باشا على رأس جيش قوامه 30,000 رجل تقريباً من الشيخ مسكين، التي نقلت القوات إليها بواسطة القطار، باتجاه حوران. في اليوم الأول وصلت القوات إلى دارا الواقعة في مكان غير بعيد إلى الشرق من الحراك، وفي اليوم الثاني نصب المعسكر على المرتفع الواقع قرب تل حديد، وفي اليوم الثالث بدأت المعارك. القوات التي نزلت من تل حديد نحو الأسفل ثم صعدت على السفوح الحادة لجبل حوران نحو السويداء، الأمر الذي أثار الدهشة والهلع لدى الحامية الحكومية الموجودة هناك، تعرضت لإطلاق نار متواصل من قبل العدو. فقد كان لدى الدروز، على الرغم من جمع الأسلحة الذي أمر به أدهم باشا، عدد كبير من البنادق الجيدة؛ إذ كانوا قد أضافوا إلى البنادق التي خبأوها بنادق أخرى اشتروها من تجار بيروتيين ودمشقيين، بالإضافة إلى ما كانوا قد استولوا عليه من أسلحة أخرى في معركة عيون المشؤومة. يقدر عدد الدروز الذين اشتركوا في معارك ذلك اليوم بـ6,000 ـ 7,000 رجل ألحقوا بالقوات التركية مئات القتلى والجرحى. لكن طاهر باشا تمكن في نفس اليوم من الاستيلاء على السويداء. وكانت حامية القلعة قد اخترقت الحصار وتوجهت نحو القوات التركية المتقدمة مما جعل الدروز يصبحون بين نارين. بعد هذه الهزيمة غادر الدروز جميع قرى حوران تقريباً. أما النساء والأشخاص غير القادرين على القتال فقد نقل جزء منهم إلى جبل قليب، إحدى أعلى النقاط في السلسلة الجبلية، وجزء آخر إلى الحرة واللجاة ليكونوا في مأمن. وكان محمد نصار مع أكثر من 1000 درزي قد انسحب إلى أصدقائه، الغياث، في جبل الصفا لأنه لم يكن يريد المشاركة في القتال ضد الحكومة.

= دمشق، على قافلة مؤلفة من 500 حيوان محملة بالحبوب متوجهة من سهل حوران إلى دمشق. طلب جزء من سكان دمشق المسلمين من الحكومة تزويدهم بالسلاح، الأمر الذي رفضه نصوحي بك مبرهناً على حكمته. ولكن خلال الليل تجمع كثير من الناس عند أبواب المدينة. فخاف المسيحيون بشكل خاص على أرواحهم وأملاكهم. إلا أن عمر باشا، أكبر أبناء الأمير عبد القادر (الجزائري) الباقين في دمشق، لعب دوراً مشكوراً في تهدئة الخواطر. نتيجة لهذا الحادث أرسل طاهر باشا على الفور كتيبة و150 خيالاً إلى صبة للحراسة.

بعد أسبوع انطلقت الفرقة الأولى من الجيش التركي بقيادة ممدوح باشا، ما مجموعه ثمان كتائب وستة مدافع ميدان، متوجهة إلى جبل قليب بينما بقيت الفرقة الثانية بقيادة آغيب باشا في السويداء. كان طاهر باشا يريد أسر النساء الدرزيات لكي يرغم بهذه الطريقة الرجال على الرضوخ. لكن الدروز الذين كانت كتلتهم الرئيسية قد تجمعت عند قنوات سارعوا أيضاً على الفور إلى تل قليب حيث دارت معركة عنيفة. هذه المرة أيضاً انتصر الأتراك نتيجة تفوقهم العددي الكبير، إلا أن الدروز استطاعوا إنقاذ نسائهم اللواتي نقلت غالبيتهن إلى شهبا والبقية إلى اللجاة حيث وفر لهن الحماية بدو الصلوط الموجودون هناك. الآن توجه طاهر باشا وممدوح باشا إلى قنوات، التي كان الدروز قد غادروها، وأقاما معسكراتهما هناك. في الليلة التالية فاجأ الدروز بقيادة خليل عمرو الأتراك وقتلوا وجرحوا منهم أكثر من 100 رجل. وعند الصباح وجدت داخل المعسكر 40 جثة درزية. في هذه الأثناء كانت الذخيرة الموجودة لدى الجنود الأتراك قد نفذت بالكامل تقريباً لكن عمر بك القائد العسكري المخضرم السابق لمنطقة السويداء تمكن في اليوم التالي من الوصول بكتيبة واحدة فقط إلى السويداء ثم من تزويد القوات في قنوات بكميات جديدة من الذخيرة. بعدئذ تابعت القوات مسيرها إلى شهبا وقبل مسافة نصف ساعة من المدينة توقفت للمبيت في العراء. ومرة أخرى تجرأ الدروز على شن هجوم على المعسكر خلال الليل. وفي اليوم التالي سقطت شهبا في يد الأتراك على الرغم من المقاومة الشجاعة. وشارك في اقتحام المدينة الذي استغرق ثلاث ساعات ثمان كتائب نظامية وأربع كتائب رديفة. بلغت خسائر الدروز مئات الرجال، وانسحب الباقون الآن إلى القسم الداخلي من اللجاة.

قضى الجيش التركي الليل في شهبا، وفي اليوم التالي توجه إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من اللجاة، وشقت الفرقة الأولى طريقاً لها عبر الصخور البركانية المتفتتة في الهضبة البركانية حتى عاهرة. هناك عسكرت القوات على الرغم من أن الماء كان مقطوعاً عنها. ولكن في اليوم التالي قرر ممدوح باشا العودة عن طريق نجران إلى قرانه في الطرف الجنوبي من اللجاة. استراح الجيش أربعة أيام في قرانه؛ وكان الجنود منهكين جداً بسبب الحر ومشقات القتال، رغم ذلك

تقدمت القوات مرة أخرى نحو اللجاة ونقل المعسكر إلى بصر الحريري. وهنا عرض الدروز أخيراً الاستسلام. في هذه الأثناء كانت أخبار المقاومة اليائسة للدروز قد وصلت إلى القسطنطينية وكانت قد تولدت هناك القناعة بأنه من الأفضل إيقاف المعارك. علاوة على ذلك فقد كان إنهاك القوات التركية والخسائر الكبيرة التي منيت بها، وخاصة الفرقة الأولى في المعارك الأخيرة، تؤيد إنهاء الحملة ودياً. طلب طاهر باشا تسليم جميع شيوخ الدروز وإعادة جميع الأسلحة بما فيها المدفعين اللذين تم الاستيلاء عليهما في معركة عيون. فوافق الدروز على جميع الطلبات وبعد ذلك أعطاهم السلطان الأمان، فأمر طاهر باشا بإجراء مسح عسكري لمنطقة الجبل شاركت فيه ثمان كتائب وتم خلاله مصادرة جميع الأسلحة التي يتم العثور عليها. في بادئ الأمر جُمع جميع الشيوخ في السويداء وبعد ذلك أعيدوا إلى قراهم. ثم صدر أمر بإجراء تعداد سكاني عام بهدف تجنيد الدروز في الخدمة العسكرية. وكان محمد نصار أيضاً قد عاد، بعد صدور الأمان السلطاني، من الصفا إلى حوران. إلا أن جزءاً غير قليل من الدروز بقوا، خوفاً من المحاسبة لاحقاً رغم صدور الأمان، في اللجاة أو تحت قيادة خليل عمرو في الرحبة وجبال الصفا الوعرة.

طلب الدروز تشكيل لجنة منهم ومن المسلمين لمناقشة القضايا الخلافية القائمة، فأرسل الباب العالي من القسطنطينية لجنة مؤلفة من المستشار القانوني حقي بك ورئيس القسم الجنائي في المحكمة العليا شوقي بك وموظف في (السراسكريات) اسمه مالك أفندي. وقبل وقت قصير من وصول اللجنة تم استبدال طاهر باشا بالمشير عبد الله باشا الذي كان قبل ذلك بفترة قصيرة في جزيرة كريت. فور وصوله شن عبد الله باشا حملة عسكرية جديدة بقيادة ممدوح باشا ضد الدروز في الجبل واعتقل عدداً كبيراً من شيوخهم الذين تم نفيهم، غالباً برفقة عائلاتهم، إلى الأناضول بصورة رئيسية. نحو 200 رجل من وجهاء الدروز أرسلوا إلى المنفى[1]، من بينهم أيضاً محمد نصار على الرغم من أنه كان قد قدم

---

(1) بهذه المناسبة أرسل إلى المنفى أيضاً الدروز الذين كانوا ما زالوا محتجزين في دمشق من أوقات سابقة.

للحكومة دون شك بعض الخدمة. إضافة إلى ذلك أرسل مئات الدروز كمجندين إلى طرابلس إلا أنهم لم يُسلّموا سلاحاً في بادئ الأمر بل وضعوا فقط في الصف كي يتعودوا على التربية العسكرية والنظام. كانت نتيجة هذا الإجراء أن عدداً كبيراً من العائلات الدرزية هربت مرة أخرى إلى اللجاة والحرة.

بعد وقت قصير جرى تجديد الأمان السلطاني مرة أخرى وغادر عبد الله باشا مع جنوده حوران. على إثر ذلك بدأ الدروز الهاربون يعودون شيئاً فشيئاً إلى أماكن سكناهم القديمة. بقي خليل عمرو في الحرة حتى اندلاع الحرب اليونانية التركية ولم يعد إلا بعد صدور عفو خاص عنه. عُيّن الشركسي جواد بك قائمقاماً على قضاء حوران وتم تخفيض عدد المديريات من ثمان إلى خمس، اثنتان منها فقط يديرهما رجل درزي وهما شهبا برئاسة حامد أطرش وسالي برئاسة سالم أبو أرسلان. ووضعت حاميات عسكرية في أماكن الحاميات السابقة: السويداء، وبصر الحريري، وبراق، والمسميّة[1]، وبصرى اسكي شام. أما ثكنة المزرعة فقد كانت قد دمرت، كما ذكرنا، ولم يُعد بناؤها لأنه لم يكن يوجد لديها ماء وكان الدفاع عنها صعباً. وأما السبئية فقد تم تعيينهم من الأكراد.

منذئذ هدأت الأوضاع في حوران وأيضاً في منطقة الحرمون؛ فقد أدى تصرف عبد الله باشا العنيف ضد الدروز إلى تثبيط عزائمهم كلياً؛ إذ كانوا قد خسروا في المعارك الأخيرة نحو 1000 رجل بالإضافة إلى المنفيين والمسحوبين إلى الخدمة العسكرية. وساء وضعهم الاقتصادي جداً بسبب المعارك الطويلة؛ فقد فقدوا جميع مواشيهم تقريباً نتيجة أعمال السلب والنهب التي قام بها الشراكسة والبدو. إلا أن ما آلمهم بشكل خاص سلبهم قادتهم الدينيين والدنيويين. عندما عدت إلى دمشق في عام 1897م جاءت إليّ عدة وفود درزية من حوران ومن سفوح جبل الحرمون، من راشيّا وحاصبيّا ومجدل شمس. كانت إقامتي السابقة في حوران ما زالت في ذاكرتهم وكانوا يأملون في أنني كمواطن

(1) للأسف الشديد ضاعت البقايا الجميلة لمعبد المسمية بطمرها بالكامل تقريباً تحت الثكنة التي بنيت قبل بضعة أعوام.

ألماني من رعايا صاحب الجلالة القيصر، الذي كانوا يعرفون علاقة الصداقة التي تربطه بالسلطان العثماني، يمكن أن أكون مفيداً لهم وخاصة فيما يتعلق بإعادة شيوخهم أو بعضهم على الأقل. كان منظراً جميلاً ومؤثراً عندما كانت صفوف الرجال ذوي اللّحى البيضاء مع أبنائهم يقفون أمامي بمنتهى الوقار والاحترام لكي يقدموا لي شكاواهم. وخاصة نفي محمد نصار لم يزل الدروز يعتبرونه غريباً وغير عادل.

فيما عدا ذلك يبدو أن دروز حوران بدأوا يتعايشون شيئاً فشيئاً مع الظروف الجديدة. ونظراً للخصوبة غير العادية لمنطقة الجبل يمكن أن يتحسن بسرعة وضعهم الاقتصادي. والسياسة التصالحية التي يتبعها والي دمشق الحالي تجاههم تعطي، كما سمعت مؤخراً في سورية ومن جهات درزية أيضاً، ثمارها. فقد نُقل عبد الله باشا[1] من دمشق وعُيّن بدلاً منه حقي باشا. وتخلت الحكومة موقتاً عن خطة تجنيد الدروز في الخدمة العسكرية النظامية وأجلت ذلك إلى ما بعد تحسن واستقرار الأوضاع في حوران. وأنا أتوقع أن تنفيذ هذه الخطة سيؤدي إلى نشوب اضطرابات جديدة في حوران.

---

(1) عيّن قائداً للجيش السابع في اليمن وكلف بمهمة خاصة وهي قمع الثورة في جنوب شبه الجزيرة العربية.

الفصل الخامس

عبر جبال حوران

(جبل الدروز)

بصر الحريري. - المزرعة - السويداء. - إبراهيم باشا الأطرش. - مأدبة غداء عند الدروز - القنوات - عري - جمرّين - بصرى إسكي شام - صلخد - الشيخ محمد الأطرش - الطرق الرومانية - سالي - مدينة الأموات قرب سالي.

عند بصر الحريري وجدت مخيمي، كما ذكرت منصوباً عند قدم اللجاة المنحدرة هنا بشدة نحو السهل، بينما تقع القرية نفسها، وكذلك الثكنة التركية الموجودة هنا، في اللحف أي على طرف الهضبة البركانية. وعلى مسافة غير بعيدة من المخيم كان يوجد جسر حجري فوق وادي القنوات. الجزء الأصغر فقط من البيوت الحجرية القديمة في بصر الحريري مسكون في الوقت الحاضر، ومعظم السكان من المسلمين والباقي مسيحيون.

يذكر بوركهاردت[1] أن القرية في عام 1810م كان معظم سكانها من الدروز، بينما يؤكد باكينغهام[2] أنه لم يكن فيها عند مجيئه إليها في عام 1816م إلا

(1) جي. ل. بوركهاردت، رحلات في سورية والأراضي المقدسة، لندن 1822م، ص64.

(2) جي. س. بكنغهام، رحلات وسط القبائل العربية المقيمة شرق سورية وفلسطين، لندن 1825م، ص265.

المسلمون، وبالتحديد نحو مائة عائلة. كما أن غراهام[1] لم يجد في بصر الحريري عام 1859م إلا المسلمين الذين استقبلوه استقبالاً سيئاً وإن كان لم يكن بالسوء الذي قوبل به الرحالة بورتر[2] في اذرع الواقعة على بعد ساعات قليلة إلى الغرب. في الوقت الحاضر تسود في بصر الحريري ظروف منظمة تماماً بعد أن أصبحت البلدة مقراً للقائمقام الذي يوجد تحت تصرفه نصف طابور (كتيبة) من المشاة وفصيلة من الخيالة.

في بصر الحريري يوجد مقام الولي «الحريري» الذي سميت باسمه عدة قرى في المنطقة المجاورة. ويقال بأن النبي إليشاع مدفون هناك في جامع موجود إلى الغرب من الثكنة، بالقرب من طرف الهضبة البركانية، يحج إلى قبره في أيام معينة المسيحيون والمسلمون على حد سواء. والجامع هو عبارة عن بناء من زمن قديم مزود ببرجين لكل منهما قمة حديثة البناء ومطلي بالكلس الأبيض بحيث يظهر كعلامة بارزة يشاهدها المرء من مسافة بعيدة في السهل.

هناك العديد من المباني المهدمة التي تعود إلى أيام الغساسنة وتشير إلى أنه كان يوجد هنا في يوم من الأيام تجمع سكاني كبير. ومما أثار اهتمامي بشكل خاص بناء واسع مزيّن بأعمدة وأقواس، يسمى «القصر»، يوجد على جداره الخارجي بالقرب من الباب كتابة كبيرة بالخط الإغريقي وكتابة عربية قصيرة بالخط الكوفي. بداية الكتابة الإغريقية (السطر الأول والحروف الأولى من السطر الثاني)، المؤلفة من 13,5 سطراً، تتطابق مع الأرقام 2472 في «كتابات وادينغتون الإغريقية واللاتينية»[3]. للأسف لم أسجل سوى البداية لأنني اعتقدت أن الكتابة قد درست قبلي من باحثين سابقين. ولكن وبما أنني لم أجدها حتى

---

(1) انظر مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، الجزء 28، ص260.

(2) جي. ل. بورتر، خمس سنوات في دمشق، لندن 1855م، الجزء الثاني، ص216 و230.

(3) ف. هـ. وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، باريس 1870م. الكتابات ص562، النص، ص566. إلا أن الكتابة التي نسخها وادينغتون لم يعثر عليها في القصر وإنما في «الكنيسة الصغيرة».

الآن في أي مكان أعرض هنا السطور التي سجلتها:

ZHCHOΔEΔOCOΛIΔACKΛOC
Z TYИBOCYΠOYOΛIωNHAK
APωИO ΔETωЄNIKЄTAYCY
KΛHTOY ИONO MA

أما الكتابة العربية فقراءتها صعبة، ويبدو أن العلامات تنص على ما يلي:

أمر بهذا المسجد الملك العالم

وتحتها يوجد عدد من الأسطر بخط ناعم جداً.

ومن نقطة مرتفعة قليلاً يشاهد المرء أمامه منظراً مؤثراً إلى أقصى الحدود. إلى الجنوب تقع المدينة الداكنة مع بيوتها المبنية من الحجارة البركانية والنارية وبطريقة مؤقتة بحيث إن جزءاً منها لم يزل مهدماً، وهي لا ترتفع عن الأرض إلا قليلاً؛ وفي جميع الجهات الأخرى تمتد إلى مسافة بعيدة اللجاة مع كتلها البركانية المتصلبة التي تبرز بينها هنا وهناك، كالنقاط الصفراء، بعض المساحات الخالية من الحجارة والتي تستخدم بعد موسم المطر لزراعة الشعير والذرة.

في اليوم التالي بدأنا مسيرنا إلى السويداء حيث قادتنا الطريق في الاتجاه الجنوبي الشرقي. إلى شمالنا أصبحت اللجاة والمدينة الأثرية القديمة نجران[1]؛ وإلى يسارنا كانت البقايا المتداعية لمدينتي قراصة وسجن وإلى يميننا لمدينتي دور وإصلحة ـ مدن رومانسية مقفرة تبدو كأعشاش النسور على قمم الجبال الصخرية. ولم أستطع التأكد مما إذا كانت هذه القرى مجرد مواقع أثرية قديمة أم إنها أصبحت مسكونة اليوم من جديد.

في المزرعة وجدنا ثكنة عسكرية تركية واقعة على تل معزول بنيت بحجارة مأخوذة من أنقاض حصن قديم ورد ذكره عند بوركهاردت[2] ومن أنقاض قرية

---

(1) قد يكون الاسم للتذكير بمدينة نجران قبل الإسلام وبقبيلة نجران في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية.

(2) بوركهاردت، نفس المرجع السابق، ص65.

تعود إلى المرحلة السبئية المزدهرة في حوران. وإلى يسار الطريق كان يوجد بناء واسع على شكل مربع؛ وكان له، مثل غالبية الثكنات التركية، باب واحد متين ويحيط بباحة كبيرة في داخله، بينما كان لم يزل يوجد على اليمين الأساسات الظاهرة لبيوت قديمة منفردة وإلى جانبها حدائق صغيرة. ويقال بأنه كان يوجد هنا في الماضي نبع جيد قام بردمه، حسب الحكايات الشعبية تيمورلنك. وكما ذكرنا أعلاه تم هدم الثكنة بعد الاضطرابات الأخيرة في حوران.

بعد المزرعة توجهنا في بادئ الأمر نحو الأسفل؛ وبعدما تجاوزنا من على يسارنا قرية ريمة ومن على يميننا قرية ولغة عاد الطريق إلى الصعود من جديد؛ على درب ضيقة تزداد وعورة وخشونة كلما تقدمنا نحو الأمام، تشبه مجرى مائياً صغيراً جافاً، صعدنا إلى جبل حوران الحقيقي. وإلى يسار الطريق كان يرتفع، في موقع شاعري على سفح الجبل، برج قوي مربع الشكل تابع لمدينة السويداء.

سرنا فترة من الزمن بين أسوار منخفضة تحيط بأماكن لجمع الحبوب ثم التففنا حول بناء واقع إلى يمين الطريق مربع الشكل يبدو منيعاً كالطود ومحاط بأعمدة دورية (إغريقية قديمة) يسمى دبيسة بناه رجل اسمه أوديناتوس[1] (أذينة) هدية لزوجته. يحمل النصب على قاعدته بعض الوضعيات الصخرية التي تشير إلى بناء هرمي فوقها كذلك الذي نجده في الأبراج القبرية الأخرى في سورية، والبتراء، والخ... مررنا بعد ذلك قرب بركة كبيرة، وهي حوض كبير محفور في الأرض لتخزين الماء، تهدمت جدرانها إلى حد ما وأصبحت أقرب إلى البركة المستنقعية، وبعد ذلك وصلنا إلى الأسوار الضخمة للمدينة القديمة السويداء. استغرقت الطريق من بصر الحريري حتى هنا، بما في ذلك التوقف في المزرعة، نحو أربع ساعات ونصف.

حسب أبو الفداء قام ببناء قلعة السويداء الملك الغساني النعمان بن عمرو

---

(1) انظر فوغويه، سورية المركزية، هندسة العمارة، ص29، اللوحة الأولى؛ فوغويه، كتابات سامية، ص89 وما بعدها. اسم أوديناتوس متكرر كثيراً في الأسرة الحاكمة في تدمر. كما أن زوج زنوبيا، آخر ملكة تدمرية، كان اسمه أوديناتوس (أذينة).

ابن المنذر[1]، لكن المدينة يجب أن تكون أقدم من ذلك. فهناك كتابة لاتينية من عام 103م تفيد بأن نرفا تراجانوس سيزار، ابن جرمانيكوس داسيكوس، قد بنى هنا قناة مائية ومباني أخرى[2]. ففي عهده، أي قبل بداية عهد بوسترنزيس (105م) وقبل ضم حوران بصورة مباشرة إلى الأمبراطورية الرومانية، يفترض أن السويداء كانت مدينة غنية بالسكان. بين الآثار الباقية[3] حتى اليوم تلفت الانتباه بشكل خاص أنقاض كنيسة كبيرة.

في بيت خاص في المدينة أطلعوني على نقش نافر في غاية الجمال يمثل الرأس الملتحي لرجل مكوّن بكامله من أوراق عنب متداخلة. وقيل لي إنهم عثروا على الرأس في مكان قريب من قنوات ـ حسب المعلومات التي ذكروها لي لا يمكن أن يكون إلا سبع. وقد قام مؤخراً كليرمون ـ غانّو بوصف نقش نافر بازلتي، عبارة عن كتلة صخرية طولها متران وعرضها 80 سنتيمتراً، يعتقد بأنه كان عتبة علوية لباب. يظهر في النقش، الذي ينتمي إلى عصر سقوط الفن الإغريقي ـ الروماني، مقطع من صراع العملاق ضد الإله زيوس يفسره الباحث الفرنسي بأنه عرض للعملية التي يوقف فيها زيوس الشمس طالما يحارب هرقل ضد قوى الظلام. وحسب كليرمون ـ غامّو تعبر هيئة هرقل عن التأليه الميثولوجي للقيصر ماكسيميانوس (256م) الذي حصل على لقب «هرقل». وهناك رسومات بابلية وآشورية تعبر عن نفس الفكرة وهي: الصراع بين الضوء والظلمة؛ كما أن اللوحات التي تعرض القديس جرجس في صراعه مع التنين يعيدها كثيرون إلى الفكرة نفسها.

---

(1) أبو الفداء، تاريخ العرب قبل الإسلام، نقلاً عن هـ. و. فلايشر، لايبزيغ 1831م، ص120.

(2) انظر ريترّ، نفس المصدر السابق، الجزء15، ص928.

(3) انظر بوركهاردت، نفس المصدر السابق، ص79 وما بعدها؛ غراهام، مجلة الجمعية الجغرافية، الجزء 24، ص258؛ بورتر، خمس سنوات في دمشق، لندن، الجزء الثاني، ص120 وما بعدها، ثم الطبعة الثانية (1870م)، ص219 وما بعدها؛ راي، رحلة في حوران (1857 و1858م)، ص144، 157 وما بعدها؛ زيتسن، ص76 وما بعدها؛فوغويه، هندسة العمارة، ص39، 60، الخ...؛ فوغويه، كتابات سامية، ص29، 92؛ وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، كتابات رقم 2303 ـ 2328؛ سوسان، نفس المرجع السابق، ص312.

تتألف السويداء الحالية من حقل واسع جداً من الأنقاض؛ يخترقها شارع طويل ومستقيم إلى حد ما ينتهي ببوابة تشبه قوس النصر. والمدينة مبنية على شكل مصاطب على هضبة وعلى سفح جبل حوران؛ في الجزء الجنوبي الغربي المنخفض، على الطريق إلى عري، يوجد حي بيوته جديدة ومحاطة بحدائق صغيرة، بينما تتألف البيوت، فيما عدا ذلك من المباني المتبقية من الأزمنة القديمة بعد إصلاحها واستكمالها.

أصبحت السويداء بسبب موقعها المتميز مركزاً لمنطقة حوران واختارها الأتراك لتكون مقراً للحكومة المركزية لقضاء حوران. ومنذ أيام بورتر كان يقيم هنا أقوى شيوخ الدروز في منطقة حوران، وكان آنذاك (1853م) من عائلة حمدان. ويعيش فيها أكبر تجمع للدروز في جنوب حوران، في أيامي كان يوجد هنا عدة مئات من العائلات الدرزية بينهم بعض المسيحيين. لا بل إننا رأينا في وسط المدينة في باحة أحد البيوت أفندياً يرتدي ثياباً أوروبية، طبيباً عسكرياً مسيحياً ولديه عيادة خاصة.

كان بيت قائمقام جبل الدروز المقيم في السويداء، إبراهيم باشا الأطرش، واقعاً في ساحة مكشوفة في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة. وإلى القرب منه كانت لم تزل تنتصب بعض الأعمدة المزينة بالتيجان والمتبقية من معبد وثني قديم بُنيت بمواده القديمة صالة استقبال مفتوحة على الساحة المكشوفة، يطلق عليها اسم منزول. على درج حجري مكشوف يصعد المرء إلى الصالة التي يحمل سقفها القوسي عدد من الأعمدة. مثل هذه الصالات، التي يجدها المرء في جميع القرى الدرزية الكبيرة إلى حد ما في حوران، غالباً في المجمع السكني الخاص بالشيخ أو على مقربة منه، تستخدم لمبيت الضيوف ولإقامة الاستقبالات والحفلات العامة وغير ذلك من المناسبات.

نصبنا مخيمنا إلى جانب بيت القائمقام بعد أن دخلنا إلى المدينة عند البركة المذكورة أعلاه وشبه المهدمة ومررنا في عدة أزقة ضيقة وغالباً غير مسكونة. وعلى بعد عدة دقائق فوق مخيمنا كانت توجد بركة ماء أخرى حالتها أفضل جداً من السابقة تسمى «بركة الحج»، وهو اسم يشير إلى أن الحجاج المتوجهين إلى

مكة ظلوا فترة من الزمن يمرون من هنا أو إن حجاج حوران كانوا يتجمعون هنا. وكانت هناك بركة ثالثة ضخمة تقع في وسط المدينة ولها درج حجري ضيق يؤدي نحو الأسفل إلى موقع الماء وكانت تتحرك عليه على الدوام نساء يرتدين ثياباً ملونة ويحملن جراراً فخارية على رؤوسهن أو أكتافهن. وإلى جانب البركة كان يوجد في باحة مجمعٍ من المباني مهدّمٍ ومرممٍ جزئياً قبل زمن غير بعيد ومزود بحامية صغيرة، مذبح وثني مزيّن برؤوس.

كانت الثكنة، وهي مبنى جديد فخم وضخم، تقع على بعد عشر دقائق تقريباً فوق وشرقي المدينة. عند وصولي إلى هناك كان يوجد كتيبتان في السويداء. وكان القائد العسكري التركي تحت إمرة إبراهيم الأطرش الذي كان بدوره تابعاً لرئيس منطقة حوران بأسرها المتصرف الموجود في الشيخ سعد، وكان يوجد تحت إمرته سبعة مدراء.

كانوا آنذاك جميعهم دروزاً وكان بعضهم من أبناء عائلته. وكان المدراء السبعة من الدروز أيضاً. وكانت الحامية لا تغادر المدينة إلا للنزول إلى السهل، لكنها لم تكن تذهب إلى مسافة أبعد من الجبل. أما التدريبات والتمارين العسكرية فكانت تجري في ساحة الثكنة الواسعة أو في الساحة الواقعة أمامها.

عند وصولنا إلى السويداء استقبلنا أبناء إبراهيم باشا الأطرش الذين قدموا لنا واجبات الضيافة بمنتهى المودة واللطف. كان أحدهم ضابطاً في الجيش التركي وكان قد حصل لتوه على إجازة من حاميته في دمشق. أما الباشا نفسه فكان مريضاً. صحيح أن الإشاعات عن موته، التي كنا قد سمعناها في الشيخ مسكين، لم تكن صحيحة، لكن الجرح الذي أصيب به نتيجة طلقة أصابته خلال معركة قصيرة مع أنصار أخيه شبلي، أجبره على البقاء في غرفته. ومن الممكن أن تكون وفاته بعد وقت قصير قد حدثت بسبب هذا الجرح[1]. خلال إقامتنا في السويداء والتي دامت بضعة أيام لم نره إلا مرتين. فقد استقبلنا في غرفته الواسعة الواقعة في الطابق الثاني والتي يؤدي إليها، كما في جميع البيوت الكبيرة في حوران، درج حجري مكشوف وكبير يصعد من فناء الدار إلى الأعلى. كانت الغرفة مغطاة

---

(1) انظر الفصل الرابع أعلاه، ص193.

بسقف حجري مسطح ومقسومة بواسطة أقواس ضخمة جداً إلى حجرتين. وكانت الأرض مغطاة بسجاجيد جميلة وببسط من الوبر مصنوعة في السويداء نفسها. في الجهة الغربية من الغرفة كان يوجد ديوان من الخشب الملون يمتد على طول الحائط تحت عدة نوافذ كبيرة. كان إبراهيم مستلقياً على فراشه في وسط الصالة. وعند دخولنا لم يستطع النهوض إلا بجهد كبير. وكانت القاعة بكاملها مليئة برجال شعثاء الشكل، ولكن في هيئة محترمة ملتحين ومرتدين عمائم بيضاء، نهضوا جميعاً مع الباشا صامتين ثم قرفصوا ثانية على الأرض في صفوف طويلة. أما أنا وسكرتيري العربي نجيب فقد دعينا للجلوس على الديوان. وفي الحديث تبادلنا أقصى عبارات المجاملة والأدب، الأمر الذي يحبه الدروز ويتميزون به. وقد ضمنت لي الرسالة الرسمية التي أحملها من المتصرف، ولكن أكثر منها الرسالة التي حصلت عليها في بيروت من الأمير مصطفى أرسلان، ضمنتا لي استقبالاً ممتازاً. ففي وقت لاحق أرسل السلطان رجاله معنا إلى القنوات ثم رافقونا عندما غادرنا السويداء عبر حوران كلها إلى صلخد وسالي.

بالفعل كان كرم الضيافة الذي لقيته من الدروز أثناء إقامتي في حوران صادقاً وحاراً وكبيراً إلى أبعد الحدود. ففي اليوم الأول من وصولي أقيمت لي مأدبة طعام شارك فيها وجهاء البلدة في قاعة الرجال الواقعة على مستوى الأرض في بيت الأطرش الحقيقي بينما جلس بقية المشاركين في المأدبة في قاعة الاستقبال الواقعة بشكل مائل مقابلها. كانت المدنية قد حققت في السويداء تقدماً واضحاً. فالطشت الذي يوضع فيه الطعام لم يكن موضوعاً هنا على الأرض العارية، كما هو الحال عادة عند الدروز والبدو، وإنما على كرسي صغير وضعت عليه صفيحة نحاسية ضخمة. وكانت القاعدة الخشبية بدورها موضوعة على حصير ملون جميل. كان الطشت وعاء مستديراً قطره نصف متر تقريباً ويحتوي على الرز وقطع كبيرة من لحم الضان. وقد أضيف إلى الرز بحضورنا كميات كبيرة من دهن الغنم السائل. وحول الطشت الموضوع في الوسط كان هناك صحون صغيرة تحتوي على المقبلات: الدبس المصنوع من عصير الزبيب المطبوخ مع العسل، والحلاوة، واللبن المصنوع من حليب الماعز، والجبن المضاف إليه كثير من

التوابل، ونوع من الكعك القاسي، طول القطعة حوالي 20 سنتيمتراً ثخينة في الوسط وتصبح أرفع كلما اتجهت نحو طرفيها، مصنوع من الخبز والحليب واللوز واللحم وجميع العناصر الممكنة الأخرى. هذا الكعك هو الأكلة المفضلة لدى الأطفال الذين رأيتهم في أحيان كثيرة يغادرون المائدة وفي يدهم قطعة منه. وعلى الحصير كانت كومات الخبز التي تحتوي على الخبز المستعمل عادة في المدن وهو أرغفة دائرية الشكل قطرها 20 ـ 30 سنتيمتراً وسماكتها 1 ـ 2 سنتيمتراً، وعلى الأرغفة الرقيقة جداً والتي يصل قطرها إلى نصف متر وتطوى إلى بعضها البعض وهي مغذية ولذيذة. حول المائدة كان يجلس على الأرض 10 ـ 15 شخصاً يتناولون الرز بأيديهم ـ لم يكن يوجد ملاعق للمطبخ الدرزي ـ ثم يقذفونه عدة مرات نحو الأعلى حتى يتخذ شكلاً بيضوياً بحجم الكبة تقريباً التي يلقون بها بعد ذلك في فمهم[1]. ما يبقى بعد هذه الحركات الرشيقة يلقى به في الطشت المشترك. وإذا ما كانت قطع اللحم غير صغيرة بما فيه الكفاية تُشقف بيد شخص أو عدة أشخاص وتوضع بين حين وآخر قطع منها أمام الضيف أيضاً. أما الدبس واللبن فيؤكلان بقطع الخبز التي تُلفّ على شكل ملعقة، وأحياناً يشربان من الطاسة المشتركة مباشرة. إضافة إلى ذلك كان يقدم الماء عند الطلب في جراب من الجلد أو في إبريق من الفخار[2]. وكانت مثيرة للدهشة السرعة التي تناول بها رفاقي في المائدة طعامهم. وكلما انتهى واحد من طعامه كان يخلي مكانه فوراً لضيف آخر حتى وصل عدد الذين أكلوا من طشت واحد إلى 70 شخصاً تقريباً. أما أنا فكنت أعايش دفعتين أو ثلاث حتى أكمل طعامي لأنني لم أكن أستطيع مجاراتهم في سرعتهم، الأمر الذي كان ينال الرضى عند مضيفي.

---

(1) يأكل الدروز كالعرب باليد اليمنى فقط، أما اليد اليسرى فتعتبر نجسة. وهناك عادة منتشرة في أوساط جميع الطبقات حتى الدنيا منها تقضي بغسل اليدين قبل الطعام وبعده وبتنظيف الفم. البدو وحدهم لا يتقيدون بهذه العادة بسبب شح الماء عندهم. أما الطريقة المحبوبة في المغرب وهي التجشؤ مراراً بعد الأكل تعبيراً للمضيف بأن الطعام كان شهياً فهي غير مألوفة في سورية وبلاد الرافدين.

(2) الماء هو المشروب المألوف في جميع الوجبات العادية لكنه لا يقدم للآكل إلا عند الطلب.

ولّد لديَّ الدروز آنذاك انطباعاً بأنهم فلاحون مرتاحون وراضون عن حياتهم. العمل الزراعي في جبل حوران ليس سهلاً بأي حال ولكن مردوده جيد إلى حد كبير. كثيراً ما رأيت أن المحراث، من أجل حراثة بقعة صغيرة من الأرض، يدار حول مساحة صخرية أو يُحمل إلى الأعلى في السفح. والسطح الخارجي للأراضي الجبلية تظهر فيه كثير من الصخور الواقفة ويحتوي على تربة من الحمم البركانية المتفتتة ذات الخصوبة العالية بشكل غير مألوف، لكنها في كثير من الأحيان تجبر العامل الزراعي على جمع الصخور البركانية، غير المتحولة إلى تربة زراعية، واحداً واحداً. تستخدم هذه الحجارة عادة لبناء جدران تحيط بالحقول من جهة وتشكل أسواراً دفاعية للقرى ضد الاعتداءات الخارجية من جهة أخرى، تماماً كما هو الحال في أسوار البساتين الدمشقية التي تشكل من الناحية الاستراتيجية حماية لا يستهان بها. تصلح التربة الزراعية الداكنة في جبل حوران لزراعة جميع أنواع الحبوب ولأشجار الزيتون واللوز. ومن الواضح أن زراعة الكرمة كانت في السابق منتشرة في حوران على نطاق واسع، ويدل على ذلك استعمال العنب وأوراق الدالية في الزخارف السبئية ذات الصلة بإله الخمر العربي القديم دوسارا (دوسر) المقابل لديونيزس إله الخمر عند الرومان (باخوس عند الإغريق). أما اليوم فلم تعد الكرمة تزرع في جبل الدروز إلا في بعض المناطق القليلة ومنها صلخد. إلا أنني شاهدت في بصرى بعض شجيرات القطن، ولكن فقط في الحدائق المنزلية أو في الأوعية، ولم يعد السكان يتذكرون مصدرها. لا يوجد سوى قليل من الخيول والجمال والبقر في جبل حوران، ولكن بالمقابل هناك أعداد كبيرة من الماشية وخاصة الماعز.

قمت انطلاقاً من السويداء برحلة قصيرة إلى القنوات[1] الواقعة إلى الشمال

(1) انظر بوركهاردت، ص83 ـ 87؛ غراهام، ص258؛ داي، ص128 وما بعدها؛ زيتسن، ص78 وما بعدها؛ فوغويه، هندسة العمارة، الجزء الأول، ص59؛ وادينغتون، كتابات، ص533 حتى 539؛ بورتر، خمس سنوات في دمشق، الجزء الثاني، ص110 وما يليها. ثم شروحات ومصادر البروفسور غوته، والدكتور شتوبل، رحلة إلى ديرة التلول وحوران 1882م، مجلة جمعية فلسطين الألمانية، الجزء 12، لايبزيغ 1889م.

في الجبل، وهي من أقدم قرى حوران وكثيراً ما تعتبر هي نفسها قرية قناة المذكورة في الإنجيل. مرت الطريق قرب تجمعات صغيرة غير كثيفة من أشجار البلوط وكانت بين حين وآخر توفر إطلالة رائعة على سهل حوران مع ما يتخلله من تلال وآثار مدنية بارزة وعلى أراضي اللجاة السوداء الموحشة، بينما تشمخ في الغرب البعيد، خلف النقرة، الجبال الفلسطينية الشمالية وجبل حرمون المهيب المغطى بالثلج. وقبل دخولنا إلى المدينة مررنا قرب بقايا معبد قديم من العصر الوثني، ما يسمى المعبد البريبتالي، لم يزل باق منه سبعة أعمدة مزينة بتيجان في غاية الروعة والأبهة.

يقطع القنوات عدة شوارع عريضة لم تزل في بعض المواقع مرصوفة بالحجارة القديمة. جزء صغير فقط من المدينة، التي كانت في يوم من الأيام بالغة الأهمية، مسكون الآن. شوارع بكاملها مقفرة وإن كانت بيوتها من الخارج لا تظهر عليها آثار العمر الطويل الذي يزيد على ألفي عام. ولكن عندما يجتاز المرء العتبة يشاهد الدمار المخيف الذي سببته هنا أيضاً الهزات الأرضية المتكررة. وهناك طريق ضيق على سفح وادي القنوات يؤدي نحو الأعلى إلى القلعة المحصنة الواقعة في جنوب شرق المدينة والتي تحتوي على آثار في غاية الغرابة والروعة. فلم يزل باقياً هنا بوابات قوسية مزينة بأجمل الزخارف وأعمدة وجدران كاملة من معابد وقصور، بالإضافة إلى بقايا قوس نصر وبعض خزانات الماء المحفورة تحت الأرض. وفي الجزء الغربي من المدينة يشاهد المرء آثار كنيسة مسيحية. وعلى الضفة اليمنى من وادي القنوات، غير بعيد عن الساقية، يقع المسرح المكشوف الذي يرى الزوار من على مقاعده الصخرية الباقية حتى اليوم إطلالة رائعة على المدينة. أما اليوم فإن هذا المكان الذي كان في الماضي مركزاً للآلهة محاط بأدغال متوحشة عمرها مئات السنين تحتفظ بفضل الماء الجاري بخضرة يانعة في الصيف تمتد على جانبي الجدول نحو الأعلى حتى بقايا إلهة ينبوع قديمة، ولا يوجد فيها من المواقع المستثمرة زراعياً أو لأغراض أخرى سوى بعض النقاط المتفرقة هنا وهناك. يعيش سكان القنوات الحاليون، وجميعهم من الدروز، في المباني القديمة في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة،

وعند وجودي هناك لم يكن يزيد عددهم على 30 إلى 40 عائلة.

كان شيخ القنوات، الذي استرحنا في منزوله الرطيب المحمول على أعمدة، أحد أبناء إبراهيم الأطرش، وكان أكبر الرجال جثة وأشدهم خشونة في أسلوب التعامل. وكان يعيش في القنوات أيضاً الشيخ حسن الهجري الذي وُصف لي بأنه أعلى رجال الدين الدروز مرتبة في حوران والذي كان متصرف الشيخ سعد قد أعطاني رسالة له. لكنني لم أقم بزيارته لأن الأطرش الشاب لم يكن كما بدا لي على علاقة طيبة معه. وفي أيام غراهام أيضاً، في أواخر الخمسينات، كان يسكن في القنوات «إمام الدروز الكبير» وأعلم رجل في البلاد.

يوم مغادرتي السويداء أقمت لأبناء الأطرش وجماعته في مخيمي مأدبة عشاء حضرها أيضاً القائد العسكري في السويداء البمباشي عمر بك ومرافقه الخاص؛ وأصر البمباشي عمر على دعوتي إلى الفطور في مسكنه الرسمي في الثكنة حيث أكلنا على الطريقة الفرنجية بالشوكة والسكين ولكن من طشت مشترك دون صحون ومع العديد من الضباط. وكانت الثكنة التي لها باب واحد يوجد أمامه حديقة صغيرة، وكذلك العسكر الموجودون فيها، تبدو في وضع جيد جداً. وكان عمر بك قد أدى للقوات التركية خدمات كبيرة خلال الاضطرابات الأخيرة في حوران بفضل معرفته الجيدة للمنطقة[1].

في 4 يوليو/ تموز غادرنا السويداء وتابعنا سيرنا في خط مستقيم تقريباً نحو الجنوب الغربي. اتجهنا إلى الأسفل نحو السهل في طريق كانت في البداية شديدة الانحدار ثم اعتدلت شيئاً فشيئاً. في البدء سارت الطريق بموازاة طريق روماني قديم؛ وفي وقت لاحق استعملنا الطريق الروماني نفسه. بعد نصف ساعة وراء البلدة شاهدنا طاحونة ماء كبيرة تعود لإبراهيم باشا الأطرش ثم مررنا بعد ذلك قرب قرية المجيدل الواقعة إلى اليمين وعبرنا الساقيتين الجافتين كوم الحصى ووادي ثالث حتى وصلنا بعد مسيرة ساعتين إلى القرية الشاعرية الواقعة على ظهر هضبة صغيرة عري[2]. وقبل ذلك بمسافة قصيرة كانت توجد على يمين الطريق

---

(1) انظر الفصل الرابع أعلاه من هذا الكتاب، ص202.

(2) انظر بوركهاردت، نفس المصدر السابق، ص225.

بناية كبيرة متداعية هي قشلة درارق التي قيل لنا بأنها ثكنة مهجورة. في عري كان يسكن في بناء بارز إلى مسافة بعيدة شبلي الأطرش، أخو إبراهيم الأطرش، الذي تكرر ذكره سابقاً. ولقد منعني من زيارته مرافقيّ من رجال إبراهيم الذين زعموا أنهم سعيدون من أن شبلي لم يهاجمنا. وعند متابعتنا السير تركنا على يسارنا أنقاض قرية المجيمر ثم أنقاض قرية أخرى قيل لي إنها دير زبير[1]. خلف قرية الخرابة، التي قيل إن جميع سكانها من المسيحيين، خرج الطريق من جبل حوران وبالتالي من منطقة الدروز. وبعد بصرى عدنا مرة أخرى إلى المناطق الجبلية.

بعد ساعتين تقريباً من السير السريع، اعتباراً من عري، وصلنا إلى المدينة الأثرية جمرين[2] الواقعة في السهل على ضفة جدول كان جافاً عند حضورنا لكنه في الشتاء يكون قوياً إلى حد ما ويوجد عليه على امتداد الطريق الرومانية جسر مؤلف من عدة أقواس. وعلى مسافة غير بعيدة عن الجسر يوجد على الجهة المواجهة للمدينة برج قوي رباعي الأضلاع مهدم تبدأ بالقرب منه آثار المدينة المحافظة على نفسها بشكل جيد. وتحت هذه الأنقاض يلفت الانتباه بشكل خاص مجمع من المباني يحتوي على العديد من الباحات والأجنحة. وفي أحد الأجنحة وجدنا في الطابق الأرضي والطابق الأول عدة غرف واقعة إلى جانب بعضها البعض لها سقوف قببية مزينة بأجمل الزينة وفي حالة جيدة جداً وكأنها قد هجرت للتو. يعود هذا البيت لمنصور القاسم الذي يعيش أفراد عائلته هنا مع قطعانهم الصغيرة إلى جانب عدد قليل من العائلات الإسلامية الأخرى في هذه المدينة غير الكبيرة التي كانت في يوم من الأيام مدينة غنية وفخمة. تتألف واجهة البيت من حجارة مربعة الشكل مقصوصة بمنتهى العناية، ونهايات جدرانها مزينة بأشكال متدرجة وجملونية. ومن فتحات النوافذ يلاحظ المرء من الخارج وجود عدة طوابق. يوجد في جمرين العديد من الكتابات الإغريقية؛ فعلى باب بيت

---

(1) انظر بورتر، نفس المصدر السابق، الجزء الثاني، ص140.

(2) بوركهاردت يسميها «شمرّين» (نفس المصدر السابق، ص105)، ويسميها راي (نفس المصدر السابق، ص176) «جرمرّين»، ويسميها زيتسن (نفس المصدر السابق، ص65) «شموزّين»، وكلها تسميات خاطئة.

منصور القاسم مكتوب بوضوح كامل الاسم OHAIKOC. وعلى حجر قرب الجسر رأيت كتابة عربية كبيرة بالخط الكوفي. كان الحجر ملقياً على الأرض بالقرب من البرج المذكور سابقاً وهو مأخوذ، حسب أقوال السكان، من الجسر الذي كما يبدو للعيان قد تم تجديده في العصر العربي.

بعد مسير قصير وصلنا إلى بصرى إسكي شام (أي دمشق القديمة)، وهي دون أدنى شك أعظم مدينة أثرية في منطقة حوران. فمع أبراجها ومآذنها والبرج الضخم الذي يشهق عالياً فوق حقل الأنقاض جميعها تعطي المدينة انطباعاً في غاية العظمة والروعة؛ لكن منظر الدمار الرهيب الذي يراه الزائر كيفما توجه لا يقل تأثيراً ورهبة. فإلى جانب الدمار الذي خلفته الزلازل يلاحظ المرء أيضاً آثار الحروب الكثيرة التي شهدتها بصرى، الأمر الذي يبدو طبيعياً تماماً بسبب موقع المدينة عند أسفل الجبل وعلى بوابة الصحراء. يعيش في بصرى اليوم في الجزء الشرقي عدة مئات من الناس؛ وكان بوركهاردت قد وجد هناك أقل من 40 أسرة. يتألف السكان، إلى جانب عدد قليل من المسيحيين، من بدو أصبحوا مستقرين ومن فلاحين يعملون في الزراعة لكنهم ما زالوا متمسكين بعادتهم القبلية القديمة وهي أنهم يذهبون إلى الحقل على ظهر الحصان ومسلحين بالرمح. وفي لباسهم أيضاً يشبهون أبناء عمهم الذين ما زالوا يرحلون، وكانت علاقتهم مع الدروز سيئة.

دخلنا إلى المدينة من الجهة الشمالية الشرقية، وبعدما تجاوزنا المقبرة الممتدة على مسافة طويلة والتي تسطع منها القبة البيضاء لجامع المبرك، عبرنا حقل الأنقاض بكامله وقمنا بزيارة الشيخ ثم وجدنا أخيراً في الجنوب الشرقي من المدينة قرب نبع ماء جيد قافلتنا التي كانت في صدد نصب مخيم للقضاء هنا بضعة أيام.

تنقسم بصرى إلى قسمين: القسم الشرقي ويحتوي على الآثار الهامة، وهنا يعيش، كما ذكرنا أعلاه، السكان القلائل الذين بنوا بيوتهم في أنقاض المباني القديمة. أما القسم الغربي فلا يوجد فيه سوى القليل من المباني الأثرية الهامة؛

ربما كان هناك في الماضي المعسكر الروماني القديم. وهناك طريق لم يزل ظاهر بشكل واضح يقطع هذا القسم بكامل امتداده يتجه نحو غرب الشمال الغربي ويؤدي إلى «باب الهواء» أو «باب الغربي»، وهو صرح معماري جبار لم تزل أقواسه الدائرية المبنية فوق بعضها البعض محافظة على وضعها بشكل جيد حتى اليوم. من هذا الباب ينطلق طريق مرصوف قديم جداً وبخط مستقيم إلى درعاة التي ورد ذكرها في العهد القديم تحت اسم إدرعي. وفي القسم الشرقي أيضاً يوجد بعض الشوارع القديمة التي تثبت آثارها التنظيم العالي المستوى للمخطط العمراني الأصلي. الشوارع صعبة المسلك، وإن كان السطح المرصوف القديم يظهر بين حين وآخر هنا وهناك، لكن الأنقاض طمرت الطريق عموماً وتراكمت فوقه في بعض المواقع عدة أمتار. وبصعوبة يتابع المرء الدرب الضيقة التي شقتها الأجيال اللاحقة فوق ركام الأنقاض.

في الحي الغربي من المدينة يوجد حوض مائي كبير لكنه جاف الآن كان يستعمل في العصور القديمة للتدرب على المعارك البحرية (الافتراضية). وفي مكان غير بعيد من هنا إلى الشمال يقع النبع الذي نصبنا مخيمنا جنبه. من الآثار الموجودة في الحي الشرقي من المدينة تجدر الإشارة بشكل خاص إلى جامعين: جامع عمر بن الخطاب (بناه الخليفة الثاني عمر 634 ـ 644م)، وجامع دير المسلم. كلا الجامعين لهما مئذنة رباعية الأضلاع وهذا دليل على أنهما يعودان إلى أقدم العصور الإسلامية[1]. من الجامع الأول لم يزل يوجد عدة صفوف من الأعمدة وجذوع الأعمدة التي كانت في يوم من الأيام تحمل السقف، والآن تحمل قاعات مهدمة. يتألف بعض الأعمدة من قطعة واحدة وبعضها الآخر من عدة قطع منحوتة من المرمر الأخضر والدوليريت ومزينة بتيجان من الرخام الأبيض منحوتة بالأسلوب الإغريقي القديم الكورينتي والإيوني. ولا شك في أن أجزاء المبنى مأخوذة من مبان أقدم؛ وتشير الزخارف ذات الصلبان إلى أنها كانت

---

(1) المآذن الحديثة في تركيا الآسيوية ومصر دائرية الشكل أو ثمانية الأضلاع، بينما هي في المغرب رباعية الأضلاع مما يدل على أن الإسلام في أقصى الغرب ظل محافظاً على أقدم صيغة له.

في الماضي موجودة في كنائس مسيحية. ومما يلفت الانتباه بشكل خاص بقايا إفريز حول أحد الحيطان مزخرف بكتابة بالخط الكوفي في الجبس. وعلى الجدار الخارجي للجامع، عند المدخل الرئيسي، مقابل بقايا غرفة أمامية، توجد عدة كتابات ذكر في إحداها الاسم عبد الرحمن المصري. وعلى الجانب الآخر من الشارع ترتفع أربعة أعمدة فخمة بالطراز الكورنثي. وإلى الغرب من جامع عمر توجد بناية كبيرة تفيد إحدى الكتابات المنقوشة عليها بأنها تعود للعصر الروماني وكانت دون أدنى شك حمّاماً فخماً.

أما جامع دير المسلم فلم يزل يستخدم حتى اليوم للأغراض الدينية؛ يسكن في المبنى حارس للمعبد، ومن غاليري المئذنة، المطلة على منظر رائع بعيد يمتد إلى النقرة وجبل حوران وحتى جبل صلخد، لم يزل يرفع الأذان حتى اليوم. وفي باحة دير المسلم كان يستند إلى الجدار نفس الحجر الذي توجد عليه الكتابة التي كان بوركهاردت[1] قد ذكرها وكان راي[2] قد نسخها. هناك الكثير من الكتابات العربية القديمة بالخط النسخي في بصرى، ومنها، مثلاً، كتابة على حجر فوق باب جامع صغير يقع قرب بركة موجودة خارج حقل الآثار الرئيسي، تفيد بأن الجامع قد بني في عام 655هـ (1257م)، وفيما يلي نصها:

لا إله	بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين	إلا الله
الله	بنى هذا المسجد المبارك سنة خمس وخمسون وستماية	وحده
محمد	رحم الله من دعا لروحه بالرحمة	رسول الله

إلى الجنوب من المدينة تشمخ القلعة، صرح معماري ذو أبعاد هائلة محاط بخنادق عميقة يمكن تزويدها بالماء من بركة مجاورة. وهذه البركة هي بالتأكيد أكبر بركة في الشرق كله؛ حفرة مستطيلة الشكل يبلغ طول ضلعها حسب راي[3]

(1) نفس المصدر السابق، ص232. لكن بوركهاردت يذكر جزءاً صغيراً منها فقط.
(2) نفس المصدر السابق، ص179، 192.
(3) نفس المصدر السابق، ص186.

أكثر من 216 متراً. مسقط القلعة على شكل متوازي أضلاع غير منتظم مبني على شكل نصف دائرة نحو الجنوب. وهناك جسر مؤلف من ست قناطر يؤدي من الشمال فوق خندق القلعة إلى باب المدخل الوحيد. الأسوار مبنية على شكل أسوار الحصون وتحمل كتابات عربية طويلة. أما القلعة نفسها فتتألف من عدة طوابق. الجزء الأسفل بكامله محصن بشكل منيع ويحتوي على متاهة من الممرات والحجرات تؤدي إليها ممرات نازلة إلى الأسفل. ويوجد في هذا الجزء جامع لا يحتوي في هيئته الحالية على أي شيء مهم؛ ولكن هناك آثار واضحة للكلس والطين على الجدران قد تخفي تحتها بعض الأشياء الثمينة. وفوق الباب نقشت كتابة دينية.

يحتل الجزء العلويَّ من القلعة، أي ما يمكن أن أسميه المنصة الأرضية، مسرح ضخم على شكل نصف دائرة لم تزل تزينه بعض الأعمدة الجميلة[1]. وعند المدخل اليميني إلى خشبة المسرح بنى الأيوبيون مخزناً كبيراً للأسلحة كتبت على مدخله القوسي العبارات التالية:

امر بعمارة هذه الزردخانة المباركة مولانا السلطان الملك الصالح

العادل عماد الدين أبو الفدا اسمعيل ابن الملك العادل أبي بكر بن

أيوب رحمه الله ابن الأمير بدر الدين داود ابركيز(؟) اللاه الصالحي

في شهور سنة تسع وعشرين وستماية

حسب هذه الكتابة قام بتشييد هذا المبنى سلطان دمشق الأيوبي الصالح إسماعيل ابن العادل في عام 629هـ (1231م/ 1232م). ويعتقد بأن هذه الكتابة ومعظم الكتابات العربية الأخرى الموجودة في القلعة تعود إلى العهد الأيوبي، وبالتحديد إلى القرن الثالث عشر الميلادي. وعند زيارتي للقلعة، التي تتسع لإقامة عدد كبير من الجنود، لم يكن يوجد فيها سوى خمسين رجلاً تقريباً كان

(1) انظر فوغويه، هندسة العمارة، الجزء الأول، ص40.

قائدهم يسكن في أحد الأبراج المتجانحة مع السور. وعلى مسافة قريبة جداً من القلعة يقع سوق بصرى الحالي المؤلف من عدد قليل من الدكاكين الفقيرة؛ ولم تزل آثار السوق القديم باقية حتى اليوم.

إلى العصر الروماني تعود الآثار الكثيرة لما يسمى «قصر طيران» (أي القصر الطائر)، الذي تقول الحكايات إن الجن جلبوه إلى هنا لكن اسمه يعود ربما إلى الأمبراطور الروماني ترايانس. في عهد الأمبراطور ترايانس حدث البناء الفعلي لمدينة بصرى. فقد أطلق اسم «نوفا ترايانا بوسترا» على المستعمرة الجديدة وعلى عاصمة مقاطعة «آرابيا»[1] المؤسسة حديثاً.

وهناك ثلاثة مبان تذكّر بالنبي محمد وتحمل جميعها اسم الراهب «بحيرا» وهي: بيت وكنيسة ودير. عندما كان محمد عائداً في إحدى رحلاته من دمشق مر ببصرى وتعرف هنا على الراهب النسطوري بحيرا الذي تنبأ له بشأن عظيم.

الجزء الشرقي من المدينة محاط بكامله بمقبرة واسعة يبرز منها جامع المبرك المذكور سابقاً كصرح معماري فخم. ويعاد اسم المبرك («موضع البروك») إلى الخليفة عثمان الذي دعا إلى بناء جامع في المكان الذي برك فيه جمله أول وصوله. وفي عام 1854م دفن هنا الأمير محمد ابن الخديوي عباس الأول حاكم مصر. وتكريماً له أمر الخديوي سعيد باشا بإعادة بناء قبة الجامع التي دمرها الوهابيون[2]. وكان الأمير الصغير محمد قد أرسل في الثالثة من عمره إلى الرولة، وهم فخذ من قبيلة عنزة، لتربيته ولكي يتعلم عندهم ركوب الخيل وفنون الحرب والقدرة على تحمل مشاق الحياة. وعندما زرت في وقت لاحق الخديوي

---

(1) انظر مومزن، التاريخ الروماني، الجزء الخامس، الطبعة الرابعة، ص82 وما بعدها.

(2) كتب على القبر مقطعان من الشعر العربي ترجمهما فتستاين (نفس المصدر السابق، ص72) على الشكل التالي:

لقد حان اليوم الذي وصلت فيه كضيف إلى مملكة الله الغنية، والضيوف يستقبلون في كل مكان من قبل المضيف بكل المودة والاحترام. إذا ما كان الدخول إلى حصن الملك يؤدي إلى الحصول على المغفرة فكيف لا يطمع بالمغفرة من يدخل إلى بيت الرحمن الرحيم؟

عباس الثاني في القاهرة وحدثته عن زيارتي لبصرى قال لي إن الأمير محمد لم يكن الوحيد من أقربائه الذي تدرب عند البدو. بل إن إحدى أميرات أسرته كانت أيضاً ابنة شيخ بدوي؛ وكانت أحياناً تنصب خيمة على سطح القصر لكي تتذكر الأوقات التي قضتها مع قبيلتها في الصحراء.

لم تزل بصرى حتى اليوم مدينة ذات أهمية استراتيجية وقد ازدادت أهميتها ببناء الخط الحديدي إلى مزيريب مما أدى بالتالي إلى ازدياد أهمية السوق السنوية في مزيريب التي يتعين على بصرى حمايتها من هجمات بدو الحماد. ومزيريب، التي هي أيضاً محطة رئيسية للحجاج، يأتي إليها الناس في أيام السوق من جميع أنحاء حوران ومن الحماد الجنوبي ومن بغداد وحتى من نجد لشراء الخيول والمواشي وتسويق الأشياء المسروقة أيضاً بمقايضتها بأسلحة ومشمعات الخيام وحصر وأقمشة ومنتوجات من الغرب.

انطلقنا من بصرى نحو الشرق لكي نسافر على الطريق الرومانية القديمة إلى صلخد. وبعدما اجتزنا مدينة أثرية كبيرة واقعة على يمين الطريق اسمها برد، عبرنا طريقاً قادماً من الجنوب ومتجهاً نحو الشمال إلى المدينة الدرزية الهامة القريّة ثم رأينا بعد ذلك قرية المنيطرة التي لم تزل خالية من السكان. اعتباراً من هنا بدأت الطريق الرومانية تصعد بشدة وبخط مستقيم إلى صلخد التي كنت قد رأيت قصرها الجبلي من مأذنة جامع دير المسلم في بصرى. ومن الطريق كنا نرى في جهة الشمال القليب[1]، البركان الرئيسي في حوران.

لقينا في صلخد استقبالاً حاراً إلى أبعد الحدود. استقبلنا الشيخ محمد الأطرش، أخو إبراهيم، وهو مثله رجل ذو هيئة وقورة ولحية بيضاء، وأخذنا على الفور من غرفة الاستقبال الرسمية إلى القسم الداخلي من البيت حيث تناولنا معه

---

(1) إذا ما كان بورتون (نفس المصدر السابق، ص169) يعتقد أن بورتر كان أول من كتب الاسم «جبل قليب» بشكل صحيح، بينما كان يسمى حتى ذاك الحين «جبل كلب»، فإنه كان مخطئاً في ذلك. إذ إن فتسشتاين (نفس المصدر، ص28) كان قد رفض صراحة التسمية كلب، لا بل سيتزن (نفس المصدر، الجزء الأول، ص104) استعمل التسمية «تشليب الحوران» إلى جانب «القلب»

الطعام. وبعد الطعام أطلعنا على منزله حتى أدق أجزائه وقدم لنا زوجته الشابة الجميلة والأبية أم ابنه المدلل والبالغ من العمر سبعة أعوام. كانت قاعة الاستقبال موجودة داخل باحة، وعبر باب ثان يصل المرء إلى الباحة الداخلية المرصوفة بشكل جميل والتي تقع فيها المباني السكنية المؤلفة من عدة طوابق. وكان محمد قد كلف قبل وقت قصير فناناً دمشقياً بتجهيز عدة غرف بمقاعد خشبية محفورة وبطلاء الجدران بالكلس الأبيض وتزيينها ببعض الألوان الخفيفة المتفرقة.

صلخد مبنية على السفح الجنوبي الغربي لتل البرج؛ وتحت المدينة غير الواسعة يقع خزان الماء الضخم والمسوّر. أحواض كبيرة من الحجر تستعمل كمشارب للحيوانات. كانت مياه البركة (الخزان) ملونة بلون قاتم وذات طعم قطراني سيئ. في كثير من البيوت يوجد منذ قديم الزمان آبار اصطناعية لكن مياهها أسوأ من مياه البركة. فقط الشيخ يجلبون له كل يوم حاجته من الماء من البركة الواقعة على بعد عدة كيلومترات شمالاً في موقع يسمى عيون أي الينابيع.

بني برج صلخد على قمة مخروط بركاني حاد الانحدار؛ وفي وسط القلعة المستديرة توجد بركة قديمة عميقة أحيطت بسور على قاعدة الفوهة البركانية. عبر جسر عال مبني على قناطر يصل المرء إلى باب المدخل الذي لم تزل تظهر عليه حتى اليوم صور عقبان رومانية. بعد ذلك يؤدي ممر على شكل نفق إلى داخل القلعة التي رصفت ساحاتها غالباً بأحجار كبيرة ملساء مربعة الشكل. ولم تزل معالم كثير من الممرات والغرف واضحة تماماً؛ وأيضاً العديد من أحواض الماء الصغيرة. يبدو المنظر من قمة الأنقاض رائعاً؛ فالواقف هناك يشاهد داخل البرج والأدراج النازلة حتى أسفل البركة، وفي الشمال تشمخ جبال حوران الوعرة المليئة بالشقوق والوديان، وفي الغرب تمتد النقرة الواسعة الساطعة، وفي الجنوب والشرق يشاهد المرء مخاريط جبلية صغيرة وبحر الحمم البركانية المتشكل من امتدادات الجبال البركانية، والصحراء الصخرية حرّة. وفي جميع الاتجاهات، وعلى مد النظر، يوجد على كل تل أو مرتفع أبراج وقرى ومدن.

وجدت في قلعة صلخد كمية كبيرة من الكتابات العربية بالخط النسخي، أورد منها فيما يلي تلك المتعلقة بإصلاح البرج واستكمال بنائه:

أمر بتجديد هذا البرج المبارك الأمير فخر الدين
الملكي في أيام الملك العادل أندكير[1] أيوب

وكتب على أحد الأبواب:

أمر بعمارة هذا البرج المبارك الأمير ابن رواحا
في أيام الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب
سنة إحدى وستماية.

وكتب على الجهة الخارجية الجنوبية للسور:

بسم الله الرحمن أمر بعمارة هذه القلعة المباركة
مولانا السلطان العالم العامل المجاهد المظفر
المنصور الملك الصالح فخر الدنيا والدين أيوب
ابن حمدان بن أبي بكر بن أيوب خليفة أمير المؤمنين
بتاريخ ستة من جمادى الأول سنة سبع وأربعين وستماية
بولاية العبد الفقير إلى الله تعالى علي ابن الإمام أحمد
ابن صالح النجباني الصالحي.

---

(1) .. الملك العادل سيف الدين (أبو بكر بن) أيوب (حكم: 592 ـ 615 هـ = 1196 ـ 1218م).

كانت هذه الكتابة منحوتة بشكل جميل في حجارة السور المربعة في مكان غير بعيد من جسر مهدم الآن يمر فوق حفرة البرج. ومن المحتمل أن تكون هناك كتابات أخرى مطمورة تحت الركام المحيط بالسور.

يبدو أن تاريخ المدينة يعود إلى الوراء إلى أقدم الأزمنة. ويعتقد[1] بأن صلخد «سلخا» هي المدينة التي ورد ذكرها عدة مرات في التوراة كمدينة تقع على حدود باسان. إلا أن غالبية البيوت تعود إلى عهد الغساسنة. وهناك، كما ذكرنا، عقبان رومانية ممدودة الجناحين منقوشة على حجارة آثار البرج. أما الأسد الفارسي الذي تقول السيدة آنه بلنت[2] أنها وجدته في البرج فلا أتذكر أنني رأيته. وعلى أي فإن البرج جرى تعديل بنائه وتحصينه في عهد الحكام المملوكيين وأصبح قلعة منيعة. ومن المؤكد أن المدينة أيضاً شهدت بعض التطورات العمرانية كما تشهد على ذلك مئذنة الجامع الكبير الواقع في وسط المدينة التي بناها المملوكي السلطان عز الدين أيبك في عام 603 هـ (1225م)، والتي كتب عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم

بإذن الله أمر برفع الفقير عز الدين أيبك

ولد الملك المعظم عيسى ابن أبي بكر أيوب

في سنة ثلاث وستمئة

أجره وأثابه الله بولاية مملوكه منصور.

كانت الكتابة مسجلة بالخط النسخي على شريط رخامي يلتف حول برج المئذنة الثماني الأضلاع ومثبت على ارتفاع شاهق بحيث لم يكن من الممكن قراءتها إلا بصعوبة وبواسطة منظار مقرّب. وكان فتسشتاين[3] قد قرأ السنة خطأ

---

(1) انظر غوته، رحلات الدكتور آ. شتوبل إلى ديرة التلول وحوران 1882م، في مجلة جمعية فلسطين الألمانية، عام 1890م، الجزء 12، العدد 4، ص236.

(2) انظر بلنت، رحلة إلى نجد، الجزء الأول، ص55.

(3) نفس المصدر السابق، ص70.

630هـ بدلاً من 603هـ. إلا أن قول بوركهاردت[1] بأن المئذنة كان عمرها في أيامه مائتي عام فقط ليس صحيحاً. وكان بوركهاردت[2] قد عثر في باحة الجامع على حجر نقشت عليه زهرة زنبق، وعثر فتسشتاين[3] في قاعة كبيرة جنب الجامع على قوس مدبب[4]. بناء على ذلك واستناداً إلى الرواية التاريخية العربية المؤلفة من عدة أجزاء، والتي ألفها الديناري وتدور أحداثها في ذلك الزمان، يعتقد فتسشتاين أنه يستطيع الافتراض أن الصليبيين كانوا سادة صلخد فترة من الزمن على الرغم من أن كتب التاريخ الأوروبية كانت تقول العكس حتى الآن. ولكن قد تكون الزنبقة، التي كانت موجودة في الصور والرسومات الآشورية، من الأشياء التي استعملت للزخرفة في عهد الغساسنة.

عندما جاء بوركهاردت إلى صلخد وجدها خالية تماماً من السكان؛ ولكن حسب أقواله كان فيها قبل خمسة عشر عاماً بعض العائلات المسيحية والإسلامية وعندما جاء فتسشتاين[5] وجد هناك بعض العائلات المسيحية والعائلات الدرزية لكنها كانت تستعد لمغادرة المدينة. أما آنه بلنت التي زارت المدينة في عام 1878م فقد ذكرت أنه قد أعيد استيطانها على يد الدروز. هذه المعلومات تعبر بشكل واضح عن حالة المد والجزر في الحركة السكانية في حوران. وأما أنا فقد وجدت في المدينة، إلى جانب العدد الكبير من الدروز، عدداً قليلاً من العائلات المسيحية.

تتابع الطريق الرومانية المذكورة، التي تصل بين صلخد وبصرى، مسيرها من صلخد باتجاه الجنوب الشرقي، وكانت تصل سابقاً، حسب رواية يبدو أنه مبالغ فيها، إلى البحر العربي. إلا أن بلنت وزوجها عبرا هذه الطريق على بعد مسيرة عدة أيام إلى الجنوب الشرقي من هنا، ولكن يرجح أنها لم تكن تصل

---

(1) نفس المصدر السابق، ص100.
(2) نفس المصدر السابق، ص100.
(3) نفس المصدر السابق، ص70، 71.
(4) الفن العربي أو بالأحرى الفن الإسلامي عرف الأقواس المدببة أيضاً.
(5) نفس المصدر السابق، ص66.

بالحالة الجيدة المحافظة عليها حتى اليوم إلا إلى آخر مدن المنطقة البركانية التي كانت آنذاك مسكونة وظلت حتى الآن غير معروفة. فبعد وصول الطريق إلى طرف الحرة لا تعود تحتاج إلى شق أو تمهيد وإنما في أحسن الأحوال إلى أحجار تعليم في الأرض الصحراوية لتحديد الاتجاه. في أيام العصر الذهبي لتدمر كانت هذه السوق التجارية الرئيسية في وسط الصحراء مرتبطة مع النهايات الشرقية للطريق الرومانية المارة عبر منطقة الغساسنة. ولكن بعد سقوط تدمر كانت هناك طريق للقوافل كثيرة الاستعمال تنطلق من بصرى وتصل إلى أقصى الطرف الشمالي للخليج العربي[1]، وهذه الحقيقة هي التي تسببت في الحكاية القائلة بأن الطريق الرومانية كانت تصل من صلخد حتى مصب شط العرب. وهناك طريق رومانية أخرى كانت تربط صلخد مع ملاح ودير النصراني. وقد استعمل غراهام هذه الطريق وحسب رأيه كانت تصل حتى نمارة التي تابع فتسشتاين[2] انطلاقاً منها آثار طريق رومانية تصل إلى شقّا، بينما تابع غراهام[3] آثار طريق كهذه باتجاه تدمر؛ ومن نمارة كانت هناك طريق رومانية أخرى تتجه نحو الشمال وتصل إلى رحبة.

بالقرب من صلخد يوجد مزار يحمل اسم الخضر، أي القديس جرجس، وتجدر الإشارة إلى أنه ليس المزار الوحيد الذي يحمل اسم هذا القديس؛ فحتى بلاد الرافدين يوجد أماكن مرتبط اسمها باسم الخضر وتحظى بالتقديس من قبل المسيحيين والمسلمين على حد سواء. كما أن أسماء أيوب وموسىٰ وإليشاع وعيسىٰ تتكرر كثيراً في هذه المناطق وتطلق بشكل خاص على تلال بني عليها مزار ما، غالباً على شكل القبة المعروفة.

الملاحظة التي اعتقدت بلنت أنه يتعين عليها ذكرها بمناسبة وصفها لزيارتها لصلخد، وهي أن الأراضي تتخذ طابعاً أكثر ازدهاراً كلما ابتعد المرء عن مقر

(1) انظر أيضاً غراهام، نفس المصدر السابق، ص255؛ انظر أيضاً شبرنغر، الجغرافيا القديمة لبلاد العرب، برن 1875م، ص151؛ وكذلك الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص323.

(2) نفس المصدر السابق، ص35؛ ص68 الملاحظة، ثم ص73.

(3) نفس المصدر السابق، 250، 255.

الإدارة التركية، هي استناداً إلى حالة المناطق التركية التي زرتها في آسيا، لم تعد صحيحة. بل بالعكس فإن المناطق التي استقر فيها الأتراك في الآونة الأخيرة وحرروها من ضغط البدو الرحل حققت تقدماً حاسماً نحو الظروف المنظمة وازدادت فيها مساحة الأراضي المزروعة.

عند مغادرتنا صلخد رافقنا عدد من رجال محمد الأطرش، من بينهم رجل درزي مشهور كبطل من أبطال الحرب كان يغيب في أحيان كثيرة أسابيع طويلة عن مكان إقامته لكي يقوم على الطريقة البدوية مع بعض رفاقه، أو بالتعاون مع الزبيد أي عربان الجبل والحرة المقيمين إلى الشرق من صلخد، بأعمال الغزو. وكان يتقاسم الغنائم مع سيده ومالك أرضه محمد الأطرش، أما حصته فيستعملها لشراء حلي فضية وملابس جميلة لزوجته الشابة الجميلة جداً والتي كان يقدمها للناس بكل افتخار.

جلبت لي مغادرتي صلخد إزعاجات تواجه عادة جميع الذين يسافرون مع خدم من العرب. فقد أعطيت أمراً بأن تتحرك القافلة في الصباح الباكر إلى سالي بينما أقوم أنا بزيارة البرج. ولكن رغم ذلك وجدت خيامي بعد الظهر لم تزل منصوبة. وكان سبب التأخر خلاف بين خدمي كاد يتطور إلى معركة بالسكاكين لولا تدخلي. وعلى الرغم من أن سالي تبعد مسافة أربع ساعات بالنسبة لخيل سريع، ونحو سبع أو ثمان ساعات بالنسبة لقافلة كقافلتنا تسير على الطريق الوعرة، وعلى الرغم من تأخر الوقت أمرت بفك الخيام وشد الرحال وتحرك القافلة؛ وأنا نفسي سبقتها مسرعاً لأنني كنت أعلم أنني سأستطيع المبيت في بيت الشيخ الدرزي في سالي. وكان محمد الأطرش، الذي أثق به تماماً وأعتمد عليه، قد وعدني بأنني أستطيع الاعتماد على رجاله لإيصال القافلة بأمان إلى مقصدها؛ ولكن خطر سقوط أحد الحيوانات لم يكن من الممكن استبعاده كلياً. إلا أن القافلة وصلت أخيراً إلى سالي في الساعة الثالثة ليلاً دون وقوع أي حوادث. وكانت المسيرة قد اتجهت نحو الشمال الشرقي عبر الأراضي البركانية الخلابة. إلا أننا على عكس غراهام[1]، الذي كان قد مر من هنا في الربيع ووجد المنطقة

(1) نفس المصدر السابق، ص245.

ذات الشلالات الصغيرة الكثيرة مكسوة بحلة نباتية خضراء كثيفة، لم نجد سوى القليل من النباتات والجداول المائية كانت جميعها جافة. وغابات البلوط التي تحدث عنها غراهام وكذلك تل اللوز الذي ذكره يجب أن تكون واقعة إلى الغرب من هنا.

كانت سالي[1] عند وصولي، ليس أكبر مدينة، وإنما أهم مدينة في شرقي حوران بأسره وذلك لأن الشيخ الدرزي محمد أفندي نصّار الواسع النفوذ يعيش هنا. كان يسكن في بناء غساني ضخم؛ حجرة كبيرة تتوسطها أعمدة عملاقة تشكل قاعة الاستقبال التي يوجد على جدرانها مقاعد حجرية عريضة مغطاة بالحصر والسجاجيد الفارسية النفيسة. وكانت الأبواب والشبابيك مصنوعة هنا أيضاً من الخشب. استقبلنا الشيخ محمد نصار استقبالاً حاراً على الرغم من أنه لم يكن مستعداً لزيارة في هذا الوقت المتأخر من الليل، وخاصة لزيارة رجل أوروبي؛ لاسيما أنه لم يأت إلى سالي قبلي إلا غراهام وفتسشتاين وشتوبل. خلال وقت قصير قدموا لنا مائدة حافلة ومدوا لنا للمبيت فرشات ومخدات على مقاعد القاعة. وقد وجدنا في الشيخ محمد نصار رجلاً متنوراً ومؤيداً للتقدم؛ وكان قد جلب من دمشق معلماً مسلماً لتعليم الأولاد.

نصبنا مخيمنا قرب الينابيع الرائعة التي تتميز بها سالي. والماء يجمع في أحواض حجرية كبيرة على بعد دقائق قليلة من القرية. وإلى جوار البلدة توجد حقول واسعة خصبة بعضها مزروع بالأشجار. وعند المساء كنا نشاهد النيران التي يوقدها ليلاً البدو الذين يقضون الصيف في منطقة قريبة.

لم يزل يوجد في سالي العديد من الآثار السبئية، ولكن جزءاً صغيراً منها

---

(1) ورد اسم مدينة سالي في الكتب والخرائط مكتوباً بأشكال مختلفة. بوركهاردت (ص93 يكتبها زاله، برتون (الجزء الثاني، ص177) سايلا، غراهام (ص244) سالي، بورتر: ساله، فتسشتاين (ص80) سالا، وكيبرت يكتبها في خريطته أيضاً سالا. إلا أن اللفظ الشائع عموماً هو سالي مع مدّ المقطع الأول. وأنا أذكر ذلك لأنني كنت ألاقي صعوبة في أن يفهم الناس ما أقصد عندما كنت ألفظ أمامهم بعض الأسماء كما كتبها الرحالة السابقون.

فقط كان مسكوناً. وعلى أي حال فإن عدد السكان يبلغ عدة مئات من بينهم عدد قليل من العائلات المسيحية المقيمة هنا منذ أقدم الأزمان؛ كما أن تاجراً مسيحياً من دمشق كان قد استوطن في سالي. ومن الأشياء المهمة بعض بقايا المباني الواقعة على بعد دقائق قليلة جنوب وجنوب شرق المدينة والتي لم يذكرها حتى الآن أي من الرحالة الذين جاؤوا إلى هنا؛ وهي تعود حسب رأيي إلى بقايا مقبرة قديمة واسعة. ومما يؤيد ذلك ظهور جماجم وعظام بشرية تحت الأنقاض بلغت درجة شديدة من البياض الناصع وتحول بعضها إلى رماد تقريباً. وأفاد أهالي القرية بأن هذه العظام موجودة هناك منذ «قديم الزمان» وأنهم هم أنفسهم يدفنون موتاهم في مكان آخر؛ لكنهم لا يعرفون أي شيء عن منشأ هذه الأنقاض الفريدة الشكل. ومما كان واضحاً تماماً الأساسات والأجزاء السفلى من جدران مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها نحو 6 ـ 7 أمتار. كانت الجدران تحيط بغرفة داخلية مقسمة هي بدورها بواسطة جدران خفيفة إلى عدة حجرات، غالباً ثمان حجرات، صغيرة وذلك بحيث إن الحجرات الصغيرة تشكل مثلثات متساوية تلتقي رؤوسها مع مركز المربع. لكن هذه الرؤوس كان كل منها مقطوع بحجرين تمر بينهما ممرات تؤدي من المثمّن الداخلي إلى الحجرات. ولم يكن لهذه المنشآت إلا مدخل واحد إلى جانب إحدى زوايا المربع. أما مادة البناء فكانت حجارة مربعة الشكل مقصوصة بعناية أو كتل حجرية غير مهندسة؛ وكانت هناك حجارة أخرى مكوّمة قرب البقايا الأثرية يستنتج منها أن هذه المباني كانت في السابق على شكل برج. كانت أبراج القبور. كثيرة إلى حد ما ولكن لم يبق منها إلا القليل فوق سطح الأرض. وقد يكون لها بعض القرابة مع تلك المباني في سردينيا التي وصفها بيرّو ـ شيبيه[1]، النورهاغن المستديرة. ولو أجري فحص لجماجم مستخرجة من هذه المدافن لتوصلنا ربما إلى معلومات أنتروبولوجية وتاريخية قيّمة. أما أنا شخصياً فلم أفعل ذلك لأنني لم أكن أريد جرح شعور مضيفيّ الذين يتوقف عليهم تنفيذ رحلتي في الحرة.

---

(1) بيرّو ـ شيبيه، تاريخ الفن القديم، الجزء الرابع، ص22.

الفصل السادس

الحرة والصفاة

رحالة أوروبيون في الرحبة. ـ غياث. ـ الانطلاق من سالي. ـ سعنة. ـ الدخول في الحرة. ـ نبع الحفنة. ـ الصليب. ـ حادث. ـ اصطدام مع غياث. ـ حل سلمي. ـ النمارة. ـ الشيخ سراق. ـ الرحبة. ـ في مخيم الغياث. ـ الصعود إلى جبل الصفاة. ـ الخُشبة. ـ تلول الصفاة. ـ الزنيتمة. ـ النزول في الصفاة. ـ الحيوانات والنباتات. ـ قصر الأبيض. ـ مضيفون سيئون. ـ صعوبات جديدة. ـ الانطلاق من الرحبة. ـ بئر أمّ راحيل. ـ جبل سيس وآثاره. ـ التراخون الشرقي. ـ الوصول إلى الضمير.

* * *

تمكن الأوروبيون حتى عام 1893م أربع مرات فقط من التوغل في الحرة والوصول إلى الرحبة. كان أول من وصل الرحالة الإنجليزي كوريل سي. غراهام الذي جاء في أواخر 1857م، قادماً من دمشق، من الغرب والتف حول جبل الصفاة وبعد جولات مختلفة في أقصى شمال شرق الحرة غادرها من النمارة على طريق غربي الشمال الغربي باتجاه شقّا. لكن غراهام لم يترك عن نتائج هذه الرحلة ولا عن رحلته الأكبر في حوران إلا مقالاً واحداً نشرته مجلة الجمعية الجغرافية[1] اللندنية.

(1) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد 28، لندن، 1858م، ص226 وما بعدها رحلة استكشافية في الصحراء شرق حوران...

كان الأوروبي الثاني الذي زار الحرة ـ دون أن يعرف زيارة غراهام أو أي شيء عن نتائجها ـ في ربيع 1858م الباحث الروسي المختص باللغة العربية الدكتور جي . غي . فتسشتاين، الذي كان آنذاك قنصلاً بروسياً في دمشق وكان بسبب عمله الطويل هناك يعرف البلاد وأهلها عن ظهر قلب. كانت الرحلة محضرة تحضيراً جيداً وقدمت نتائج قيّمة إلى أبعد الحدود، وعلى الأخص عدداً لا حصر له من الكتابات المختلفة من الحرة وحوران. نشر التقرير التفصيلي عن الرحلة في مجلة الجغرافيا العامة وصدر مع ملحق وخريطة تفصيلية في عدد خاص[1] ولم يزل هذا العمل حتى اليوم مرجعاً مهماً جداً لمعلوماتنا عن تلك المناطق وسكانها. دخل فتسشتاين الحرة من بحيرات المروج قرب دمشق ثم تبع اللحف، طرف دبرة التلول، وزار الفوهة البركانية «رجم المرأة» ثم عبر الرحبة وصعد منها إلى جبل الصفاة، وكان بذلك حتى مجيئي أول أوروبي يفعل ذلك. قام بعد ذلك برحلات إلى الغرز وكنيزة وذهب إلى نمارة ثم غادر الحرة، على نفس الطريق تقريباً مثل غراهام، باتجاه شقّا.

في عام 1862م قام الفرنسيّان غراف دي فوغويه والسفير الفرنسي فيما بعد في لندن ف. هـ. وادينغتون برحلة إلى جبل سيس والنمارة انطلاقاً من شقّا بحيث استعملا، بالالتفاف على جبل الصفا، عدة مرات الطريق المباشرة شقّا ـ نمارة. ونشرا عن هذه الرحلة صوراً ممتازة وكثيراً من الكتابات في دراسة خاصة[2].

كان الزائر الأخير للحرة قبلي الدكتور شتوبل الذي ركز اهتمامه على الدراسات الجيولوجية ونجم عن رحلته خريطة وسجل تفصيلي لأسماء المدن والقرى نشرت جميعها في مجلة جمعية فلسطين الألمانية[3]. وبقدر ما كانت

(1) تقرير عن رحلة إلى حوران والتراخونات مع ملحق، بقلم الدكتور ريوهان غوتفريد فتسشتاين، برلين 1860م.

(2) فوغويه، سورية المركزية، الهندسة المدنية والدينية في أوائل القرن السابع عشر، باريس 1865م ـ 1877م وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية، باريس 1870م.

(3) الجزء الثاني عشر، لايبزيغ 1889م، ص235؛ بخصوص عمله الجيولوجي انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص106.

الخريطة جيدة بالنسبة لحوران نفسها فقد كان فيها فيما يتعلق بالحرة أخطاء كثيرة لأن جزءاً كبيراً منها لم يعتمد على مشاهدات شخصية وإنما على استكشافات قام بها الدكتور شتوبل ومن سبقوه. وكان شتوبل قد انطلق من الضمير إلى أم نيران ثم ذهب إلى جبل سيس. أما في العودة إلى بحيرات المروج فقد سلك في شمال الصفاة نفس الطريق التي سلكها فتسشتاين[1].

حاول عدد آخر من الرحالة دخول الحرة والوصول إلى الرحبة ولكن دون نجاح. وأخص بالذكر الحاج المشهور إلى مكة ريتشارد بورتن الذي، حسبما أفاد هو نفسه، أطلق عليه غياث، وعلى الأرجح الشتاية، النار[2] في جنوب غرب جبل الصفاة. أصيب مرافقه بجروح بالغة واضطر إلى العودة. وعلى الرغم من أن بورتن كان قنصلاً إنجليزياً في دمشق لم يستطع حمل السلطات التركية على معاقبة المهاجمين. وفي عام 1871م انطلق من شقّا وسار على امتداد السفح الشرقي لحوران الشمالية إلى أم نيران والضمير دون الدخول في الحرة الحقيقية. كانت براكين الصفاة والآثار الموجودة في أسفلها حتى بداية هذا القرن مجهولة بالنسبة للأوروبيين تماماً. وكان بوركهاردت[3] أول من تحدث عنها استناداً إلى استكشافات عند البدو.

جميع من سبقوني إلى الحرة كانوا قد زاروا الجزء الشمالي من هذه الصحراء الصخرية المجاورة لجبل الصفاة. ولم يتجاوز أي منهم في الاتجاه الجنوبي خط الشقا ـ النمارة. ووصف فتسشتاين[4] المناطق الواقعة إلى الجنوب بأنها غير سالكة إطلاقاً. ولذلك عزمت على دراسة هذا الجزء بالذات من الحرة ومحاولة

---

(1) من بعدي نجح المواطن الألماني السيد هـ. بوركهاردت في الوصول إلى الرحبة على نفس الطريق التي سلكها فتسشتاين ثم الصعود إلى جبل الصفاة. وأنا مدين له بالشكر في حصولي على صور القصر الأبيض والصفاة.

(2) انظر ريتشارد بورتن وتشارل ف. توروبت دراكه، سورية غير المستكشفة، لندن 1872م.

(3) رحلات في سورية والأراضي المقدسة، بوركهاردت، لندن 1872م ص92.

(4) نفس المصدر السابق، ص68.

الوصول إلى الرحبة انطلاقاً من الجنوب. وبالفعل فقد كانت هناك طريق إلى نمارة والرحبة انطلاقاً من سالي أو من سعنة إلى الجنوب من الطريق التي سلكها فتسشتاين.

إلى جانب الصعوبات الكبيرة التي يواجهها من يتوغل في الحرة والرحبة بسبب وعورة الأرض هناك أيضاً خطر التعرض لهجمات البدو المقيمين هناك. في الرحبة نفسها وفي المواقع الخالية من الحجارة في شمالي الحرة تعيش قبيلة غياث وقبيلة الشتاية التي تربطها مع غياث صلة قربى، وإلى الغرب منهم تعيش مجموعات صغيرة متفرقة، وفي جنوب غرب الحرة، إلى الشرق من صلخد تعيش قبيلة زبيد الكبيرة. جميع هؤلاء البدو يصنفون تحت اسم «عربان الجبل»[1]. لا يدفع عربان الجبل ضرائب وسمعتهم سيئة بسبب حبهم للغزو وهم في عداوة دائمة تقريباً مع الحكومة التركية ومع بعضهم. وهناك على الأخص بين غياث والجنود الأتراك «دم» حسب التعبير الشعبي: حسب قوانين الثأر ينتقم البدو لإخوتهم الذين قتلوا في معارك مع الجنود الأتراك متى وأينما وجدوهم ويرد الجنود على ذلك بالمثل - إلا إذا كان الغياثي تحت الحماية المباشرة لأحد أصدقاء الحكومة التركية. لا يقيم عربان الجبل في الحرة والرحبة إلا بقدر ما تسمح لهم حرارة الصيف بذلك أي طالما لم تجف الينابيع وطالما بقي شيء من المرعى لقطعانهم. فعندما تجف الينابيع والمخزونات المائية ينتقل البدو إلى سفوح حوران وإلى البحيرات المرجية القريبة من دمشق. يخيم الغياث خلال الصيف في شرق حوران بالقرب من سالي ولذلك يضطرون إلى عقد اتفاقيات سلام مع الدروز الذين لديهم، بالمناسبة، القوة الكافية لإجبار أبناء الصحراء على احترامهم.

عندئذ يشتري الدروز من الغياث الحبوب والأسلحة وغير ذلك مما نهبوه في غزواتهم طيلة العام - ومن هذه المسروقات سجادة فاخرة نالت إعجابي في قاعة

---

(1) يشمل هذا المصطلح الشائع «عربان الجبل» قبائل أخرى أيضاً، ومنها مجموعات عديدة تستوطن في الشتاء على الطرف الشمالي الغربي للتراخون الشرقي، وبدو الصلوت في اللجاة، وبعض القبائل الصغيرة المقيمة دوماً في جبل حوران، وغيرها.

الاستقبال في بيت الشيخ محمد نصار. وهناك مصالح مشتركة أخرى تؤدي إلى التفاهم بين الدروز والغياث. في الشتاء يتعاون الطرفان على وضع حد للمجموعات الصغيرة من عربان الجبل، فضلاً عن ذلك يقف الدروز إلى جانب الغياث ضد قبيلة عنزة القوية. وهناك أخيراً مزار مشترك يقدسه الدروز والغياث على حد سواء هو الشيخ سراق الذي يقع ضريحه عند مدخل الرحبة. الحكومة التركية على علم تام بهذه الصداقة وهي تعرف أن الدروز لن يسلموها أي شخص من غياث. وخلال الانتفاضات الأخيرة التي قام بها دروز حوران ظل الغياث أوفياء لهم واستقبلوا آلاف اللاجئين في الرحبة. في أوقات الخطر توفر الصخور البركانية في جبل الصفاة للغياث المخابئ الآمنة التي لا يستطيع أي عدو ملاحقتهم فيها. وقد باءت بالفشل جميع المحاولات الرامية إلى وضع حد لغزواتهم وميلهم إلى السلب والنهب. وقد رووا لي باعتزاز كيف تصدوا قبل أعوام قليلة في عهد مدحت باشا للقائد العسكري العنيف القادم من دمشق فيضي باشا الذي جاء على رأس جيش قوامه 10,000 رجل لإجبارهم على الرضوخ للحكم التركي، وكيف عاد أدراجه خائباً بعد أن مُني بخسائر جسيمة بالأرواح والمعدات (والحيوانات). ولم تتمكن الحكومة من حماية طريق البريد بين الضمير وبغداد ضد هجمات الغياث إلا منذ وقت قصير بعدما اعتقلت شيخهم، الذي تعرفتُ عليه في وقت لاحق، ولم تطلق سراحه إلا على شرط أن يبقى مقيماً في الضمير حيث يتعين عليه أن يضمن بحياته أمن الخيالة الذين ينقلون البريد.

يعيش الغياث في جماعات غير مترابطة، وليس لهم شيخ مشايخ بل إن الهيمنة لا تتعدى حدود العائلة الواحدة. ولا يخوضون حروباً مشتركة إلا نادراً، في حالة الدفاع فقط؛ أما غزواتهم فتقوم بها غالباً مجموعات صغيرة، ولا يقومون بغزوات كبيرة إلا نادراً حيث لا يزيد عدد المشتركين فيها على 70 ـ 100 رجل. وعندما كنا في الرحبة كانت غزوة كبيرة كهذه في طريقها نحو الشمال إلى عنزة، وبعد عودتها رحلت أيضاً العائلات الغياثية، التي كانت لم تزل موجودة في الواحة، إلى حوران لأن الماء الموجود في بركة الرحبة لم يعد يكفي إلا أياماً قليلة.

المظهر الخارجي للغياث مختلف بعض الشيء عن مظهر القبائل العربية الشمالية؛ ومنهم، مثلاً، العنزة. منظرهم أكثر توحشاً، وعيونهم حائرة، ووجوههم مدببة، وأجسامهم نحيلة وخفيفة، وثيابهم رثة إلى أبعد الحدود ومتسخة، ولا يلبسون عباية إلا نادراً. لا يرتدون غطاء للرأس ويتركون شعر رؤوسهم طويلاً ومسترسلاً.

ساعدتني علاقات الصداقة بين الدروز وغياث على تنفيذ رحلتي على الطريق التي رسمتها. فقد وجد محمد نصار رجلاً من أسرة شيوخ الغياث، اسمه ذبلان، أقسم له أنه سيرافقني عبر الحرة. أضاف ذبلان إلى قافلتنا ستة جمال مخصصة لحمل الماء وأخذ معه عدة رجال آخرين من الذبلان لقيادة الإبل. ولكن محمد نصار لم يكن يثق بالغياثي ثقة كاملة، ولذلك أرسل معي أيضاً ثلاثة رجال من أقربائه هم ابنا أخيه نجيب وفارس وخادم درزي متقدم في السن.

انطلقنا من سالي في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم العاشر من يوليو/ تموز. سارت طريقنا في بادئ الأمر نحو الشرق ومرت عند «هوية سالي» قرب صخرة تبرز من التل بصورة عمودية تقريباً. وبعد خمسة كيلو مترات[1] تقريباً اتجهنا نحو الشمال وبعد عشر دقائق اجتزنا وادي الرشيدة، وهو ساقية كانت جافة، ولكن في الشتاء تجري فيها كما يبدو كميات كبيرة من الماء. على الضفة المقابلة من الساقية شاهدنا طاحون ماء مبنية من الحجر. إلى الشرق من هنا كانت تقع على مرتفع، هناك حيث تخرج الساقية من جبل حوران لتسيل في الصحراء الحجرية الشرقية، قرية الرشيدة التي يسيطر عليها برج حراسة شامخ ومنيع.

بعد ذلك توجهنا نحو الشمال الشرقي إلى سعنة التي توجد فيها آثار قلعة هامة[2]، وكانت في الماضي، كما يبدو، مدينة ذات شأن. سقينا خيولنا من إحدى البركتين الكبيرتين الموجودتين هنا إلى جانب بعضهما البعض. ويبدو أن

---

(1) اعتمدت في حساب المسافة على سرعة الجمل الذي يقطع في هذه الشروط مسافة 3,5 كيلو متراً تقريباً في الساعة.

(2) انظر فتسشتاين، نفس المرجع السابق، ص65.

هذا الحوض المائي الطبيعي قد جرى تحسينه واستكماله اصطناعياً وإن كانت آثار النشاط البشري معدومة تقريباً. بالقرب من سعنة كانت المضارب الصيفية لمرافقي ذبلان والرجال الجدد الذين ضمهم إلى قافلتنا.

الآن اتجهت طريقنا نحو الشمال الشرقي وعما قريب رأينا الحرة واقعة أمامنا. بدت برتابتها القاتمة في منظر يثير الرهبة في النفس وتميزت حدودها بمنتهى الحدة والوضوح عن امتدادات جبل حوران التي بدت بما فيها من أعشاب شحيحة نابتة من بين الصخور كالبساط الأخضر تجاه الحرة السوداء تماماً. وفيما وراء الحرة كانت تظهر على مسافة بعيدة ملامح غير واضحة لجبل الصفاة.

ينحدر جبل حوران هنا على شكل مصاطب متدرجة نحو الشرق، وفوق الركام الكثيف من الحجارة البازلتية المتفتتة نزلنا في طريق شديدة الانحدار إلى الجنوب من وادي الشبكة. وفي الطريق ذهبنا إلى بعض المغاور الاصطناعية القديمة الواقعة على سفح الساقية الجافة العميقة والتي يجدها المرء كثيراً في جميع أرجاء حوران والمناطق المجاورة[1]. عند وصولنا إلى أسفل الجبل مشينا مسافة ربع ساعة باتجاه شمال الشمال الشرقي حتى وصلنا إلى منخفض مغطى بكامله بالرمل الأصفر يسمى «مشبك الوديان» ويصب فيه عدد من المجاري المائية الجافة حالياً والقادمة من الشرق والشمال والجنوب لتسير معاً في سرير مشترك يسمى وادي الشام يتجه نحو الشرق عبر الحرة ويصل إلى الرحبة. عبرنا هذه الصحراء الصخرية المقفرة بالسير في سرير هذا الجدول، مرة على يمينه وأخرى على يساره حسبما تسمح الظروف.

ابتلعتنا الحرة كقبر هائل رهيب. فقد اختفت الآن الإطلالة على حوران وعلى جبل الصفاة الواقع أمامنا، وانبسط أمامنا بحر الحجارة الممتد على شكل خطوط خفيفة التموج. فعلى مد النظر كانت الأرض في كل مكان مزروعة بالكتل الصخرية السوداء الملساء واللماعة والمغطاة بالفقاعات والمتناثرة بكثافة إلى جانب بعضها البعض بحيث لا يظهر في أي مكان تقريباً أي أثر للأرضية الرملية

---

(1) انظر الفصل الثالث، ص110 أعلاه.

الصفراء. كان للحجارة ارتفاعات تتراوح بين 20 ـ 30 سنتيمتراً، ويندر تجمع عدد منها ليشكل كومة، وفقط بين حين وآخر تبرز من بين هذه الحجارة صخرة أكبر. ومع ذلك هناك درب عبر الحرة، لا تراها إلا عيون السكان المحليين، نشأت على مدى آلاف السنين نتيجة مرور الحيوانات التي أبعدت حوافرها الحجارة إلى أحد الجانبين بحيث أصبحت حوافر الخيول ترتكز على الأرضية الرملية. ولكن هذه الطريق، إذا ما استطعنا تسميتها طريقاً، لم تكن في أي مكان عريضة بما يكفي لسير خيّالين إلى جانب بعضهما البعض. والويل للمسافر الذي يتيه عن هذه الطريق التي تؤدي إلى مواقع المياه القليلة الموجودة في الحرة. ومن يضيع هنا سيموت وما معه من حيوانات خلال وقت قصير من شدة الإنهاك والعطش. تبقى الحرة على هذا الشكل حتى مسافة قريبة من نبع نمارة. وأنا أؤكد بالمناسبة ملاحظة فتسشتاين وهي أن الحجارة البركانية في الحرة تنفجر بين حين وآخر محدثة صوتاً قوياً. ولعل السبب في ذلك يعود إلى التبخر السريع، تحت حرارة الشمس اللاهبة، لقطرات الماء التي تتجمع خلال الليل وبعد المطر في مسام الحجارة.

حرارة يوليو/ تموز وانعكاس أشعة الشمس على الأرض الصخرية جعلت السير في هذه الأرض عذاباً حقيقياً. أضيف إلى ذلك أنه كان يتعين علينا الاقتصاد في استهلاك الماء الموجود معنا ولذلك لم نكن نستطيع إرواء ظمئنا بشكل كامل أبداً؛ كان هناك، على الرغم من كل الحذر لدى مرافقينا، خطر الخروج عن الطريق أو إيجاد مصادر الماء المعروفة جافة أو مستهلكة بكاملها ممن مروا قبلنا. وخاصة الحيوانات عانت بشكل لا يصدق وكان من حسن الحظ أن هذا الجزء من الرحلة جاء في بدايتها حيث كانت لم تزل نشيطة وغير مرهقة. وكان يتعين علينا ألا نغفل عن الخيول والإبل لكي نحميها من السقوط. وقد أصيبت عدة جمال بجروح في أقدامها بحيث تعين فيما بعد في الضمير تخييط قطع جلدية على المواقع المجروحة من خفافها.

خلال اليوم الأول بكامله لم نجد أي موقع للماء. وفي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر وجدنا قرب الضفة اليمنى من وادي الشام مخيماً ضيقاً مجارياً

للوادي طوله مسافة نصف ساعة تقريباً تقيم فيه في الشتاء قبيلة الرسية، إحدى قبائل عربان الجبل، يطلق عليه اسم «منطر». بجهد كبير قاموا بإبعاد الحجارة حجراً حجراً لكي ينصبوا خيامهم على الأرض الرملية السهلية ويوفروا لقطعانهم مأوى مناسباً. بواسطة الحجارة التي جمعوها بنوا أسواراً يتراوح ارتفاعها بين نصف متر ومتر حول خيام ومراعي العائلة الواحدة. يسمى مثل هذه المخيمات المصممة اصطناعياً، والتي يوجد العديد منها في الحرة، «مشتى». بعد ذلك بوقت قصير وصلنا إلى منخفض في سرير الساقية يطلق عليه اسم حفان وكنا نتوقع وجود ماء فيه، ولكن أملنا خاب.

في الساعة السادسة مساء وصلنا أخيراً إلى موقع الماء «الحفنة» الذي رسمه شتوبل وفتسشتاين في خرائطهما بناء على استكشافاتهما الشخصية ولكنه يقع في مكان أبعد جداً إلى الشرق من حوران من المكان المرسوم فيه. كما اعتقدت أيضاً، استناداً إلى الخرائط، أنني سأجد هنا حفرة كبيرة في مجرى الساقية تشبه البحيرة، لكنني لم أجد سوى جورة ماء طولها 15 ـ 20 متراً وعرضها 4 ـ 5 أمتار وعمقها حوالي 40 سنتيمتراً، وفي الشتاء أيضاً لن يزيد عرضها على 30 ـ 40 متراً، ولكنها مرسومة على الخارطة أكبر بكثير مما هي في الواقع. إلى الشمال يصعد السرير المتوسع للحفنة بهدوء إلى مستوى الحرة، بينما تبرز الضفة الجنوبية اليمنى كجدار شديد الانحدار ارتفاعه نحو 30 قدماً يحمي الماء الذي يبرز فوقه على ارتفاع شاهق من حر الشمس اللاهب وبالتالي من الجفاف. وعلى بعد دقائق قليلة قبل هذا الموقع كانت تشاهد على الضفة اليسرى بكل وضوح آثار فتحات الآبار المحفورة في الأرض الصخرية لكنها رُدمت في وقت لاحق ودُمرت. ويبدو أن هذه الآبار كانت في يوم من الأيام محطة على الطريق إلى مضارب الغساسنة في الرحبة.

بينما كانت الحرة نفسها خالية من النباتات تماماً كان يوجد في سرير وادي الشام المنخفض إلى حد ما وفي جوار مواقع مائية أخرى مجموعات من الزهور البنفسجية وذات الرائحة العطرة وشجيرات صغيرة ذات زهور تميل إلى اللون الأزرق تحل هنا كما يبدو محل شجيرة الدفلى المنتشرة كثيراً في شمال غرب

إفريقيا. إضافة إلى ذلك كانت هناك زهرة صفراء ذات رائحة كريهة وقوية جداً تأكلها الجمال بشغف شديد.

نصبنا مخيمنا في الحفنة في وسط سرير الجدول وتعين علينا وعلى الحيوانات التي معنا إرواء ظمئنا بالماء المالح المصفر. أما الماء الذي عبأناه في الأجربة المصنوعة من جلد الماعز من النبع الرائع في سالي، والذي كان قد نقص كثيراً رغم كل الاقتصاد في استهلاكه، فقد تركناه احتياطاً لاحتمالات غير متوقعة.

إلى جانب الحفنة مباشرة كان يخيم نحو 20 شخصاً من الصليب الذي ينتمون إلى قبائل غريبة الشكل تختلف هيئتها وطريقة حياتها في كثير من النواحي عن البدو العرب. فهم غالباً أقصر قامة، يعيشون بصورة رئيسية على صيد الغزلان التي يتخذون من جلودها في أحيان كثيرة ملابس لهم. وتتميز نساؤهم بجمال رائع. فقد رأيت في الرحبة امرأة صليبية ذات جسم أكبر قليلاً من المتوسط وبشرة شديدة السمرة، وجهها نحيل وعيناها متثاقلتان ولكن براقتان تحت رموش طويلة وشعر أسود بسيط ورائع وأسنان في غاية الجمال. لا يملك الصليب الخيول والإبل إلا نادراً، بل يركبون حميراً صغيرة الحجم ولكنها عالية المقاومة والتحمل، وفي بعض الأحيان يحوون بعض الغنم والماعز. وهم يعيشون في سلام مع جميع قبائل الصحراء ويقدمون في كل مكان خدمات الدلالة والقيادة في الصحراء مقابل ما يلقونه من كرم ضيافة من الجميع وعدم التعرض لما لديهم من ممتلكات بسيطة؛ فلا أحد يعرف الصحراء كما يعرفها الصليب. كما أن رجالهم ونساءهم يرقصون في المناسبات أمام البدو ويحصلون لقاء ذلك على الهدايا. لم يزل الأصل العرقي للصليب غير معروف بشكل دقيق، فهم على الأرجح غير ساميين وإنما من أصل هندي. ويقال بأن الخلفاء العباسيين المتأخرين جلبوا إلى قصورهم في بغداد فرقاً موسيقية من الهند، وعندما جاء تيمورلنك هرب أعضاؤها إلى الصحراء. وقد سمعت مراراً الرأي أن الصليب الحاليين هم أحفاد أولئك الموسيقيين. وينتشر الصليب اليوم في الصحراء من حلب وحتى رأس الخليج العربي جنوبي الفرات. وبينما يتنقل البدو كقبائل يتنقل الصليب كعائلة واحدة وفي

أحيان كثيرة كشخصين أو ثلاثة وأحياناً بدون خيام؛ ويدفنون موتاهم قدر المستطاع في مقابر كبيرة مشتركة. ومن الممكن تسميتهم بحق «غجر الصحراء».

رافق عشاءنا أيضاً، بعد مسير شاق وطويل، غناء قدمه أحد الصليب الذي غنى على أنغام قيثارة مربعة (ربابة) الشكل نشيداً مدح فيه أحد شيوخ الرولة كان قد حصل من هذا الشيخ السخي على جمل لقاء ذلك.

في هذا المساء كادت رحلتي في الحرة تفشل بكاملها بسبب تصرف خاطئ قمت به. فحسب عادتي تناولت طعامي منفرداً ثم أردت بعد ذلك أن يوضع البرغل أمام مرافقيّ من الدروز والغياث. فلاحظت انفعالاً شديداً واستياء بين الرجال تبين لي أنه ناجم عن غضبهم بسبب تناولي الطعام منفرداً بعيداً عن المائدة المشتركة مخالفاً بذلك قواعد كرم الضيافة العربي. إذ إن مرافقي الذين لم يسبق لهم أبداً أن تعاملوا مع أوروبي أو مع تركي وجيه أو مع رجل من سكان المدن شعروا بالإهانة من تصرفي هذا. وتوقف الأمر فعلاً على ذبلان فيما إذا كانوا سيتابعون مرافقتي أم يتعين علي قطع رحلتي هنا والعودة إلى حيث أتيت. ولكي أتصالح مع الرجال المجروحي الكرامة بدأت تناول الطعام من صحونهم أيضاً قائلاً لهم إنني أكلت في بادئ الأمر على الطريقة الأوروبية والآن آكل معهم حسب العادات العربية التي أعرفها جيداً أيضاً. أدت هذه الحركة الدبلوماسية الصغيرة إلى إعادة العلاقة إلى وضعها الطبيعي. ولا بد لي من الاعتراف هنا بأن ذبلان وقف، بعد هذه الحادثة، إلى جانبي دوماً وعرض حياته مراراً للخطر دفاعاً عني ضد رفاقه.

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي تحركت القافلة من الحفنة. وفي الساعة السابعة والنصف توجهنا نحو شرق الشمال الشرقي على الضفة اليمنى لوادي الشام، وبعد ربع ساعة توجهنا ثانية نحو الشرق، وفي الساعة التاسعة والنصف وصلنا للمرة الثانية إلى مخيم شتوي (مشتى) هام. كان المخيم يمتد مسافة تزيد على ربع ساعة على ضفة الجدول، أما عرضه فكان، مثل عرض المشتى السابق، قليلاً. في الساعة العاشرة والنصف صادفنا في سرير الوادي

الجاف نبع ماء ضعيفاً يسمى غدير السوس. هنا نصبنا خيمتنا لتناول طعام الفطور دون أن نعلم أننا قد وقعنا في كمين كادت أن تكون له عواقب وخيمة بالنسبة للرحلة. فكما هو الحال دوماً عندما يكون الخطر لا يمكن أن يأتي إلا من الأمام فقط سرت مع بعض الخيالة أمام القافلة وسبقناها مسافة طويلة. بعد ذلك توقفنا لتفادي حر الظهيرة الشديد ولانتظار وصول القافلة التي لم يكن في وسعها مع جمالها اللحاق بخيولنا ولذلك كانت تسير من الصباح حتى المساء بسرعة ثابتة يُرافقها بقية الخيالة. وعندما وصلت تركناها تسبقنا. وما إن امتطينا ظهور خيولنا لمتابعة المسير حتى سمعنا أصوات طلقات ورأينا كيف أن رجالنا كروا بأقصى سرعة إلى الوراء باحثين عن مخبأ خلف إبلهم. كان إطلاق النار يأتي من مرتفع واقع أمامنا فيه العديد من الرجم[1]. كان ذبلان واثقاً من أن إطلاق النار لا يمكن أن يكون صادراً إلا عن أشخاص من قبيلته نفسها واندفع بأقصى سرعة إلى الأمام، حيث كانت طبيعة الأرض ولحسن الحظ تسمح بذلك هنا، وتبعته أنا. أما منصور فقد بقي إلى الوراء لأنه، كما أوضح لنا لاحقاً، إذا ما كان الناس الذين أمامنا من قبيلة غياث فعلاً وعرفوا أنه من عنزة عدوهم اللدود فإنهم سيظنون أننا مجرد طلائع غزوة تشنها عنزة ضدهم. وما إن شاهدنا المهاجمون حتى فتحوا نيران بنادقهم دون توقف، ولحسن الحظ والغريب أنه لم يصب أحد بجراح. بقينا متابعين سيرنا إلى الأمام إلى أن تمكن ذبلان من إقناع مهاجمينا بأننا أصدقاء مما جعلهم يوقفون إطلاق النار أما نحن فلم نطلق رصاصة واحدة. إذ لو قتل أي واحد من المهاجمين لأدى هذا دون أدنى شك إلى القضاء على القافلة، أولاً، لأن عدد المهاجمين كان حوالي مائة بندقية ولأنهم كانوا فعلاً من غياث وبالتالي فإن الحماية التي يقدمها لنا ابن قبيلتهم ذبلان كانت ستذهب هباء وتتحول إلى ثارات دم لا يعلم نهايتها إلا الله. ولعل المهاجمين كانوا يريدون جرّنا إلى مثل هذا الرد المتسرع لكي يستولوا على القافلة وما فيها. غير أنهم زعموا أنهم ظنّونا،

---

(1) الرجم هي كميات من حجارة الحرة مكوّمة فوق بعضها بحيث تشكل نوعاً من الحواجز لها غرضان: تعليم المنطقة وتحديد المواقع من جهة واستعمالها كسواتر للرمي والدفاع من جهة أخرى.

بسبب خيمتنا البيضاء المدببة، جنوداً أتراك حاولوا التغلغل في الحرة كما حدث في عهد الجنرال فيضي باشا. وقالوا إنهم تعرفوا على ذبلان عندما توجه نحوهم لكنهم اعتبروه خائناً كرهاً أو طوعاً. تابعنا مسيرنا مع الغياث الذين كانوا، جميعهم تقريباً، مسلحين ببنادق مرتينه حتى وصلنا بعد ربع ساعة تقريباً، وعبرنا صفاً ثانياً من الرجم، إلى مخيمهم حيث قدموا لي الخبز وحليب الماعز ولكن بعد أن أفهموني أن تجاوبهم معي يستحق مكافأة صغيرة. وعندما أعطيتهم نصف مجيدي (حوالي 2 مارك) قبلوه شاكرين. عبرت قافلتنا مخيم الغياث الساعة 12,30 ظهراً وتابعت مسيرها دون توقف نحو الشمال حتى وصلت الساعة 4,30 بعد الظهر إلى نمارة. عند نمارة التقينا مرة أخرى مع وادي الشام الذي كنا قد غادرناه عند غدير السوس وذلك لأن الساقية ترسم اعتباراً من هنا قوساً كبيراً نحو الشرق. كان تل نمارة، الذي توجد بناية على قمته، مرئياً من مسافة بعيدة. وهو يقع على جزيرة في وادي الشام الذي يصب فيه عند هذه النقطة رافد يأتي من جهة الشرق ويصبح عريضاً جداً. وجدنا هنا ماء راكداً ولكنه وافر؛ لأن الماء المتبقي في الساقية من فصل الشتاء يرفده هنا نبع ضعيف جداً ولكنه متواصل الجريان، وهذا بالتأكيد النبع الوحيد في الحرة كلها. إضافة إلى ذلك يوجد إلى الشرق من التل بضعة آبار، يصل عرضها حتى خمسة أمتار، ولم يزل بعضها في حالة سليمة. كما أن الوسط النباتي الشحيح المذكور سابقاً كان هنا أغنى إلى حد ما وحوّل السهل البالغ طوله نحو 20 دقيقة وعرضه نحو خمس دقائق إلى نوع من المرج الأخضر في مواقع متفرقة. يتخذ التل البالغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً شكلاً مخروطياً؛ وعلى سطحه يبرز، إلى جانب بقايا جدران مهدمة وقبور كثيرة، بناء قبر شيخ بدوي قديم يقال إن اسمه نمار وهو بطل اخترعه العرب وحصلت القرية على اسمها نسبة له. يتألف الضريح في وضعه الحالي من مبنى على شكل مربع بدون سقف مقسوم بواسطة قوس إلى قسمين يحتوي القسم الخلفي منه على القبر المغطى بحجارة مبنية على شكل نعش مرتفع عن سطح الأرض. أما المبنى فيعود إلى عصر أقدم وكان يستخدم في السابق كبرج للمراقبة. فوق فتحة الباب وعلى العديد من الصخور البارزة في الأرض وجدت كتابات إغريقية. كانت الكتابة فظة

جداً ومن الواضح أنها محفورة في الحجر من أشخاص لا يتقنون فن الكتابة بشكل جيد. وعلى أحجار أخرى كانت توجد كتابات مختلفة بالخط الحميري خالية أيضاً من كل إتقان فني. وإلى الغرب والشرق من هذا التل لم تزل توجد على مرتفعين مجاورين بقايا بيوت من زمن قديم. الكتابات الموجودة في نمارة كانت معروفة من زوار سابقين[1] وهي تتألف غالباً من أسماء جنود رومانيين من الواضح بما لا يقبل الالتباس أنهم من أصل عربي. يتبين من هذه الكتابات أنه كان يوجد هنا حامية رومانية تابعة للفيلق الموجود في بصرى، وتشير إحدى الكتابات[2] إلى أن الاسم القديم للقرية كان نمارة. كانت نمارة تشكل المركز العسكري الأبعد في عمق الحرة والذي يرمي إلى حماية الرحبة من جهة وحوران من جهة أخرى.

عبرنا الساقية ثم نصبنا خلف تل نمارة مخيمنا. وعندما زرت التل في صباح اليوم التالي مرة أخرى، بينما كان رجالي يفكون الخيام، رأيت قافلة كبيرة قادمة من جهة الغرب. وبعينيه الحادتين تعرف ذبلان على القافلة من بعيد وأدرك أنها تتألف من نفس الغياثيين الذين كنا قد التقينا بهم في اليوم الماضي. ومن أجل التحية أطلق الجانبان الطلقات التقليدية في الهواء. ومن مسافة بعيدة كانت تنطلق صرخات تشبه العويل تكرر مرة تلو الأخرى «مرحباً يا ذبلان، مرحباً يا ذبلان». كان يتقدم القافلة رجل يسير على قدميه يتبعه نحو عشرة خيالة على الذلول (جمال الركوب)، وعلى مسافة منهم تسير مجموعة الإبل، التي تحمل الرجال والنساء والخيام ومعداتها، يرافقها عدد من الرجال المسلحين، يتبعهم على مسافة قريبة مجموعة أخرى من ركاب الإبل، والجميع يسيرون بسرعة العدو الخفيف. في بعض الأحيان كنا نرى ثلاثة غياثيين على ظهر جمل قوي واحد، وكان بين الإبل

---

(1) انظر وادينغتون، كتابات إغريقية ولاتينية في سورية 2264 ـ 2285. فوغويه، كتابات سامية، ص146. فتسشتاين، كتابات مختارة من حوران، ص265، 266.

(2) انظر وادينغتون، رقم 2270، نفس المرجع السابق، ص523. موريتس، عن الطبوغرافيا القديمة للبالمورينه، ص15، يعتقد أن نمارة هي صلتاته أو صلتادة القديمة.

عدد من النماذج البيضاء كالثلج، وكان منظراً جميلاً كيف كانت النساء، وأطفالهن بين ذراعيهن، يتمسكن بقوة ورشاقة على ظهور إبلهن وهي تعبر الساقية.

انطلقنا من النمارة في الساعة السابعة صباحاً. وكان الغياث يقومون بنصب خيامهم أمام آبار نمارة، وهو عمل أدوه بسرعة مدهشة. بعد ذلك أصبحت الصحراء الصخرية أكثر تموجاً، وفي الساعة التاسعة وصلنا إلى أعلى نقطة، إلى منق النمارة. وبعد ذلك بوقت قصير سرنا مسافة قصيرة على طريق رومانية كانت آثارها لم تزل ظاهرة بشكل واضح وكانت تتجه نحو الشمال باتجاه الواحة. كانت الطريق بعرض 10 أمتار تقريباً وكانت مقسمة بواسطة صفوف الحجارة المرصوفة التي لم تزل باقية هنا وهناك إلى ثلاث دروب تسير إلى جانب بعضها البعض. كانت الطرق الرومانية المختلفة التي تمر عبر الحرة منفذة بطريقة تشير إلى أنه قد تم تعزيل الحجارة حجراً حجراً ووضعها جانباً، الأمر الذي يتطلب كثيراً من الصبر والوقت والجهد. ويبدو أن الطريق التي نعبرها هنا لم يستكمل بناؤها إلى مسافة أبعد، وعلى أي حال لم نجد لها أثراً إلى الجنوب من منق النمارة على الطريق التي سلكناها. يرسم غراهام على خريطته طريقاً تنطلق من نمارة باتجاه الشمال الشرقي زاعماً أنها تؤدي إلى تدمر. أما نحن فقد تحولنا بعد وقت قصير أكثر نحو الشرق وشاهدنا أمامنا، بعدما عبرنا منخفضاً كبيراً، الواحة المسماة الرحبة (أي السهل). بصورة غريبة الشكل تبرز المساحة الواسعة الصفراء مرتفعة فوق الحرة السوداء، وتظهر خلفها أكثر قتامة صخور اللافا (الحمم البركانية) المسننة التي تغطي جبل الصفا. كانت الشمس ترسل أشعة ساطعة وكان انعكاس الضوء الرائع يتلألأ فوق الرحبة بشكل في غاية الجمال. وبدت الصورة وكأن المرء يشاهد أمامه مساحات من الماء تشمخ خلفها بيوت وأشجار. وعندما اقتربنا من المكان اختفت الصورة الخادعة. الآن أصبحت الأرض أفضل وأصبح الطريق أيسر وصار الرمل الأصفر يوفر لحوافر حيواناتنا المسكينة، التي أخذت تجد السير بنشاط نحو السهل، بعض الأرض الصلبة التي تستطيع الارتكاز عليها. إلى يسارنا كان يقع السفح الجنوبي الشرقي لهضبة الصفاة. وكان اتجاهنا قد أصبح

نحو الشمال الغربي. بدأنا ننزل ببطء نحو الرحبة ونقترب بزاوية حادة من جبل الصفا. وبدأت تتضح شيئاً فشيئاً معالم الآثار الكثيرة للبيوت الحجرية الواقعة على أطراف المرتفعات، وأخيراً ظهرت على بروز منخفض لجبل الصفا معالم القصر الأبيض. أمامنا في وسط الواحة كان يقع البيت الصغير الأبيض للشيخ سراق، الولي المقدس في كامل المنطقة؛ وصلنا إليه في الساعة العاشرة والنصف وأخذنا استراحة في ظل المزار البارد. كان بيتاً حجرياً بسيطاً مربع الشكل مطلياً بالكلس الأبيض وله باب منخفض ونافذتان صغيرتان في الجهة الشرقية. وكان قد غُطي في العام الماضي بسطح حجري مسطح. وكانت الجدران الخارجية مزينة ببعض الحجارة المزخرفة المأخوذة من «القصر الأبيض». في الداخل يوجد القبر الحجري للشيخ وقد علقت عليه كمية كبيرة من قطع القماش والخرق البالية، إذ في كامل المنطقة لا يوجد مزار يحظى بمثل هذا التقديس. حتى مرافقيّ الدروز قدموا للشيخ سراق تبرعاً، فقد غطوا تماماً بنفس الطريقة التي يتعامل بها المسلمون مع مزاراتهم - أجزاء كبيرة من القبر بأشرطة قماشية قطنية طويلة وملونة كانوا قد جلبوها معهم ملفوفة بعناية في قطع قماشية، ثم داروا حول الضريح وقبّلوه. أما أنا فما أردت أن أكون أقل كرماً وتبرعت للقبر بمنديل جيبي الذي يحمل توقيعي. وتروى عن الشيخ المدفون هنا حكاية تقول إنهم دفنوه في بادئ الأمر في الصفا لكنهم شاهدوه بعد ذلك ثلاث مرات في مكان ضريحه الحالي ولذلك نقلوا رفاته إلى المكان الحالي الذي اختاره هو بنفسه. ويقال بأن الولي الميت صرخ قائلاً: «الصفاة هي جهنم والرحبة هي الجنة. وأنا استحقيت الجنة». ولم تزل الصفاة حتى اليوم تسمى جهنم وتسمى الرحبة الجنة. ويعتبر الشيخ سراق حامي الرحبة؛ فمن يأكل ثمرة من الثمار التي تنبت قرب قبره، سواء أكان إنساناً أم حيواناً، يعاقب على ذلك بالموت. ويثق جميع البدو بأنه يحمي الممتلكات من السرقة أو الضياع ويخبئون في جدرانه حتى نقودهم، وقد أكد لي أحدهم أنه وجد بعد سنوات النقود التي وضعها هنا دون أن يتعرض لها أحد. وقد وجدنا هناك فعلاً كثيراً من الأشياء: عباءات، وأدوات منزلية، ومشمعات خيام، وغير ذلك.

في الربيع تكتسي الرحبة بحلة أجمل وألطف من التي كانت ترتديها عند زيارتي لها. ولكن حتى في ذلك الوقت لا يتطابق شكلها مع الصورة التي يحملها المرء عادة عن الواحة. إذ لا ينبت هنا إلا الذرة والشعير والأعشاب والأزهار السورية البرية؛ أما الآن في يوليو/ تموز فكانت تقع أمامنا أرض قاحلة صفراء اللون. إلى جانب ضريح الشيخ سراق كان يوجد بعض جذوع الذرة، وهي التي سببت ظهور ذلك السراب الذي تحدثت عنه. لم أر في الرحبة أي شجرة بل فقط بعض النباتات والأعشاب التي تأكلها الإبل أو الغنم أو الماعز وبقايا المحصول السابق. ولو تمت زراعة الرحبة كاملة بالمواد الزراعية لوفرت الغذاء لآلاف البشر والماشية. وبالفعل فإن الآثار العمرانية الكثيرة الموجودة على السفوح الشرقية لجبل الصفا[1] وفي الرحبة نفسها تشير إلى أن المنطقة كانت في يوم من الأيام مأهولة بالسكان. لا يملك الفرد عند الغياث أي حق بأي قطعة أرض خاصة به بل إن كل فرد له الحق بأن يحرث أي قطعة من الرحبة ويزرعها أينما شاء.

يبلغ طول الرحبة من جنوب الجنوب الغربي حتى شمال الشمال الشرقي نحو 24 كيلومتراً. الجزء الجنوبي، أي الجزء الواقع إلى الشرق مباشرة من جبل الصفا، والبالغ طوله نحو 15 كيلو متراً هو نوع من منطقة الغمر. فمن الجنوب ينقل له وادي الغرز ووادي الشام المياه من شرق حوران، ومن جهة الشرق يستقبل المنخفض خلال فصل الأمطار المياه من أملود الكنيسة وأملود الغمار، ومن جهة الشمال من أملود السيس. أما المنطقة المجاورة في الشمال لهذا الجزء الأكثر انخفاضاً من الرحبة والتي لم تزل أيضاً صالحة للزراعة فهي تمتد نحو الغرب لتشمل شريطاً كبيراً من جبل الصفا.

قررنا عدم زيارة القصر الأبيض على الفور لأن ذبلان خشي أن يشن علينا الغياث الموجودون في الرحبة هجوماً إذا لم يكونوا قد أعلموا مسبقاً بأننا نسافر برفقة رجل من قبيلتهم. كان المقر الرئيسي للغياث موجوداً إلى الشمال مباشرة من

(1) يذكر بوركهاردت (نفس المصدر السابق، ص93) أسماء بعض الآثار. ويسمى واحة الرحبة قضاء توجد فيه مدينة تحمل الاسم نفسه. لكن هذه المدينة لا وجود لها.

قبر الشيخ سراق قبل مسافة قصيرة من الزاوية الجنوبية الشرقية لجبل الصفا. وهذه هي النقطة التي توجهنا إليها. قام ذبلان عدة مرات بعرض ما يسمى «تخييل الصديق»، أي انفصل عن الركب بسرعة العَدْوِ وقام بدورة كبيرة على ظهر حصانه ثم توقف فجأة، وهذه إشارة إلى أنه صديق. عندئذ جاء باتجاهنا رجال مسلحون مع قطعان الماعز والغنم، ولكنهم لم يرحبوا بذبلان، الذي ما لبثوا أن تعرفوا عليه بأنه من قبيلتهم، بإطلاق النار من بنادقهم وإنما بالقبلات. بعدئذ تابعنا السير بسلام حتى وصلنا إلى قرب الزاوية الشمالية الشرقية للجبل، على مسافة دقائق قليلة فقط من طرف الصفاة، حيث كان مخيم الغياث. وكانت توجد هنا بركة ماء غائرة عميقاً في الأرض البركانية تسمى بركة السويدر وإلى جانبها بئر تسمى بير فضل، الأمر الذي يوحي بأن المخيم يكون أكبر في الشتاء. نصبنا مخيمنا إلى جانب خيمة أخي ذبلان، وهو واحد من كبار شيوخ الغياث. في المساء ذبحوا خروفاً تكريماً لنا، وقدمت بضع نساء من الصليب كن موجودات هناك بعض الرقصات، ثم قام رجلان من غياث بتقديم بعض الأناشيد التي كانت مديحاً لي ولحصاني الأمر الذي كلفني بعض الدراهم. فيما عدا ذلك قضينا السهرة في التفاوض حول الصعود المقرر إلى جبل الصفا. إذ كان فتسشتاين قد تحدث بإسهاب عن الصعوبات التي اعترضته عندما أراد زيارة جبل الصفا. أما أنا فقد حصلت بقليل من الجهد على موافقة رجال من غياث، يعرفون المنطقة جيداً، على مرافقتنا. مقابل مجيدي واحد لكل رجل وجمل قبل الرجلان اللذان غنوا أناشيد المدح في المساء ومعهما رجلان آخران شابان مرافقتنا على الجمال إلى أعلى قمة في الجبل. وكانت خطتنا أن نقضي الليل في الأعلى ثم نعود في اليوم التالي بعد زيارة القصر الأبيض.

انطلقنا مع شروق الشمس. وبما أن مخيمنا كان بالقرب من اللحف فقد وصلنا بعد دقائق قليلة إلى مجال الجبل. ومن الضروري هنا تصحيح العرض الذي قدمه بوركهاردت[1] استناداً إلى أقوال البدو دون أن يأتي هو نفسه إلى جبل

(1) نفس المصدر السابق، ص92. انظر أيضاً داي، نفس المصدر السابق، ص22 وما يليها.

الصفا. فهو يشبّه الصفاة باللجاة لكنه يعتبر صخور الصفاة أهم ويقول إنه لا يوجد فيها بئر وإنما فقط أحواض لتخزين مياه المطر، ولا يستطيع أي عدو الدخول إليها لأنه لا يوجد سوى طريق واحد يؤدي إلى هناك، وهو ممر ضيق يسمى «باب الصفا» يقع بين كتل من الصخور العالية ولا يزيد عرضه على 2 يارد (182 سم) وطوله على 100 يارد ـ كلام من نسج الخيال العربي الواسع[1]. أما في الحقيقة فإن الوصول إلى الصفا من الرحبة سهل، ولا تظهر، إلا بعد الصعود فترة من الزمن، جوانبه المخيفة والرائعة التي تفوق كل ما رأيته حتى الآن.

تمتد جبال الصفا على مسافة عدة أميال، وقد احتجنا إلى مسير أربع ساعات ونصف حتى وصلنا إلى القمة. يبدو هذا الجبل الهائل بحجمه الضخم على شكل كتلة رهيبة من الحمم البركانية المتصلبة. وتبدو الأرض التي تصر تحت حوافر الخيل، والتي تبدو مرة بلون المعدن الصدئ ومرة بلون رمادي أو أسود قاتم، كأمواج بحر هائج تصلبت فجأة. كثير من المغاور والثقوب الكبيرة تخترق هذه الكثبان البركانية المتموجة التي انطلقت في يوم من الأيام من الفوهات البركانية لبراكين الصفاة. عبرنا إحدى هذه المغائر التي كان قطرها مسافة خمس دقائق تقريباً من المسير وكانت في الماضي فوهة بركان ثائر. امتدت هذه الفوضى من الصخور والحجارة عدة كيلو مترات أمامنا ولولا وجود دليل معنا لسقط أحدنا بالتأكيد في أحد الشقوق الكثيرة الموجودة إلى جانب الطريق أو لضلّ السبيل ومات من العطش. قادنا أدلاؤنا من غياث على دروب لا يمكن أن يعرفها الغريب. وما كنت أصدق أنه سيكون في وسعنا الصعود إلى الصفا على ظهور الحيوانات ولذلك كانت بالنسبة لي مفاجأة سارة أننا لم نضطر إلى الترجل عن ظهور جمالنا المتعودة على السير في الطرق الوعرة للغاية إلا في بعض المواقع العسيرة بشكل خاص. يبدو أن جملي كان في حالة سيئة وكان يئن دون توقف، ولذلك بدلته بجمل آخر تابع لغياث كان يحمل أربعة أزقاق كبيرة مليئة بالماء.

في البداية سرنا نحو نصف ساعة نحو الغرب في سفح قليل الانحدار إلى أن

---

(1) انظر بوركهاردت، نفي المصدر السابق، ص93، ثم الملحق 6، ص667.

وصلنا إلى مصطبة سهلية تمتد كالشرفة في شرق جبل الصفا وعبرناها بصعود طفيف في اتجاه جنوب الجنوب الغربي خلال ساعة ونصف الساعة تقريباً.
وعندما وصلنا إلى مقربة من القصر الأبيض، الذي شاهدنا مسنناته من الأسفل، توجهنا مرة أخرى لمدة نصف ساعة نحو الغرب حتى وصلنا إلى مصطبة ثانية عبرناها بسرعة لنتجه بعد ذلك نحو الشمال. وهنا بدأ أصعب مقطع في عملية الصعود بكاملها، المقطع المسمى «الخشبة»، وهو فوضى عارمة من الحمم البركانية المتواصلة عدة كيلو مترات التي تشكل بما فيها من شقوق ومغاور، ومن تشكلات كهفية رائعة، ومن تفرعات وتغصينات حجرية تنطلق من الأعماق المنخفضة وتمتد فوق الشقوق والشروخ، تشكل منظراً يعجز حتى أوسع وأغرب خيال عن تصور شبيهاً له. في تبدل ملون تتزاحم هنا التشكيلات الحممية بمختلف أنواعها، الحجارة الطفية البركانية والخبث اللازوردي اللماع والكتل المتصلبة، مشكّلة جميع ما يخطر على البال من ألوان من الأحمر عبر البني وحتى الأسود الذي يشكل أعلى نسبة. هناك نوع من الدرب التي يصعب حتى على الدليل الخبير التعرف عليها، معلّمة بين حين وآخر ببعض الحجارة البركانية المتميزة بشكل أو بآخر، أكبر من غيرها أو ملفتة للانتباه بشكل ما، تمر عبر الخشبة التي قطعناها خلال نصف ساعة تقريباً لتصل إلى أعلى مصطبة والتي توجد فيها قمة الفوهة البركانية لجبل الصفا. بعد دقائق قليلة وصلنا إلى هذه المصطبة الهضبية التي يبلغ طولها نحو 12 كيلو متراً وتمتد على شكل حدوة فرس من جنوب الجنوب الشرقي إلى شمال الشمال الغربي. في الطرف الجنوبي الشرقي تقع أعلى ذروة القمة، أي «تلول الصفاة» الحقيقية، المؤلفة من عدة فوهات بركانية ضخمة ذات شكل هضبي مدبب، ويوجد بينها سهل مستدير أملس تقريباً يبلغ طول قطره كيلو متر واحد تقريباً ومحاط بطرف إطاري منخفض ذي حواف متكسرة أو مهدمة. ويفيد الغياث بأن هذا السهل كان حتى ما قبل عدة عقود يزرع بالشعير وهذا دليل على أن ما ذكره بوركهاردت[1] عن صلاحية قمة جبل الصفا لزراعة الحبوب كان صحيحاً.

(1) نفس المصدر السابق، ص92، 93.

المرتفع الشرقي من التلول فوهة بركانية مستقلة، من الخارج على شكل مخروط ومن الداخل على شكل قمع، طرفها الشرقي مكسور ومنهار نحو الداخل. بدلاً من الحمم البركانية (اللاّفا) التي يجدها المرء في كل مكان توجد هنا، نحو خارج مخروط الفوهة البركانية وفي داخله، نتائج تدفقات من الرماد مخلوطة مع قطع حجرية صغيرة. وهناك ظاهرة طبيعية غريبة تتمثل في وجود كثير من التشكلات الأنبوبية التي يتراوح قطر فتحتها بين بضعة سنتيمترات وحتى بضعة أمتار يبدو أنها كانت آنذاك قد لعبت دور الفتحات لخروج الحمم البركانية، وهي نفسها ليست سوى فقاعات منفجرة في الكتلة المنصهرة تعود إلى زمن نشوء الفوهة البركانية.

إلى الشمال الغربي من هذه الفوهة يوجد مرتفع من المصطبة الحميمية معتدل الارتفاع يسمى «الزنيتعة» توجد فيه حفرة قمعية الشكل يبلغ طولها نحو 150 متراً وعرضها 30 متراً وعمقها 30 متراً. عند النقطة الواقعة في أقصى جنوب الحفرة البيضوية الشكل تبرز نحو الأعلى كتلة بركنية حمراء اللون، وكأنها عمود من اللهب تحوّل فجأة إلى حجر، تتميز بشكل فاقع عن محيطها الذي يميل إلى اللون الأسود وقد تكون بقية السور الطبيعي الذي كان يحيط في السابق بحفرة الزنيتعة. وعند النظر إلى داخل الفوهة البركانية يبدو قاعها الأسود مخيفاً يثير الرهبة في النفس، لكننا بحثنا عبثاً عن الحلقة الحديدية التي ذكرها فتسشتاين[1] والتي تحدث عنها الغياث أيضاً وتقول الحكاية المتناقلة أن أحد أمراء الغساسنة كان يشنق عليها المجرمين لكي يروا جهنم أمام أعينهم في هذا الجزء الرهيب من مملكته.

تقع الفوهات البركانية البعيدة لجبل الصفاة بعد الزنيتعة من جهة الشمال الغربي وتبعد إحداها عن الأخرى نحو كيلو متر واحد. في هذا الاتجاه تنخفض هضبة الصفاة بشكل تدريجي نحو الأسفل. وللأسف كان الماء الموجود لدينا قد

(1) نفس المصدر السابق، ص11.

نقص بسبب الحر الشديد إلى درجة أنني لم أتجرأ على الصعود إلى هذه القمم التي كنت أستطيع أن أرى منها بكل وضوح «المراتي» و«الواسط» و«أبو غانم». وتجدر الإشارة إلى أن خريطة فتسشتاين تختلف عن خريطة شتوبل هنا، إذ تشير الأولى إلى أن اتجاه هذا الخط من الفوهات البركانية هو الشمال الغربي بينما تقول الثانية إنه الشمال. على خريطة شتوبل يجب أن تكون المراتي أبعد قليلاً نحو الغرب وأن تكون هضاب التلول متباعدة أكثر عن بعضها البعض، وكان ينبغي رسم الجبال الشرقية القريبة كمرتفعات أقل علواً. بخصوص الأسماء المختلفة للقمم كان حتى الغياث الذي يرافقوننا غير متفقين في الرأي، ولكن من الواضح تماماً أن الأسماء المسجلة في خريطتي فتسشتاين وشتوبل هي المستعملة بشكل عام. بعض الغياث أطلقوا على أعلى مرتفع من تلول الصفاة اسم «أبو غانم»، بينما تطلق الخريطتان المذكورتان هذا الاسم على الفوهة الواقعة في أقصى الشمال.

من هضبة التلول يشاهد المرء منظراً خلاباً يمتد تحته في تلك الحقول المغطاة بالصخور، وتبدو الحرة في الخلفية وجبال حوران في الغرب ثم المرتفعات الأخرى الواقعة إلى الشمال. كما لُفت انتباهي إلى مرتفعات مختلفة واقعة بعيداً في شرقي الرحبة وقيل لي إنه لم يزل يوجد فيها مدن أثرية.

بعد هذه الإطلالة الرائعة بدأنا النزول نحو الأسفل خوفاً من نفاد الماء الموجود لدينا وسلكنا نفس الطريق التي جئنا عليها، عبر الخشبة الرهيبة، ثم إلى الشمال الشرقي فوق الهضبة العليا الضيقة وحتى الشرفة السفلى التي تابعنا السير عليها حتى أصبح القصر الأبيض إلى الغرب منا. وهنا نصبنا مخيمنا، بعد مسير ساعتين ونصف، في موقع سهلي ثم سخّنّا البرغل وشربنا آخر ما لدينا من ماء، وبعد ذلك لففنا أنفسنا بما لدينا من أغطية واستسلمنا للنوم.

كان الموقع الذي استرحنا فيه يحتوي على آثار واضحة لمخيم شتوي مما يدل على أن جبال الصفاة لم تكن بأي حال خالية دوماً من السكان. فالمغاور

والكهوف التي شكلتها الحمم البركانية جرى توسيعها وتحسينها وتزويدها في أزمنة غابرة بأسوار وسقوف. والرجم الكثيرة التي صنعتها الطبيعة وقام الغياث بتحسينها وإكثارها تجعل هذا الجزء من الصفاة الذي دخلت إليه حصيناً وعصياً على الأعداء. وبذلك اتضح لي لماذا تُعدّ أي حملة لملاحقة سكان الرحبة بلا جدوى. في مواقع مختلفة كانت توجد علامات تدل على أن أعداداً كبيرة من الناس كانت تعيش هنا قبل زمن غير بعيد. كما أن الصفاة تحتوي على نباتات أيضاً، وبالتحديد هناك حيث تتجمع مياه الشتاء في بعض المنخفضات البركانية الكبيرة وحيث تشكل الرمال وبعض الأتربة التي نقلتها الرياح، أو وصلت إلى هناك بشكل أو بآخر، تربة لنمو بعض النباتات الصحراوية القادرة على النمو في أصعب الظروف. لقد قمت بجمع معظم نباتات الصفا[1] التي تظهر في شهر يوليو/ تموز؛ وجدت نحو 30 نوعاً، من بينها بعض الأنواع التي وجدناها في الحرة أيضاً، ومنها مثلاً النيتونة الصفراء، وزهرة كبيرة يميل لونها إلى الأزرق، ونوع صغير من الفستق الموجود في المنخفضات فقط. أما بقية الأنواع فكانت أعشاباً صغيرة تنبت في فجوات اللآفا والشقوق.

أما الوسط الحيواني، وإن كان غير غني، فهو موجود أيضاً[2]. فقد وجدنا آثار الضباع والعديد من أنواع الأفاعي والسحليات. ومن الحيوانات الجميلة بشكل خاص سحلية رأيناها في تل النمارة أيضاً طولها 25 سنتيمتراً تقريباً لها حراشف صغيرة ولكنها قوية ورأس عريض، وأرجلها عالية إلى حد ما، جسمها ناعم أنيق ملون بالأحمر البني الذي يتحول اعتباراً من وسط جسمها باتجاه

---

(1) انظر الملحق النباتي في آخر الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(2) في الضمير قيل لي في وقت لاحق أن الحيوانات التالية موجودة في الرحبة والصفاة، ولكن من المؤكد أن القائمة تحتوي سهواً على بعض الحيوانات التي تعيش في الضمير والمناطق المجاورة لها.
ضبع، أبو الحصين، فار، جرذان، حية، عقرب، نسر، غراب، حجل، عقاب، حمام (أسود وأزرق)، سنونو، طير الليل، بومة، حنش، شبث، أبو بريص، ضب، رلّ، حبارى، طورقي، ذرعيه، فقيحة، حبيبة، رخم، نرتير، قطاه، حضاري، حوّامة.

الرأس، وخاصة من جهة البطن، إلى أخضر يميل إلى الزرقة كثيف وفاقع. ومن الطيور يوجد الحجل والعقاب. في موقع مخيمنا إلى جانب الزنيتعة وجدت علبة بوبا فارغة (بوبا أوفا؟)، وفي منطقة أخفض يوجد نوع من الحلزون الذي يجده المرء في كل مكان في الحرة. وأما الحشرات فهي نفس الحشرات الموجودة في الحرة والرحبة.

في صباح اليوم التالي انطلقنا قبل شروق الشمس وسرنا في بادئ الأمر مسافة ساعة كاملة على الطريق القديم ثم اتجهنا إلى اليمين نحو الشرق متابعين السير في السفح الشديد الانحدار إلى القصر الأبيض الذي وصلنا إليه بعد السير ساعة أخرى. حصل القصر الأبيض[1]، الواقع على آخر امتداد للّحف والذي يسميه السكان المحليون «خربة البيضا»، على اسمه من كون الحجارة المستعملة في بنائه ذات اللون الرمادي الفاتح تبدو مضيئة ساطعة تجاه محيطها الأسود القاتم. جُلبت مواد البناء من مقلع قريب من العديسية[2] في الجزء الجنوبي الشرقي من الرحبة حيث عثر على بقايا آثار قديمة وعلى كثير من الكتابات السبئية. لم تزل الأجزاء السفلى من الجدران الخارجية في حالة جيدة وهي ذات بنية غريبة الشكل: تشكل السطح الخارجي حجارة إسفينية الشكل يتجه رأسها نحو الداخل، بينما مُلئ الداخل بمواد حرة، وبين حين وآخر وضعت بين المداميك بلاطات على كامل عرض الجدار. تشكل هذه الجدران الخارجية، التي يبلغ طولها أكثر من 60 متراً وسماكتها نحو متر ونصف تقريباً، مربعاً يوجد على كل ركن من أركانه برج دائري الشكل وفي منتصف ثلاثة من أضلاعه برج صغير نصف دائري؛ في الجبهة الشرقية يوجد في المنتصف بدلاً من البرج البوابة التي انكسر جسرها وسقط على الأرض بالقرب منها. يبلغ طول جسر البوابة عدة أمتار وارتفاعه أكثر من 80 سنتيمتراً وعرضه أكثر من 60 سنتيمتراً؛ ولم تزل

---

(1) انظر فتشتاين، نفس المصدر السابق، ص62 وما بعدها؛ ثم فوغييه، الهندسة المعمارية، نفس المصدر السابق، ص69 وما يليها.

(2) انظر فتشتاين، نفس المرجع السابق، ص133؛ فوغييه، نفس المرجع السابق، ص70.

زخارفه الكثيفة في حالة جيدة. بموازاة هذه الجدران الخارجية الأربعة توجد جدران داخلية خفيفة يبعد أحدها عن الآخر نحو عشر خطوات تقريباً ولم يبق منها إلا أساساتها. الفراغ الواقع بين الجدارين مقطع بواسطة جدران قليلة السماكة عمودية على الأخرى إلى غرف ضيقة مستطيلة الشكل. وتحيط هذه الجدران الداخلية بقاعة كبيرة يقسمها جدار مواز لجبهة البوابة إلى قسمين أحدهما، الأمامي أي الشرقي، أكبر من الآخر. في هذا الجزء يوجد، إلى اليسار قليلاً من باب القاعة الداخلية المهدم، حوض بئر مردوم، بينما يوجد في الجزء الأصغر الواقع في الخلف، أيضاً إلى اليسار بجانب الجدار الفاصل، مبني يشبه البرج مربع الشكل تقريباً ويحجم الغرف مع باب ضيق في الحائط الغربي. يشاهد في هذا الجزء الجنوبي الباقي سليماً إلى حد ما عدة حجرات لم تزل واضحة المعالم حتى الطابق الثاني وهي ذات ارتفاعات وحجوم مختلفة ولكن الاختلافات طفيفة. من الطابق الأرضي يؤدي درج إلى عدة غرف صغيرة موجودة في منتصف الارتفاع بين هذا الطابق والطابق الأول. في الجهات الخارجية توجد حجارة حفرت عليها زخارف في غاية الجمال، وتوجد حجارة مشابهة لها ملقاة على الأرض، كما نقلت حجارة منها من هنا إلى ضريح الشيخ سراق. هناك باب واحد يؤدي إلى البرج الذي تتخلل جدرانه عدة نوافذ صغيرة. وهناك الكثير من البقايا الجدارية وأكوام الأحجار المتناثرة في كل مكان في القصر الأبيض، لكنني لم أستطع، كمن جاؤوا قبلي، العثور على أي كتابات. وأنا أعتقد أنني أستطيع الافتراض أن حفريات قد أجريت في القصر، وقد تكون أسفرت عن العثور على أشياء ثمينة، وذلك لأن مستوى القاعة يبدو عالياً بسبب تراكم الأنقاض. وتقول الحكايات المتناقلة أن تدمير القصر قد تم على أيدي جيوش تيمورلنك (1400م) ومن المؤكد أن البرج الموجود في قاعة البهو قد تم ترميمه ويؤيد ذلك الحجارة المزخرفة المبنية فيه وبنية جدرانه. ولكن يبدو وكأن المبنى لم يكتمل بناؤه أبداً[1]. تظهر في طريقة البناء وفي أشكال الزخارف أشياء غريبة تماماً عن الفن

(1) إنني أتفق هنا في الرأي مع فتسشتاين وفوغيه. انظر بهذا الخصوص الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص121.

الروماني وتبدو مشابهة لنماذج شرقية. فاستعمال أبراج دائرية بارزة عن سطوح الجدران الخارجية بنصف دائرة فقط سبق لي أن شاهدته في الدبيسة قرب السويداء ثم شاهدته مرة أخرى في مبنى شبيه بالجامع في سامراء وفي آثار قصر العاشق القريب من سامراء، وكلا المبنيين يعودان إلى الفترة الأولى من عهد الخلافة العباسية. ولم تزل مسألة تحديد هوية القصر الأبيض غير محسومة. يعتقد فتسشتاين أن بانيه أمير غساني لاسيما أنه، على عكس برج سعنة الذي يشبهه من ناحية طريقة البناء، لا يحتوي على خندق حماية، وليس مستبعداً أن تكون الحجرات الصغيرة الكثيرة على طول المبنى مخصصة للحامية العسكرية، إلا أنها يمكن أن تكون أيضاً مخصصة لإقامة الخدم.

في مكان قريب جداً في شمال شرق القصر توجد بركة قديمة لكنها لم تعد تحتوي على الماء، إضافة إلى ذلك كان هناك في الشمال والجنوب العديد من البيوت المهدمة مما يدل على أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان في الماضي. ومما يلفت الانتباه بشكل خاص مبنى كبير قديم يقع على مسافة ربع ساعة تقريباً شمال القصر الأبيض على حدود الرحبة مباشرة ولا توجد فيه أيضاً أي كتابات.

عندما عدت من القصر الأبيض إلى المخيم بعد ساعتين من المسير رأيت جماعتي في حالة من الاضطراب والقلق. كان موقف الغياث يبدو لهم مشبوهاً، إذ ظلوا يتحدثون طيلة بعد الظهر مع بعضهم البعض بأصوات عالية وبلهجة غاضبة. وكان السبب، حسبما علمت لاحقاً، أنهم كانوا يظنون أن حقيبتي الجلدية تحتوي على كثير من الأموال مما جعلهم يقعون في تناقض بين جشعهم المادي من جهة والتزامهم بحق الضيافة المقدس من جهة ثانية. ومما أكد لي أن الوضع كان غير مريح أن ذبلان، الذي كان فور وصولنا إلى مخيم الغياث قد ربط خروفين كهدية على حبل خيمتي لكي يؤكد كما يبدو علاقة الضيافة القائمة بيننا، قد أمر بذبح أحد الخروفين ثم أخذ كمية من الأرز الموجود معي لكي يعدّ وجبة طعام لرجال الغياث. وقبل ذهابنا إلى النوم جاء، خلافاً لكل العادات والبندقية في يده، إلى خيمتي وقال إنه يريد قضاء الليل عندي لكي يكرمني بشكل خاص حسب زعمه. أما في الحقيقة فليس لدي أدنى شك في أن الغياث كانوا يخططون

لقتلي وأنهم كانوا سينفذون ذلك فعلاً لولا ذكاء ذبلان ووفائه. وتجدر الإشارة إلى أن هذه هي الحالة الوحيدة، خلال ترحالي في البلدان الإسلامية، التي لم يكن في وسعي فيها الثقة بكرم البدو واحترامهم لضيوفهم.

في اليوم التالي تعرضنا أيضاً لمضايقات أخرى. كنت أنوي السير في طريق لم يسلكه أي أوروبي قبلي للوصول إلى جبل سيس ثم إلى نبع غير مرسوم على الخرائط ولكن جميع البدو يعرفونه تحت اسم «بئر زبيدة» ويقع عالياً في الجبل خارج المنطقة البركانية. وكنت أريد الوصول من هناك بشكل مباشر إلى تدمر. وكنت قد أرسلت في اليوم السابق رجلاً إلى جبل سيس وإلى النبع الذي لا يبعد سوى بضع ساعات لكي يستطلع الطريق ومدى توفر الماء في المنطقة. عاد الرجل بأخبار سارة وجلب معه ـ وهذه حالة نادرة جداً هنا ـ غزالاً. وبما أنني كنت أنوي ترك القافلة تسير بين حين وآخر منفصلة عنا نحن الخيالة لأنه لم تكن هناك أي ضرورة لأن ترافقنا بسرعتها البطيئة في جميع الطرق الفرعية والالتفافية التي رسمتها لنفسي، فقد كان من الضروري أن يرافق رجل من غياث كل مجموعة من أجل حمايتها وخاصة لأن غزوة من غياث ضد عنزة تضم 70 رجلاً كانت في الطريق وكانت عودتها متوقعة في كل لحظة. ولذلك طلبت أن يرافقني أخو ذبلان مع عدد من رجاله حتى تدمر على الرغم من أن منطقة الغياث تنتهي قبل بئر زبيدة. والآن برز أمامي العديد من المشاكل دفعة واحدة. أولاً ظهرت عدم كفاءة الشيخ منصور بكامل أبعادها. فلم تكن لديه أي معلومات عن المسافات ومواقع المياه ولم يجلب معه من دمشق سوى 12 قربة وكان قد قال إنها كافية في جميع الأحوال. ولحسن الحظ لم أتقيد بنصائحه هذه المرة، إذ كنت قد تعلمت من تجارب الأيام الماضية أننا سنحتاج خلال مسيرنا، الذي سيستغرق حسب معلومات الغياث يومين حتى ثلاثة أيام في أرض خالية من الماء، إلى ما لا يقل عن 36 قربة. وبجهد الجهيد تمكنت من الحصول على هذا العدد من القرب الجلدية، ورغم ذلك لم يكن قد تبقى لدينا، رغم كل الاقتصاد في الاستهلاك، قطرة ماء واحدة عندما وصلنا إلى الضمير. فضلاً عن ذلك كان الشيخ منصور قد أوقعني في ورطة حقيقية بأن وعد مرافقينا من الجمّالة لقاء المقطع الممتد من

الرحبة حتى الضمير أو بير زبيدة بأجر يعادل تقريباً سعر شراء الجمال التي سترافقنا. وعندما رفضت دفع هذا المبلغ نشب خلاف بيني وبين الغياث استمر ست ساعات ولم ينته إلا بعد أن وافقت على أجر كان لم يزل عالياً جداً بالنسبة للظروف السائدة هناك وهو 10 مارك كل يوم وجمل. إلى جانب هذه المصاعب تعين عليّ إزالة مخاوف مرافقيّ غير الغياثيين من الغياث من جهة ومخاوف الغياث من الجنود الأتراك من جهة أخرى ـ إذ كان يوجد في الضمير فصيل من الشرطة الأتراك. ولم يقبل شيوخ غياث مرافقتي إلا بعد أن قبلت أم ذبلان الوعد الذي قطعته على نفسي بحماية ابنها من الأتراك. لكن الصعوبة التي واجهتها في إقناع جماعتي وإزالة خوفهم كانت أكبر بكثير. إذ إن الجمّالة الذين كانوا يعرفون ما يشتهر به بير زبيدة من سمعة سيئة ومن أنه معبر لقوافل الغزو رفضوا رفضاً قاطعاً الذهاب معي، لا بل إن اثنين منهم ركبا على جمليهما، اللذين كانا لم يحملاً بعد، وحاولا المغادرة ـ الأمر الذي كان خطره سيكون أكبر من خطر السير معي، إذ لو فعلا ذلك لتبعهما الغياث على الفور وأخذوا جمليهما وقتلوهما دون تردد عند إبداء أي مقاومة، هذا بصرف النظر عن أنهما كانا سيتيهان في الحرة دون ماء ويموتان من العطش. اضطررت إلى اللجوء إلى القوة لإعادة هذين الرجلين الانفصاليين إلى جادة الصواب. كان هؤلاء الرجال يخشون أكثر من أي شيء آخر غدر الغياث الذين، حسب رأيهم، سيغدرون بنا ويهاجموننا بعد زبيدة. وعندما استجبت في النهاية لطلب هؤلاء الرجال ووعدتهم بعدم الذهاب إلى الضمير عن طريق زبيدة، وإنما إلى الغرب قليلاً عن طريق جبل سيس، رفض مرة أخرى الغياث بمن فيهم ذبلان مرافقتي بحجة ثارات الدم بينهم وبين الجنود الأتراك. لم يكن في وسعي التأكد مما إذا كان تخوّف جماعتي من الغياث مبرراً أم لا ومما إذا كانوا ربما ينوون فعلاً البطش بي بعد بير زبيدة. في النهاية قبل الدروز الحل الوسط الذي قدمته مقروناً بوعد قاطع بأن أكفل بحياتي الغياث تجاه الأتراك.
على الرغم من ذلك أصر بعض الجمالة، وبينهم أخو ذبلان، على رفضهم السماح للجمال العائدة للأخ الأكبر بمرافقتي، وبررت أم ذبلان نفسها هذا الرفض بأن أهله يمنعونه من الاستمرار في مرافقتي. وبجهد الجهيد أمنت أخيراً

الرجال والجمال اللازمين لرحلتي ثم ودعت أولاً دروزي الطيبين الذين حال وجودهم، على الأرجح، دون وصول هذا الخلاف المزعج إلى نهاية سيئة. أعطيتهم رسائل شكر إلى محمد نصار وإبراهيم باشا الأطرش أبلغتهما فيها بوصولنا بسلام إلى الرحبة وبمغادرتنا الواحة. أعطيت نجيب ساعة يد وفارس جنيهاً تركياً وكفّيتين والقريب الثالث لمحمد نصار جنيهاً تركياً وكفيّة واحدة والخادم ثلاثة مجيديات.

وأخيراً انطلقنا في الساعة التاسعة و45 دقيقة بعد أن هرب، رغم كل الانتباه، أحد الجمالة الجدد. بالمقابل التحق بقافلتنا بعض الصليب، رجلان وامرأة. كانوا يريدون مرافقتنا حتى الطرف الشمالي للمنطقة البركانية وبعد ذلك التوجه نحو الشمال الشرقي للالتحاق بقبيلتهم. أما ذبلان، الذي وعدته بالاستغناء عنه في الضمير، كان قد استعاد مزاجه الطيب وسار بجانبي على رأس القافلة.

مرت طريقنا قرب بركة السويدر المذكورة سابقاً والبئر المسماة «بير الفضل» ثم في البداية فوق لسان بركاني يسمى خشم ريحان وهو مرتفع لا يزيد ارتفاعه على بضعة أمتار ويمتد كذراع شمالي شرقي للّحف في الرحبة. هذا اللسان[1] البركاني مغطى بعدد كبير من الآثار التي أطلق عليها مرافقونا مجتمعة اسم «البريسيّة». عند الطرف الشمالي للخشم كانت توجد أيضاً نحو 30 إلى 40 خيمة للغياث. وقد قدم لنا هنا، وفي وقت لاحق مرة أخرى عند رعاة قطعان الماعز، اللبن الذي يشرب ممدداً بالماء وهو شراب لذيذ ومنعش. بعد ذلك توجهنا ونحن في أحسن مزاج نحو شمال الشمال الشرقي في الرحبة التي أصبحت واسعة جداً الآن.

إلى الشمال قليلاً من الخط حيث تنتهي جبال الصفاة في الشمال الشرقي ترتفع الأرض شيئاً فشيئاً. هنا يتسع السهل الخالي من الحجارة نحو الغرب أيضاً ويمتد على طرف الصفا. يبلغ امتداد هذا الجزء نحو الشمال اعتباراً من هنا نحو 8 كيلو مترات تقريباً. سار طريقنا الآن بصورة عامة بموازاة مجرى أملود السيس الجاف وهو الجدول المذكور سابقاً والذي يزود الرحبة في أوقات المطر بالماء. في

---

(1) الخشم يعني البروز؛ وتستعمل كلمة الخشم في لهجة البدو للتعبير عن الأنف.

الساعة الثانية عشرة، أي بعد ساعتين تقريباً، كنا قد عبرنا الأرض السهلية، التي تحتوي على كمية قليلة فقط من الحجارة البركانية، ودخلنا مرة أخرى في المنطقة البركانية الحقيقية، وهي صحراء صخرية لكنها ليست مخيفة الشكل كالحرة الجنوبية. في البداية عبرنا منطقة السيلان البركاني المسماة «رجم المرأة» وهي تشكل بركاني هام لم نشاهده وإنما مررنا بعيداً عنه تاركينه على يسارنا من جهة الغرب. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف رأينا مشتى كبيراً تبعه من الجهة الشرقية لمنطقة المرعى عدد من المخيمات الصغيرة. وفي الساعة الواحدة و40 دقيقة وصلنا إلى المنطقة الكبيرة لجبل السيس ذي الفوهة البركانية التي دخلناها في اتجاه المرجل، أي باتجاه الشمال مباشرة، وسرنا فيها ببطء صعوداً نحو الأعلى.

بعد 10 دقائق وصلنا إلى سطح هضبة بركانية والآن شاهدنا جبل سيس شامخاً أمامنا بينما انفتح المنظر من جهة اليسار على عدة جبال أخرى. ظل الاتجاه نحو الشمال، وفي الساعة الثانية ونصف وصلنا إلى هضبة أخرى تبرز كشرفة جديدة ارتفاعها عدة أمتار فوق السطح التدريجي الأول الصاعد ببطء. يشكل سفح الهضبة تقعراً على شكل هلال يوجد فيه «بير أم راحيل» الذي لا يعرفه إلا من يعرف المنطقة بشكل جيد.

كان هذا هو البئر الذي كان رسولنا في اليوم السابق قد قال لنا أنه يحتوي على الماء، ولكن عطشنا الحارق وحده هو الذي جعلنا نستطيع الشرب مما فيه. كانت تغطي سطح الماء طبقة من الوحل ذي اللون الأخضر؛ وعند إزالتها ظهر تحتها كثير من الديدان وعدد من الضفادع وحية صغيرة. ولكن رغم ذلك شرب الرجال والبهائم من الماء المنعش. وعلى أي حال فإن بير أم راحيل هو حوض صخري موسّع اصطناعياً قطره 3 أمتار وعمقه متران تقريباً، ولا شك في أن مياهه تغطي في الشتاء جزءاً من حاجة المنطقة المجاورة.

على الرغم من أن النهار لم يكن قد اقترب من نهايته بعد قررنا قضاء الليل هنا لأن رسولنا كان قد أخبرنا أن خزان الماء في جبل سيس فارغ. كانت المسافة، بخط جوي، بين هنا والضمير تبلغ نحو 70 كيلو متراً، وهذا يعني أننا كنا نحتاج في هذه الأرض الوعرة إلى مسير يومين كاملين على الأقل حتى نصل

إلى موقع للماء، ولذلك كنا مضطرين إلى الاعتماد اعتماداً كاملاً على الماء الذي نحمله معنا في 36 قربة. علاوة على ذلك كان يتعين علينا أن نضع في حسباننا أننا قد نصطدم بقبيلة معادية للغياث ونضطر بالتالي إلى تغيير طريقنا مما يؤدي إلى إضاعة كثير من الوقت. وحتى التوقف عند بير أم راحيل، وخاصة في المساء والصباح، لم يكن خالياً تماماً من الخطر، لأن هذا المكان كان على مسافة عدة أيام، حتى بير زبيدة في الشمال، بصرف النظر عن الرحبة ذاتها، الموقع الوحيد الذي يحتوي على الماء بالنسبة لجماعات الغزو.

في صباح اليوم التالي انفصلنا كارهين عن القافلة التي يتعين عليها الآن التوجه مباشرة إلى الضمير بينما قررنا نحن الذهاب عن طريق جبل سيس أي سلوك طريق أطول. كانت الطريق التي اخترتها تسير بخط مستقيم من بير أم راحيل إلى بير زبيدة ولذلك فهي معرضة جداً للهجمات والنهب. ولهذا السبب لم يكن من الحكمة أخذ القافلة، مع حمولتها الثقيلة وما فيها من أشياء ثمينة تثير جشع البدو، معنا على هذه الطريق، بينما نحن الخيالة، الذين فوق ذلك مسلحون بشكل جيد، نستطيع الرد بسهولة أكبر على هجوم محتمل. غير أن تعرض القافلة لهجوم من رجال العنزة المنتشرين حول «درب الغزوات» لم يكن مستبعداً أيضاً. لذلك أرسلنا أشبان، أحد أصحاب منصور، وهو معروف بشكل جيد لدى عنزة مع القافلة على هذا المقطع من الرحلة بينما بقي منصور معنا.

بعد مسير ساعتين متواصلتين (12 كيلو متراً تقريباً) باتجاه الشمال وصلنا إلى جبل سيس. يشكل جبل سيس فوهة بركانية دائرية الشكل تقريباً يبلغ قطرها نحو نصف كيلو متر وترتفع بصورة حادة نحو 100 متر فوق السهل المنخفض. جدران حواف الفوهة رقيقة بشكل غير عادي وتنحدر بصورة عمودية تقريباً إلى عمق 70 - 80 متراً. من جهة الشمال الغربي يوجد، في الفوهة انهدام واسع، وإلى الجنوب والغرب من الجبل يوجد نوع من الخندق، منخفض بين مرتفع الهضبة التي عبرناها والطرف الحقيقي للفوهة البركانية. هذا الخندق ينخفض باتجاه الجنوب الغربي ويزداد عرضه ثم يصب في واد مسطح واسع على السفح الجنوبي والشرقي لجبل سيس. يتحول الوادي نحو الشرق إلى سهل منخفض يحيط بحوض رملي

دائري الشكل طوله عدة كيلومترات يشكل في الشتاء بركة مائية واسعة قليلة العمق. وعلى مسافة غير بعيدة من الموقع، حيث يبدأ الخندق، يوجد ثلاث أو أربع جُوَر غريبة يطلق عليها اسم «نبع». هنا ظهرت في القاع الرملي قطرات من الماء الصافي. وقد استطعنا أن نأخذ منها عدة لترات فقط، وقيل لي إن تجمع كمية مماثلة يحتاج إلى بضعة أسابيع. نحو الجهات الأخرى تنحدر الهضبة البركانية لجبل سيس ببطء وتشكل منطقة ضخمة لجريان الفوهة البركانية تتصل من جهة الشمال الغربي بمنطقة جبل المكحول ومن جهة الجنوب الغربي بمنطقة رجم المرأة ومن جهة الشرق بالسهل الصحراوي، الحماد. في المنخفض الجنوبي كان يوجد في يوم من الأيام مدينة كبيرة نسبياً لم تزل بقايا بيوتها تمتد هنا طولانياً على مسافة تزيد على نصف ساعة بينما عرضها قليل. وتبدأ الآثار في نقطة توسع الوادي في الجنوب الغربي من الفوهة. وعلى السفح الشرقي والجنوبي لحافة الفوهة توجد أيضاً بقايا أبنية . من الممكن أن تكون المدينة الميتة قد كانت موجودة على هذا السفح الشرقي. فقد وجدت هنا حجراً واقعاً على الأرض طوله 1,5 متراً تقريباً وعرضه 40 سنتيمتراً ومحفور على سطحه الخارجي مستطيل طويل يمتد أحد ضلعيه الضيقين مشكّلاً ما يشبه القوس. على السفح الجنوبي الشرقي فوق المدينة الميتة، وخاصة هناك في الأعلى على طرف الفوهة نفسها، وجدنا عدداً كبيراً من الكتابات السبئية المحيّرة مع صور شموس ساطعة وبشر وإبل وغير ذلك من الرسومات التي تشير بشكل واضح إلى الأصل العربي الجنوبي لبناة المدينة أو لسكانها[1] القدامى. كان للرومان محطة رئيسية على جبل سيس كانت مهمتها مراقبة بدو الحرة وحماية سورية من الهجمات القادمة من الشرق. لكن كتابات لاتينية أو إغريقية لم يعثر عليها أحد، لا فوغييه أو وادينغتون ولا شتوبل أو أنا. ومن المؤكد أن المحطة الرومانية على جبل سيس هي نفسها آناتا[2]

---

(1) فوغييه ذكر ثلاثة فقط من هذه الكتابات السبئية، انظر: كتابات سامية، ص142. اثنتان من كتاباته تحملان علامة الصليب وتعودان حسب رأيه إلى القرن الرابع بعد الميلاد.

(2) موريتس، عن الطبوغرافيا القديمة للبالمورينه (الأكاديمية الملكية للعلوم) برلين 1889م، ص16، يسميها آناتو.

القديمة التي كان يقيم فيها، حسب نوتيسيا ديغنيتاتوم، فرسان محليون وكانت تابعة، مثل حامية نمارة الأصغر جداً، لدوكس فونيكس[1]. أما الكِتابات الكوفية القليلة التي عثر عليها فوغييه[2] فتعود إلى العهد الإسلامي.

من بين الآثار الملفتة للانتباه بشكل خاص في جبل سيس أود ذكر الآثار التالية:

1 ـ في أبعد نقطة في الغرب من طرف حقل الآثار المقابل لجبل سيس توجد بقايا جدران بناية مستطيلة الشكل كانت تتألف كما يبدو من غرفة كبيرة واحدة، أي من قاعة مسقوفة. يبلغ طول جدرانها الخارجية 29 خطوة وعمقها 17 خطوة. في منتصف الضلعين الطويلين في الشمال والجنوب يوجد باب واحد. وبموازاة الضلعين الطويلين لم يزل يوجد حتى اليوم قوس مزدوج كان يساعد على حمل السقف ويقسم القاعة إلى قسمين. ولم يزل باقياً أيضاً قوس الباب الجنوبي الأصغر جداً وكذلك بقايا الجدران المبنية من حجارة مربعة الشكل.

2 ـ على بعد دقائق قليلة من هذا المبنى يوجد، في السهل المنخفض، قلعة كبيرة مربعة الشكل، على الأرجح رومانية، لم تزل جدرانها الأساسية، التي تبلغ سماكتها مترين تقريباً، ظاهرة حتى الآن. على الزوايا الركنية وفي منتصف الأضلاع التي يبلغ طولها 90 خطوة تقريباً توجد بقايا أبراج مستديرة، فقط في الجبهة الشمالية يوجد بدلاً منها جزء ناتئ على شكل نصف دائرة وله باب كبير. هذا الجزء البارز مبني من حجارة قوية جداً ومزود بنافذتين تشبهان فتحات إطلاق النار. على الجهة الشمالية يستند بناء صغير مربع الشكل أيضاً، ولا شك في أنه جديد، يحيط بالجزء البارز ويبلغ طول ضلعه 54 خطوة ويوجد في زاويته الشمالية الغربية بقايا جدران أخرى. هنا يقع بئر مردوم بالأنقاض. لم يتبق من الجدران إلا الحجارة السفلى. أما البروز المحصن مع الباب الكبير فهو في حالة أفضل. يقع فوغييه بأخطاء في قياساته، فهو يصف القلعة بأنها مربع طول ضلعه 34,20

(1) انظر نوتيسيا ديغنيتاتوم، سيك، ص68.

(2) انظر فوغييه، كتابات سامية، ص142.

متراً تقريباً، كما أنه، فضلاً عن ذلك، لم يرسم في مخططه المبنى الخارجي الكبير المرتبط بالحصن. تذكرنا هذه القلعة من ناحية الشكل بالقصر الأبيض في الرحبة لكنها محاطة بخندق حماية ظاهر بشكل أوضح.

3 ـ هناك بئر آخر أكبر وأعمق بمقدار 10 أمتار تقريباً، ويحيط به جدار مربع الشكل، موجود على بعد عدة دقائق إلى الشمال الشرقي من القلعة.

4 ـ على مسافة غير بعيدة عن هذا البئر توجد الأجزاء الأساسية لمبنى برجي قديم ذي خمسة أضلاع له من جهة الغرب، أي باتجاه جبل سيس، باب واحد وحيد.

5 ـ على مسافة أبعد قليلاً نحو الجنوب الشرقي توجد بقايا مدينة سيس الأسلم من كل ما سواها. وهنا تلفت الانتباه بناية يصفها البدو أحياناً بأنها حمّام وأحياناً أخرى بأنها كنيسة. وهي تتألف جزئياً من آجر أحمر ولذلك يطلق عليها اسم «خربة الحمرا»، على عكس «خربة البيضا»التي تطلق على القصر الأبيض في الرحبة. يحتوي المبنى الرئيسي، الذي يبلغ عرضه 5 خطوات وطوله من الشمال إلى الجنوب نحو 25 خطوة، على جبهته الشمالية على توسع نصف دائري يشبه المحراب كان دون أدنى شك مغطى بسقف على شكل قبة. في النهاية الجنوبية يوجد حجرتان مربعتان طول ضلع كل منهما نحو مترين. ويبدو أن الجزء الأسفل من الجدار المبني بحجارة مربعة خام هو الذي حافظ، بعد سقوط الجدار، على البناء المتعرج الموجود فوقه الآن والمؤلف من الآجر الأحمر. يجاور هذه البقايا الجدارية من جهة الغرب حجرة أمامية على شكل صليب مسنن متصلة مع المبنى الرئيسي بفتحة باب. لم يتبق من هذه الحجرة الأمامية سوى بقايا قليلة منخفضة. وتشير الفتحات الأنبوبية في الغرف الصغيرة الموجودة في الجهة الجنوبية من المبنى الرئيسي إلى أن المبنى بكامله كان، حسب رأيي، حماماً[1].

6 ـ في الجزء الجنوبي من هذه الآثار توجد البقايا الجدارية السفلية لبناية

(1) انظر المخطط الموجود عند فوغييه، سورية المركزية، هندسة العمارة، ص71، والمخطط 25.

كبيرة جداً مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها 80 خطوة تقريباً. تقع هذه البناية على سفح الهضبة التي سرنا عليها عند مجيئنا من أم راحيل إلى هنا. وهناك آثار هامة أخرى تجاور المبنى من جهة الشرق.

7 ـ في وسط الحوض الرملي الكبير الجاف على سفح جبل سيس توجد على مرتفع بسيط آثار جدران كانت كما يبدو عائدة لقلعة قديمة معزولة.

8 ـ عند أسفل الطرف الحقيقي لجبل سيس يلفت الانتباه باب كبير مربع الشكل والحجر الذي ذكرناه سابقاً.

في الساعة الثامنة وخمسين دقيقة غادرنا جبل سيس لكي نعبر التراخون الشرقي من قطره الممتد نحو الشمال الغربي. سرنا في بادئ الأمر في الخندق المذكور سابقاً باتجاه الغرب مع انحراف بسيط نحو الشمال، وفي الساعة العاشرة وأربعين دقيقة وجدنا إلى يسارنا مشتى كبيراً على الحدود الغربية لسهل صغير خال من الحجارة.

اعتباراً من الآن تكاثرت أعداد هذا النوع من السهول، وعلى الرغم من أن الحجارة البركانية لم تزل تغطي سطح الأرض كلياً دون أن تترك أي أثر لطريق فإن السير هنا لم يعد صعباً كما كان في الجزء الجنوبي الغربي من الحرة. وبذلك أصبحنا، وبفضل معرفة ذبلان بشكل جيد للمنطقة، نتقدم بسرعة 4,5 كيلومتراً في الساعة. في الساعة 11 و45 دقيقة رأينا مرة أخرى مشتى على يميننا وبعد وقت قصير اجتزنا المرتفعات البركانية الأولى التي تشكل الصف الأبعد شرقاً من المرتفعات التي تمتد من جبال الصفا نحو الشمال وهي: جبال «تل الرحيّة السمرا» و«تل الرحيّة الشهبا» التي أصبحت في الساعة الثانية عشرة والنصف تقع على مسافة 2 كيلومتر تقريباً إلى يسارنا. في الساعة 12,45 وصلنا إلى «تليل الأقعس» و«تل الأقعس» الذي كان يقع على بعد 3 كلم إلى يسارنا. كان اتجاهنا قد أصبح شمال غرب تماماً. انطلاقاً من هنا سرنا باتجاه «جبل رغيلة» في الجنوب وشاهدنا خلفه إلى اليمين قليلاً جبال حوران. وفي الساعة الثالثة و20 دقيقة صار على يميننا «تل قبيان الأشهب» وعلى يسارنا تلاً «الضرائر». (أي زوجتا الرجل الواحد). بعد

هذين التلّين وفي الوسط بينهما ظهر في الساعة 3 و35 دقيقة «تل الضرس». وإلى يسار وجنوب غرب تلّي الضرائر يقع «تل البواق»، وإلى اليمين «تل خنيفس الأسود». وفي الساعة الخامسة والربع أصبح على يسارنا وعلى مسافة غير بعيدة عنا «شيخ التلول» الذي يسمى أيضاً «تل عاجل» أو «تل العاقل»، وهو يحمل هذا الاسم لأنه الأعظم بين الجبال المحيطة به. وهنا توقفنا للاستراحة.

كنا قد التقينا خلف تل الأقعس (في الساعة 2، 55 دقيقة) بقافلتنا، لكنني سبقتها مرة أخرى مع مجموعتي بعد أن حددت مكان الاستراحة عند تل عاجل في الساعة الخامسة. خيّمنا في العراء وكان الرجال المرافقون يتولون الحراسة بالتناوب. في الساعة 12,30 ليلاً امتطينا ظهور خيولنا وتابعنا السير في القافلة نحو الغرب أولاً ثم نحو غرب الشمال الغربي لنلتف على تل العاجل بقوس من اليمين إلى اليسار. في البداية سرنا ببطء بسبب الظلام، ونتيجة لتبديل الاتجاه كنا قد تركنا قبل ذلك بوقت قصير على يسارنا «تل الشيبة»، وبعد ذلك اتخذنا طريقاً باتجاه شمال ـ شمال ـ غرب. وقبل ذلك كنا قد حددنا مسارنا باتجاه «تل ليلى» و«تل حويفر» إلى اليسار، والثليثواه شمال شرق و«تلول السريجيّات» إلى اليمين والأمام. وفي الساعة الخامسة صار «تل الدكوة» على يسارنا وإلى الجنوب قليلاً من هذا التل وجدنا في السهل مشتى. في هذه المنطقة كان شتوبل قد عثر على آثار أخرى، لكن البحث عنها يجب أن يجري على مسافة بعيدة إلى حد ما إلى الغرب من طريقنا. عند الدكوة انتهت المنطقة التي يتنقل فيها الغياث وبدأت منطقة تعود لقبائل أخرى ذات علاقة طيبة مع عربان الجبل في جبل حوران.

في الساعة الخامسة وخمسة وأربعين وصلنا إلى سهل مغطى بالرمل تتخلله مرتفعات تشبه الكثبان الرملية وفيه شجيرات دغلية صغيرة شاهدنا فيها بعد فترة طويلة من الزمن منظر النباتات الخضراء. في الساعة الخامسة و50 دقيقة حدد مسارنا باتجاه تلول السريجيّات وإلى الغرب منها «تل المطلة»، أي التل المشرف على المنطقة المحيطة به، وهو فوهة بركانية منهدمة نحو الغرب. إلى اليمين، شمال شرق النقطة الموجودين فيها، يقع «تل أم أذن» وكان يظهر خلفه «تل ملح قرنفل». في الساعة السابعة كانت الجبال قد أصبحت وراءنا وشاهدنا، والسهل

الواسع إلى يسارنا، في الأفق البعيد ملامح المآذن في دمشق. وفي الساعة الثامنة وجدنا في الغرب مشتى عائلة تنتمي إلى قبيلة معروفة منذ العصر القديم وهي قبيلة «مصايد» أو «مساعد». ويوصف أبناؤها بأنهم «صيّادة» ومن «الرعيّة» أي الخاضعين للحكومة.

هنا كنا قد وصلنا تقريباً إلى طرف التراخون البركاني. في الساعة الثامنة اتجهنا نحو «تل بريغيت»، وفي الساعة 8 و45 دقيقة إلى «تل عيش»، آخر تلول التراخونة. الآن أصبحت الأرض وديعة وتهبط بهدوء مريح نحو سهل الضمير. ولذلك أطلقنا العنان لخيولنا وسبقنا القافلة. وفي الساعة 9 و10 دقائق صار تل الهديب، وفي الساعة 10 و45 دقيقة صخر بركاني منفرد في السهل إلى اليمين، وفي الساعة 11 تل الأرينبيّة إلى اليسار. في الساعة 12 وربع وصلنا إلى برج «البرج» المبني بحجارة بيضاء، وإلى جانبه آثار من عصر النهضة[1]، وهو يبعد مسافة نصف ساعة عن حقل الآثار المسمى «خربة المقصورة».

في البرج وصلنا إلى نهر المكبرت، وهو جدول عرضه 0,75 متراً وعمقه لا يزيد عن ذلك، مياهه لها نكهة كبريتية، ويلتقي في وقت لاحق عند الضمير مع جداول كبريتية أخرى تنبع من جبل أبو القوس، ثم تصب جميعها في بحيرات المرج الدمشقية. على الجانب الآخر من النقطة التي لامسنا فيها نهر المكبرت كانت توجد قشلة صغيرة. في الساعة 12 ونصف وصلنا إلى بساتين الضمير. وقبل ذلك أعطاني ذبلان بندقيته لكي يظهر أمام الجنود الأتراك بأنه غير مسلح. بانتظار وصول القافلة استقبلنا فلاح ضميري وأحسن ضيافتنا. كان للرجل علاقات تجارية مع الغياث وعلاقة صداقة مع ذبلان. كان يذهب دائماً في الشتاء تحت حماية ذيلان إلى الرحبة ليبيع البدو هناك في خيمة ذبلان البضائع الأوروبية وأيضاً الأسلحة والذخيرة مقابل النقود المعدنية أو الأشياء التي استولوا عليها في غزواتهم الناجحة.

---

(1) الكتابات كان وادينغتون، نفس المصدر السابق، ص585 (رقم 5562سي)، قد ذكرها؛ انظر فتسشتاين، كتابات مختارة إغريقية ولاتينية (مجلة الأكاديمية الملكية للعلوم، 1863م)، برلين 1864م، ص315.

الفصل السابع

من الضمير إلى تدمر

الضمير. ـ المعبد. ـ كتابة نبطية شمالية. ـ بريد الصحراء. ـ وداع ذيلان. ـ عبر «حوض وادي» الحماد. ـ المقصورة. ـ خان أبو الشامات. ـ خانات وقشلات في البادية. ـ بئر زبيدة. ـ أبو الحيايا. ـ سلسلة الجبال بين الضمير وتدمر. ـ بركانا العبد والعبدة. ـ الغزو عند الحفيّر. ـ القريتين. ـ القصر الصحراوي قصر الحير. ـ عين البيضا. ـ عاصفة رملية. ـ وادي القبور في تدمر.

* * *

نصبنا مخيمنا في الجهة الشمالية الشرقية من قرية الضمير على سفح الامتدادات الشمالية لجبال لبنان الشرقية. وبالقرب منا كان يوجد العديد من «المطامير» المحفورة في الأرض الصخرية لتخزين الحبوب والتي تعود إلى ما قبل العصر الإسلامي. وكان منظر الضمير مع بساتينها والمعبد الإغريقي الروماني القديم البارز من بين بيوتها المتشابكة يبدو لنا في غاية السحر والجمال بعد كل ما عانيناه من قحط خلال مسيرنا الطويل في الصحراء. المعبد محاط للأسف بالبيوت والأكواخ بحيث لا يستطيع المرء مشاهدته بشكل كامل. في الكتابة الإغريقية الكبيرة المنقوشة على جهته الشرقية تمت في وقت لاحق إزالة اسم القيصر الروماني الذي بُني هذا المعبد تكريماً له، ولكن يتبين من البقايا المتبقية من الحروف، وكذلك من التاريخ 245 بعد الميلاد، أن المقصود لا يمكن أن

يكون إلا القيصر فيليب العربي المولود في حوران[1]. وتجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن الضمير هي آخر قرية في الشمال عثر فيها على كتابات نبطية. إحدى هذه الكتابات، تعود إلى عام 99 بعد الميلاد، اكتشفها البروفسور موريتس على عمود ثماني الأضلاع؛ عند وجودي هنا كان هذا العمود مرمياً على الأرض في أحد شوارع الضمير[2].

الضمير هي أبعد قرية من قرى سهل دمشق في صحراء الحماد. تحمل هذه القرية الكثيفة بالسكان، ذات الأزقة الضيقة المتعرجة، من ناحية أسلوب البناء نفس الطابع الموجود في القرى الواقعة على أطراف الصحراء وفي الواحات المجاورة. تتألف البيوت من طابق أو طابقين وهي مبنية من الحجارة والطين، مدهونة غالباً بالأبيض ومزينة بألوان فاقعة، وتصطف دون فواصل إلى جانب بعضها البعض بحيث تشكل الواجهات المطلة على الشارع جداراً متصلاً لا تخترقه أي منافذ سوى الأبواب. وتحتوي البيوت على ساحة داخلية وزرائب للحيوانات لأن السكان يعملون في الزراعة. فوق الأبواب المنخفضة يوجد في الجدار كثير من الصحون الملونة، وغالباً باللون الأزرق. الباحة الداخلية ممهدة بشكل جيد. وفي غرف

---

(1) انظر وادينغتون، نفس المصدر السابق، ص586، رقم 2562. اسم «المقصورة» الذي استعمله وادينغتون للخربة والضمير، لا يستعمل في العادة للضمير وإنما فقط للخربة التي هي بقايا قلعة أثرية تقع إلى الشرق من الضمير. والاسم «دومن» المرسوم في بعض الخرائط في موقع غير بعيد عن الضمير يعود سببه إلى خطأ. إذ لا يوجد موقع اسمه دومن في تلك المنطقة من الحماد. بخصوص ضمير ـ آدميديرا. . ، انظر وادينغتون، كتابات في سورية، ص586. موريتس يترك، في مقاله عن الطبوغرافيا القديمة للبالمورينه (مجلة الأكاديمية الملكية)، برلين 1889م، ص13 و20، مسألة ما إذا كانت آدميديرا تعني الضمير أم صيدنايا دون حسم. أما ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء 17، ص1457 فيعتبر، استناداً إلى تقرير أديسون (1835م)، آدميديرا = القطيفة. جميع هذه الاعتبارات غير مرضية. بل إن آدميديرا يجب أن تكون واقعة، إذا ما اعتمدنا على رسمة تابولا عند ممر «ثنية أبو العطا» في النقطة التي يتفرع فيها الطريق إلى القريتين عن الطريق الكبير دمشق ـ حمص.

(2) قام بتفسيرها ذاخاو في مجلة الجمعية الألمانية المشرقية، عام 1884م، الجزء 38، ص535 وما يليها.

الجلوس توجد تجويفات تشبه المخزائن فيها العديد من الرفوف تصنعها النساء من نوع من الطين المخلوط بالزبل. ومن نفس المادة تصنع أيضاً الأوعية المستديرة الكبيرة التي يزيد ارتفاعها على متر وتضيق شيئاً فشيئاً نحو الأسفل وتستعمل لحفظ القش والحبوب والماء والزيت، وتتسع غالباً لاختباء رجل فيها. ذكرتني هذه الأوعية بحكاية من قصص ألف ليلة وليلة حيث تقوم الجارية الوفية بقتل اللصوص المختبئين في ظروف الزيت. القرية محاطة من جميع الجهات بإكليل من البساتين المروية بماء جار والمسيّجة بأسوار من الطين لحمايتها من دخول الغرباء أو الهجمات المعادية. يعيش أهالي الضمير في حالة ميسورة، فقد رأيت كثيراً من الأبقار التي لا يراها المرء حتى ولا في قرى الواحات.

يحمل سكان الضمير سمات الفلاحين السوريين ولا يتمتعون بجمال متميز. بنيتهم قوية، عظامهم غليظة، وتقاطيع وجوههم فظة، وهم يختلفون بذلك بشكل بارز عن سكان تدمر وغيرها من قرى الصحراء الذين كانوا بدواً متنقلين ثم استقروا. فمن الواضح أن أهالي الضمير ما زال يجري في عروقهم جزء كبير من الدم الآرامي القديم.

تشكل الضمير اليوم نقطة الانطلاق على طريق البريد من دمشق إلى بغداد التي تتجه اعتباراً من الضمير نحو الشرق تقريباً وتعبر الصحراء ثم تجتاز نهر الفرات عند هيت، وبعد ذلك تتجه نحو الجنوب الشرقي، مجتازة عرضانياً منطقة ما بين النهرين، إلى بغداد[1]. كان البريد في بادئ الأمر، منذ السبعينات، في

---

(1) تم عبور الحماد في اتجاه طريق البريد تقريباً عدة مرات من قبل رحالة أوروبيين ومنهم مثلاً: أورمسبي 1831م (انظر ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء 17، ص1425 و1431)، وفيلشتت 1833م (رحلة إلى مدينة الخليفة، لندن 1840م، الجزء الأول، ص303 وما بعدها)، وشسني 1837م، وسوسين 1872م («آوسلاند» 1873م، ص221 وما بعدها، وهوبر 1883م (رحلة عبر البلاد العربية (مجلة الجمعية الجغرافية 1884م ـ 1885م)، ص156 وما بعدها، ب ـ فون راكوفسكي، هـ. بورشارت، وغيرهم. قام م. فون تيلمان باجتياز الجزء الشرقي من الحماد، من الحلة إلى تدمر، وقام بلنت باجتياز الجزء الغربي من تدمر جنوب السلسلة الجبلية إلى الضمير.

أيدي الإنجليز؛ ولكن بعد ذلك بوقت قصير أسس الإصلاحي المشهور مدحت باشا، بتكليف من الحكومة التركية، شكرة منافسة مما جعل شركة البريد الإنجليزية تتوقف عن العمل في منتصف الثمانينات. ومنذ ذلك الحين يذهب البريد التركي وحده مرة كل أسبوع من دمشق إلى بغداد وبالعكس. وهو لا ينقل، كما هو الحال في البريد البري التركي عموماً، سوى الرسائل العادية، أي لا ينقل أشياء ذات قيمة. كل رجل من المشاركين في نقل البريد يأخذ معه، إضافة إلى الجمل الذي يمتطيه، جملاً احتياطياً لحمل الماء. ورجال البريد هم بدون استثناء تقريباً من قبيلة عقيل[1]. يسمح للمسافرين مقابل دفع رسم محدد بمرافقة قافلة البريد على جمل من عندهم أو على جمل مستأجر من أصحاب القافلة، ولكن في جميع الأحوال على مسؤوليتهم الشخصية. قبل عدة أعوام فقد صاحب اللوكندا اليوناني في بغداد حياته على طريق البريد إلى دمشق. فقد أصيب بإرهاق شديد ولم يستطع متابعة السفر مما جعلهم يضطرون إلى تركه وحيداً في الصحراء. فالرحلة شاقة إلى أبعد الحدود. تسير القافلة كل يوم 18 ساعة وبالخطوة السريعة، وتتوقف للاستراحة ثلاث مرات كل يوم لمدة ساعتين كل مرة. تستغرق الرحلة في أوقات الجفاف 8 أيام، أما في الشتاء والربيع فتستغرق ثلاثة أو أربعة أيام أكثر لأن المطر يجعل الطريق موحلة في بعض الأماكن. ولقد عقدت الحكومة اتفاقيات مع جميع القبائل البدوية ذات الصلة من أجل ضمان سلامة النقل على طريق البريد.

في الضمير انفصلت عن ذبلان الذي لم أستطع إقناعه بأي وسيلة لكي يبقى معي. ولا أعرف ما إذا كان قد فعل هذا خوفاً من الجنود الأتراك الذين رافقوني انطلاقاً من الضمير أم من العنزة الذين كانوا حسب اعتقاده يجوبون المنطقة. غير أننا لم ننفصل إلا بعد أن عقدنا فيما بيننا وثاق الأخوة على الطريقة البدوية خطياً وبحضور شهود. وكان نص العقد حسبما ترجم لي على الشكل التالي: «أنا الموقع أدناه ذبلان ابن محمد اللافي عقدت مع السيد البارون ماكس أوبنهايم

(1) انظر الفصل الثاني، ص93 أعلاه.

وثاق الأخوة العربية وبذلك أصبحت مسؤولاً أمام الله والشهود الحاضرين عن احترام حقوق الأخوة تجاهه وعن حمايته وحماية أشيائه وأملاكه طالما هو موجود في منطقة الغياث وأتعهد بأن أقيه من جميع الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها من الغياث الذين أنتمي إليهم، ولهذا الغرض سلمته هذا العقد وهذا المكتوب. التوقيع ذبلان بن محمد اللافي من قبيلة الغياث، 18 تموز 1893م». تم توقيع العقد أيضاً من أربعة شهود، ثلاثة منهم من غياث وهم: طالب السمبي، ودعيكل سليمان، ومطلق الزايد، ثم الضميري (الضمراوي) الشيخ مصطفى. وكان هذا الأخير الوحيد الذي يستطيع الكتابة. حصل ذبلان لقاء خدماته الجليلة فعلاً على معطف وأربعة جنيهات تركية؛ ثم افترق عني معرباً عن أمله في أن أزوره مرة أخرى في وقت ما.

بعد زيارة آثار المقصورة كنت أنوي، كما ذكرت سابقاً، زيارة بير زبيدة، المشهور لدى جميع بدو البادية السورية، لكي أسير بعدئذ إلى تدمر جنوب طريق القوافل المعتادة وهي طريق جيرود ـ القريتين. وبدا لي أنه ليس حكيماً سلوك هذه الطريق دون أن يرافقني رجال من غياث على الجزء الأول، على الأقل، من الطريق وذلك لأننا كنا قد سمعنا في الرحبة أن جزءاً كبيراً من القبيلة انطلق قبل وصولنا بوقت قصير نحو الشمال لكي يجرب حظه مرة أخرى في غزوة كبيرة قبل اضطرار القبيلة إلى الرحيل، بسبب شح المياه، من الرحبة إلى السفوح الشرقية لجبل حوران. ولذلك استأجرت الشيخ الغياثي طالب السمبي وهو شقي كبير في السن شائب الشعر كان قبل عدة أعوام قد وقع في أيدي الحكومة بعد هجوم على قافلة البريد ثم أجبر على الإقامة مع عائلته قرب الضمير لكي يستعمل في المستقبل كرهينة ضد هجوم الغياث على قافلة البريد أو على قرية الضمير نفسها. قبل وضع قشلة (ثكنة عسكرية) في الضمير كان أهالي القرية يدفعون ضريبة سنوية للغياث.

حسب الخرائط الموجودة حالياً رسمت السلاسل الجبلية المتقدمة من جبال لبنان الشرقية نحو الشرق، والممتدة من الضمير إلى تدمر، كسلسلة واحدة أو كسلسلة ذات ارتفاعين؛ أما في الحقيقة فهي منطقة جبلية تحتوي على العديد من السلاسل الجبلية المتوازية والمستقلة والمتفاوتة الارتفاع تمتد من اتجاه الجنوب

الغربي نحو الشمال الشرقي. إلى الشرق من القريتين، عند جبل عين الوعول تقريباً، توجد هذه السلاسل وتتابع امتدادها ككتلة جبلية واحدة نحو الشمال الشرقي إلى تدمر. عند تدمر تلتقي هذه السلسلة مع سلسلة قادمة من حمص نحو الشرق بحيث تحصران فيما بينهما سهول القريتين. بعد ذلك تتابع هذه الجبال امتدادها نحو الشمال الشرقي عبر إرك والسخنة وحتى الفرات الذي تصل إليه في منطقة غير بعيدة فوق دير الزور. ومن الممكن اعتبار السلسلة الجبلية بكاملها الحدود الشمالية للبادية السورية. إلى الشمال من هذا الخط الجبلي تبدي الأرض في الجزء الشرقي فقط، غير بعيد عن الفرات، نفس المواصفات الطبيعية الموجودة في الحماد الحقيقية، أما في الغرب فهي صالحة للزراعة. هناك العديد من المدن الأثرية، كالطيّبة، والرصافة، والسريّة، والأندرين، الخ...، التي تشهد على خصب هذه المنطقة الغربية.

بعد استراحة دامت يومين، كانت مفيدة جداً لنا وضرورية للخيول والجمال، غادرنا الضمير يوم الثلاثاء في 20 يوليو/ تموز في الساعة السابعة والنصف صباحاً. رافقنا في هذا اليوم بالإضافة إلى طالب السمبي وعدة رجال من غياث، تقريباً جميع عناصر الحامية المتمركزة في القشلة العسكرية قرب الضمير وواحد من شيخي القرية وعدد من الفلاحين الضميريين، وجميعهم مدججون بالسلاح. كان حصاني العربي الأصيل وأيضاً حصان منصور قد اجتازا بشكل جيد صعوبات الفترة السابقة وكان من الصعب علينا إيقاف جموحهما عندما انطلقنا من الضمير وأمامنا رجال الغياث الذين يركبون الأفراس. كانت خيولنا جميعها من الأحصنة. وكان من المفيد أثناء المسير وضع فرس في المقدمة عندما تظهر علائم التعب على الأحصنة. تركت القافلة مرة أخرى تسير منفصلة عنا وتسبقنا على طريق جيرود، لسببين: أولاً لأن أخذها معنا إلى بير زبيدة بدا لي شديد الخطورة وثانياً لكي نجند في جيرود بعض السبئية الذين يرافقوننا في مسيرنا اللاحق. وكان شيخ جيرود محمد آغا قد أخذ على عاتقه منذ زمن طويل حماية طريق القوافل في المنطقة المجاورة لجيرود وذلك بواسطة رجاله من الخيالة غير النظاميين. وكان شيخ مشايخ الرولا متزوجاً من ابنته.

قادنا طريقنا في بادئ الأمر إلى الوراء في لسان الحماد الممتد بين جبل أبو القوس والطرف الشمالي للتراخون والمحصور بواسطة هذه المرتفعات في الشمال والجنوب والذي يشكل نوعاً من الحوض المنخفض في الوادي. تنحدر الأرض هنا نحو الجنوب الغربي، وجداول الماء، التي تكون في الصيف أيضاً جارية عند الضمير والقشلة وآثار المقصورة، تصب في بحيرات المروج في سهل دمشق. على بعد 20 كيلو متراً شرقي الضمير يرتفع حوض الوادي قليلاً ـ وهنا يبدأ فعلاً الحماد الحقيقي ـ وعلى بعد 30 كيلو متراً أخرى نحو الشرق يشكل منخفضاً يمتلئ بالماء في فصل الأمطار ويصبح في الصيف منطقة مستنقعية لماعة بلون يميل إلى الأبيض. تربة المنخفض شديدة الملوحة؛ لكن المستنقعات المالحة (السبخة) لا تستثمر. في الربيع يكتسي حوض وادي الحماد ببساط كثيف من الحشائش والأعشاب يرتع فيه بدو ولد علي[1] لأنه يوفر لخيولهم وإبلهم أفضل المرعى. أما عندما مررنا من هنا في فصل الصيف فلم نجد نباتات تستحق الذكر.

عند القشلة انضم إلينا الضابط آمر الموقع ومعه السبثية، وخلال ساعة بعد انطلاقنا من الضمير وصلنا إلى المقصورة (الخربة). تتألف الخربة بصورة رئيسية من مبنى كبير مستطيل الشكل لم يبق منه تقريباً إلا الجزء الأسفل من الجدران الخارجية. وفي داخل ما تبقى من الجدران تتراكم أنقاض عدة مباني. ومما لا شك فيه أن ما شاهدناه هنا هو آثار قلعة رومانية[2] كانت الغاية منها حراسة لسان الحماد، الذي يشكل بوابة العبور من البادية إلى سهل دمشق، والحماية أيضاً في الأوقات العادية من هجمات البدو المتوقعة على الدوام. لا يتضح من الكتابات التي تم العثور عليها حتى الآن تاريخ البناء ولكن يتبين من هذه الكتابات أن القلعة كانت موجودة في عهد القيصر ماركوس أوريليوس. وفيما عدا ذلك تحتوي الكتابات على معلومات عن الحامية العسكرية التي كانت تتألف على الدوام،

---

(1) انظر بورتون، سورية غير المكتشفة، لندن 1872م، الجزء الثاني، ص364.

(2) انظر فتسشتاين، كتابات مختارة إغريقية ولاتينية، مجمعة خلال رحلات في التراخونة وحول جبل حوران (مجلة الأكاديمية الملكية للعلوم)، برلين 1864م، ص316؛ وادينغتون، نفس المصدر السابق، 2556.

بسبب المهمة الموكلة إليها، من الخيالة. في الضمير أطلعوني على حجر قيل إنه من المقصورة كتبت عليه الكلمات التالية:

ETOYC:A..
TEPITIOYI
TEAEYOII
ENAIIOYA
NAPICOAE
MOYETQN

بعد استراحة لمدة عشرين دقيقة غادرنا المقصورة وتابعنا مسيرنا باتجاه الشرق. في الساعة التاسعة والنصف أشاروا لنا إلى اليسار في الجبل إلى موقع مرسوم على الخرائط يسمى «عين الراهب» قال لي مرافقي إنها في هذا الوقت من السنة لا تحتوي على الماء، وإلى اليمين كان يوجد عدة أماكن لصيد الغزلان. كانت أماكن محاطة بجدران منخفضة مبنية من الحجارة الحرة وحفرت حولها خنادق عميقة. تدفع الغزلان إلى هذه الأماكن المحصورة وعندما تحاول الهرب تقفز من فوق الجدران وتسقط في الخنادق.

اتجهنا الآن قليلاً نحو الجنوب الشرقي ودخلنا مرة أخرى إلى منطقةالتراخون المغطاة بالطفح البركاني. على تموج طويل الامتداد يقع خان أبو الشامات الذي وصلنا إليه في الساعة الحادية عشرة. لم يكن باقياً منه سوى الجزء الأسفل من الجدران الخارجية المبنية من حجارة غير منحوتة وتبلغ سماكتها متران ونصف. على الزوايا الركنية توجد حصون قوية مربعة الشكل تشبه الأبراج. وكان الباب الوحيد يؤدي نحو الشمال إلى منخفض الوادي وكان يوجد أمامه حوضا ماء مربعا الشكل أحدهما كبير والآخر صغير وكلاهما مردومان بالأنقاض. لم أعثر على أي كتابات أو أي معلومات أخرى عن زمن البناء أو الغاية منه. إلا أنني لا أعتبر المبنى قلعة رومانية وإنما كما يشير اسمه، خاناً حقيقياً بني ربما اقتداء بمبان رومانية قديمة.

يبدو أن خان أبو الشامات هو الأول في سلسلة كاملة من الخانات المشابهة

المزروعة، على مسافة بضع ساعات بين الواحد والآخر، على الطريق من دمشق، أو بالأحرى من الضمير، باتجاه الشمال الشرقي إلى الفرات ومن هنا عبر منطقة ما بين النهرين إلى الموصل وربما على امتداد الفرات أيضاً: محطات للقوافل من العصر الإسلامي يمكن أن تأوي إليها عند الحاجة عدة قوافل وتقدم لها الحماية من الهجمات في حال الخطر. ويعتقد بأنها بنيت في أيام ازدهار الخلافة لتوفر الأمان لطريق القوافل الرئيسية بين بغداد أو الموصل ودمشق. داخل الخانات أو بقربها مباشرة توجد دائماً خزانات ماء أو آبار. وهي لا توجد إلا في المناطق الخالية من المستوطنات السكنية الثابتة.

الخان التالي بعد أبو الشامات هو قصر السيقل إلى الجنوب من السبخة الملحية الواقعة في حوض وادي الحماد. وهو من الخانات التي رأيتها. من هناك حتى تدمر يوجد عدة خانات أخرى إلى الجنوب من السلسلة الجبلية، حسبما قيل لي. بين تدمر وإرك وجدت خان الحمرا (قصر الأحمر) وخانين آخرين بين إرك والسخنة قريبين من بعضهما البعض (ربما بنيا في زمنين مختلفين). وبين السخنة وبير غباغب (قباقب) كان هناك على الأرجح مبان مشابهة عند أسفل السلسلة الجبلية، على الرغم من أنني لم أشاهدها ولم يشاهدها أحد ممن سبقوني؛ على أرجح الظن كانت الطريق القديمة تسير في اتجاه مختلف قليلاً عن اتجاهها الحالي. على بعد ساعات قليلة إلى الشرق من محطة قباقب وجدت آثار خان. ومن الممكن أن تكون السلسلة قد امتدت من هنا باتجاه مباشر إلى مصب الخابور. على الضفة الغربية اليمنى للخابور كانت توجد سلسلة من المدن والقرى لم تزل أسماؤها ملتصقة حتى اليوم بالتلال الركامية وفي وسعنا أن نفترض أن طريق القوافل كانت تتبع هذه المدن. ولا شك في أنها كانت تعبر الخابور عند عربان. إذ لم تزل توجد هنا حتى اليوم بقايا عظيمة مزينة بكتابات عربية لجسر عريض وضخم. ولعل الطريق كانت تسير من الضفة الشرقية لهذا النهر على امتداد الجهة الجنوبية لجبل سنجار نحو الموصل. على بعد أربع ساعات من بلد سنجار وجد زاخاو خاناً آخر لكنه، حسب الكتابة التي نسخها عنه، لم يبن إلا في القرن الرابع عشر، غير أنه قد يكون قد بني من جديد على أنقاض بناء أقدم.

شكل الخانات التي عثرت عليها يشبه دائماً من حيث المبدأ شكل خان أبو الشامات[1]. وهي جميعها مهجورة الآن، وانهارت جدرانها واندرمت خزانات مائها. أما متى انهارت فلا نعرف ذلك إلا تخميناً، وقد يكون هذا قد حدث عند مجيء المغول أو التتر.

بدلاً من الخانات أقامت الحكومة التركية في الآونة الأخيرة إلى جانب مواقع مياه منفردة في البادية حصوناً صغيرة تسمى «قشلة» لا تحتاج، حسبما أثبتت التجربة، إلا إلى عدد قليل من العناصر لكي تصد حتى الغزوات الكبيرة. عند اقتراب البدو ينسحب الجنود إلى القشلة ويوصدون الأبواب ثم يطلقون النار من بنادقهم الجيدة على الغزاة المقتربين. ولقد سمعت حكايات قابلة للتصديق أن جنديين أو ثلاثة يستطيعون بهذه الطريقة منع مئات البدو من الحصول على الماء ولا يمكن محاصرة الموقع فترة طويلة لأن المهاجمين لا يستطيعون البقاء طويلاً دون ماء. ومحاولة اقتحام القشلة ستبوء بالفشل بسبب وسائل الهجوم الشحيحة الموجودة لدى البدو. ولو قررت الحكومة التركية زيادة عدد هذه القشلات وحماية جميع الأماكن التي يبقى فيها ماء خلال الفصل الحار في الصحراء السورية بواسطة حاميات عسكرية صغيرة، لكانت التجارة وحركة المواصلات، اللتان تتوقفان كلياً تقريباً الآن خلال فصل الصيف، ستحصلان على حماية فعالة وتنشطان دون أدنى شك. وعندئذ كانت المدن المهجورة على طرق القوافل الكبيرة مثل تدمر وإرك وغيرهما ستزدهر من جديد. مع العلم بأن عدد الأماكن الداخلة في الاعتبار سيكون محدوداً لأن الينابيع التي يبقى فيها ماء بشكل دائم قليلة جداً. إلا أن هذا سيتطلب، إضافة إلى ذلك، قوة صغيرة سريعة الحركة محمولة على الخيول أو الجمال تقدم الدعم لحاميات القشلات. ومما يثبت أهمية مثل هذه الإجراءات العسكرية النجاح الذي حققته المجموعة المتمركزة في

---

(1) وهي بالمناسبة نفس التي رأيتها عند التحصينات في الجزائر وفي شرق إفريقيا الألمانية: بناء مربع الشكل يحيط بساحة كبيرة غير مسقوفة، وغالباً لها على الزوايا حصون بارزة إلى الأمام. مثل هذه المباني موجودة أيضاً على طرق القوافل القديمة في بلدان إسلامية أخرى.

دير الزور، والتي تتحرك على ظهور البغال، في سعيها إلى تعزيز الأمن في ذلك الجزء من البادية.

مواقع المياه هي غالباً آبار محفورة في الأرض يبلغ قطرها 1 ـ 3 أمتار وقد يصل عمقها إلى 80 متراً. ويكون البئر أحياناً معمراً وخاصة الجزء العلوي منه، ويتحرك الحبل المربوط به الدلو إما على حافة فوهة البئر مباشرة أو على قطعة خشبية مثبتة فوق الفتحة. ويجري سحب الماء من البئر بأن يشد الناس أو الدواب الحبل وهم يتحركون مبتعدين عن البئر. وبهذه الطريقة ينشأ أحياناً في الحجر نتيجة الاستعمال الطويل أخدود عميق، يبلغ عمقه في حالة بير قباقب عشرة ستيمترات. مياه البادية السورية ومنطقة شمال الرافدين مالحة غالباً أو كبريتية لأن التربة هنا جبسية، ولذلك يشاهد المرء في كثير من الأحيان كريستالات جميلة على سطح الأرض. وعلى أي حال فقد بدا لنا ماء الحماد رائعاً بعد الماء الموحل الذي شربناه في أم راحيل والحرة.

من خان أبو الشامات كنا نستطيع رؤية جبل زبيدة الذي يوجد عليه مقصدنا التالي، النبع السيئ السمعة، ويشكل امتداداً لجبل أبو القوس. على طريق سيرنا كنا نطل على الذرى التالية للمنطقة البركانية الواقعة إلى جنوبنا وهي: تل المطلة، تل العبد، تل الدكوة، تلول السريجيّات، سدريشة، تل أم أذن؛ وكان جبل أبو القوس يتابع امتداده على شكل قوس نحو شمال الشمال الشرقي.

بعد وقت قصير من انطلاقنا من أبو الشامات غادرنا مرة أخرى المنطقة البركانية وعبرنا حوض الوادي الذي أصبح عرضه هنا نحو 10 كيلومترات باتجاه الشمال الشرقي. كنا نسير بسرعة جيدة، وبين حين وآخر بسرعة العدْوِ. وكانت أحياناً تقطع طريقنا قطعان الغزلان والأرانب.

في الساعة الثانية والنصف بدأ الصعود الصعب إلى الجبل الواقع شمال الحوض السهلي، وفي الساعة الثالثة وأربعين دقيقة وصلنا إلى البئر (النبع). كانت الصخور الكلسية تغطي الأرض ولم تترك لدوابنا طريقاً سالكة تسير عليها بحيث اضطررنا إلى جر الخيول والجمال معظم الوقت. وكانت الصخور لم تزل

متوهجة من شدة الحر وكان لونها الرمادي الأبيض يبهر العيون. ومن بعيد ظهرت علامات الاقتراب من النبع من خلال بعض النباتات الخضراء التي وجدت مكاناً لها بين الشقوق وحول البئر وبرزت لطيفة في الوسط الصخري القاحل. كان النبع نفسه يقع على أعلى قمة للجبل في مغارة محاطة بالصخور البارزة إلى الأمام والتي تحمي الماء، الذي يتسرب من عمق علة أمتار من داخل الصخر، من أشعة الشمس الحارقة. بواسطة الدلو الذي أخذناه معنا سحبنا من البئر ماء طرياً كان منعشاً للجسم والنفس ولكن طعمه كان يميل إلى المر.

من قمة صخرة زبيدة بدا المنظر حولنا رائعاً. تحتنا كان يقع حوض الوادي الذي كنا قد مررنا فيه، وفي الجنوب كان قصر السيقل يبث تحياته نحو الأعلى وإلى جانبه كانت تلمع مساحة من الأرض، وكأنها مغطاة بالثلج: السبخة الضحلة الجافة الآن. وحوض الوادي نفسه، الذي حرق حر الصيف اللاهب نباتاته الخضراء، بدا كسهل قاحل مقفر. وخلفه ظهرت بكل رهبتها ووحشتها منطقة التراخون البركانية، التي كنا قد غادرناها قبل وقت قصير، مع ما فيها من طفح حممي قاتم تبرز من وسطه مخاريط الفوهات البركانية السوداء المدببة أحياناً والمقطوعة أحياناً أخرى. استغليت الفرصة لكي أشاهد أهم هذه الفوهات. من المخاريط التي كانت واضحة تماماً: تل سدريشة، مكحول، كرواس، سيس، ثلثواه، الرحيّة، تل العاقل أو شيخ التلول، تل الأقعس، الضراير، الضرس، الذكوة، المطلة. إلى الغرب من هذه الجبال شاهدنا سهل الضمير، وفي الشرق كان يمتد سهل الحماد الشاسع ساطعاً بمختلف الألوان. وكانت الخلفية الصخرية الرومانسية المتوحشة لجبل زبيدة تشكل خلفية مهيبة لهذه الصورة الهائلة التي تجعل المرء ينسى عند النظر إليها الأخطار التي تكمن في الزبيدة التي يخشاها جماعة الغزو أكثر من أي نقطة أخرى في البادية السورية.

بير زبيدة غير مرسوم على أي خارطة من الخرائط الموجودة حتى الآن لكنه على أي حال هو نفس البئر الذي أخذ منه رجال بلنت[1] في رحلتهم الأولى ما

(1) انظر ليدي آنه بلنت، القبائل البدوية على الفرات، لندن 1879م، الجزء الثاني، ص147.

يحتاجونه من ماء؛ لكن السيدة آنه بلنت سمّته خطأ «بثرشده».

كان مرافقي قد اكتشفوا في هذه الأثناء آثار واضحة لقافلة كانت على الأرجح قد مرت من هنا الليلة الماضية. وبما أن غزوات البدو تقترب عادة مع غروب الشمس من مواقع الماء بدا لنا أنه من الضروري جداً أن نفكر بالرحيل.

بدأنا النزول في الساعة الخامسة والربع بعد الظهر. والتفينا حول الجبل بحيث أصبح على يسارنا ثم وصلنا على طريق شديد الانحدار باتجاه الشرق إلى ممر يشكل جانبه الآخر جبل ضخم اسمه «جبل قرن كبش». نزلنا على الدرب المغطى هنا في كل مكان بالكريستالات الكلسية الجميلة بشكل ملفت للانتباه. وعلى السفح الشمالي لممر زبيدة تفرعت آثار طريق عن طريقنا، على بعد ربع ساعة تقريباً من قمة الجبل، لتتجه أكثر نحو الشرق.

كنا نعلم أن قافلة الحمولة التي توجهت إلى تدمر عن طريق جيرود، أي على طريق ملتفة قليلاً، لم تكن قد تقدمت شرقاً مثلنا، ولذلك اضطررنا، لكي نصل إلى مكان الاستراحة المتفق عليه، إلى العودة نحو الغرب. عند اختيارنا للمكان كان علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنه على بعد أميال نحو الشرق لم يكن يوجد أي أثر للماء. وعند وصولنا إلى أسفل الجبل الموجود عليه بير زبيدة أخذنا الاتجاه شمال ـ شمال ـ شرق ثم عبرنا في بادئ الأمر سهلاً كبيراً، وبعد اجتياز سلسلة من المرتفعات المنخفضة، سهلاً أصغر، واجتزنا في الساعة السابعة تل ثمدة التابع لسلسلة مرتفعات موازية لجبل زبيدة[1]، أي باتجاه شرق ـ شمال ـ شرق، سائرين على امتداد واد صغير جاف. متابعين مسيرنا باتجاه شمال شمال غرب صادفنا في الساعة السابعة والربع سلسلة مرتفعات ثانية وفي وقت لاحق سلسلة موازية أخرى.

في الساعة السابعة و50 دقيقة وصلنا إلى «بير أبو الحيايا»؛ عدة آبار كبيرة

(1) في المصادر الأوروبية يطلق على امتدادات جبل القوس وجبل زبيدة باتجاه تدمر اسم «جبل الشرقي» و«جبل طويل» ولكن هذين الاسمين غير معروفين لدى أهالي المنطقة. بل هناك يطلق على كل هضبة أو مرتفع اسم خاص.

وعميقة كان فيها ماء كاف. على مسافة قريبة من البئر كانت توجد عدة خيام للصليب. وكانت قافلتنا قد وصلت ونصبت الخيام. ولم نعثر على مكان المخيم إلا بعد بعض البحث وبعد تبادل إطلاق العيارات النارية لإعطاء الإشارات. وكان قد جاء مع القافلة من جيرود بعض السبئية الذين سيتولون منذ الآن قيادتنا إلى تدمر بينما غادرنا هنا مرافقونا حتى الآن لكي يعودوا إلى الضمير.

في الساعة السابعة و25 دقيقة من صباح اليوم التالي غادرنا أبو الحيايا. الآن ظهر في الشمال أيضاً عدد أكبر من السلاسل الجبلية الممتدة باتجاه شمال شرق. وبعد مسير ساعتين انتهت في الجنوب سلاسل الهضاب الصغيرة، فقط السلسلة الجبلية الأكبر، التي فصلت طريقنا عن الحماد، ظلت مستمرة؛ أما في الشمال فقد ظلت باستمرار عدة سلاسل جبلية إلى جانبنا. شاهدنا بعد انطلاقنا من المخيم في بادئ الأمر «جبل الصغير» على يسارنا و«ظهور المحصى» على يميننا وخلفه كان يبرز جبل زبيدة الضخم. وفي الساعة السابعة و50 دقيقة كانت على يميننا مباشرة «طابية زبيدة» وهي أعلى مرتفع في مجمع جبل زبيدة.

بعد ذلك دخلنا سهلاً ضيقاً متموجاً قليلاً يسمى «سهل ضبع» ما لبث أن أصبح أكثر اتساعاً وأصبح على يسارنا ملاصقاً لـ«جبل نصافة ضبع». وهنا كان «تل ضبع» قد أصبح في الساعة الثامنة والربع كأقرب هضبة على يميننا. والآن تغير اتجاه المسير من الشمال الشرقي إلى شمال الشمال الشرقي. في الساعة الثامنة و35 دقيقة انخفضت سلسلة الهضاب إلى ممر عميق يسمى «ثنية مكسر نمر» ويدل اسمه على أن المنطقة يوجد فيها نمور. تبعه بعد ذلك من جهة اليسار «جبل الغراب». في الساعة الثامنة و55 دقيقة فقدت السلسلة الجبلية الواقعة على اليمين كثيراً من ارتفاعها واستمرت على شكل سلسلة هضبية منخفضة تمتد على مسافة عدة كيلومترات حتى «ثنيّة اليباردة» («ممر اليبروديين»)[1] في الساعة التاسعة و5 دقائق أصبح على يسارنا «جبل شعب اللوز»، في الساعة التاسعة و50 دقيقة، على

(1) نسبة إلى بلدة يبرود الواقعة على السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان الشرقية بين دمشق وحمص.

اليمين، «جبل حيمور». واعتباراً من هنا أصبح اسم السهل الذي يمر طريقنا فيه «سهول زمل وضحة». من الساعة العاشرة و40 دقيقة بدأت الأرض تصعد حتى بلغت في الساعة 11 و15 دقيقة أعلى نقطة في المرتفع وهي «تل زمل وضحة». وبسبب شدة الحر توقفنا هنا لقضاء استراحة الظهيرة. بعد ساعة من توقفنا وصلت قافلة الحمولة، التي كانت تقطع في الأرض السهلية 4,5 ـ 5 كيلومتر في الساعة، وتابعت طريقها دون توقف. وفي الساعة الواحدة و50 دقيقة غادرنا مكان الاستراحة. وفي الساعة الثانية و25 دقيقة أصبح على يميننا «جبل البطم» وعلى يسارنا «جبل الروس الطوال» الذي تبعه بعد خمس دقائق، على اليسار أيضاً، «جبل العنبج».

لفت انتباهنا من بعيد هضبتان متجاورتان غريبتا الشكل كانا بسبب لونهما الأسود يبرزان بشكل واضح ضمن الوسط الرمادي الفاتح المحيط بهما والمؤلف من التربة الكلسية. انحرفنا قليلاً نحو الشرق ووصلنا في الساعة 3 و55 دقيقة إلى الهضبتين المذكورتين اللتين تحملان اسم «العبد والعبدة». كانت الهضبة الأولى تقع شمال غرب الثانية وكان يفصل بينهما منخفض صغير، ولكن بشكل بسيط فقط بحيث إن قاعدتيهما كانتا متداخلتين. وأن تكون الهضبتان، اللتان إحداهما مدببة والأخرى مسطحة، بركانيتا المنشأ فهذا ما كان واضحاً من الطفح البركاني الناعم المحيط بهما ولكن ضمن دائرة صغيرة فقط. هاتان الفوهتان البركانيتان المعزولتان تماماً لا يفصلهما عن المنطقة البركانية في التراخون الشمالي سوى سلسلة جبلية كلسية وحيدة وقطعة صغيرة من الحماد، وكانتا دون شك في فترة نشاطهما البركاني، الذي خمد منذ زمن طويل، متصلتين تحت الأرض مع التراخون[1].

كانت قافلتنا قد سلكت طريقاً يقع أكثر إلى الشمال على طرف سلسلة المرتفعات الهامة نسبياً والمؤلفة من عدة صفوف والواقعة على يسارنا والتي يشكل «جبل رأس العين» أعلى نقطة فيها. في الساعة الرابعة و45 دقيقة صار هذا

(1) انظر الفصل الثالث، ص106 أعلاه.

الجبل على يسارنا تماماً. إلى الشمال الشرقي من الفوهتين البركانيتين المذكورتين كان يمتد سهل يزداد اتساعاً شيئاً فشيئاً ولا يقطعه سوى بعض المرتفعات المتموجة قليلاً ويحده من جهة اليمين جبل البطم وامتداده «جبل الشيخ»، وكلاهما امتداد لجبل أبو القوس وجبال زبيدة.

هذه السلسلة من الجبال، التي تتجه اعتباراً من هنا باتجاه الشمال الشرقي، تستمر حتى تدمر وتتخذ مرتفعاتها دوماً وأبداً أسماء جديدة، ألا وهي: «جبل النصراني»، «جبل الكحلة»، «جبل الرتوس»، «جبل الباردة»، «جبل عين الوعول»، «جبل هيال». وعلى الجانب الآخر من السلسلة الجبلية في الجنوب يبدأ سهل الحماد الكبير. نحو الشمال تنتهي السلاسل الموازية الصغيرة، التي تفصل الجبال المذكورة عن سهل القريتين، مقابل «جبل الباردة» الذي لم يعد أمامه هنا سوى امتداد منخفض لجبل خضريّات، بينما ينحدر جبل عين الوعول وجبل هيال إلى سهل القريتين مباشرة.

بعد وقت قصير من مغادرتنا «العبد والعبدة» برز أمامنا جبل منخفض غير كبير وناصع البياض بدا وكأنه يغلق في الشمال، على مسافة غير بعيدة من جبل الكحلة، السهل الذي مررنا فيه. كان هذا الجبل عبارة عن صخر طباشير مشقق يسمى «الحُفيّر». وبالفعل تتحد هنا المرتفعات التي تغلق سهلنا من جهة اليسار، بعد أن رسمت قوساً كبيراً نحو الشمال، مع الجبال الأكبر المذكورة سابقاً والممتدة إلى الجنوب منا. في الحفيّر يوجد في الغرب منخفض عريض يشبه الوادي تتجمع فيه في الشتاء المياه المنسابة من المرتفعات الشمالية. وفي مكان أبعد إلى الشرق يحتوي الجبل على نبع أو بئر لا تجف مياهه طيلة العام. وهنا كنا ننوي نصب مخيمنا. غير أننا منعنا من ذلك بسبب لقاء لم يكن متوقعاً.

بينما كانت قافلتنا تسير على مسافة كبيرة إلى حد ما خلفنا وفي خط أبعد قليلاً نحو الشمال، شاهدنا نحن الخيالة، الذين خرجنا عن طريق في رحلة صغيرة إلى العبد والعبدة، بعض البدو الذين ظهروا فجأة من جبل الشيخ. وعلى الفور بدأوا بإطلاق النار علينا من مسافة بعيدة. وعلى الفور اتخذنا نحن أيضاً وضعية

الاستعداد لإطلاق النار واندفعنا بسرعة نحو المهاجمين الذين ما لبثوا أن انسحبوا إلى وراء الجبل. وقبل مسافة قصيرة من الحفيّر التقينا مع قافلة الحمولة التي كانت قد غابت عن أنظارنا منذ استراحة الظهيرة. علمنا من رجالنا أنهم كانوا قد شاهدوا بعد الظهر من مسافة بعيدة مجموعة كبيرة من البدو قادمة من منطقة القريتين ومتوجهة إلى الجبال التي تفصلنا عن الحماد. وكانت المجموعة تتألف من حوالي 150 جملاً كان عدد كبير منها يحمل رجلين (مردوف). كان الأمر يتعلق دون أدنى شك بعملية غزو كان منفذوها سيكمنون لنا على الأرجح عند بئر الحفيّر. ولذلك تابعنا مسيرنا بمنتهى الحذر. كان البئر يجب أن يكون موجوداً، حسبما قيل لنا، في شرق الجبل الطباشيري المهدم، ولكن بما أن لا أحداً من رجالي، ولا الشيخ منصور ولا أي من السبئية كان قد رآه شخصياً، فقد أرسلنا واحداً من السبئية للبحث عنه وطلبنا منه أن يعطينا إشارة بإطلاق عيارين ناريين في الهواء في حال رؤيته عدداً كبيراً من البدو عند البئر. وكونه من أهالي جيرود فقد كان في وسعه التمييز بسهولة من مسافة بعيدة بين ما إذا كان البدو الموجودون هناك من بدو المنطقة أم إنهم جاؤوا إليها بغرض الغزو. لم ينقض وقت طويل حتى سمعنا الإشارة المتفق عليها وبعد ذلك بوقت قصير صوت عيارات نارية أخرى. وكما علمنا لاحقاً كان رجلنا قد اصطدم بركب من البدو يضم أكثر من 100 رجل كانوا يخيمون عند البئر الذي كنا نبحث عنه وهم، على أرجح الظن، نفس المجموعة التي كانت قافلتنا قد شاهدتها بعد الظهر. كان رجالي ودوابي بحاجة ماسة إلى الماء. فلأننا كنا واثقين بأننا سنحصل على الماء هذا المساء في الحفيّر لم نأخذ معنا سوى بعض الزمزمية المليئة بماء الشرب، لم نأخذ ظروفاً جلدية لكي نخفف الحمل عن الجمال التي كانت لم تزل تعاني من أعباء السير الشاق في الحرة. ولم نأخذ معنا من الضمير جمالاً خاصة لحمل الماء لأننا كنا واثقين أننا سنجد كل يوم نبعاً أو بئراً على الطريق. وبما أن ماء الحفير أصبح محجوزاً عنا الآن تعين علينا التفكير بإيجاد حل بديل. بدا لنا أن متابعة السير إلى موقع الماء التالي الواقع على طريقنا إلى تدمر كان غير ممكن، وأن عين الآدة الواقعة وراء الجبال الجنوبية على طرف الحماد، على مسافة بضع ساعات جنوب

شرق جبل الرتوس، وكذلك عين الوعول، كانتا بعيدتين جداً. فضلاً عن ذلك فإن عين الوعول كانت، كما قيل، قد ردمها سرب من الجراد أو جعلها غير صالحة للشرب. وبذلك كان أقرب موقع للماء هو عين الباردة. ولكن لكي نصل إلى عين الباردة كان يتعين علينا الالتفاف حول الحفيّر مما كان سيعرضنا لخطر الوقوع في كمين البدو. ولذلك لم يبق أمامنا سوى التحول نحو الشمال الغربي والذهاب من فوق سلسلة الجبال إلى القريتين. بعد إطلاق العيارات النارية حوّلنا على الفور طريق سيرنا نحو الشمال الغربي وسرنا تحت حماية الظلام والأرض المتموجة التي لا طريق فيها باتجاه القريتين واضعين في اعتبارنا التعرض لهجوم في أي لحظة. وبعد فترة طويلة من الزمن عاد إلينا السبتي الذي كنا قد أرسلناه للاستطلاع. إذ كان، حسب الاتفاق، قد سار، لكي يضلل البدو، مسافة باتجاه عين الباردة وتبعه فعلاً رجال على ظهور الجمال ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق به.

بعدما غادرنا الحفيّر اجتزنا بعض السلاسل الهضبية الصغيرة ووصلنا إلى سطح هضبة واسع شاهدنا من شرفته الشمالية على مسافة بعيدة آثار ضوء أعلنت اقترابنا من هدفنا الجديد القريتين. عند طرف الهضبة وصلنا إلى آثار حصن قديم سليم بشكل جيد وكان يوجد تحته حوض مهدم الأطراف ويحتوي على الماء يسمى «رأس العين». جاءت بعد ذلك عدة آبار (بيار) ثم آثار قناة مائية تصل إلى القريتين.

في منتصف الليل وصلنا إلى بيت شيخ القريتين فياض آغا. كان البيت يشهد على ثراء صاحبه، فالجدران كانت مزينة بحجارة مزخرفة جُلب بعضها من تدمر.

وهنا علمنا أن الشيخ نفسه كان قد قام مع الجزء الأكبر من رجال القرية المسلحين بملاحقة غزوة كبيرة كانت قد هجمت في الليلة الماضية على البساتين المحيطة بالقرية وسرقت الحبوب المكدسة هناك. وقد يكون هؤلاء الغزاة هم أنفسهم الذين منعونا من الوصول إلى بئر الحفيّر.

تقع القريتين في وسط البادية السورية وهي تشبه إلى حد كبير الواحة. البيوت مبنية كثيفة إلى جانب بعضها البعض بحيث إن جبهاتها الخارجية تشكل جداراً متصلاً يشبه السور وله بوابة واحدة من جهة الشرق باتجاه تدمر. يتألف السكان

من فلاحين سوريين ومن بدو سابقين أصبحوا مستقرين الآن، ويتراوح عددهم بين 1200 و1500 نسمة ويشكل المسلمون غالبيتهم العظمى. وكما قيل لي كان يوجد في القريتين سبعة أشخاص من فرقة «الخضريين» وعدد قليل من «البدوية» (أحمدية) وشخص واحد من «الجندية»؛ أما «السنوسيون» السيئو السمعة فلم يكونوا معروفين هنا. وقيل إن القرية فيها 500 إلى 600 مسيحي (يعاقبة) يعيشون بسلام مع المسلمين ولديهم كنيسة خاصة بهم ورجل دين. من المئذنة التي كانت في أمس الحاجة إلى الإصلاح يشاهد المرء منظراً رائعاً يطل على السهل الرمادي الأبيض الذي تغلقه في الجنوب جبال جرداء. ومن هنا دلوني على الينابيع التي تزود القرية بالمياه وبكمية وافية بحيث إن البساتين كانت في هذا الوقت المتقدم من الصيف لم تزل تطفح بالخضرة والنمو. كان عدد الينابيع 16 نبعاً ذكرت لي أسماؤها على الشكل التالي:

في الجنوب رأس العين.

في الجنوب قناة قاسم العساف.

في الشرق قناة العواصي.

في الشرق عينانة.

في الشرق عين السخنة.

في الشرق عين حقل مهنّا.

في الشرق عين المحمدية.

في الشرق عين الصغيرة.

في الشرق جبّ قطّاش.

في الشمال الشرقي عين شيحة.

في الشمال الشرقي عين عصام.

في الشمال الشرقي عين أبو جدار.

في الشمال الشرقي قناة الجفتلك.

في الشمال قناة النصارى.

في الغرب عين دير مار اليان.

في الغرب عين جلْيَة.

العديد من هذه الينابيع متصل مع القرية بقنوات تحت الأرض مزودة بفتحات كبيرة للتهوية (تسمى كهريز)[1].

لا شك إطلاقاً في أنه كان يوجد هنا، بسبب وفرة المياه، منذ قديم الزمان مستوطنة سكنية الأمر الذي تؤكده البقايا الأثرية القديمة المختلفة وخاصة الكتابات. فالقريتين هي القرية الرومانية «نزالا التابولا بويتنغيرانا»، نزالا النوتيسيا ديغنيتاتوم[2]. والاسم «القريتين» (أي القريتان) معروف لدى الجغرافيين العرب.

حسب كتابة اكتشفها كريمر بني جامع القريتين في عام 1084هـ (أي 1673م). ومن الواضح تماماً أن كثيراً من بقايا المباني القديمة قد استعملت في بنائه. وفي الوقت الذي زار فيه كريمر القريتين (1850م) كان بعض السكان، حسب زعمه، يتكلمون إلى جانب اللغة العربية اللغة السورية القديمة التي أصبحت منسية اليوم[3].

بوصولي إلى القريتين وصلت إلى طريق القوافل المعتادة التي تصل اليوم بين دمشق وتدمر. تتجه الطريق في بادئ الأمر من دمشق نحو الشمال الشرقي عبر النبك أو جيرود إلى القريتين ثم تسير عبر البادية إلى الشمال من الأرض الجبلية التي غادرناها. في بداية هذا القرن وحتى منتصفه كانت هذه الطريق ما تزال حافلة بالأخطار. ولكن في الستينات والسبعينات، عندما تقرر جدياً تحقيق الأمن في

---

(1) انظر فون كريمر، وسط سورية ودمشق، فيينا، 1853م، ص193.

(2) انظر نوتيسيا ديغنيتاتوم، سيك، برلين 1876م، ص67؛ ثم وادينغتون، نفس المصدر السابق، رقم 2571؛ فون كريمر، نفس المصدر السابق، ص198، 199؛ مورتمان، مقالات جديدة عن تدمر، ميونيخ 1875م، ص85؛ زاخاو، رحلة في سورية وبلاد الرافدين، لايبزيغ 1883م، ص30؛ موريتس، كتابات سورية من سورية والرافدين؛ برلين 1898م، ص7.

(3) انظر فون كريمر، نفس المصدر السابق، ص196.

المناطق الواقعة شرقي خط دمشق حلب، حاربت الحكومة بجدية تامة أعمال الغزو والسطو التي كانت تمارسها القبائل البدوية الصغيرة المتنقلة أو نصف المستقرة أو سكان القرى الموجودة هناك. في البداية أرسلت قوة عسكرية إلى القريتين وبعد الحرب الروسية التركية وضعت المنطقة تحت حماية قوة من الشرطة وأخيراً أوكلت مهمة الأمن إلى شيخ القريتين الذي شكّل، مثل شيخ جيرود، قوة غير نظامية من الخيالة المسلحين الذين تدفع رواتبهم الحكومة. مقابل نصف مجيدي كل يوم يرسل واحد أو اثنان من هؤلاء الخيالة مع الرحالة الأوروبيين على الطريق إلى تدمر. والآن خضعت جميع القبائل البدوية في بادية القريتين وتدفع الضرائب دون مقاومة: نصف مجيدي عن كل جمل وأربعة قروش عن كل رأس من الضان.

بعد استراحة دامت يوماً كاملاً انطلقنا في 23 يوليو/ تموز في الساعة الرابعة والنصف صباحاً. وانضمت إلينا مجموعة صغيرة من البدو المستقرين من المنطقة المجاورة للقرية من ضمنها فتاة جميلة كان أقرباؤها يريدون إيصالها إلى زوجها المقبل من قبيلة بني عمور الموجودة إلى الشمال من تدمر. في البداية سرنا نحو الشرق ووصلنا في الساعة السادسة والربع إلى منطقة «أرض الروضة» التي تزرع مرة في العام إما في الشتاء أو في الصيف. وفي الساعة التاسعة والنصف ظهر من بعيد برج قصر الحير. الآن أصبح اتجاه السير شمال شرق. في الساعة العاشرة والربع اجتزنا «وادي الكبير» العريض ووصلنا في الساعة 11 و25 دقيقة إلى قصر الحير. يبدو أن المبنى الذي يعود في الأصل إلى العصر الروماني القديم، وكان على الأرجح قلعة صغيرة، قد تم تجديده في عهد الخلافة العربية[1]؛ هناك على الأقل كتابة بالخط الكوفي تتحدث عن أن الخليفة الأموي عبد الله هشام (هشام ابن عبد الملك[2]، المترجم) قد بنى قصر الحير من جديد. غير أن هذا المبنى

---

(1) انظر بورتر، خمس سنوات في دمشق، لندن 1855م، الجزء الأول، ص250؛ موريتس، نفس المصدر السابق ص12؛ زاخاو، نفس المصدر السابق، ص49، وآخرون.

(2) انظر مورتمان، نفس المصدر السابق، ص87.

العربي لم يتبق منه أي شيء، إذ إن الآثار الباقية تعود دون أدنى شك إلى العهد الروماني التدمري. ومما يلفت الانتباه بشكل خاص الجدران العالية لبرج سابق مربع الشكل، والجسر الحجري لبوابة ضخمة المزين بزخارف في غاية الجمال. في الشمال يمتد حقل من الآثار غير واسع جداً ولكنه مغطى بالأنقاض. وهناك أيضاً آثار خزان ماء مهدم وإلى جانبه قناة قادمة إلى هنا من جنوب الجنوب الغربي، يبدو من عين الباردة. العديد من الطيور كانت تعشش في البرج وفي الحفر المحيطة به كان يوجد الكثير من الأرانب.

غادرنا قصر الحير عند الغروب وسرنا في بادئ الأمر عدة ساعات إلى الأمام على طريق القوافل. وعندما نقول طريق القوافل يجب ألا يتصور المرء طريقاً ممهدة واسعة وإنما دروباً ضيقة تشكلت من دوس حيوانات القوافل وفي كثير من الأحيان تسير مسافات قصيرة أو طويلة إلى جانب بعضها البعض. وبالقرب من المواقع السكنية والآبار يصل عدد هذه الدروب أحياناً إلى مائة درب تشكل فيما بعد شبكة كاملة من الطرق. وبالمناسبة فإن هذا الجزء من البادية لم يكن خالياً من السكان بأي حال. التقينا عدة مرات بفلاحين يسيرون منفردين أو جماعات قادمين من تدمر بعد أن باعوا السمن في أسواقها. واكتشفنا أيضاً آثار عربات ولكن مرافقينا أفادوا بأن عمرها عدة سنوات. وشاهدنا مراراً كثيرة أكواماً من الرماد ناجمة عن حرق العشنان، وهي نبتة منتشرة في جميع أرجاء البادية السورية. يسمى الرماد الناجم عن الاحتراق «قلو» ويباع في السوق في دمشق ولكن بسعر زهيد جداً لا يزيد على 1,5 جنيه تركي للقنطار (56 كيلو غرام).

سرنا حتى منتصف الليل على طريق القوافل العامة ثم دخلنا بعد ذلك في البادية الخالية من الدروب لكي نصل إلى بئر «عين البيضا» الموقع المائي الوحيد على هذه الطريق إلى تدمر. في الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، وبعد أن استرحنا لمدة ساعة في الطريق، وصلنا إلى البئر. من أجل حماية البئر كانت الحكومة قد وضعت في عام 1886م قشلة تتبع حاميتها الآن عسكرياً إلى دير الزور وتتألف من 7 حتى 12 رجلاً من السبئية. . يبلغ عمق البئر نحو 15 متراً وهو يحتوي على كمية وافرة من الماء ولكنه ماء كبريتي جداً. إلى جانب البئر

كانت تخيم عدة عائلات من الصليب مع قطعانها. على بعد ساعة إلى الشرق من القشلة الحالية توجد آثار واضحة لحصن صغير يعود إلى العهد التدمري كان، على الأرجح، واحداً من سلسلة من التحصينات التي كانت تربط، في العصر الذهبي لتدمر، الواحة التدمرية مع بقية سورية.

تقع عين البيضا على الطريق بين تدمر وحمص على مسافة ساعة إلى الجنوب من السلسلة الجبلية التي تمتد من تدمر نحو الغرب. القمتان الأهم في هذه السلسلة الجبلية تقعان في أماكن أقرب إلى تدمر، وهما: «جبل الأبيض» و«جبل مربط عنتر»، أي الجبل الذي ربط عنتر (البطل القومي العربي) حصانه عنده[1]. عند تدمر يتحد هذا الجبل مع جبل هيال، التفرع الأخير من امتداد جبل القوس المتجه نحو الشمال الشرقي.

بعد انطلاقنا من عين البيضا في الساعة الثالثة و45 دقيقة بعد الظهر عبرنا سهلاً رملياً كبيراً يسمى «وديان الرمل». وهنا صرنا شهوداً على حدث طبيعي في غاية العظمة: في حوالي الساعة الخامسة بدأت فجأة عاصفة عنيفة تحمل معها كميات هائلة من الرمل، فاكفهرت السماء إلى درجة أن الهواء بدا أسود اللون تقريباً؛ وبدأ هطول مطر ناعم، وبعد ذلك انتشر على كامل الجزء العلوي من السماء لون أحمر قان كثيف منطلق من طبقات الغيوم المعلقة على ارتفاع منخفض وشكّل مع اللون الداكن للغيوم تضاداً غريباً من نوعه. كانت الظلمة وحركة الغيوم الرملية كثيفتين جداً إلى درجة أننا تخلينا عن زيارة الآثار المختلفة من العهد التدمري، ومنها، مثلاً، أحجار المذبح الثلاثة الموجودة على بعد نصف ساعة تقريباً إلى الشمال من طريق القافلة والتي تعود إلى بداية القرن الثاني بعد الميلاد. وللأسباب نفسها لم نستطع التوقف عند بئر «أبو الفوارس» الهام الذي يعود أيضاً

---

(1) انظر أوتو فريديش فون ريشتر، رحلات حج في المشرق، برلين 1822م، ص216. بالقرب من «القرية الموجودة في الجبل الذي ربط عنتر حصانه عنده» وجد ريشتر في عام 1815م قبيلة بدوية ذات شكل خاص يختلف عن شكل بقية العرب، هي قبيلة المزّية، التي اعتبرها من عرب الجنوب، اليمنيين، وقد تكون من أحفاد الحوارنة السبئيين أو الحيريين.

إلى العهد التدمري وكان المصدر المائي الذي عاشت عليه قرية مجاورة لتدمر. ولم تزل هذه الآبار صالحة للاستعمال حتى اليوم؛ فهي توفر الماء اللازم للتمكن من زراعة الأراضي الزراعية الجيدة المجاورة بالحبوب، بصورة رئيسية الذرة ثم الشعير والقمح. يتقاسم ملكية البئر والحقول الشيخ محمد عبد الله من تدمر وشيخا القريتين وجيرود.

استمرت العاصفة ساعتين تقريباً. وعندما انجلت شاهدنا أبراج القبور التدمرية، التي تشكل بالنسبة للزائر القادم من الغرب العلامة المميزة للمدينة القديمة. وعندما اقتربنا أكثر شاهدنا سلسلة مرتفعات منخفضة تشكل حلقة وصل بين النهاية الشمالية لجبل هيال الذي ينقطع فجأة أمام تدمر وبين مجموعة الجبل الأبيض وجبل مربط عنتر. في الموقع الذي تلتقي فيه هذه السلسلة مع مربط عنتر يوجد منخفض يشبه الممر يدخل منه المرء القادم من البادية التي قطعناها إلى سهل تدمر على طريق مليئة بالعثرات. وعلى جانبي الممر تنتشر أبراج القبور والقبور الضخمة، ولذلك يسمى الممر «وادي القبور».

عندما يصل المرء إلى النهاية الشرقية للممر، الذي ينحني قليلاً نحو الجنوب، يطل فجأة على آثار تدمر المنتشرة في حقل واسع وعلى سهل الحماد الممتد شرقاً إلى اللانهاية. في الساعة السابعة و45 دقيقة وصلنا إلى نهاية الممر ثم توجهنا عبر حقل الآثار إلى المعبد الكبير الذي توجد فيه بيوت تدمر الحديثة. أحد شيخي تدمر، واسمه سليم، أخذنا إلى بيته حيث استرحنا بعد حر النهار اللاهب ثم التبرد الكبير الذي نجم عن العاصفة الرملية وغروب الشمس. على الفور قدموا لنا بمنتهى اللطف والكرم الطعام والشراب. أما القافلة فقد تأخر وصولها كثيراً، وعندما وصلت نصبنا خيامنا في صباح اليوم التالي إلى الشمال من مبنى المعبد قرب شارع الأعمدة القديم الضخم.

قضيت في تدمر يومين فقط. لكن هذا كان كافياً، مع استغلال الوقت بشكل جيد، للتعرف على الآثار الهائلة للمدينة الواحية. أما وضع دراسات عن الآثار فيحتاج إلى إجراء تنقيبات أثرية ويتطلب البقاء عدة أشهر.

الفصل الثامن

تدمر

الاسم بالميرا ـ تدمر. ـ موقع المدينة ونشوؤها. ـ تدمر كمركز لتجارة الترانزيت في البادية السورية. ـ الرخاء الاقتصادي وحس المواطنة. ـ أزياء التدمريين القدامى.ـ الأختام الفخارية والكتابات. ـ اللغة والسكان. ـ موقف تدمر من روما. ـ هيرانس الأول، أذينة الأول، هيرانس الثاني، أذينة الثاني. ـ حروب الرومان والتدمريين ضد الملك الفارسي شابور. ـ العصر الذهبي لتدمر. ـ الملكة زنوبيا. ـ أصلها وشخصيتها. ـ حروب مع روما. ـ الأمبراطور أورليان. ـ هزيمة زنوبيا في مصر. ـ معركة سهل العمق. ـ هروب زنوبيا. ـ حصار وسقوط تدمر. ـ إذلال زنوبيا ونهايتها. ـ تدمر تصبح مسيحية. ـ مجيء الإسلام. ـ تدمر عند الجغرافيين العرب في العصور الوسطى. ـ إعادة اكتشاف المدينة على يد الرحالة الأوروبيين. ـ آثار تدمر. ـ شوارع الأعمدة ومعبد الشمس. ـ أبراج القبور. ـ المومياءات. ـ قلعة ابن معن. ـ الينابيع والآبار. ـ تدمر الحديثة.

* * *

يعطينا الامتداد الواسع لحقل الآثار في تدمر فكرة عما كانت عليه المدينة في فترة عصرها الذهبي.

ظل الباحثون فترة طويلة من الزمن يعتمدون تفسير فلافيوس يوزفوس[1]

(1) فلافيوس يوزفوس، الآثار اليهودية القديمة، الكتاب الثامن، الفصل السادس، 1. انظر أيضاً ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء السابع عشر، ص1493م.

الذي يقول إن أقدم ذكر لتدمر ورد في التوراة في كتاب الملوك الأول، الفصل التاسع، 18 ثم تكرر في كتاب التأريخ الثاني، الفصل الثامن، 4. فقد قيل هناك إن الملك سليمان بنى مدينة تدمر في الصحراء. قاموا بترجمة التسمية العبرية «تدمر» فحصلوا على التسمية «بالميرا» حسب الطريقة الإغريقية في تكوين الكلمات استناداً إلى الكلمة اللاتينية «بالما = بالمه»[1]. ولكن حتى مجيء فلافيوس يوزفوس، الذي ولد عام 34 ميلادي، لم تذكر تدمر في أي مصدر يهودي آخر، كما أن الأبحاث الحديثة أثبتت منذ زمن طويل أن المقصود بـ «تدمر» التوراتية (والأصح هو «تامر») ليس تدمر (بالميرا) وإنما بلدة صغيرة في فلسطين إلى الجنوب من الخليل.

ومما يلفت الانتباه أن حكايات العرب وأساطيرهم تتحدث باعتزاز عن أن تدمر قد بناها فعلاً سليمان بمساعدة الجن وأن بلقيس، ملكة سبأ، قد زارته هنا. ولم يزل اسم هذه الملكة حتى اليوم يطلق على الجدول الكبريتي الكبير المسمى «حمّام بلقيس»[2]. غير أن الجغرافي العربي ياقوت[3]، الذي يعتمد في روايته عن تأسيس تدمر على شهادة النابغة الذبياني، أحد أهم الشعراء العرب قبل الإسلام، يرفض هذه الرواية قائلاً إن أبناء قومه كانوا ينسبون دائماً بناء الصروح المعمارية الرائعة إلى (النبي) سليمان أو الجن[4].

الاسم بالميرا كلمة ذات تركيب إغريقي روماني. وكانت هذه المدينة الواقعة

---

(1) إد. شولتنس، بوهاديني فيتا سالاديني، لايدن 1752م، إندكس غيوغرافيكوس، أد. فوسم تدمورا، يشتق بالميرا من تدمورا ـ تالمورا.

(2) في الآونة الأخيرة حقق الباحث الألماني الدكتور غ. روش اكتشافاً مهماً وهو أن الاسم «بلقيس» ليس سوى الكلمة الإغريقية للكلمة الألمانية «كيـنايب» أي «المرأة الجانبية» أو «العشيقة»، وهذا تعبير عن النظرة التي كانت سائدة في العصر القديم عن هذه الملكة.

(3) ياقوت، معجم البلدان، استناداً إلى فوستنفلد، لا يبزيغ، 1866م، الجزء الأول، ص828.

(4) تودمر = تدمور = المعجزة؟ انظر مورتمان، جمهورية في الشرق القديم، ملحق صحيفة «آلغيماينة تسايتونغ»، آوغسبورغ 1874م، العدد 50.

في واحة في البادية السورية تسمى، قبل احتكاكها بالثقافة الإغريقية في غرب سورية وقبل احتكاكها بالرومان، «تدمر»، ولم تزل تسمى تدمر أيضاً من قبل السكان المحليين والحكومة التركية. لكن الغرب ظل متمسكاً بالاسم الإغريقي الروماني بالميرا. لا يرد ذكر بالميرا في المصادر الآشورية أو السلوقية. كما أنه لا يرد له ذكر عند سترابو (المولود عام 60 قبل الميلاد) أيضاً. تظهر المدينة لأول مرة في التاريخ في القرن الأخير قبل الميلاد[1]، وذلك بمناسبة اصطدام مع الرومان[2]. ويعود الفضل في ذلك إلى ملاحظة سجلها آبيان الذي كان يكتب في القرن الثاني بعد الميلاد[3]. ومن الواضح أن الحالة المادية لسكان تدمر كانت آنذاك جيدة جداً إلى درجة أنها أثارت جشع أنطونيوس الذي شن في عام 41 قبل الميلاد حملة عسكرية لغزو المدينة ونهبها. ولعل هذا التصرف هو الذي جعل التدمريين يتخذون موقفاً مزدوجاً في صراع الرومان مع الفرثيين. لجأ التدمريون مع أموالهم وثرواتهم إلى الضفة اليسرى لنهر الفرات واضطر الخيالة الرومان إلى التراجع تحت وابل الأسهم الصائبة المنطلقة من أقواس التدمريين.

تعود أقدم كتابة عثر عليها من آثار تدمر حتى الآن إلى عام 9 قبل الميلاد. وهي تعود إلى واحد من أهم أبراج قبور المدينة الباقية حتى اليوم، وفيما عدا ذلك ليس لها أهمية بالنسبة للتاريخ. ولكن ضريحاً بناه شخص اسمه يمليخوس عام 83 بعد الميلاد يحمل كتابة تتضمن أنسابه حتى جدّ جده وتصفهم بأنهم تدمريون. وبما أن يمليخوس قد كتب إضافة إلى ذلك أن القبر مخصص لأولاده وأولاد أولاده يمكن الاستنتاج[4] أن أولاد يمليخوس على الأقل كانوا على قيد الحياة،

---

(1) الملاحظة التي وردت في ملالاس كرونوغرافيا إد. ديندورف 1831م، ص426؛ عند ريتّر، نفس المصدر السابق، الجزء 17، ص1503، وجاء فيها «أن نبوخذ نصر في حملته على القدس وصور لم يكن يريد أن تبقى مدينة تدمر قوية في ظهره لأنها كانت تحتوي على حامية يهودية قوية انتصر عليها بعد جهد كبير ثم أمر بحرق المدينة»، لم تتأكد في أي مصدر آخر، ولكن انظر الصفحة 297 أدناه، الحاشية (3).

(2) انظر مومزن، التاريخ الروماني، برلين 1894م، الجزء الخامس، ص423.

(3) آبيان، دي بيكو سيفيلي ، الكتاب الخامس، 10، 11.

(4) انظر مورتمان، نفس المصدر السابق، رقم 50.

أي إنه قبل ذلك بحوالي 180 ـ 200 عام أي حوالي 100 قبل الميلاد كانت تدمر موجودة بالتأكيد. لا نستطيع حتى الآن العودة إلى الوراء إلى أبعد من ذلك لا استناداً إلى الكتابات ولا إلى الكتب التاريخية.

يشير بلينيوس (المولود عام 23 بعد الميلاد) في كتابه «تاريخ الطبيعة»[1] بطريقة معبرة إلى موقع المدينة. فقد كتب يقول: «مدينة تدمر مشهورة بموقعها وبخصوبة تربتها وصفاء مياهها؛ أراضيها الزراعية محاطة بالصحاري الرملية. تفصلها الطبيعة عن جميع البلدان الأخرى، وتقع كدولة مستقلة بين أمبراطوريتين قويتين، الأمبراطورية الرومانية والأمبراطورية الفرثينية، ويحاول كلا الطرفين كسبها. وهي تبعد عن المدينة الفرثية سلوقية الواقعة على نهر دجلة 337000 خطوة وعن الساحل السوري 203000 خطوة وعن دمشق 27,000 خطوة أقل».

ويقول في مكان آخر[2] إن الطرق التي تؤدي من سورية إلى تدمر وإلى غزة (ومصر) تلتقي في البتراء. بهاتين المعلومتين يقدم لنا بلينيوس السبب في نشوء وازدهار هذه المدينة الغريبة الواقعة في وسط الصحراء والتي كان يكفيها وقوعها على طريق القوافل الكبرى التي كانت تصل بين سورية وسلوقية وبين البحر المتوسط والخليج العربي.

من الممكن أن تكون قد وجدت هناك منذ زمن طويل، على جدول تدمر الذي يبدو على أي حال مهماً بالنسبة لمواقعه في الصحراء، والذي يعود الفضل إليه في وجود الواحة التدمرية، مستوطنة بشرية صغيرة تشبه ربما وضع البلدة في القرون الأخيرة[3]. ومن المؤكد أن المياه الكبريتية كانت تعتبر شافية من

---

(1) بلينيوس، تاريخ الطبيعة، الفصل الخامس، 21، ترجمة فون فتسشتاين، لايبزيغ 1881م، الجزء الأول، ص388.

(2) بلينيوس، نفس المصدر السابق، الفصل السادس، 32.

(3) لا شك في أن ينابيع تدمر كانت في العهد الآشوري، إن لم يكن قبل ذلك، محطة رئيسية على طريق القوافل عبر البادية السورية، وربما كان يوجد هناك أيضاً تحصينات من نوع ما. انظر فينكلر، أبحاث شرقية قديمة، ص147، ثم الفصل الثاني من هذا الكتاب، ص68.

الأمراض ولذلك كان يقصدها الناس. إلا أن نهضة المدينة والبدء في بناء تلك الصروح المعمارية، التي لم تزل آثارها تثير إعجابنا حتى اليوم، حدثت دون شك في فترة الاحتكاك الأول لتدمر مع الرومان، أي في القرن الأخير قبل الميلاد.

من بدايات بسيطة تحوّل التدمريون إلى وسطاء رئيسيين في التجارة بين الشرق والغرب التي أخذت تزداد تطوراً كلما اتسعت الأمبراطورية الرومانية وكلما ازدادت حاجات العاصمة روما واشتد بذخها ورفاهها. كانت القوافل التجارية التدمرية تنقل الأقمشة الحريرية الناعمة والأحجار والمعادن الكريمة إلى جانب التوابل والمواد العادية الأخرى من الشرق الأقصى إلى سورية وروما. كانت البضائع تستلم في كاراكس ـ هيسباو سينيس (الاسم التدمري: كراك إسباسينا) عند مصب شط العرب في الخليج العربي أو في سلوقيا ـ كتيسيفون، أو بالأحرى في فرات وفولوغوسياس، وهما مدينتان تجاريتان فرثيتان على نهر الفرات[1].

فما يجري اليوم عبر قناة السويس كان في السابق يحدث بالدرجة الأولى على الطريق البرية عبر البادية السورية. وعلى هذه الطريق كان التدمريون يحتكرون[2]، على مدى عدة قرون التجارة والنقل. كان أصحاب أكبر مواقع للمياه في منتصف الطريق بين سورية الحقيقية والفرات يعرفون جيداً كيف يستفيدون من خدمات القبائل البدوية في الصحراء السورية الذين كانوا، بدافع مصلحتهم، يقدمون للتدمريين مقابل أجر مناسب قطعان إبلهم الكبيرة، التي كانت آنذاك وسيلة النقل الوحيدة في الصحراء، لا بل وكانوا عند الضرورة يقفون إلى جانبهم في حالة الحرب. كان تنفيذ رحلات القوافل الطويلة يتطلب روح الإقدام وقدراً كبيراً من الطاقة، وجعل من التدمريين شعباً تجارياً جريئاً ولديه ميول حربية للدفاع عن مصالحه بقوة السلاح ضد أعداء أقوياء أيضاً إذا اقتضى الأمر. وكان قادة «القوافل»، أو بالأحرى جمعيات النقل التعاونية المنظمة، قد أصبحوا الرجال

---

(1) انظر فوغيه، كتابات سامية، ص9.

(2) هناك طريق ثان ولكنه أقل حركة كان يتجه من الفرات إلى البتراء وغزة، وطريق ثالث، ولكنه أطول جداً، يصل الهند ببلدان الغرب عن طريق البحر الأحمر ثم عن طريق مصر.

المحترمين في المجتمع المتنامي شأنهم شأن التجار الذين كانوا يملكون في تدمر نفسها مخيمات كبيرة للترانزيت ومستودعات لتخزين جميع البضائع المطلوبة في الغرب والشرق. وبينما كانت شعوب الشرق الأدنى الأخرى تخوض حروباً متواصلة ضد بعضها البعض كانت تدمر تتطور بالعمل السلمي وقام مواطنوها بالتعبير عن الشكر للصنائع السلمية، التي جعلت مدينتهم تنمو وتزدهر، بنصب التماثيل وبناء النصب التذكارية وسمح للأفراد بوضعها في الأماكن العامة. هناك العديد من الكتابات والتماثيل في تدمر التي تمجد قادة القوافل والتجار الكبار وفي الكتابات وعلى الألواح الفخارية رسمت الإبل كتعبير عن أصل الثروة ومنشئها.

ومع الثروة والرخاء ازدهر في تدمر الفن أيضاً. فقد التقت هنا الحضارة الإغريقية مع حضارة الشرق. لكن الاتجاه الفني الإغريقي الروماني كان الطاغي. إذ وصل في تدمر وخاصة في فن العمارة إلى درجة من الفخامة والرقي لم يكن لها مثيل في العصر القديم في أي مكان آخر من العالم. كان التدمريون الأغنياء السعداء بما لديهم من ثروة يطلبون من المهندسين والمعماريين بناء صروح تفوق في عظمتها وجمالها كل ما كانت سورية قد عرفته حتى ذلك الحين، وهكذا نشأت تلك الصروح المعمارية التي تبدو وكأنها قفزت قروناً إلى الأمام ووضعتنا في وسط عصر النهضة الحديث.

كما أن الكمية الضخمة من الآثار المتبقية حتى اليوم والتي لا مثيل لها في أي مدينة قديمة أخرى تقدم دليلاً على حب التدمريين للفخامة والأبهة. وتم استخدام فن النحت إلى أبعد الحدود، فصنعت للأموات والأحياء تماثيل كاملة ونصفية، ولإشباع هذا الميل بشكل أفضل اخترعوا قواعد حجرية يبلغ ارتفاعها ثلث ارتفاع الأعمدة التي تشكل الأروقة وزينوا بها الشوارع والساحات العامة واستخدموها لوضع صوراً لمواطنين عليها. وكانت الصناعات اليدوية الفنية الدقيقة مزدهرة في تدمر ولها نقاباتها ومنظماتها الحرفية، كما يتبين من الكتابات المنقوشة على الصخور، وكانت صياغة الذهب والفضة وغيرها من فنون الديكور والزينة في غاية التطور.

من العدد الكبير من التماثيل النصفية والكاملة ومن الأختام والخ. . . يتبين لنا أن ملابس التدمريين كانت غنية إلى أبعد الحدود. وكان النساء يحبنّ التزين بكمية كبيرة من الحلي ومختلف أدوات الزينة. كان يوجد، إلى جانب الخواتم، الأساور والعقود وحباسات الكتف والجبهة بمختلف الأنواع والأشكال، وكان غطاء الرأس يتألف من طربوش يشبه إلى حد ما غطاء الرأس الحالي وتلف حوله قطعة من القماش الأنيق. لكن هذا الطربوش كان جزؤه العلوي أوسع من جزئه السفلي. أما غطاء رأس الرجال في تدمر فكان أيضاً طربوشاً أسطواني الشكل يزداد اتساعاً نحو الأعلى، ولكن بدون لفة قماشية، ويشبه إلى حد بعيد زي الطربوش الذي كان رائجاً في القسطنطينية في ثلاثينات هذا القرن[1]. وكما يتبين من بعض الأشكال الباقية حتى اليوم كان الرجال يضعون على رؤوسهم تحت الطربوش قبعة رقيقة مصنوعة على الأرجح من الكتان الأبيض كما هو حالها اليوم. وهناك عدد كبير من التماثيل التي تظهر فيها رؤوس رجال بدون غطاء وشعورها منسقة على الطريقة الكلاسيكية القديمة. وكان زي الشعر عند النساء التدمريات في غاية الأناقة والترتيب. وكان الرجال والنساء يرتدون جلابيب كثيرة الثنايا وغالباً مطرزة ومربوطة بزنار في الوسط وتغطي في الأحوال العادية كامل الجسم، وكانت قواعد الحشمة تقضي بألا يظهر من الجسم سوى الوجه واليدين. لم يعثر في تدمر على أشكال عارية ولا على تماثيل غير محتشمة كتلك المنتشرة على نطاق واسع في العالم القديم. وكما يبدو كان النساء يرتدين على الدوام منديلاً يغطي مؤخرة الرأس والنقرة ويتدلى على الكتفين. أما الرجال التدمريون فكانوا يرتدون سراويل كثيرة الثنايا، وهي لباس كانت ترتديه شعوب الرافدين في العصور القديمة المبكرة. كانت ملابس التدمريين بصورة عامة مثل الملابس الإغريقية الرومانية في ذلك العصر، لكن الحلي كانت ذات طابع شرقي يشبه إلى حد بعيد ما نجده لدى شعوب الشرق اليوم. ومما يلفت الانتباه الهلال الذي

(1) انظر مورتمان، نفس المصدر السابق. ـ أخذت الصورة أعلاه من مقال شابو، ملاحظات عن الكتابات والآثار الشرقية، تماثيل نصفية وكتابات من تدمر، في مجلة «جورنال آسياتيك» العدد 10 رقم 2.

نجده لدى الآشوريين ولدى شعوب أقدم ولم يزل من الرموز المستعملة في الشرق حتى اليوم كما في علم باديشاه القسطنطينية.

ومن المواد القيمة التي تشكل مصدراً مهماً لمعارفنا عن حياة التدمريين أختام الطين (الشريحة) التي عثر على عدد كبير منها. وهي مصنوعة من الطين البسيط أو من رمل الصحراء الملصق أو المعجون، لا تزيد أبعادها على إنش واحد، مستديرة أو مستطيلة الشكل، في أحيان كثيرة على شكل مخروط أيضاً، تظهر فيها صور أهرامات أو بيوت أو توابيت أو رؤوس حيوانات أو أهلة وغير ذلك. على أحد الوجهين أو عليهما كليهما أيضاً توجد رسومات تشير غالباً إلى ولادة أو زواج أو وفاة. وفي بعض الأحيان تشكل هذه الأختام الطينية نوعاً من علامات التعرف أو البطاقة الشخصية للمالك. بعض هذه البطاقات يحمل اسم صاحبها فقط أو رمزاً يعبر عن العمل الذي يقوم به. ويبدو أنها تستعمل في حالات أخرى كبطاقات دخول أو إثبات الشخصية أو كرمز للاحتفالات الدينية. لم تكن أختام الطين مثبتة بخيوط بل كان أصحابها يحملونها معهم ويستعملونها[1].

على أقدم الأحجار التي تم العثور عليها في تدمر توجد كتابات محفورة تتألف من حروف بسيطة مضلعة، لكن الكتابات المتأخرة اكتسبت، خلافاً لطرق الكتابة المتقاربة معها، شكلاً خاصاً متميزاً وجميلاً، وهذا وحده دليل على رقي المستوى الفكري والحضاري الذي تمتع به على مدى أجيال متتالية سكان المدينة الصحراوية. وينطبق هذا بشكل خاص على الفترة الممتدة من عام 128 ـ 271م، وهي الفترة الذهبية لتدمر والتي عثر على كثير من النصوص العائدة لها. بعد هذه الفترة، أي بعد سقوط زنوبيا ومملكتها، لم نستطع العثور على أي كتابات تدمرية تعبر عن ذلك الزمن[2]. غير أن زاخاو يعتقد أنه يستطيع استناداً إلى مواصفات

---

(1) انظر مورتمان، نفس المصدر السابق، ثم الصور الموجودة عند مورتمان في مقال: مقالات جديدة للتعرف على تدمر، في: مقالات الأكاديمية الملكية البافارية للعلوم، ميونيخ 1875م. ألواح مورتمان الطينية موجودة الآن في المتحف الملكي في برلين.

(2) انظر برغر، تاريخ الكتابة في العصر القديم، باريس 1891م، ص265.

الكتابة أن يستنتج أن الملاحظات التوضيحية المسجلة على بعض التماثيل النصفية التي عثر عليها في مقبرة تدمر تنتمي إلى زمن ما بعد تدمير المدينة على يد أورليان[1]. أكبر كتابة تدمرية موجودة على حجر ارتفاعه متران وطوله خمسة أمتار؛ وتتألف من 160 سطراً وتتضمن نظاماً لجباية الضرائب[2]. النص مكتوب بلغتين، التدمرية والإغريقية، مثلها مثل العديد من الكتابات الأخرى التي تعود إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. هناك كتابة أخرى تختلف عن الكتابات المحفورة على الحجر والتي يمكن اعتبارها الكتابات الرسمية هي طريقة الكتابة الشعبية التي عثر منها على كتابات ملونة في تدمر ذاتها وأيضاً في أماكن أخرى خارج تدمر، في روما وإفريقيا وحتى في بريطانيا. من الواضح أن هذه الكتابات خطها التدمريون الذين انضموا إلى الجيش الروماني وانتقلوا معه إلى مختلف مناطق العالم. يصنف برغر هذه الطريقة في الكتابة في مكان في الوسط بين الكتابة العبرية المربعة والكتابة السورية القديمة[3].

أما اللغة التي كانت تحكى في تدمر منذ بدء وجودها وحتى تدميرها على يد الرومان ثم فيما بعد حتى دخول الإسلام فهي لهجة عامية من اللغة الآرامية، وبالتحديد لهجة تعود إلى الفرع الجنوبي الغربي، أي الفلسطيني، من الآرامية[4]. وعندما جاءت إلى تدمر المسيحية سادت هناك اللغة والكتابة الإيديسينية، وهي لهجة عامية آرامية أخرى كانت تستعمل آنذاك بصورة عامة لدى المسيحيين في سورية وحلت شيئاً فشيئاً محل التدمرية القديمة[5] إلى أن جاء الإسلام حيث سيطرت اللغة العربية في تدمر أيضاً. إلا أن هذا التطور لم يعثر حتى الآن على إثبات له في الكتابات.

---

(1) انظر زاخاو، نفس المصدر السابق، ص46.

(2) انظر دي فوغيه، كتابات تدمرية. . .، باريس 1883م.

(3) انظر برغر، نفس المصدر السابق، ص269.

(4) انظر نولديكه، مقالات لمعرفة اللهجات الآرامية، 1870م، ص108 (مجلة الجمعية الجغرافية).

(5) انظر نولديكه، نفس المصدر السابق، ص109.

لم يعثر حتى الآن، باستثناء ما ذكرناه من كتابات منقوشة على الحجر أو مخطوطة على جدران وغيرها، على أي نصوص تدمرية مكتوبة على الورق أو غيره. ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على بعض الوثائق المحفورة في الحجر. إذ من الواضح أن التدمريين القدامى كانوا يحبون تسجيل جميع الأحداث الهامة وكانوا، نظراً لاهتمامهم الشديد بالأسرة مثلهم مثل جميع الشعوب السامية الأخرى، يسجلون شجرة عائلتهم عدة أجيال إلى الوراء. إضافة إلى ذلك لدينا كمية كبيرة من القطع النقدية المعدنية التي تزودنا بكثير من المعلومات عن تاريخ تدمر لكنها تضعنا أمام بعض الأحجيات الغامضة. ليس لدينا كمية كبيرة من المصادر المكتوبة عن تاريخ تدمر. ونحن مضطرون للاعتماد، بالنسبة للعصر الذهبي للمدينة، على كتّاب سيرة القياصرة الرومان[1] الذين يناقضون بعضهم في أحيان كثيرة ويجب التعامل مع ما كتبوه بمنتهى الحذر. بعد تدمير المدينة على يد القيصر أورليان لم تلعب تدمر أي دور هام، واعتباراً من ذلك التاريخ أصبحت معلوماتنا عن المدينة شحيحة جداً. فحتى مجيء الإسلام لا يوجد سوى بعض الملاحظات القليلة التي ترد في المصادر البيزنطية والكنسية، وعن العهد الإسلامي لا يوجد سوى بعض الأخبار القصيرة التي نجدها عند الجغرافيين والمؤرخين العرب.

تشير الأسماء الموجودة في الكتابات المحفورة على الحجارة بما لا شك فيه إلى أن الناس الذين استوطنوا لأول مرة في الواحة التدمرية كانوا من السوريين (آراميين) شأنهم شأن سكان القرى الحاليين في البادية السورية، ولكنهم امتزجوا بالتأكيد مع سكان الصحراء العرب الأنقياء الذين اختلط دمهم أيضاً فيما بعد مع عناصر إغريقية وكذلك، كما يتبين من بعض الأسماء، آرية (أرمنية) ويهودية[2] وأيضاً فارسية وذلك بعد أن اتسعت المدينة واتخذت بسبب موقعها وعلاقاتها

(1) تريبيليوس بوليو، فلافيوس فوبيسكوس، سوزيموس، كورنيليوس كابيتولينوس، وغيرهم.

(2) عثر أويتينغ في تدمر على كنيس يهودي وكتابة عبرية تعود إلى القرن الثالث الميلادي. انظر لانداور، تقارير الأكاديمية الملكية البروسية للعلوم 1884م، ص933.

التجارية طابعاً شبه عالمي. أما العنصر الإغريقي الروماني في تدمر فلم يكن، في وقت لاحق أيضاً بعدما نشأت علاقة وثيقة بين تدمر وروما، قوياً بما فيه الكفاية لدحر اللغة والكتابة المحلية. ولا شك في أن الكتابات الإغريقية المضافة في أحيان كثيرة إلى النصوص التدمرية لم يكن يفهمها سوى القليل من التدمريين[1]، شأنهم في ذلك شأن الموظفين العاملين في تدمر الذين لم يكونوا يعرفون اللغة التدمرية الأمر الذي يتضح من الاختلاف في نص بعض الكتابات السياسية. ومما يشير إليه المؤرخون بشكل خاص هو أن زنوبيا كانت تتكلم اللغة الإغريقية وكانت تستطيع التفاهم باللغة اللاتينية.

على الرغم من أن سكان تدمر أصبحوا مع الزمن شديدي التنوع فإنهم كانوا متضامنين ومتعاونين مع بعضهم البعض نحو الداخل والخارج. كان الشعور بالمواطنة والاعتزاز بالانتماء لتدمر يقوى كلما تطورت العلاقات التجارية وازدهر المجتمع الجديد. وهكذا تطورت المدينة الواحية إلى دولة أصبحت شيئاً فشيئاً للأسباب التي عرفها وتحدث عنها بلينيوس دولة فاصلة بين الأمبراطورية الرومانية التي كانت تثبت أقدامها بصورة متزايدة في الشرق الأدنى وأمبراطورية الفرس وفي وقت لاحق الحكام الساسانيين في فارس. كانت كلا الأمبراطوريتين تسعى إلى كسب ودها وكان موقفها ذا أهمية بالغة بالنسبة للطرفين بسبب ما لديها من وسائل نقل وبسبب القدرات القتالية لمواطنيها وللبدو التابعين لهم. كان تجار تدمر المحنكون مدركين تماماً لهذا الوضع. وتشير جميع الدلائل إلى أنهم كانوا يستغلون دوماً الحروب بين القوتين المتعاديتين لصالحهم.

من الناحية المبدئية كانت تدمر تقف إلى جانب الرومان. كان مواطنوها يحاولون منع البدو الموجودين في البادية السورية من الهجوم على الأراضي الزراعية في سورية وحماية سورية من الأعداء الشرقيين. وكانت القوات الرومانية موجودة في الشمال على الفرات، من بيرجك حتى الرقة، وأيضاً في الجنوب من

(1) انظر نولديكه، عن عرض مومزن للحكم الروماني والسياسة الرومانية في الشرق، مجلة الجمعية الجغرافية، الجزء 39، لايبزيغ 1885م، ص3.

منطقة حوران[1]. لكن تدمر احتلت في علاقتها مع روما مكانة متميزة منذ اللحظة الأولى عرفت كيف تحافظ عليها حتى سقوطها السياسي. كان للدولة التدمرية إدارة خاصة بها وجيش خاص بها وضرائب تجبيها من مواطنيها ونقود معدنية مسكوكة في تدمر نفسها. ومع مرور الزمن حصل الرجال البارزون فيها على ألقاب فخرية رومانية وصار الموظفون يخاطبون بالألقاب الرومانية وبعض المواطنين يتخذون أسماء رومانية وأشكال القياصرة الرومان أو كبار الموظفين الرومانيين، وحتى المواطنون العاديون صاروا يسمون أنفسهم، نتيجة ازدياد النفوذ الإغريقي الروماني، بأسماء إغريقية. ولكن في المعاملات الرسمية أيضاً ظلت اللغة الوطنية هي المعتمدة وهي، كما رأينا، كانت اللغة الآرامية[2]، وإن كانوا في وقت لاحق أخذوا يكتبون في المراسيم الحكومية نصوصاً إغريقية إلى جانب النصوص الآرامية. لم يجبر التدمريون، كما كان يحدث عادة في المناطق الخاضعة للسلطة الرومانية المباشرة، على اعتماد إحدى اللغتين المعتمدتين رسمياً في الأمبراطورية الرومانية وهما اللاتينية والإغريقية[3]. وفي التأريخ أيضاً احتفظوا بخصوصيتهم[4].

قام الأمبراطور هادريان بزيارة تدمر في عام 130 أو 131 بعد الميلاد ولكن ليس كمحتل وإنما كصديق. فحصلت المدينة على اسمه، هادريانبوليس، ولكن هذا الاسم لم يشع استعماله، ومنذ ذلك الحين أصبح يظهر في الكتابات إلى جانب «مجلس المدينة» اسم «السينات» (مجلس الشيوخ). ومنذئذ أصبحت العلاقات بين تدمر والأمبراطورية الرومانية وثيقة جداً. لكن حريات المدينة لم تتأثر. وكانت سلطتها السياسية قد اتسعت في هذه الأثناء وامتدت إلى خارج

---

(1) في وقت لاحق بعد إبادة الدولة التدمرية على يد الرومان في القرن الثالث بعد الميلاد وضعت في تدمر وحدات عسكرية رومانية. انظر مومزن، التاريخ الروماني، الجزء الرابع، ص424 و425.

(2) انظر نولديكه، نفس المصدر السابق، ص3.

(3) انظر مومزن، نفس المصدر السابق، ص425.

(4) انظر مومزن، نفس المصدر السابق، ص426.

حدودها. يذكر الجغرافي بطليموس (حوالي 140 بعد الميلاد) أسماء العديد من المدن التابعة لتدمر[1].

في عهد الأمبراطور سبتيميوس سيفيروس (193 ـ 211م) الذي عزز سلطة روما في الشرق التي كانت قد اهتزت في عهد سلفيه حُوّلت تدمر إلى مستعمرة رومانية ولكن تركت لها الحرية الكاملة في تسيير شؤونها الداخلية.

في هذا الوقت كان يجلس على عرش الدولة التدمرية الصغيرة رجل شهدت أسرته العصر الذهبي لتدمر، ولكن سقوطها أيضاً، هو هيرانس ابن وهب اللات ابن نصورس ـ فيما عدا ذلك لا نعرف شيئاً عن شجرة عائلته[2]. تحالف مع الأمبراطور الروماني في حربه ضد الفرثيين وحصل منه له ولخلفائه من بعده على كنية الأمبراطور: سبتيميوس. وليس معروفاً ما إذا كان أبوه وجدّه قد تولوا إدارة شؤون تدمر أيضاً. ثم منح مرتبة سناتور في عهد الأمبراطور الكسندر سيفيروس (222 ـ 235م). كان يتمتع بصفة الأمير الحاكم للدولة التي كانت حتى ذاك الحين ديمقراطية ولم تكن خاضعة لسلطة ممثلي الأمبراطور في سورية إلا بمقدار تبعية الدول الصغيرة للأمبراطورية المجاورة لها[3]. توارثت أسرته السلطة والاحترام لكن التعيين والتثبيت كان يصدر دوماً عن روما.

عندما تولى أذينة الأول ابن هيرانس الحكم اقتصر لقبه على التسمية سناتور فقط. وتشير جميع الأدلة إلى أنه كان رجلاً طموحاً وكان يريد الاستقلال الكامل عن روما. في هذه الأثناء كانت أمبراطورية الفرثيين الفارسية قد سقطت في عام 226م وحلت محلها أسرة فارسية أخرى هي الأسرة الساسانية. ويبدو أن سياسة الاحتلال الشجاعة التي اتبعها الملوك الساسانيون الأوائل جعلت أذينة يعيد النظر في حساباته، وبعدما استولى سابور الأول الشرس على العرش في قطسيفون

(1) بطليموس ليبر، الجزء الخامس، الفصل 15، المادة 24.

(2) انظر الكتابة على قبر عائلة أذينة، رقم 21 عند فوغييه، كتابات سامية، ص23؛ وأيضاً شجرة العائلة التي وضعها فوغييه، نفس المصدر السابق، ص35. وأنا أثق بهذه الشجرة أكثر من شجرة أوبرديك، ملاحظات حول الكتابات التدمرية، مجلة الجمعية الجغرافية 1864م، الجزء 18، ص750.

(3) انظر مومزن، نفس المصدر السابق، ص422.

(المدائن) في عام 241م، دخل أذينة في مفاوضات مع الساسانيين. ولكن قبل أن يتوصل إلى أي نتائج وقع في يد ضابط روماني غادر اتهمه بتدبير مؤامرات ضد روما، وهو اتهام كان له ما يبرره فعلاً.

خلفه في الحكم ابنه الأكبر هيرانس. وهناك كتابة تعود إلى عام 251م[1] يطلق فيها على هيرانس اسم «أمير تدمر». ولعل اللقب قد أعطي له لكي ينسى مقتل أبيه ولكي تكسبه روما كحليف لها. لم يدم حكمه طويلاً. فقد توفي شاباً. وفي عام 258م تولى أخوه، أذينة الثاني، الحكم في تدمر[2]. ويشير نص مكتوب عثر عليه سليماً أنه كان يحمل اللقب «فيركلاريسيموس كونزولاريس»، وهو لقب قريب جداً من لقب القيصر[3]. ورث أذينة الثاني عن جده، الذي كان يحمل اسمه أيضاً، الاعتزاز بالنفس والطموح والشجاعة. بقدر ما كان معجباً بروما فقد كان يكرهها أيضاً وكان يعرف تماماً نقاط ضعف نظام الحكم الروماني في الشرق. وبينما كان أخوه الأكبر هيرانس يهتم بالشؤون الداخلية للمدينة أقام هو علاقات صداقة مع القبائل البدوية في الصحراء وتدرب على حياتهم الحربية. ومن الممكن أن يكون قد تعرف على الشرق الأقصى بأن تولى بنفسه قيادة العديد من القوافل الكبيرة.

في ذلك الوقت بدأت أوقات عصيبة بالنسبة لروما في آسيا. إذ كان سابور قد احتل أرمينيا وطرد الحاميات الرومانية من بلاد الرافدين وسورية وكبدوقية (غرب تركيا) ووصل إلى البحر المتوسط مدمراً المناطق السهلية دون أن يلقى مقاومة تستحق الذكر من المدن المحصنة. كان القيصر الروماني آنذاك بوبليوس ليسينيوس فاليريانوس (253 ـ 260م) رجلاً متقدماً في السن ولكنه شديد الشعور بالواجب وكان قد تولى الحكم بعد عدد من الأباطرة الذين لم يدم حكمهم سوى فترة قصيرة. فقرر التوجه على رأس جيش كبير إلى آسيا لكي يعيد للأمبراطورية

(1) انظر فوغيه، نفس المصدر السابق، رقم 22، ص24.
(2) انظر فوغيه، نفس المصدر السابق، رقم 23، ص25. هذه الكتابة تعود لتمثال لأذينة أقامته نقابة عمال صياغة الذهب والفضة.
(3) من الوضح أن اللقب منحه إياه القيصر فالريان عند وصوله إلى سورية.

حدودها السابقة. وحدثت المعركة الحاسمة عند إيديسا (260م) حيث مُني الرومان بهزيمة نكراء ووقع القيصر في الأسر. وبعد ذلك أخذ سابور فاليريانوس العجوز معه في جميع الحملات التي قام بها صاباً عليه كل قسوة الهمجي تجاه من ينتصر عليه. وتفيد الحكايات المتناقلة أن سابور كان يدوس على رقبته، وهو في ملابس القيصرية الفخمة، كلما امتطى ظهر جواده. وبعد وفاة القيصر سلخ جلده وحُشي بالتبن وعرض على الملأ تعبيراً عن سلطة سابور وقوته[1].

حاول أذينة التفاهم مع المنتصر وأرسل له كثيراً من الهدايا الثمينة. لكن الملك الفارسي رفضها بكل إباء. وهنا انقلب الحظ رأساً على عقب. عند محاصرة مدينة بومبايو بوليس الساحلية الواقعة قرب أضنة الحالية اصطدم سابور بعدو جديد بهيئة شخص اسمه كاليستوس أو باليستا الذي كان قد جمّع دون وجه حق أو تفويض سفن المدن الساحلية السورية وبقايا الجيش الروماني المشتت وألحق بسابور خسائر جسيمة لا بل إنه استولى على جزء من حريمه وأجبره على العودة إلى بلاد الرافدين. وفي الوقت نفسه جمع أذينة فلول الجيش الروماني الهارب وضمهم إلى الرجال التدمرين المدربين عسكرياً والمشهورين بمهارتهم في استعمال القوس والنشاب وإلى أصدقائه القدامى من بدو الصحراء السورية، ثم زحف على رأس هذا الجيش لمواجهة سابور وألحق به هزيمة نكراء قبل وصوله إلى الفرات. وهنا تحول انسحاب سابور إلى فرار، وحسب أقوال تريبيليوس بوليو استولى التدمريون على كنوز الملك الفارسي وعلى الجزء المتبقي من نسائه.

استغل أذينة انتصاره بصورة ذكية. فقد وقف تجاه روما موقف الحليف والتابع الوفي، إذ قاتل ضد سابور باسم ابن فاليريان، غالينوس الضعيف. أما غالينوس هذا فقد بقي في الغرب وترك في بادئ الأمر للتدمري مهمة تحرير القيصر البالغ من العمر سبعين عاماً، وهي مهمة لم يكن غالينوس مبالياً بها بشكل خاص. وكان قد تم تحرير انطاكية، التي كانت قبل وقت قصير قد انتزعت من يد الرومان لأول مرة، وبقية سورية من الاحتلال الفارسي.

---

(1) انظر راولينزن، الأمبراطوريات الشرقية الكبيرة السبعة، لندن 1876م، ص86 ـ 88.

لكن كاليستوس، المنتصر الأول على سابور قرب بومبايبوليس، أعلن وقوفه ضد غالينوس. فتحالف مع القائد العسكري الروماني ماكريانوس الذي لعب خلال حملة فاليريان دوراً مشبوهاً وكان آنذاك يطمح في تولي منصب القيصر وقد أعلن أبناؤه قياصرة أيضاً. فتصدى أذينة لهما وأباد أعداء غالينوس في معركة قرب حمص (إيميسا)[1]. وهكذا أصبح أذينة قوياً جداً في الشرق. واعترف به غالينوس أميراً أو ملكاً لتدمر، وإذا لم يكن قد اعتبره قيصراً شريكاً (آوغوستوس) فإنه قد عيّنه حاكماً مستقلاً ممثلاً للقيصر في الشرق بأسره: أمبراطور دوكس رومانوروم[2]. وبناء على اسمه فقد كان بالنسبة للقيصر غالينوس، الذي كانت تربطه به أوثق العلاقات، مستقلاً تاماً وحاكماً على المقاطعات الرومانية في آسيا وأيضاً مصر. وكانت القوات الرومانية الموجودة في آسيا تحت إمرته. ولم يترك ملوك الفرس يهدأون أبداً فقد انتصر عليهم مرتين ووصل إلى أسوار المدائن وسيطر على جميع الأراضي الممتدة من أرمينيا حتى شبه الجزيرة العربية. وكان قبل ذلك قد منح زوجته زنوبيا وابنه البكر من زواجه الأول، هيرودس[3]، اللقب الملكي. كانت سلطته في الشرق الأدنى لا تقل عن سلطة الساسانيين، وفي إحدى الكتابات[4] أطلقت عليه التسمية الشرقية «ملك الملوك». لكن أذينة لم يتمتع طويلاً بالنجاحات العظيمة التي حققها. فقد اغتاله في حمص ابن أخيه، ابن هيرانس الثاني، في عام 266م أو 267م أي بعد ست سنوات من انتصاره على كاليستوس. ويبدو أن ابنه البكر هيرودس قد اغتيل معه[5].

---

(1) أقدم القياصرة المضادين الجدد، فلوفيوس ماكريانوس، كان قد زحف نحو الغرب وفقد هناك العرش والحياة.

(2) انظر مومزن، نفس المصدر السابق، ص433.

(3) كان هيرودس دون أدنى شك، استناداً إلى الكتابات الكثيرة المخصصة له قائداً عسكرياً بارزاً وشجاعاً لدى أبيه.

(4) من عام 271م، أي بعد وفاته. انظر فوغييه، نفس المصدر السابق، ص28.

(5) استناداً إلى أوبرديك (نفس المصدر السابق، ص750) لم يكن اغتيال أذينة بعيداً عن علم زنوبيا، وذلك لأنها كانت تريد ضمان العرش لابنها وهب اللات. انظر أيضاً مورتمان، صحيفة آوغوسبورغر ألغيماينه 1874، العدد 54. مورتمان يضع وفاة أذينة في عام 271م.

خلفه في الحكم ابنه القاصر وهب اللات (المسمى بالإغريقية أوبالاتوس أو أثينودوروس). وبالاتفاق مع روما تولت الحكم نيابة عنه أمه الملكة زنوبيا أرملة أذينة[1].

أتاح نسب الملكة زنوبيا التي نسجت حولها الأساطير المجال لمختلف التفسيرات[2]. كان اسم ابيها الزباء[3]. كان تدمرياً وجيهاً وكان ينتمي كزوج زنوبيا للسبتيميين، أي إنه كانت تربطه صلة قرابة مع أذينة. تصفه الكتابات بأنه كان الحاكم العسكري (أي ثاني أعلى جنرال) في تدمر. فمن ناحية أبيها كانت زنوبيا إذن تدمرية، أي ابنة الصحراء[4]. لا بل إن العرب يعيدون نسبها إلى شيخ بدوي اسمه الصميدع[5]. أما نسبها من ناحية أمها فهي نفسها تدعي أن الملكة كليوباترا[6] هي من أسلافها وكانت طيلة حياتها تتخذ منها قدوة لها. وليس مستحيلاً أن تكون أمها تنحدر من مصر لأن تدمر كانت لها آنذاك صلات قوية مع مصر؛ وعلى أي حال كانت زنوبيا تتكلم اللغة المصرية بطلاقة.

كانت زنوبيا[7] دون أدنى شك امرأة مهمة؛ يصفها المؤرخون بأنها ذكية تتحلى بجميع فضائل الحاكم الجيد، مهيبة الطلعة، عادلة وكريمة، قوية كالرجال، وتتمتع بشجاعة شخصية. ويقال بأنها كانت بين حين وآخر تلبس الدرع

---

(1) انظر مومزن، نفس المصدر السابق، ص436 (الملاحظة 4) ثم ص 437 (الملاحظة 1). فوغييه (كتابات سامية، ص31 و33) يعتقد أن وهب اللات توفي في نهاية عام 270 وأن زنوبيا حكمت بعد ذلك باسم ابنيها الآخرين خيران ـ هرنيانوس وتيم الله تيمولاوس.

(2) أوبرديك، نفس المصدر السابق، ص745، يضع عدة فرضيات حول نسب زنوبيا.

(3) انظر نولديكه، مقالات لمعرفة اللهجات الآرامية، مجلة الجمعية الجغرافية 1870م، الجزء 24، ص96.

(4) المعلومة القائلة بأن زنوبيا يهودية الأصل تبدو غير صحيحة.

(5) انظر بهذا الخصوص رواية ياقوت، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص828.

(6) لا بل إن هناك روايات تقيم صلة بين زنوبيا والملكة سميراميس الأسطورية.

(7) انظر رونزيفاله، زينب (الزباء) ملكة تدمر، أي زنوبيا (الطويلة الشعر)، في مجلة «المشرق»، بيروت 1898م، العدد 10 وما يليه.

الفولاذي. وفي رسالة موجهة إلى مجلس الشيوخ يرد الأمبراطور أورليان على الاتهام الموجه له بأنه أقام احتفالات كبيرة ابتهاجاً بانتصاره على امرأة بقوله إن هذه المرأة ملكة تتمتع بمواصفات حربية وأن انتصار زوجها أذينة على الفرس يعود بالدرجة الأولى إلى مواهب زوجته[1]. علاوة على ذلك توصف زنوبيا بأنها كانت في غاية الجمال. ويقول كتّاب سيرة الأباطرة أنها كانت غامقة اللون، وكانت قامتها كبيرة ورائعة الجمال وعيناها ساحرتين. إلى جانب هيئتها الجميلة وسحرها المؤثر على الكبير والصغير كانت زنوبيا تتمتع بسوية تعليمية نادرة. كان معلمها الأول كاسيوس لونجينوس، أحد أكبر فلاسفة عصره. وبالإضافة إلى لغتها الأم واللغة المصرية كانت تجيد اللغة الإغريقية؛ وكانت تستطيع التفاهم مع الموظفين والضباط الرومان ومع بدو الصحراء، وربما أيضاً مع الفرس، بلغتهم. وكان بلاطها يجمع بين الأبهة الفارسية والأناقة الإغريقية الرومانية. وكان يحيط بها الفنانون والعلماء. وقد ازدهرت النقابات والجمعيات الحرفية في عهدها وبلغت الحياة الفكرية والثقافية التدمرية ذروتها.

ويبدو أن زنوبيا منحت أستاذها السابق كاسيوس لونجينوس منذ اللحظة الأولى لتوليها الحكم نفوذاً واسعاً. وكان لونجينوس رجلاً سورياً من مواليد حمص، وينتمي إلى أسرة معروفة بعدائها للنظام الملكي، وكان قد درس في أثينا وروما والإسكندرية، وكان اتجاهه الفلسفي وثنياً تماماً يميل إلى الأفلاطونية الجديدة. وكان لونجينوس قد قوى لدى الملكة الشابة الشعور بالاستقلال. وكان في أعماق قلبه عدواً لروما ويبدو أنه لم يعط الموظفين الرومان في تدمر أي امتيازات أو اعتبارات خاصة، وتحسباً لإمكانية الإضطرار في يوم من الأيام إلى الحرب ضد روما سعى إلى إقامة علاقات مع بلاط الملك الساساني سابور.

منذ بداية حكم زنوبيا حدثت اشتباكات حربية. فعند وصول خبر مقتل أذينة أرسل غالينوس جيشاً ضد سابور. ولعل دافعه إلى ذلك كان الخوف من أن تدمر تحت قيادة فتى قاصر وامرأة لن تكون قادرة على التصدي للهجمات المحتملة

(1) رسالة سجلها تريبيليوس بوليو، تريغينتا تيراني، زنوبيا المادة 30

للفرس على المناطق الرومانية الآسيوية، ولعله كان أيضاً يشعر بأن عليه أن يفعل شيئاً ما لتحرير أبيه الذي كان آنذاك لا يزال يعيش في الأسر الشنيع والمذل إلى أبعد الحدود. ولكن ليس مستبعداً أن غالينوس أراد استغلال غياب أذينة القوي، الذي كان اغتياله بتحريض من القيصر نفسه، لإعادة المشرق إلى الارتباط بروما ونقل العائدات الضريبية والجمركية الكبيرة في الشرق الروماني إلى خزينة الأمبراطور بعدما كانت منذ فترة طويلة من الزمن تصب في خزائن تدمر. ومهما يكن من أمر فإن القوات الرومانية بقيادة هراكليانوس تحولت نحو زنوبيا، وتشير جميع الدلائل إلى أنها فعلت ذلك بناء على طلب الموظفين الرومان غير الراضين عن وضعهم في تدمر. لكن زنوبيا انتصرت وأبادت الجيش الروماني. ومنذ ئذ لم يجرأ غالينوس على اعتراض طريق زنوبيا وكذلك خليفته كلاوديوس الثاني (268 ـ 270م).

في هذا الوقت تمرد في مصر بروباتوس[1] كقيصر مضاد للقيصر كلاوديوس. بناء على طلب المصري تيماغينس أرسلت زنوبيا على الفور قائد جيشها سبّا (زبدا)[2] لمحاربة بروباتوس (268 ـ 269م). وهكذا حاربت زنوبيا مرة أخرى باسم روما وباسم أمبراطورها الشرعي وانتصرت على بروباتوس قرب القاهرة ووضعت على الفور مصر أيضاً تحت إدارتها.

في عام 270م اعتلى على العرش في روما الأمبراطور أورليان الذي كان أمبراطوراً عسكرياً بكل معنى الكلمة. وفي عهده حدث تحوّل في مصير تدمر. في بادئ الأمر ثبت أورليان زنوبيا أو بالأحرى ابنها كحاكم على الشرق. فقد حصلنا على نقود معدنية مسكوكة في الإسكندرية تعود لعام 270م تحمل صورة وهب اللات كأمبراطور وصورة أورليان كأوغوستوس[3] (لقب أمبراطوري روماني). ولكن بعد عام من ذلك التاريخ بدأ الصراع بين قيصر الغرب وملكة الشرق. لا

---

(1) يسميه البعض بروبوس، انظر فون زاليّت، أمراء تدمر في عهد غالينوس، وكلاوديوس، وأورليان، برلين 1866م، ص44.
(2) انظر تريبيليوس بوليو (كلاود 11) وفوغيه، نفس المصدر السابق، ص34.
(3) انظر فون زاليت، نفس المصدر السابق، ص13 وما بعدها ثم ص71.

شك في أن موقف أذينة القوي وزوجته زنوبيا إلى جانب روما، التي استعادت بفضلهما في أيام الضيق الشرق الأدنى من أيدي الملوك الساسانيين، كان بركة من السماء. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك منح التابع الوفي الاستقلال وتكليفه بحماية المناطق الآسيوية التابعة لروما. ولكن بعد أن مد التدمريون أياديهم إلى مصر أيضاً وجلس على عرش الأمبراطورية في روما قيصر قوي مسيطر على الجيش كان لا مفر من نشوب نزاع بين روما وتدمر إذا ما أرادت روما الاحتفاظ بممتلكاتها الشرقية. أما زنوبيا فقد استعدت للصدام ورفضت الطاعة. وهناك نقود معدنية تعود لعام 271م منحت زنوبيا عليها ابنها اللقب الأمبراطوروي (آوغوستوس) دون أي شرعية.

في مصر تلقت زنوبيا هزيمتها الأولى. إذ قضى القائد الروماني بروبوس[1] على الجيش التدمري في دلتا النيل. أما أورليان نفسه فقد سار على رأس جيش عن طريق الدردنيل عبر آسيا الصغرى. وقد استسلمت للجيش الكبير المدرب بشكل جيد آنغورا ثم استسلمت تيانا بعد حصار قصير. وبمنتهى الحذر والذكاء تعامل القيصر بلطف مع الناس في كل مكان وحتى مع تيانا التي قاومته. واعترف بأن زنوبيا وأسلافها قد حكموا المناطق الآسيوية باسم روما وسامح جميع الناس الذين تعهدوا بالتخلي في المستقبل عن الامرأة المتمردة وقدموا له عصا الطاعة.

لم تسمح زنوبيا للخوف أن يسيطر عليها نتيجة ضياع آسيا الصغرى ومصر. بل أشرفت شخصياً باندفاع كبير على الاستعدادات الحربية وعلى تعبئة البدو لمحاربة القوات الرومانية. في ثلاثة معسكرات قرب تدمر تجمعت القبائل العربية من بدو رحل ومستقرين في البادية السورية[2] والذين كانوا المنفذين الحقيقيين لحركة النقل التجارية التي كانت آنذاك في أوج ازدهارها عبر تدمر جيئة وذهاباً ثم جاؤوا الآن بأعداد كبيرة للدفاع عن أولياء نعمتهم التدمريين. نصبت قبائل الحماد معسكرها جنوب شرق المدينة وعسكر بدو منطقة القريتين في السهل المقابل لبئر

---

(1) الخليفة الثاني لأورليان كقيصر روماني (276 ـ 282م).

(2) انظر ورايت، تقرير عن تدمر وزنوبيا مع رحلات ومغامرات في باشان والصحراء، لندن 1895م، ص139 وما بعدها.

أبو الفوارس وتجمعت القبائل الشمالية والشمالية الغربية عند نبع مربط عنتر وراء السلسلة الجبلية الممتدة من تدمر إلى حمص. وكانت الملكة البطلة لا تكل ولا تمل. كانت تتنقل يومياً على ظهر جوادها، محاطة بضباطها القياديين، من معسكر إلى معسكر إلى أن تحركت أخيراً جحافل الجيوش لقطع الطريق على الأمبراطور الروماني عند انطاكية. في سهل العمق الواقع شمال العاصي، في مكان غير بعيد عن إمّاي، وقعت المعركة الأولى. وكانت زنوبيا في درعها اللامع تحمس بنفسها الأعداد الكبيرة التي يتألف منها جيشها وتحثها على القتال. ولكن حنكة القائد الروماني المجرب والشجاعة الهادئة للفيالق الغربية كسبت اليوم الأول من المعركة. ويسجل تقرير المعركة الانتصار لأورليان نتيجة خدعة حربية. فقد جعل خيالته يتظاهرون بالهرب فتبعهم الفرسان التدمريون الذين يشكلون نواة جيش زنوبيا، والذين كانوا يحملون معدات حربية ثقيلة بينما كان الخيالة الرومان خفيفين وسريعي الحركة. وظلوا يلاحقونهم حتى أعيوا تماماً، فانقض عليهم المشاة الذين كانوا ينصبون لهم كميناً على العاصي وأوقعوا بهم أكبر الخسائر[1].

توجهت الملكة مع قواتها المضعضعة إلى إنطاكية ولكنها ما لبثت أن غادرتها في الليلة نفسها. ولكي يحث سكان المدينة على المقاومة قام قائد جيشها زبدا بجر رجل يشبه القيصر في شوارع المدينة بصفة أسير. لكن إنطاكية لم تتأثر بذلك وفتحت أبوابها أمام أورليان. تصرف القيصر هنا أيضاً بمنتهى الرفق وحقق بذلك الغرض الذي يبتغيه كما في آسيا الصغرى: ويبدو أن المدن السورية الأخرى لم تبد مقاومة ضده. في المعارك اللاحقة حارب آسيويون إلى جانبه ومن المؤكد أن بقايا القوات الرومانية السابقة التي كانت قد التحقت بقوات زنوبيا غيرت موقعها على الفور وانتقلت إلى صف الأمبراطور المنتصر.

يبدو أن الجيش التدمري الهارب توقف عند دفنة، بيت الماء اليوم، ولكن دون جدوى. والآن طلب أورليان من الملكة الاستسلام. لكن زنوبيا أرسلت له رداً أبياً قالت فيه: لم تنتصر حتى الآن إلا على القوة الرومانية من جيشها أما القوة

(1) انظر تسوسيموس، تاريخ، الكتاب الأول، الفصل 50.

الآسيوية فلم تزل موجودة وهي بانتظار العدو لخوض المعركة الحاسمة قرب حمص. وكانت زنوبيا قد حصلت في هذه الأثناء على فرسان جدد أبدوا تفوقاً كلياً على الخيالة الرومان لكن قوات القيصر حسمت المعركة لصالحها مرة أخرى[1]. فتعين على الملكة العاثرة الحظ أن تفكر بالانسحاب السريع إلى تدمر. كانت لم تزل تأمل في أنها ستستطيع مقاومة القيصر خلف أسوار المدينة الواقعة في قلب الصحراء والمحمية بجميع الوسائل المعروفة في فن الحرب. ولكنها اضطرت إلى الهرب بسرعة كبيرة إلى درجة أنها تركت كل خزينتها الحربية في حمص. ويبدو أنها كانت قد نقلت خزينتها من تدمر إلى حمص لتسهيل استعمالها عند الحاجة أثناء الحرب، ووضعتها في عهدة جماعة أستاذها ومستشارها لونغينوس الذين كانوا مثله من ألد أعداء الحكم الروماني. وعند سقوط حمص وقعت الغنائم الثمينة من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والحرير في أيدي المنتصر. وكان لهذا الحدث نتيجة ضارة جداً كان لها أثرها على مصير تدمر.

أثناء انسحابها إلى تدمر قامت زنوبيا بتدمير الآبار الموجودة في البادية السورية والتي كانت في ذلك الوقت تسهل قيام أكبر الجيوش بتلك الرحلة التي كانت تستغرق عدة أيام. لكن الذهب الذي استولى عليه الرومان في حمص كان كافياً لجعل سكان البادية يزودون جيش القيصر خلال مسيرته هذه، التي كانت أخطر من الحرب، بما يحتاجه من الماء والمؤن. أما البدو الذين تعرضوا للقوات الرومانية فقد قضي عليهم. ودون خسائر كبيرة وصلت القوات إلى أبواب تدمر واحتلت نفس المعسكرات المزودة بالماء والتي كانت جيوش زنوبيا قد أقامت فيها قبل زحف الجيش التدمري إلى انطاكية.

بدأ الحصار على الفور وطلب القيصر مرة أخرى الاستسلام من زنوبيا. فردت

---

(1) تسوسيموس، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص53 يقول إن الفلسطينيين تصدوا للتدمريين، المدرعين بالحديد والفولاذ، بالهراوات والدبابيس الخشبية، وهذا الوضع هو الذي جعلهم ينتصرون لأن التدمريين ارتبكوا من هذه الأسلحة التي لم تستعمل ضدهم أبداً من قبل. ومن المعروف أن الدبابيس الخشبية وغيرها من العصي المصنوعة من خشب السنديان لم تزل حتى اليوم من الأسلحة التي يستعملها الفلاحون الفلسطينيون.

على هذه الرسالة أيضاً بصيغة ملؤها الإهانة والتحدي. قادت الملكة بنفسها الدفاع على أمل أن يرفع القيصر الحصار بسبب نقص المؤن. واعتمدت على قوة أسوارها وقدرة التدمريين الذين كانوا يخوضون معركة مصيرية، على الصبر والتحمل. ويعتقد بأن المدينة كان فيها آنذاك مصادر مياه لم نعد نعرفها اليوم، إلا أن الشيء المؤكد هو أن البيوت كان يوجد فيها خزانات لجمع مياه المطر. أما المؤن فكانت متوفرة في المدينة الغنية بكميات تكفي عدة أشهر. كانت منجنيقات الأسوار تلقي على المحاصِرين الحجارة والحمم النارية وأبدى التدمريون معجزات في الشجاعة والتصدي لهجمات الرومان الضارية ومحاولاتهم اقتحام السور.

لكن أمل الملكة في انسحاب العدو لم يتحقق فبالكنوز التدمرية التي استولى عليها في حمص كسب القيصر تأييد البدو الذين زودوه بالمؤن. أما هجمات القبائل التي ظلت وفية للملكة فقد استطاع صدها بسهولة. كما أن توقع زنوبيا تلقي المساعدة من أرمينيا أو فارس كان خائباً. لا تثبت المصادر الساسانية بشكل قاطع ما إذا كان الملك الكبير سابور[1] كان آنذاك لم يزل حياً أم إن ابنه هرمز الأول كان قد خلفه في الحكم أو ربما كان بهرام الأول[2] قد استولى على العرش خلفاً لهرمز الذي لم يحكم سوى أقل من عام واحد. وعلى أي حال فقد كانت العلاقات بين زنوبيا والبلاط الساساني في ذلك الوقت جيدة جداً. كان هناك نوع من التحالف الوثيق بين تدمر وقطسيفون (المدائن) موجه دون شك ضد روما. ولكن نتيجة الانتصارات المتتالية التي حققها القيصر الروماني تردد الفرس في أداء التزاماتهم. صحيح أنه كان هناك قوات فارسية بين القوات التي حاربها أورليان عام 273م بجوار تدمر[3] ولكنها كانت مساعدة غير مجدية. أما مساعدة أرمينيا فلم تكن واردة لأن القيصر كان قد اشترى ولاءهم بالذهب التدمري الذي استولى عليه.

---

(1) نولديكه، ترجمة الطبري، لايدن 1879م، ص414، يضع وفاة سابور الأول بعد 14 سبتمبر/ أيلول 272م. أما راولينسون، نفس المصدر السابق، ص99، فيضع فترة حكم سابور 240 ـ 271م.

(2) انظر راولينسون، نفس المصدر السابق، ص101 وما بعدها.

(3) انظر فوبيسكوس تاريخ الأمبراطور أورليان، المادة 27.

عندما تأكدت زنوبيا أن هجوم الرومان لم يضعف بل بالعكس يزداد قوة وأن عدد أعدائها يزداد باستمرار قررت بالاتفاق مع مستشاريها التجرؤ على القيام بالمحاولة الأخيرة. مع عدد قليل من الرجال المخلصين لها اخترقت في الليل صفوف القوات التي تضرب الحصار وقطعت على ظهر ناقة المسافة التي تحتاج في الأحوال العادية إلى مسير خمسة أيام عبر الصحراء إلى الفرات لكي تطلب بنفسها النجدة من فارس. لكن الرومان لاحظوا خروجها وفي لحظة وصولها إلى الفرات ومحاولتها عند دير الزور الصعود إلى قارب النجاة الذي سينقلها إلى الضفة الأخرى من النهر قبض عليها فرسان أورليان الذين كانوا قد أرسلوا لملاحقتها. ويبدو أن القيصر كان معجباً بشجاعتها البطولية وحماها بنفسه من غضب الجنود الذين طالبوا بقتلها.

عندما سمع أهالي تدمر بأسر ملكتهم وفقدوا بالتالي آخر أمل لهم سلّموا المدينة في نهاية عام 273م. ووفاء للسياسة التي انتهجها القيصر حتى الآن عامل زنوبيا برفق أيضاً؛ ووضع في قلعة المدينة حامية صغيرة لا بل وترك للتدمريين حرياتهم السابقة. لكنه عامل مستشاري الملكة معاملة قاسية. أما زنوبيا التي قادت حتى آخر لحظة الدفاع عن مدينتها ووطنها كما يدافع أشجع الرجال فقد استندت عند إحضارها أسيرة إلى القيصر إلى حقها كامرأة وطلبت الرحمة. ويبدو أنها اعترفت بأن لونغينوس هو الذي كتب الرسالة المهينة الأخيرة الموجهة إلى القيصر ولذلك قطع رأس الفيلسوف المعادي للرومان في مسقط رأسه حمص مع عدد من وجهاء تدمر الآخرين. وتشير الدلائل إلى أن أورليان توصل إلى تفاهم مع ملك الفرس. فقد أرسل له الأخير وفداً مع كمية كبيرة من الهدايا النفيسة فقبلها أورليان. على إثر ذلك غادر الجيش الروماني سورية عائداً إلى بلاده على نفس الطريق التي جاء منها.

ولكن قبل الوصول إلى الدردنيل وصل خبر يفيد بأن التدمريين قد ثاروا على الحكم الروماني. فغيّر القيصر اتجاهه على الفور وعاد إلى سورية. وخلال وقت قصير غير متوقع ظهر أمام أسوار تدمر فاحتل المدينة ودمرها هذه المرة من أساسها. ثم هدم الأسوار والبيوت وحتى معابد الآلهة حُوّلت إلى ركام. وتم نقل

كل شيء ثمين عثر عليه في تدمر إلى روما[1]. وأخذت القطع النفيسة في معبد بعل العظيم في تدمر وزُيّن بها المعبد المقدس الذي بني في روما تكريماً وتقديساً لإله شمس الشرق[2]. وكان هذا درساً يضرب به المثل. فالآن بعد تدمير تدمر تدميراً كاملاً صار من الممكن أن يسود الهدوء في الشرق ويبقى خاضعاً لسلطة روما. بعد ذلك عاد القيصر مرة أخرى إلى الدردنيل وخلال عبوره المضيق أمر بإغراق جميع الرهائن التدمريين، ولم يستثن منهم أحداً سوى زنوبيا وابنها. في موكب النصر الذي أقيم عام 274م في روما تعيّن على زنوبيا أن تمشي أمام عربته حافية وحاسرة الرأس وهي تلبس مجوهراتها والسلاسل الذهبية حول عنقها ويديها.

لقي هذا الإذلال الشديد للملكة التعيسة انتقاداً شديداً في روما المتمدنة ورداً على ذلك كتب أورليان تلك الرسالة التي ذكرناها سابقاً الموجهة إلى مجلس الشيوخ والتي يشيد فيها تبريراً لسلوكه بالأفعال البطولية التي قامت بها هذه المرأة الشجاعة. تختلف الأخبار حول نهاية زنوبيا. ويبدو أن أكثرها قابلية للتصديق الخبر الذي يقول إنها توفيت في مزرعة قرب روما أهداها إياها القيصر عاشت فيها كسيدة محترمة متزوجة من سناتور روماني رفيع المقام. وهناك خبر آخر يقول إنها رفضت تناول الطعام والشراب وأماتت نفسها بهذه الطريقة[3]. وفي وقت لاحق تحدث المؤرخون عن خلف لزنوبيا عاشوا في إيطاليا كمواطنين رومانيين محترمين دون أن يوضحوا ما إذا كان هؤلاء ينحدرون من وهب اللات ابن أذينة أم من زواجها الروماني.

مع سقوط سلالة أذينة اختفت تدمر من التاريخ العالمي. ومع سقوط الدولة

---

(1) وبهذه المناسبة أخذت إلى روما أيضاً التيجان الذهبية البرونزية التي كانت تزين عدداً كبيراً من أعمدة تدمر.

(2) يروي فلافيوس فوبيسكوس أن أورليان أمر في وقت لاحق بإعادة بناء معبد الشمس في تدمر. ومن الصعب التأكد مما إذا كان هذا الأمر قد نفذ أم لا.

(3) يقول زوسيموس، الجزء الأول، ص59، أن زنوبيا توفيت بعد احتلال تدمر الأول على الطريق «إما نتيجة المرض أو بسبب امتناعها عن تناول الطعام والشراب».

التدمرية وتدمير مدينتها انتهى أيضاً احتكار قادة القوافل التدمريين للنقل عبر الصحراء. ونقلت مستودعات البضائع من تدمر إلى أماكن سورية أخرى قريبة من الساحل ومن مناطق السيطرة الرومانية. وتوقفت الحركة على الطريق المؤدية إلى تدمر. واعتباراً من الآن أصبحت التجارة بين البحر المتوسط والشرق الأقصى تمر بالدرجة الأولى عبر إنطاكية[1].

إلا أن تدمر ظلت لها أهميتها كواحة في وسط الصحراء لا ينضب فيها الماء أبداً وذلك كموقع لصد البدو الذين لا يكفون عن الغزو والشغب أبداً وللتصدي للعدو الفارسي الجبار في الشرق. وليس مستبعداً أن تكون الجدران الخارجية الضخمة لمعبد الشمس قد استعملت كقلعة للقوات الرومانية. وعلى أي حال فقد وصف معبد الشمس في تدمر في العهد البيزنطي وبكل صراحة بأنه قلعة.

توفي أورليان بعد عامين من انتصاره على زنوبيا. ويبدو أن المدينة حصلت في عهد خلفه ديوكليتيان (284 ـ 305م) على أسوار جديدة ولكن على مساحة أضيق جداً مما كانت عليه في زمن ازدهارها. وتذكر «نونيسيا ديغنيتاتوم»[2] أن تدمر كانت مقراً لقيادة الجيش الإلّيري الأول. لكن مصير المدينة كان قد صار محتوماً. إذ فقدت نهائياً استقلالها السياسي والعسكري وخضعت للإدارة الرومانية المباشرة. وكما كان يوجد في تدمر قوات من المناطق الغربية كانت أجزاء من القوات التدمرية تخدم في المناطق الرومانية الأخرى.

في هذه الأثناء كانت تدمر قد أصبحت مسيحية[3]. وأصبحت المدينة، التي كان آخر حاكم لها من ممثلي الوثنية الرجعية المتشددة، مقراً للأسقف. في عام

---

(1) لعل حركة النقل المباشرة من بصرى أو من الدولة السبئية التي ازدهرت في حوران إلى المدائن والخليج العربي لم تزدهر إلا بعد سقوط تدمر (انظر شبرنغر، الجغرافيا القديمة لبلاد العرب، برلين 1875م، ص151).

(2) نونيسيا ديغنيتاتوم، ص67.

(3) لم يعثر على أي كتابة من عصر استقلال تدمر تفيد بأن المسيحية كانت آنذاك منتشرة في تدمر. ويشكل كفاح المسيحية ضد الوثنية أحد الأفكار الرئيسية في مسرحية فيلبرانت «المعلم التدمري».

325م ورد بين آباء المجمع الكنسي الذي انعقد في نيسيا (إزنيك التركية اليوم) اسم الأسقف مارينوس من تدمر[1]. ووردت أسماء أساقفة آخرين من تدمر في عام 451 وعام 457م وفي بداية القرن السادس الميلادي. وفي عام 518م نفى القيصر يوستينوس الأول عند توليه الحكم الأسقف يوحنا التدمري بسبب الهرطقة التوحيدية[2].

أعار القيصر يوستينيان مدينة تدمر اهتماماً خاصاً[3]. فأمر بإعادة إصلاح المباني العامة والكنائس وبإعادة بناء سور المدينة ولكن حول منطقة أضيق جداً مما كانت عليه في عهد ديوكليتيان. وكان السور ضيقاً جداً إلى درجة أن نبع إفقا الكبير بقي خارجه. ويذكر بروكوت أن يوستينيان قد زود تدمر إضافة إلى ذلك بشبكة للمياه[4]. ويقدم هذا الإجراء صورة عن الانهيار الذي حل بهذه المدينة التي كانت في يوم من الأيام مزدهرة جداً ومزودة بكمية وافرة من المياه. ونقل يوستينيان إلى تدمر حامية عسكرية دائمة محوّلاً إياها إلى نقطة من أكثر نقاط الحدود الرومانية حماية في آسيا[5]. ويذكر أن «دوكس أورينتيس» قد تم تركيبه آنذاك في تدمر أيضاً[6].

من أيام يوستينيان حتى ظهور النبي محمد لا نسمع سوى القليل عن تدمر.

---

(1) انظر مورتمان، مقالات جديدة عن تدمر، ميونيخ 1875م، ص81. لوكيان، الشرق المسيحي، الجزء الثاني، ص845.

(2) انظر آسيماني، بيبليوتيكا أورينتاليس (المكتبة الشرقية)، الجزء الثاني، أطروحة؛ لوكيان، نفس المصدر السابق، مورتمان، نفس المصدر السابق، ص82.

(3) انظر ريتر، الجزء 17، 2، 1503 (تاريخ تيوفانس وملاله)؛ بروكوب، دي بيلّو برزيكو، 2، 5.

(4) بروكوب، دي إيديفيسيس، الجزء الثاني، 11. في الحقيقة ما تم القيام به لم يكن سوى إعادة بناء الشبكة التي كانت موجودة في تدمر أيام ازدهارها.

(5) لا تقدم لنا «نوتيسيا ديغنيتاتوم» صورة عن الحاميات الرومانية في وقت محدد تماماً وإنما تذكر مواقع الحاميات الرومانية المختلفة والقوات التي وضعت فيها في أوقات مختلفة؛ ولعل الحامية المذكورة أعلاه لم تنقل إلى تدمر إلا في عهد يوستينيان.

(6) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء 17، 2، ص1503.

فالمصادر المسيحية البيزنطية لا تذكر المدينة ونحن مضطرون إلى الاعتماد على الحكايات العربية التي تعالج الممالك السبئية التي نشأت في حوران والحيرة. ومن المرجح أن الدولتين العربيتين الشقيقتين المذكورتين قد تنازعتا بعد سقوط السلطة الرومانية في سورية على حكم القبائل البدوية في الحماد[1] واشتبكتا أكثر من مرة عند أبواب تدمر. ويروي أبو الفداء[2] أن الأمير الغساني أيهم الثاني ابن جبلة حكم العرب التدمريين وسكن في تدمر نفسها. وينطبق هذا على الفترة التي سبقت ظهور الإسلام مباشرة.

لم تبد تدمر أي مقاومة للقوات الإسلامية. فقد فتحها خالد بن الوليد[3] سلماً في عام 12 هـ (634م) قادماً إليها من الحيرة على طريق انتصاراته المتتالية عبر بلاد الرافدين وسورية.

خلال المعارك التي أدت إلى سقوط الحكم الأموي وقيام الخلافة العباسية ثارت تدمر مع مدن أخرى على مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية. فاحتل مروان المدينة بعد مقاومة عنيفة وشجاعة[4] وأمر بهدمها وتدمير أسوارها (745م).

يروي لنا الجغرافي ياقوت[5] حكاية غريبة لها صلة بتدمير تدمر على يد

---

(1) استناداً إلى ذكر اسم «معن» في الكتابات التدمرية يتوصل شبرنغر إلى الظن بأن معن الذين ينسبهم إلى طي كانوا يسيطرون على الطريق الممتدة من تيماء إلى تدمر (شبرنغر، الجغرافيا القديمة للبلاد العربية، المادة 342، ص223، 217). إلا أن معن (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص164 وما بعدها) ينتمون إلى ربيعة وبالتالي إلى عرب الشمال. أما اسم القبيلة العربية الجنوبية طي فقد أطلقه الآراميون على جميع العرب (انظر باكوب، دراسات عن الشعراء العرب، العدد 3: الحياة البدوية العربية القديمة، الطبعة الثانية، برلين 1897م، ص37، 38). ومن الممكن أن يكون الاسم «معن» الوارد في الكتابات التدمرية اسم شخص وليس اسم قبيلة.

(2) أبو الفداء، هيستوريا آنتي إسلاميكا، ص130، 131.

(3) انظر البلاذري، فتوح البلدان، لايدن 1866م، ص111.

(4) انظر فايل، تاريخ الخلفاء، برلين، 1846، الجزء الأول، ص686.

(5) ياقوت، نفس المصدر السابق، الجزء الأول، ص828.

مروان فيقول: عندما هدمت الأسوار انفتحت ثغرة في الصخر تؤدي إلى مغارة. في هذه المغارة وجد مروان امرأة مستلقية على ظهرها وتلبس 70 قطعة من الحلي والمجوهرات. وكان معصما قدميها مربوطين إلى بعضهما البعض بواسطة شعرها الطويل وكان جبينها مزيّناً بصفيحة من الذهب كتب عليها النص التالي: «أنادي اسمك يا إلهي، أنا تدمر ابنة حسان، فليكن السقوط حليف كل من يتجرأ على الدخول إلى منزلي». على إثر ذلك شعر مروان بأنه مضطر إلى مغادرة المكان بأقصى سرعة دون أن يمس مجوهرات المرأة وحليها، وبعد أن أغلق الثغرة بالصخرة الكبيرة التي كان قد نزعها عنها. ويضيف ياقوت قائلاً: بعد ذلك بوقت قصير قتل مروان وسقطت معه الدولة الأموية. وبالفعل فقد قتل مروان في عام 750م وبذلك حل العباسيون محل الأسرة الأموية. وحسب ياقوت فإن تدمر هو اسم ابنة حسان بن أذينة بن الصميدع بن مزيد بن أمليق بن لوط بن سام ابن نوح. أليست هذه الحكاية للتذكير بالملكة زنوبيا التي كانت آنذاك (توفي ياقوت عام 1229م) قد أصبحت ملكة أسطورية والتي تنحدر حسب الروايات الشعبية المتناقلة جيلاً بعد جيل من بني صميدع؟

في العصر الإسلامي يرد ذكر تدمر لدى العديد من الجغرافيين العرب في العصر الوسيط بينما لا يرد لها ذكر عند آخرين وهذا دليل على أنها كانت قد توقفت عن أن تكون مدينة هامة في سورية. ابن خرداذبه[1] (توفي بين 854 و857م) يذكر تدمر كقضاء تابع لحمص تزرع فيه التمور، والإصطخري[2] (توفي عام 950م) يذكر تدمر في وصفه لبلاد العرب مع السلمية كمنطقتين تابعتين لحمص. كما أن ابن حوقل[3] (توفي 976م) والمقدّسي[4] (توفي 985م) يذكران تدمر كمدينة تابعة لمحافظة حمص السورية. ويُعلمنا ابن الأثير أن تدمر كانت في

(1) ابن خرداذبه، المسالك والممالك (الترجمة الفرنسية)، باريس 1865م، ص199.
(2) الإصطخري، صور الأقاليم (ترجمة مورغان)، هامبورغ 1845م، ص5. انظر أيضاً ص40 خريطة سورية رقم 36.
(3) شبرنغر، طرق البريد والسفر في الشرق، لايبزيغ 1864م، ص99.
(4) دي غوييه، ص17.

القرن الثاني عشر تدفع الضرائب للأيوبيين في دمشق، ولكن في عام 1135م اشتراها أمير حمص مقابل تخليه عن قصره. ويبدو أن الأمير اعتقد أنه سيستطيع العيش في المدينة الواحة الواقعة في قلب الصحراء حياة أهدأ وأكثر استقلالاً من الحياة في حمص الواقعة على طريق الجيوش والحملات[1]. أدت الهزة الأرضية التي ألحقت في عام 1157م دماراً مخيفاً في جميع أرجاء سورية إلى إلحاق ضرر بالغ بتدمر أيضاً[2]. يقول الحاخام بنيامين فون توديلا، الذي تبدو أقواله مبالغاً فيها إلى حد كبير، أنه وجد عام 1173م في تدمر 2000 محارب يهودي كانوا منخرطين في معارك ضد نور الدين حاكم دمشق[3]. وإذا ما كان هذا صحيحاً يجب أن يكون في تدمر آنذاك عدد كبير من السكان.

من المؤكد أن الفوضى التي عمّت المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والخليج العربي بعد سقوط الدولة العباسية والحروب الصليبية والزحف المغولي لم تكن مؤاتية لمساعدة تدمر على تحقيق نهضة جديدة. في سورية نشبت عداوات بين سادة المدن المختلفة وفي الصحراء كانت القبائل البدوية في صراع مستمر كما أن أبو الفدا[4] أيضاً، المتوفى عام 1331م، يصف تدمر بأنها مدينة صغيرة في محافظة حمص يحيط بها سور يضم في داخله قلعة هي دون أدنى شك معبد الشمس الذي تم تحويله في عهد الرومان إلى قلعة. ويقول إن الجزء الأكبر من أراضيها تغطيه السبخات (المستنقعات الملحية) ويوجد فيها بعض أشجار النخيل والزيتون والكثير من المباني القديمة الضخمة مع الكثير من الأعمدة الجبارة والكتل الصخرية الهائلة. ويشير أبو الفداء إلى عزيزي الأقدم منه (996م) الذي يتحدث بإعجاب عن المياه الجارية والأشجار المثمرة والحقول التدمرية المزروعة. ومن الأشياء الهامة الوصف الوارد لبرج تدمر في «إندكس

---

(1) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، ص1504.

(2) انظر كاترمير، تاريخ السلاطين المماليك، الجزء الثالث، ص255.

(3) انظر رحلة الحاخام بنيامين فون توديلا، ترجمة ب. باراتييه، أمستردام 1734م، الجزء الأول، الفصل التاسع، ص124.

(4) انظر م. رينو، جغرافية أبو الفدا، باريس 1848م، الجزء الثاني، ص118 ـ 119.

جيوغرافيكوس»[1] نقلاً عن أبو عبيدة الذي عاش قبل عام 1160م[2]. حسب هذا الوصف كان البرج (أو القلعة) محاطاً بسور حجري تتألف بواباته من أبواب حجرية ذات مصاريع مما يذكرنا على الفور بمباني المستوطنين السبئيين في حوران. ولعل الأبواب الحجرية تعود إلى الزمن الذي احتل فيه الغساسنة تدمر وقاومت عوامل الدمار اللاحق مثلها مثل المباني التي نجدها في مدن حوران اليوم. ويذكر «الفهرس الجغرافي» (إندكس جيوغرافيكوس) أيضاً مباني برجية من العصر القديم، هي دون شك أبراج القبور القديمة التي تم استعمالها لأغراض التحصين.

يتحدث ابن بطوطة (توفي عام 1377م)[3] في وصفه لرحلاته فقط عن أسطورة بناء تدمر على يد الملك سليمان، بينما يتوقف طويلاً عند وصفه لمدينة السخنة. ويكتفي ابن خلدون[4] بذكر اسم مدينة تدمر فقط. ويقول اليعقوبي[5] إن تدمر مدينة جميلة فيها مبان رائعة وأسسها الملك سليمان. ومما يلفت الانتباه قوله إن التدمريين كلبيون، وهذا يعني أن جماعات من عرب الشمال كانوا يسكنون آنذاك في تدمر وحولها.

لم تسلم تدمر أيضاً من الغزوات التترية الرهيبة التي دمرت سورية بكاملها. فقد أرسل تيمورلنك، بعد احتلال دمشق في عام 1401م، فصيلة من جيشه إلى تدمر التي كان قد استقر فيها آنذاك جزء من القبيلة التركمانية ذو القدر. وكان النجاح مثله في بقية مناطق آسيا القريبة: فقد تم نهب المدينة والمناطق المحيطة بها[6].

---

(1) إندكس جيوغرافيكوس في فيتام سالاديني، شولتنس.
(2) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، ص1506.
(3) رحلة ابن بطوطة، ترجمة ديفريمري وسانغوينتي، باريس 1879م، ص315.
(4) مقدمة ابن خلدون، كاترمير (ملاحظات وشروحات لمخطوطة المكتبة الأمبريالية، الجزء 19) 1862م، ص132.
(5) ياكوبي، ترجمة دي غوييه، ص324.
(6) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، ص1506؛ ثم كاترمير، تاريخ السلاطين المماليك، الجزء الثالث، ص255.

وفي أواخر القرن السادس عشر جرى مرة أخرى تحصين جديد لمدينة تدمر، وهذا دليل آخر على الموقع الممتاز لهذه الواحة. في عامي 1678م و1691م قام تجار بريطانيون من حلب، متأثرين بالروايات التي تتحدث عن المدينة العجيبة الغارقة تحت الأنقاض، برحلة استكشافية إلى تدمر فقيل لهم هنا إن معن أوغلو أمير الدروز قد بنى في عهد مراد الثالث على ظهر الجبل قلعة تسيطر على المدينة وتفصل منطقة تدمر عن سهول القريتين. ويقول روبرت وود[1]، الذي زار آثار تدمر في عام 1751م وقدم في مؤلفاته الرائعة أول وصف تفصيلي للمدينة، أن العرب ينسبون بناء القلعة (الحصن) إلى الأمير الدرزي فخر الدين المنحدر من أسرة معن والذي «أمر ببنائها لكي يتخذ منها ملجأ له خلال فترة وجود أبيه في أوروبا». ويرى وود أن جميع هذه المعلومات لا تتفق مع تاريخ الدروز. وبالفعل فإن المعنيين قد مدوا سلطتهم، قبل نشوب الصراع بين العثمانيين وفخر الدين، إلى مسافات بعيدة خارج لبنان، ومن الممكن جداً أن يكونوا قد استقروا في تدمر أيضاً لكي يصدوا البدو الموجودين في الصحراء السورية، أو ولربما أيضاً لكي يكون لهم مأوى في الصحراء يلجأون إليه إذا ما دعت الحاجة[2]. في المعارك التي دارت في القرن السابع عشر والتي استطاع فيها الباب العالي وضع نهاية للميول التوسعية لدى أمراء جبل لبنان، تم أيضاً تدمير حصن تدمر الذي لم يزل حتى اليوم يبدو كقلعة أثرية منيعة. ولم يتبين بعد ما إذا كانت حصن البوابة لمعبد الشمس القديم الذي يعود إلى العهد الروماني المتأخر قد بناه أيضاً المعنيون أم إنه يعود إلى مرحلة أقدم من العصر العربي.

يذكر الرحالة التركي أوليا افندي، الذي قضى حسبما يقول هو نفسه 41 عاماً في السفر عبر مختلف المناطق الإسلامية وأنهى رحلاته، كما يبدو، عام 1670م، تدمر إلى جانب صيدا وبيروت كإحدى الساليانات الثلاث للولاية العثمانية دمشق، أي كواحد من الأقضية التي كانت تحصل كل عام على

(1) انظر وود، آثار تدمر، أو تدمر في الصحراء، لندن 1753م، رقم 27، ص13 و31.
(2) دينر، لبنان، الخطوط الأساسية للجغرافيا والجيولوجيا في وسط سورية، فيينا 1886م، ص360، يطلق على الحصن اسم «قلعة ابن معاز».

مخصصات مالية[1]. ويذكر حاجي خليفة في جغرافيته الصادرة عام 1145هـ في القسطنطينية تحت عنوان جهاننوما قضاء اسمه تدمر كان في الماضي تابعاً لحمص وأصبح له الآن محافظ خاص به. ويفيد لأول مرة أن السبخات الملحية التدمرية كانت تستغل لأغراض ضريبية[2].

لم يجد التجار البريطانيون القادمون من حلب في تدمر سوى عدد قليل من العائلات العربية المستقرة في المدينة والتي كانت تسكن داخل معبد الشمس وتعيش في ظروف بائسة[3]. وعلى الرغم من أن هؤلاء التدمريين كانوا شرسين ومستعدين للقيام بأعمال السلب والنهب فلم يكن في وسعهم إلا بصعوبة بالغة الوقوف في وجه القبائل البدوية الكبيرة الموجودة في الصحراء السورية. وكل من زار تدمر بعد ذلك وحتى العصر الحديث يتحدث عن نفس الظروف. في القرن السابع عشر طردت قبيلة العنزة بدو العمور الذين كانوا آنذاك أقوياء جداً في منطقة تدمر والذين لم يزل هناك بقية منهم حتى اليوم على أطراف الامتدادات الجبلية المنطلقة من جبال لبنان الشرقية وحتى الفرات[4].

كانت زيارة تدمر حتى منتصف القرن الحالي خطيرة وتحتاج إلى كثير من الجرأة. كان يتعين على المسافر دفع مبلغ كبير نسبياً من أجل عبور الصحراء

---

(1) انظر أوليا أفندي، حكاية رحلات في أوروبا وآسيا وإفريقيا في القرن السابع عشر، ترجمها عن التركية هامر، لندن 1850م، الجزء الأول، ص93. انظر بشأن تلك الفترة ملاحظة كاترمير، نفس المصدر السابق، الجزء الثالث، ص256.

(2) انظر جهاننوما جغرافية الشرق، ترجمها عن التركية نوربرغ، لوند 1818م، الجزء الثاني، ص335.

(3) التقارير التي نشرت في بادئ الأمر في المحاضر الفلسفية، لندن 1695، ص83 ـ 110، 125 ـ 137، 138 ـ 160، أعاد نشرها في عام 1890م صندوق استكشاف فلسطين.

(4) في أيام أبو الفدا كانت طي من البدو الرحل الذين يتنقلون قرب تدمر (انظر ريتر، نفس المصدر السابق، ص1507). في الوقت الحاضر طردت بقايا هذه القبيلة التي كانت في يوم من الأيام قوية جداً إلى الأطراف الشمالية الشرقية للبادية في منطقة ما بين النهرين. انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب.

وإيجاد الفرق المناسبة للمرافقة على الطريق ثم دفع أتاوات لشيوخ القرى الموجودة على الطريق ولقبيلة عنزة ولمشيخ تدمر. ورغم ذلك لم يكن من النادر أن يتعرض المسافر للهجمات والتشليح. فالزوار الإنجليز الذين زاروا تدمر في القرن السابع عشر تعرضوا خلال رحلتهم الأولى (في عام 1678م) للنهب الكامل ولم ينجوا بحياتهم إلا بصعوبة بالغة. ومنذ بداية النظام الجديد في أواخر الستينات الذي تمّ تطبيعه في البادية السورية وبلاد الرافدين تغيرت الظروف. وفي الوقت الحاضر لم تعد زيارة تدمر خطيرة جداً إذا ما تقيد المرء بالسير على طريق القوافل المعهودة. إلا أن المنطقة المحيطة بتدمر لم تزل حتى اليوم غير آمنة بشكل كامل.

الآثار المتبقية[1] من تدمر القديمة كثيرة جداً وهي تولد في نفس الزائر انطباعاً هائلاً وخاصة لأنها تظهر أمامه فجأة في قلب الصحراء. ولم يزل متبقياً من قاعدة الأعمدة التي يبلغ طولها عدة كيلومترات وكانت تخترق المدينة من أولها إلى آخرها عدد كبير من الأعمدة التي تشهد على ذلك الماضي العظيم. يتقاطع شارع الأعمدة الكبير هذا مع العديد من الشوارع الأخرى المحاطة بصفوف الأعمدة أيضاً. يتألف الثلث الأول من الأعمدة من قاعدة كانت تحمل في الأزمنة القديمة تماثيل رجال مشهورين لم يبق منها اليوم أي تمثال ولم يعثر في الحفريات على أي واحد منها سليماً. أما تيجان الأعمدة فهي مصنوعة بأسلوب فريد له قرابة مع الأسلوب الكورنتي (الإغريقي). وهناك بوابة عظيمة فخمة في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة تفتح أقواسها الرئيسية لشارع عمودي على شارع الأعمدة بينما يمر عبر قوسين صغيرين شارعان فرعيان يتقاطعان بزاوية حادة

(1) انظر سايف، رحلات في تركيا الآسيوية، لايبزيغ 1875م؛ سوسان ـ بيديكر، نفس المصدر السابق، ص380 وما بعدها؛ ورايت، تقرير عن تدمر وزنوبيا؛ الصرح الرومي الفخم للأمير أباميليك لاساريف، أبحاث أركيولوجية، بطرسبورغ 1885م. مصادر قديمة أخرى عند ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء السابع عشر، ص1508 وما بعدها. في ألواحه عن آثار تدمر، لندن 1753م، يقدم وود رسمات وتركيبات رائعة عن بعض أجزاء المباني والزخارف التي نشرنا هنا عدداً منها نقلاً عنه. ومما لا شك فيه أنه كان يوجد عند قيامه بزيارته في عام 1751م كمية أكبر من الآثار. وهذا ما يتبين من مقارنة الصورة التي رسمها لطريق النصر مع وضعها الحالي.

مع طريق النصر. جميع مباني تدمر تتألف من حجارة كلسية بيضاء ضعيفة المقاومة[1] اتخذت في حالات كثيرة لوناً يميل إلى الأصفر. والأعمدة المصنوعة من هذه المواد تأثرت أجزاؤها السفلى كثيراً بسبب الحتّ والتآكل، واتخذت نتيجة لذلك شكل جذوع الأشجار الفاسدة. وبين هذه الأعمدة توجد بين حين وآخر أعمدة من حجر الغرانيت القاسي التي تلفت الانتباه ومصدرها غير معروف[2].

في النهاية الجنوبية من الشارع الرئيسي يقع المعبد الكبير الموهوب لإله تدمر المحلي إله الشمس بعل. كان مبنى المعبد هائل الضخامة. وكان واقعاً على شرفة مرتفعة ومحاطاً بأسوار يبلغ ارتفاعها 15 ـ 16 متراً وطول كل منها من الجهة الداخلية 235 متراً[3]. أما اليوم فإن الفضاء المحاط بالأسوار عبارة عن خليط من الأنقاض المختلفة ولكن لم يزل يبرز بينها صفوف كاملة من الأعمدة المزينة بعتبات سقفية جميلة. ولم يزل باقياً أيضاً العديد من السقوف المزخرفة والديكورات الجدارية. ويتسع المعبد اليوم لما يزيد على مائة بيت بسيط من بيوت تدمر الحديثة. فهي مبنية على الأنقاض، التي تغطي الأرض غالباً حتى ارتفاع عدة أمتار، أو بين الأقواس والأعمدة التاريخية الرائعة. وفي كثير من الأحيان استخدمت في بنائها قطع من الأعمدة والتيجان الرائعة الجمال وحجارة غنية بالزخارف والتزيينات مأخوذة من المعبد القديم. شوارع كاملة تنفتح صعوداً ونزولاً في داخل المبنى العملاق. ومن الواضح أن جزءاً صغيراً من المعبد كان

---

(1) ليس من الرخام كما تذكر بعض الكتب السياحية. أما المقالع الصخرية المستخرجة الحجارة الكلسية المستعملة في تدمر فموجودة في الجبل الأبيض.

(2) لم تثبت الجهات الاختصاصية حتى الآن وجود الغرانيت في سورية. إلا أن طومسون يقول إن هذا النوع من الحجارة موجود في الجبل الأقرع، ويقول دراكه إنه موجود في الجهة الشرقية من جبل الأعلى قرب سلمية (انظر بلانكنهورن، الخطوط الأساسية للجيولوجيا والجغرافيا الفيزيائية في شمال سورية، ص9 و27).

(3) انظر سوسان ـ بيديكر، نفس المرجع السابق، ص381. يبدو أن هناك شبهاً كبيراً بين المخطط الأساسي لمعبد الشمس في تدمر ومخطط معبد كنغافار. انظر بوتا وفلاندين، رحلة في فارس، الجزء الأول.

قد حُوّل في زمن قديم إلى جامع، فقد عثرنا هنا على سورة من القرآن بالخط الكوفي، وهناك حيث كان موجوداً في قديم الزمان المذبح يوجد الآن أماكن لإقامة الصلاة[1]. أجمل ما تبقى من الآثار موجود في هذا الجامع وفي محيطه المباشر. فلم يزل يرى المرء هنا سقوفاً رائعة الجمال وزخارف جدارية جميلة استعملت في تشكيلها رموز الأبراج السماوية (أبراج الحظ) وأشكال هندسية مختلفة تذكرنا بموضوعات شرقية، وهناك أيضاً تزيينات بأوراق النباتات وأكاليل الزهور الأنيقة التي يمكن أن تكون قد نشأت في عصر لويس السادس عشر، وتيجان وزخارف ناتئة وديكورات من مختلف الأنواع يعبر تباينها الشديد عن أشكال من الفن الكلاسيكي القديم ونماذج من أسلوب العصر الامبريالي ومختلف أشكال العصور الوسطى وعصر النهضة الحديث. وهناك شبه ملفت للانتباه بين واجهات بعض أجزاء المبنى وبعض الواجهات التي نراها في مدننا الأوروبية. ومن ناحية أخرى تتميز الجدران الخارجية ببساطتها الهائلة. ولا شك في أن تدمر تصلح لأن تكون حقلاً خصباً للدراسات الهندسية والمعمارية يستفيد منها حتى أكبر المهندسين الحديثين.

من الممكن التعرف بوضوح على آثار التعديلات العمرانية اللاحقة التي طرأت على أسوار المعبد الذي استعمل بعد سقوط الملكة زنوبيا مراراً وتكراراً كحصن دفاعي. وتشكل أجزاء السور التي بنيت في العصر الإسلامي بسبب تنفيذها الخشن نقيضاً واضحاً للآثار المتبقية من العصر القديم. والبوابة الحالية الكبيرة تعود إلى المرحلة الإسلامية. فهي مزودة بكتابة طويلة باللغة العربية. وبدلاً من الدرج القديم الذي كان عرضه 35 متراً يؤدي اليوم إلى الداخل عبر البوابة شارع مليء بالحفر والعثرات. وبعيداً إلى الشمال من معبد الشمس، تقريباً على طرف حقل الآثار الضخم الذي يصل هنا إلى حافة الجبل، يوجد معبد رشيق آخر لا يزال في حالة جيدة.

ومما يشكل إحدى الخصائص المتميزة في تدمر أبراج القبور المربعة الشكل

(1) انظر فون كريمر، سورية الوسطى ودمشق، ص200.

المزينة جزئياً بالزخارف والتي تعبر عن المقابر المتوارثة للعائلات التدمرية الوجيهة[1]. وهي موجودة في الممر الذي يشكل المدخل إلى تدمر من جهة الغرب، لكنها موجودة أيضاً على طرف المدينة الشمالي وطرفها الجنوبي الغربي. يبلغ ارتفاع الأبراج عدة طوابق وتحتوي في داخلها على حجرات توضع فيها توابيت الموتى أو العلبة التي تحتوي على الرماد. قام ورايت[2] بقياس أبعاد أحد هذه الأضرحة البرجية، ضريح «قصر الثنية»، فكان ارتفاعه 111 قدم إنجليزي وطول ضلعه في الأسفل 33,5 قدم وفي الأعلى 25,8 قدم. كان البرج يتألف من ستة طوابق ويحتوي على حجرات تتسع لأربعمائة وثمانين ميتاً. في داخل الحجرات يوجد رسومات ناتئة تعبر عن الأشخاص المدفونين هناك، وإلى جانبها عادة كتابات تذكر اسم المتوفى وتاريخ وفاته حسب الحقبة السلوسيدية. القيمة الفنية لهذه الرسومات الناتئة ـ وهي غالباً للنصف الأعلى من الجسم ـ غير عالية بشكل خاص ولكنها على أي حال ذات أهمية كبيرة للتعرف على نماذج وأزياء التدمريين القدامى. وللأسف الشديد أصبحت هذه الرسومات والتماثيل المادة الرئيسية لتجارة الشرقيات الأثرية في سورية. ومن أجل نقلها بسهولة يجري عادة تقطيعها إلى أجزاء تنتشر بعد ذلك في جميع أرجاء العالم. واليوم لم يعد يوجد أي رسمة أو منحوتة في مكانها الأصلي. وإلى جانب القبور البرجية (أو أبراج القبور) لم يزل يوجد الكثير من القبور الأقل ضخامة المتناثرة هنا وهناك. وقد وجد ورايت[3] مغارة تحت الأرض أو تحت الأنقاض طولها 60 قدماً وعرضها 27 قدماً وارتفاعها 7 ـ 8 أقدام يوجد على كل ضلع من ضلعيها الطويلين 9 حجرات لدفن الموتى وعلى أحد ضلعيها القصيرين 5 حجرات. أما الضلع القصير الآخر فيبدو من الرسمة أنه كان يحتوي على باب. وتشبه الحجرات من

---

(1) انظر ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء 17، ص1538 وما بعدها، ثم ورايت، نفس المصدر السابق، ص74 وما بعدها. بخصوص قبور أخرى أقل ارتفاعاً ومزينة بالأعمدة، والتي كانت تحمل على الأرجح رؤوساً تشبه الأهرامات وتذكرنا بديبسة قرب بصرى، انظر زاخاو، نفس المصدر السابق، ص40.

(2) ورايت، نفس المصدر السابق، ص84.

(3) نفس المصدر السابق، ص91.

ناحية طولها وأبعادها العامة الحجرات الموجودة في القبور البرجية؛ إلا أنها كانت مغلقة من الجانبين ولكل منها خمسة رفوف مصنوعة من الفخار القاسي ومثبتة في الحجرات. وعلى هذه الرفوف كانت موضوعة الجثث المحنطة بحيث إن الجمجمة كانت مثبتة على الحائط بالأسمنت بينما كان القدمان متجهان نحو الخارج. ولقد تم العثور على الجثث المحنطة (المومياء) في قبور موجودة في أماكن أخرى في تدمر، كما عثر أيضاً على بقايا جدائل من الشعر وقطع من الملابس. يصف وارايت[1] إحدى الموميات الملفوفة بعناية بالغة بعدة طبقات من القماش الذي يشبه نسيجه ولونه القماش المستعمل اليوم في تدمر. وتشبه إحدى جدائل الشعر التابعة لإحدى الموميات، والتي جلبها معه وود[2] إلى بريطانيا، جدائل النساء العربيات في تدمر عند مجيء وود إليها. أما طريقة معالجة المومياء والبلسم المستعمل والقماش فيرى وود أنها تشبه طريقة تجهيز ولف المومياء المصرية. وقد عثر وارايت على شريحة من الطين تشبه جداً في اللون والشكل الشرائح التدمرية وتحمل اسم الملك المصري ترهاكا، وليس مستبعداً أن تكون هذه الشريحة دليلاً على أن فتوحات ترهاكا قد امتدت إلى تدمر أيضاً[3]. ولعل آثار تل عمارنة ستلقي الضوء أيضاً على تاريخ تدمر قبل مجيء الرومان.

على قمة جبل شمال وادي القبور في تدمر تشمخ قلعة ابن معن الجبارة التي تنسبها الحكايات المحلية، كما ذكرنا، إلى الأمير الدرزي. ومن الواضح للعيان أن هذا البناء بشكله الحالي لا يعود إلى الزمن التدمري القديم وإنما إلى العصر العربي الوسيط إن لم يكن إلى مرحلة زمنية أحدث. وعند الوقوف على هذه القلعة، التي يصعب الوصول إليها لأنها محاطة بخندق محفور في الصخر عمقه عشرة أمتار وكان منصوباً فوقه في ذلك الزمان جسر متحرك، يشاهد المرء منظراً رائعاً يطل على حقل الآثار الواسع وعلى الصحراء الممتدة إلى الشرق من المدينة بينما يشاهد المرء من جهة الغرب، إذا كان الجو صاحياً، الذرى العالية لجبال

---

(1) نفس المصدر السابق، ص82.

(2) نفس المصدر السابق، ص21 و23.

(3) انظر وارايت، نفس المصدر السابق، ص87 ـ 89.

لبنان الشرقية. في نهاية الستينات وأوائل السبعينات كانت هذه القلعة تستخدم كثكنة ومستوصف لحامية عسكرية تركية.

يعود الفضل في وجود تدمر في قلب الصحراء إلى نبعين عظيمين. على بعد خطوات قليلة إلى الجنوب من مخرج وادي المقابر يتدفق من حفرة صخرية عميقة نبع يمكن تحويل مياهه الكبريتية الساخنة إلى ماء صالح للشرب بوضعه في وعاء وتركه ساكناً فترة من الزمن ثم أخذ الجزء العلوي منه فقط بحذر. وهناك نبع آخر مياهه أفضل موجود إلى الشمال من معبد الشمس يلتف حول المبنى من جهتي الشمال والشرق ثم يتحد شرقي المعبد مع النبع الأول. هذان النبعان يرويان إكليلاً من البساتين المحيطة بالمدينة الأثرية من جهة الجنوب والشرق والتي لا تستطيع حتى شمس الصيف اللاهبة حرق نباتاتها الفوارية الخضراء، تلك البساتين الواقعة في وسط الصحراء والمزروعة بأشجار الرمان والتين والعنب والمزينة ببعض أشجار النخيل تترك في النفس انطباعاً ساحراً إلى أبعد الحدود. وإلى جانب البساتين تبدأ حقول زراعة الحبوب التي تمتد نحو الجنوب الشرقي حتى مسافة 20 دقيقة تقريباً.

إلا أن هذين النبعين، بالإضافة إلى العدد الكبير من الآبار التي لم يزل بعضها موجوداً حتى اليوم، لم تكن تكفي لتغطية حاجة المدينة. ولذلك كانت قد مدت آنذاك قناة مائية كانت تزود المدينة بالمياه المأخوذة من سد تتجمع فيه مياه الينابيع والأمطار. ولم يزل من الممكن تتبع آثار هذه القناة عبر وادي القبور وحتى الجبل نحو الشمال الغربي؛ علاوة على ذلك كان يوجد، على الأرجح، في كل بيت بركة لتجميع مياه المطر.

لم تدرس آثار تدمر حتى الآن إلا قليلاً جداً لأن المدينة القديمة مغطاة بطبقة من الرمل والأنقاض لا يقل ارتفاعها عن ثلاثة أمتار. وإذا ما كان يوجد على سطح الأرض مثل هذا العدد الكبير من الكتابات والبقايا المعمارية القيّمة جداً فمن المؤكد أن التنقيبات العلمية المدروسة ستقدم للعلم كماً كبيراً من المعلومات لأن الأنقاض تغطت بعد التدمير مباشرة بطبقة من الرمل ولأنه منذ ما يزيد على

15 قرناً لم تنشأ هنا ولا في المناطق المجاورة تجمعات سكانية كبيرة. غير أن إعادة إعمار المدينة في عهد يوستينيان يمكن أن يكون قد دمر كثيراً من الصروح المعمارية القديمة، كما أن توسع المدينة الجاري حالياً سيلحق دون أدنى شك ضرراً بالغاً ببقايا المباني الظاهرة فوق الأرض؛ فمن المعروف أن المستوطنين الجدد الذين يستعملون البقايا القديمة كمواد للبناء ولإنتاج الكلس هم أخطر أعداء الأبحاث الأثرية. ولذلك حبذا لو تم عما قريب كشف الكنوز الثمينة المخبأة تحت الرمل بعمل علمي هادف. فالرخاء القديم الذي شهدته المدينة يضمن العثور، إلى جانب الكتابات المنقوشة في الصخر وإلى جانب الورق والخ. . ، على كثير من أدوات وأشياء الاستعمال اليومي ومنتوجات الصناعات اليدوية الفنية التي ستزودنا بأخبار أكيدة عن تاريخ وحضارة هذه الواحة الغريبة التي كانت تقع على حدود المدنيّة الإغريقية ـ الرومانية والمدنية الشرقية.

سكان تدمر الحاليون هم من البدو المستقرين المنحدرين من قبائل مختلفة. وهم لا يشاركون في حركة القوافل الضعيفة في الصحراء السورية والتي تنطلق حالياً من دمشق وتمر في تدمر لتصل إلى الفرات عند دير الزور، بل إن جُلّ ما يقومون به هو المشاركة في نقل الملح والبوتاس إلى المناطق المجاورة. إلا أنهم يزرعون الأراضي الواقعة جنوب شرق المدينة ويعملون في استخراج الملح من بحيرة الملح القريبة. ولم يزل معظم السكان يعيشون حتى اليوم داخل أسوار معبد الشمس الحامية. ومن أجل زيادة الأمان تم قبل بضع سنوات بناء ثكنة عسكرية كبيرة ـ من مواد البناء القديمة ـ أمام النهاية الشمالية الشرقية للمعبد. ومنذ ذلك الحين توسعت المدينة كثيراً نحو الشرق والشمال، وعلى الأخص نحو الجهة الغربية. وفي هذا الحي الأخير توجد مدرسة يتعلم فيها نحو عشرين طفلاً ويوجد أيضاً بيت الشيخ محمد عبد الله بن عروق[1] الذي أصبح مشهوراً وغنياً جداً بسبب مرافقته كثيراً من الرحالة الأوروبيين. في الوقت الحاضر ارتفع عدد سكان تدمر إلى حوالي 1500 نسمة. وعندما كنت في المدينة كانت حامية القشلة تتألف من

(1) منطقة تدمر لها شيخان معترف بهما.

عدد قليل من السبئية مع ضابط واحد. ويمثل السلطة التركية في المدينة مدير تابع لمتصرف دير الزور. ويقال بأن تدمر كانت قبل بضعة عقود، على الرغم من عدد سكانها القليل آنذاك، سوقاً نشيطاً يغطي منها بدو الصحراء حاجياتهم؛ ولكن في الآونة الأخيرة فقدت المدينة أهميتها كسوق تجارية لصالح مدينة دير الزور التي تشهد نهوضاً واضحاً. أما البازار الحالي الصغير المؤلف من عدد قليل من الحوانيت فيغطي الحاجات المحلية فقط.

الفصل التاسع

من تدمر عبر البادية السورية إلى الفرات

الانطلاق من تدمر. ـ بحيرة الملح. ـ الحماد. ـ مرتفعات الحماد. ـ إرك. ـ السخنة. ـ المحيفر. ـ قافلة في البادية. ـ السراب. ـ القباقب. ـ الوصول إلى دير الزور على الفرات. ـ دير الزور في الماضي والآن. ـ قضاء الدير. ـ الطرق، الكنائس، الخانات. ـ المتصرف صالح باشا. ـ ناعورة والجرد.

* * *

بعد ظهر يوم 27 يوليو/ تموز انطلقنا من تدمر لكي نتابع مسيرنا إلى دير الزور على طريق القوافل المعلّمة بالخانات المذكورة سابقاً. وبينما توجهت قافلة الحمولة نحو الشمال مباشرة توجهت أنا في بادئ الأمر مع مرافقيي من الخيالة باتجاه جنوب الجنوب الشرقي لزيارة بحيرة الملح (التي تسمى بالعربية سبخة أو مملحة) التي تمتد على شكل قوس كبير حول المدينة. . بعد السير نصف ساعة عبر البساتين والحقول ثم نصف ساعة أخرى في الأرض الجرداء وصلنا إلى طرف البحيرة التي يبلغ عرضها هنا نحو كيلومتر واحد بينما يبلغ طولها الإجمالي 7 ـ 8 كيلو مترات المستنقع المالح عند تدمر هو منخفض قليل العمق بين منطقة المدينة والأرض الصحراوية التي ترتفع قليلاً باتجاه الجنوب. مثل هذه البحيرات المالحة موجودة بكثرة في سورية وبلاد الرافدين لكن عدداً قليلاً منها فقط يُستغل لاستخراج الملح، في سورية فقط ممالح جيرود وممالح حلب وممالح تدمر.

واستخراج الملح في تركيا محصور بيد الدولة. كان يوجد على طرف البحيرة حفر قليلة العمق يتجمع فيها الماء المشبع جداً بالملح. بعد ترك الماء المالح فترة من الزمن لحاله يُغرف بالسطول ويُصب على الأرض حيث يتبخر الماء بسرعة بسبب الحرارة الشديدة. والملح المستخرج بهذه الطريقة ذو نوعية ممتازة. ويقوم بهذا العمل فلاحون من تدمر. على ضفة البحيرة يوجد عدة بيوت صغيرة للحراسة يتمركز فيها 15 ـ 20 عسكرياً شركسياً لمنع استخراج الملح بشكل غير مشروع. وهناك دوريات متواصلة بين هذا المركز والحامية الموجودة في تدمر.

سرنا على طرف السبخة حتى صرنا، بعد مسير نصف ساعة في الاتجاه الشمالي الشرقي، قادرين على عبور الطرف الضيق من البحيرة الواقع في أقصى الشمال حيث كانت خيولنا تغرق في بعض المواقع حتى ركبها في الأرضية المستنقعية. وأخيراً عدنا إلى أرض الحماد الصلبة تحت أقدامنا.

إن اسم «الصحراء» لا ينطبق على الطابع الحقيقي للحماد. بل إن الاسم العربي «البادية» يعني السهل الذي سيكون صالحاً للزراعة لو توفر له الماء اللازم. ومما يثبت صلاحية الحماد للزراعة الغطاء النباتي الكثيف الذي ينبت في الربيع في كل مكان يتوفر فيه الماء والبساتين التي تشبه الواحات والتي تنشأ قرب العدد القليل من الينابيع. فقط في الأماكن التي تشكل فيها الصخور الجصية أو الكلسية الطبقة العليا من الأرض، وفي المواقع التي تراكمت فيها طبقات من الرمل، تبقى الصحراء السورية عقيمة باستمرار.

بصورة عامة تنحدر الحماد من الغرب نحو الشرق باتجاه الفرات، وفي بعض المواقع، وبالتحديد في الأجزاء الواقعة في أقصى الشمال، تنحدر قليلاً نحو الجنوب؛ وفي هذا الاتجاه تسيل المجاري المطرية الكثيرة التي تحفر في الأرض الأخاديد وتعطيها في أحيان كثيرة مظهراً متموجاً وعلى بعد مسيرة يوم كامل قبل الفرات تصعد الأرض فجأة مرة أخرى لتسقط بعد ذلك بشدة، على مسافة قريبة من النهر، في سهل الوادي. أما مياه المجاري المطرية الكثيرة فيتجمع جزء منها في حفر طبيعية كبيرة تسمى «غدير» لكنها ما تلبث أن تتبخر منها

بعد وقت قصير، ويتجمع جزء منها في جداول أكبر مثل «وادي غرة» و«وادي حوران» اللذين تصب مياههما في نهر الفرات..

في الشتاء والربيع، خلال وبعد موسم الأمطار، عندما تكتسي البادية بغطاء نباتي أخضر، يجد المرء هناك العديد من مخيمات البدو وقطعان الغزلان؛ ولكن ما أن تجف النباتات حتى يرحل البدو إلى أطراف البادية بالقرب من المناطق المزروعة أو إلى نهر الفرات حيث يجدون في الصيف أيضاً الماء والكلأ لإبلهم وقطعان أغنامهم ثم تتبعهم الغزلان، علاقة تتحدث عنها الأمثال العربية أيضاً. عندئذ تصبح الحماد أرضاً قاحلة، أو «بادية صحراوية»، لا يوجد فيها ماء إلا في أماكن محددة قليلة، في أحواض اصطناعية أو في آبار أو في عدد قليل جداً من الينابيع الشحيحة إلى أبعد الحدود. بسبب شح المياه وخوفاً من غزو البدو المضطرين أيضاً إلى الاعتماد على نفس المصادر القليلة من المياه وبالتالي لا يمكن تفادي الاحتكاك بهم، لا تمر القوافل في الصيف في الحماد إلا نادراً.

ينقطع الطابع السهلي للبادية السورية بمرتفعات كبيرة وصغيرة أهمها السلسلة الممتدة من دمشق حتى تدمر ثم نحو الشمال الشرقي حتى الفرات. على مسافة غير بعيدة إلى الجنوب من هذه السلسلة الجبلية، التي تتابع امتدادها في منطقة ما بين النهرين وراء الفرات وتحمل في كل جزء منها اسماً مختلفاً، تمر طريق القوافل المتوجهة من دمشق إلى دير الزور. بين تدمر وإرك تحمل هذه السلسلة من المرتفعات اسم جبل العمور كناية إلى القبيلة البدوية عمور التي يبدو أنها تقيم في الصحراء السورية منذ زمن طويل وأن العَنزة قد طردتها إلى هذه المنطقة الجبلية.

في الساعة الرابعة والنصف عدنا، بعد جولتنا إلى بحيرة الملح، إلى طريق القوافل وأصبح على يسارنا جبل القطّار الذي هو جزء من جبل العمور. وإلى جنوبنا مباشرة ظهر على مسافة بعيدة تل الفرا وخلفه على مسافة أبعد جبل الغراب الواقع على مسافة غير بعيدة من طريق البريد الصحراوي المباشر بين دمشق وبغداد والذي مر فيه هوبر. وبالقرب من جبل الغراب، ولكن أبعد باتجاه الجنوب، يوجد نبع يسمى عين العليويات.

لكي نلحق بقافلتنا المعرضة في البادية القفراء للخطر تعيّن علينا السير بخطى أسرع بحيث قطعنا المسافة إلى إرك خلال زمن قصير نسبياً. وفي الساعة الخامسة وعشر دقائق كان على يسارنا منخفض في الجبل يقع خلفه نبع «عين القطّار» (أي «نبع القطرة»). وإلى الشمال منها ذكر اسم نبع آخر اسمه «عين الملوح» (أي «نبع الملح»). وإلى الجانب ظهرت هضبة سهلية تميزت بلونها الداكن عن الحماد ذات اللون الرمادي الأبيض؛ وإلى الشرق منها برز جبل الضبع من وسط السهل.

اعتباراً من الساعة الخامسة و20 دقيقة أصبح امتداد جبل القطار يسمى جبل الثليثواه وظهرت خلفه سلسلة موازية تسمى جبل أبو الظهور. وبعد ذلك بوقت قصير تجاوزنا إلى يسارنا أيضاً خاناً خرباً يقع عند أسفل الجبل يسمى «قصر الأحمر» لم يتبق منه سوى أساسات الجدران التي تشكل قياساً إلى الخانات الأخرى مربعاً قليل الأهمية. وبعد أن اجتزنا ثلاثة وديان جافة وصلنا في الساعة السابعة و15 دقيقة إلى إرك. وكان الاتجاه الرئيسي للمسير من تدمر إلى إرك شرق ـ شمال ـ شرق في بادئ الأمر، وفي المقطع الأخير نحو الشرق تماماً.

تقع قرية إرك (ياريكا) في واد تحيط به مرتفعات منخفضة من جميع الجهات ويوجد فيها في الوقت الحاضر 15 ـ 20 بيتاً تسكن فيها عائلات فلاحية. على بعد دقائق قليلة إلى الشمال توجد على مرتفع صغير قشلة يتمركز فيها بعض السبئية. وبما أن النبع الواقع إلى الغرب من هذه القشلة، وهو الوحيد في القرية، شحيح الماء فلم يكن من الممكن أن تكبر القرية أبداً. مياه النبع تحتوي على الكبريت ولكن ليس بالمقدار الموجود في نبع تدمر. بعض الكروم وبقع صغيرة من الأراضي الزراعية، هذا كل ما يراه المرء في القرية من زراعة. وهناك بعض الآثار غير الهامة التي تشهد على أن القرية كانت مأهولة منذ العصر القديم. بطليموس، وتابولا بويتنغيرانا، ونوتيسيا ديغنيتاتوم، يعرفون القرية بأسماء مختلفة[1]. في العصر الحديث ورد ذكر إرك لأول مرة عند هاليفاكس ومرافقيه من أعضاء البعثة التجارية

---

(1) انظر موريتس، نفس المصدر السابق، ص26. ثم الكتابة رقم 634 في ستيريت، ذي دولف إكسبيديشن، أوراق المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية في أثينا، المجلد الثالث 1884م/ 1885م.

الإنجليزية في حلب، التي اتبعت في رحلتها إلى تدمر في عام 1691م[1]، على طريق العودة، وحتى السخنة نفس الطريق التي اخترتها أنا. وقد أطلق عليها هؤلاء الرحالة الإنجليز اسم ياريكا وهو اسم يقول السكان المحليون إنه مشتق من انتصار للأتراك على المماليك. حسب هذا التقرير كان يتعين آنذاك على سكان القرية الفلائل دفع مبلغ 300 دولار لحسين عباس «ملك العرب». للأسف لم يستخبر الرحالة عن اسم القبيلة التي تطلب هذا المبلغ ولذلك لا نعرف ما إذا كان المقصود بهؤلاء العرب قبيلة عنزة التي كانت هجرتها إلى البادية السورية قد بدأت آنذاك، أم إن المقصود كان بدو الحماد القدامى. وتجدر الإشارة إلى أننا نحن وجدنا عند مجيئنا إلى هناك مخيماً لبني عمور قرب قشلة إرك.

في الساعة السابعة و40 دقيقة من صباح اليوم التالي تابعنا مسيرنا باتجاه شمال الشمال الشرقي ووصلنا في الساعة الثامنة إلى طرف حوض الوادي الذي تقع فيه إرك. ومنذئذ وحتى مغيب الشمس ظل اتجاه سيرنا نحو الشمال الشرقي. في الساعة الثامنة و40 دقيقة أصبحت آثار خان الثميد على يسار الطريق وفي الوقت نفسه اجتزنا وادي الثميد الذي يحمل نفس الاسم. وفي الساعة التاسعة و10 دقائق عبرنا وادي الرماميل بينما ظهر على يسارنا على مسافة بعيدة مرتفع جبل اللابدة[2].

في الساعة 11 و5 دقائق وجدنا على يسارنا خزان ماء مستطيل الشكل قياس 7 : 10م وإلى جانبه كومة من الأنقاض وأساسات بعض البيوت المهدمة والعديد من القبور؛ وهذه علامات تدل على وجود مستوطنة كبيرة تعود إلى العصر الإسلامي. ومما يدل على ذلك أيضاً شكل القبور الذي كان مماثلاً للشكل الذي نجده اليوم في كثير من المدن الإسلامية في الشرق: بلاطتان واقفتان عمودياً

---

(1) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص326، ريتر، نفس المصدر السابق، الجزء العاشر، ص1095، الجزء 17، ص1441؛ صندوق استكشاف فلسطين 1890م، ص295 وما بعدها.

(2) تشرنيك، رحلة دراسية تكنيكية عبر منطقة الفرات ودجلة في: نشرة بيترمان، العدد التكميلي 44/ 45، يذكر هنا «جبل اللبدة».

إحداهما عند الرأس والأخرى عند القدمين ثم بلاطة ثالثة مشابهة موضوعة أفقياً على القبر بين الإثنتين. في الحالة المذكورة آنفاً كانت البلاطات بلون داكن. في الساعة 11 و40 دقيقة توقفنا للاستراحة في الطبيعة عند سفح مرتفع صغير يبدأ على يميننا. ومن هنا كنا نستطيع رؤية العديد من الأشجار الكبيرة في أسفل الجبل الممتد على يسارنا، قيل لنا إنها من شجر البطم؛ وفي الغرب ظهر على مسافة غير بعيدة جبل دباس.

في الساعة الثالثة و55 دقيقة تابعنا سيرنا وفي الساعة الرابعة و15 دقيقة أصبح خان القليلات على يميننا. وبعد وقت قصير تجاوزنا قبة صغيرة مهدمة سميت باسمها السلسلة الجبلية الواقعة على يميننا والممتدة حتى السخنة وهي سلسلة «تلول القبة». أما سلسلة المرتفعات الممتدة على يسارنا فقد قيل لنا إن أسمها جبل الضاحك وهو اسم يبقى ملازماً للجبال الممتدة حتى ما بعد السخنة. وخلف جبل الضاحك شاهدنا جبل المقيبرة. وفي الساعة الخامسة و30 دقيقة اجتزنا وادي الكبير ووصلنا قبيل الساعة السادسة إلى السخنة.

أخذت السخنة (أي «الساخنة») اسمها من نبع كبريتي ساخن موجود بالقرب منها كانت مياهه، بعد تركها ساكنة فترة طويلة، لم تزل ذات طعم سيئ ولكنها مع ذلك صالحة للشرب. على مقربة من النبع تشكلت برك ماء بسيطة يستعملها أهالي القرية للاستحمام[1]. وكانت منذ قديم الزمان توجد هنا مدينة اسمها خلّة[2]. وفي عام 1850م[3] كان أهالي السخنة قادرين على إرسال 400 بندقية إلى المعركة. ويقول الطبيب الألماني بيشوف[4]، الذي مر في عام 1873م، على

---

(1) يبدو أن البركة التي شربت منها خيولنا كانت تحتوي على عدد كبير من علق الدم التي تتابع نموها وتكاثرها في بلعوم الحيوان. وعلى أي حال فقد بقينا نرى بعضاً منها في أفواه خيولنا عدة أسابيع بعد مغادرتنا السخنة.

(2) انظر ريتر، جغرافيا، الجزء الخامس، الكتاب الثالث، برلين 1843م، ص1091م، ثم شروحات موريتس، نفس المصدر السابق، ص27.

(3) انظر فون كريمر، وسط سورية ودمشق، ص200.

(4) انظر بيشوف، رحلة من تدمر إلى حلب، نشرها البروفسور زاخاو في «غلوبوس»، الجزء 11، العدد 23، ص363.

طريق رحلته من حلب إلى تدمر، في السخنة، أن عدد سكانها في الستينات كان يقدر بـ 1200 ـ 2000 نسمة ولكنه هو نفسه لم يجد فيها سوى 600 ـ 700 نسمة. ومنذ ذلك الحين تراجع عدد السكان أكثر فأكثر، وقد أكد لي الأهالي أن الهجرة إلى المدن السورية الكبيرة حلب وحماه وحمص، وأيضاً دير الزور، لم تزل مستمرة. يقدر عدد بيوت القرية الحديثة بحوالي 100 بيت عدد كبير منها غير مسكون. ويعيش السكان الحاليون في ظروف فقيرة، وما يجنونه من حبوب يكاد لا يغطي حاجتهم الشخصية. ويعود السبب في تراجع السخنة إلى نهوض دير الزور التي أصبحت الآن مركزاً لتجارة البادية كلها، بينما كانت السخنة في الماضي، وكذلك تدمر، تشكل سوقاً للبدو.

وهناك قشلة كبيرة محصنة مع قوة عسكرية كبيرة نسبياً لحماية السخنة من الغزوات المعادية.

في شمال السخنة كان يوجد في العهد الروماني وباتجاه الفرات العديد من المدن والقرى الكبيرة والصغيرة؛ وفي زمن العصر العربي الوسيط أيضاً كانت المناطق الواقعة شمال تدمر مأهولة بسكان مستقرين جزئياً. أما في الوقت الحاضر فلم نعد نجد سوى آثار المستوطنات البشرية السابقة.

عند السخنة تتفرع الطريق إلى عدة طرق. إحداها، وهي التي اتبعها الدكتور بيشوف، تتجه نحو الشمال الغربي إلى حلب مارة في البادية عبر العديد من المرتفعات الجبلية المختلفة، والثانية، وهي التي درسها أوستروب[1] قبل زمن غير بعيد، تتجه مباشرة نحو الشمال إلى الطيِّبة ثم عبر الرصافة إلى الفرات والرقة. أما الثالثة، وهي التي استعملناها نحن، فتسير في الاتجاه الشمالي الشرقي وتصل إلى الفرات عند دير الزور.

---

(1) انظر أرستروب، هيستورسك توبوغرافيسك. . . .، كوبنهاغن 1895م (منشورات الأكاديمية الملكية الدانماركية للعلوم). نتائج الرحلة التي قام بها البروفسور هارتمان في منطقة تدمر والتي لم ينشر عنها شيئاً حتى الآن تم الاستفادة منها وتنزيلها في الخريطة المرفقة مع هذا الكتاب.

بعد أن قمنا باستكمال ما نقصنا من ماء من المياه الكبريتية السيئة بدأنا يوم 29 يوليو/ تموز في الساعة الثامنة صباحاً مسيرتنا التي ستستغرق يومين حتى الوصول إلى أقرب موقع للماء وهو «بير قباقب». إلى اليمين انفتح أمامنا بعد وقت قصير نحو الجنوب سهل الحماد الممتد إلى اللانهاية، بينما ظل على يسارنا جبل الضاحك الذي يهبط في بعض المواقع بانحدار شديد نحو السهل. في الساعة التاسعة و5 دقائق أصبح تل الميالات على يميننا. وفي الساعة التاسعة و40 دقيقة بدأت على يسار الطريق سلسلة طويلة من التلال، تسمى جبل الضويحك، تمتد باتجاه شرق ـ شمال ـ شرق وتتشعب إلى مرتفعين. وصلنا إلى نهاية المرتفع الأول، الذي يبدو في مظهر يميل إلى البياض، في الساعة 11 و30 دقيقة، ووصلنا إلى نهاية الثاني، الذي يميل لونه إلى الأحمر، في الساعة 12 و5 دقائق. هنا توقفنا للاستراحة حتى الساعة الثالثة و35 دقيقة. في الساعة الرابعة صار على يميننا، بعيداً في السهل، جبل النجيب الذي قيل إنه يحتوي على بئر تجف في مثل هذا الوقت من السنة؛ وفي الساعة الرابعة و40 دقيقة كان، على يميننا أيضاً، جبل البويب. في الساعة الخامسة و45 دقيقة ابتعد الجبل الواقع على يسارنا شيئاً فشيئاً عن الطريق وأصبح اسمه هنا جبل البشري؛ هذا الجبل يصل على مسيرة يوم إلى الشمال من الدير إلى نهر الفرات ثم يتابع امتداده على الطرف الآخر من النهر في منطقة الرافدين حتى يصل إلى عبد العزيز.

في الساعة السادسة و40 دقيقة وصلنا إلى المحيفر. واسم القرية يعني «المكان الذي أجريت فيه حفريات». هنا، في منتصف الطريق تقريباً بين السخنة وقباقب، حاولت الحكومة قبل بضعة أعوام حفر بئر في المنخفض عمقها 60 متراً لكي توفر الماء للقوافل في هذه المنطقة المخيفة، ولكن دون جدوى. جرى حفر البئر على مسافة ساعة واحدة من منخفض آخر اسمه غدير الطير يقال بأنه يحتوي في موسم المطر على كثير من الماء، ولكن عند وجودي هناك لم يكن يختلف بأي شيء عن بقية أراضي البادية. ويقال بأن كلا الموقعين كان فيه بئر في الماضي إلا أن البئرين رُدما ولم يعد من الممكن العثور عليهما الآن.

سرنا في هذا اليوم حتى الساعة السابعة والنصف مساء ثم خيمنا في منخفض

واسع في وسط الصحراء، بالقرب من قافلة تجارية كبيرة يقودها العجيل (العقيل) وتضم نحو 120 جملاً ، محملة بالسجاد، قيل إنها انطلقت قبل 40 يوماً من بغداد وهي متوجهة إلى دمشق. فهي لا تسير سوى ساعات قليلة في الليل وتستريح طيلة النهار. والعجيل (العقيل) خبراء في قيادة القوافل، ومعروفون جيداً من البدو الذين يتنقلون عادة هنا، وهم يدفعون خوة لجميع القبائل التي يصادفونها. كان مخيمهم مضروباً على شكل مستطيل تشكل البالات المصطفة فوق بعضها البعض على شكل جدار أحد أضلاعه، بينما تشكل الإبل، المربوطة سيقانها الأمامية إلى الركبة، ضلعين آخرين. كانت الحيوانات تتجه رؤوسها نحو الجهة الداخلية من المخيم وتتناول بهذه الطريقة طعامها المسائي. وفي وسط المخيم يقرفص العجيل (العقيل) حول نار كانوا قد أعدوا خبزهم فيها وراحوا يعدون قهوتهم. وكان هناك عدد من الحراس (النواطير) الذين يتجولون حول المخيم ويصدرون بين حين وآخر الصفير المنخفض الناعم المعروف لجميع رحالة الصحراء. جلست معهم حول النار عدة ساعات وأنا أستمع إلى حكاياتهم عن اللصوص والخيول وهي الموضوعات المحببة لجميع الجمّالة وقادة القوافل. قبيل منتصف الليل انطلقت القافلة دون أي ضجيج ثبتت الحمولات على ظهور الجمال ودون أي ضجيج أيضاً تابعت القافلة الكبيرة مسيرها. كانت الجمال مربوطة إلى بعضها البعض وسارت في صف واحد كل منها خلف الآخر. وعلى الرغم من ضوء القمر غابت القافلة كلياً خلال بضع دقائق عن أنظارنا.

في الساعة السادسة و35 دقيقة غادرنا نحن أيضاً مكان استراحتنا متجهين نحو الشمال الشرقي. وكان يقع على يسارنا على مسافة بعيدة جداً جبل الحيل وجبل المربع. وفي الساعة الثامنة و45 دقيقة وجدنا أنفسنا على ظهر مرتفع بسيط وشاهدنا أمامنا على مسافة بعيدة قشلة قباقب. وكان يفصلنا عنها واد يمتد على مسافة عدة ساعات يسمى وادي الفيضات، وعندما نزلنا فيه غابت عن أعيننا القشلة مرة أخرى. وكان جبل البشري أيضاً قد ظهر لنا ثانية عندما كنا في النقطة المرتفعة المذكورة آنفاً، وظهر خلفه جبل أعلى منه يسمى لهذا السبب جبل الناظرة. في الساعة التاسعة اجتزنا وادي الدفاين الخالي من الماء والذي يوجد

فيه على يسار الطريق بئر تسمى بئر الكثيبات وهي موجودة في خندق في الجبل الذي يحمل الاسم نفسه وينبع منه الوادي.

خلال تجولنا في الصحراء شاهدنا مراراً وتكراراً الانعكاسات الضوئية الهوائية الناتجة عن حرارة الشمس اللاهبة: تبدو تموجات الأرض المنخفضة وكأنها سلاسل جبلية شاهقة، وتبدو النباتات الصحراوية الصغيرة وكأنها أشجار باسقة، وتبدو برك المياه الهزيلة الجافة وكأنها أحواض أو بحيرات زاخرة بالماء. وكان السراب واضحاً بشكل خاص هذا اليوم عندما وصلنا في الساعة التاسعة والنصف إلى أخفض نقطة في الفيضات: سلسلة متطاولة من التلال بدت وكأنها تنشق أمامنا وتجعلنا نطل على واد يقع وراءها وفيه واحة خضراء. وعندما تابعنا صعودنا نحو الأعلى اختفى المنظر الخادع الأخاذ.

في الساعة التاسعة و45 دقيقة وصلنا إلى «وادي شعيب الدفاين» الجاف، وفي الساعة العاشرة و20 دقيقة وصلنا إلى نهاية حوض الوادي وبدأنا الصعود إلى ظهر الهضبة التي تمتد من هنا وحتى وادي الفرات. في الطرف الأعلى من الهضبة تقع قشلة بير قباقب التي وصلنا إليها في الساعة 12 و55 دقيقة. تتألف الأرض هنا غالباً من الجبس الذي يظهر أحياناً على شكل بلورات لماعة. وهذه التشكيلة الأرضية تمتد عبر منطقة الرافدين الشمالية بكاملها وحتى نهر دجلة.

على بعد خطوات قليلة من القشلة يقع البئر الذي يجب أن يكون قديماً جداً لأن حبال سطل السحب حفرت في الحجر المحيط بالفوهة حفراً عميقة جداً. يبلغ عمق البئر نحو 20 متراً. صحيح أن الماء ذو طعم مرّ بسبب الأرضية الجبسية ولكن طعمه أفضل جداً من طعم مياه السخنة الكبريتية. هذا وقد ذكر مؤرخون قدامى، ومنهم أبو الفدا مثلاً، قباقب كبئر، وكانت آنذاك المحطة الأخيرة على الطريق من سورية إلى الرحبة. على مسافة ساعة واحدة إلى الغرب توجد بقايا قناة مائية قديمة كانت تصل إلى حوض تجميع في سهل الخبرة[1]. قشلة قباقب بناية

---

(1) انظر السيدة آنه بلنت، القبائل البدوية في منطقة الفرات، لندن 1879م، الجزء 2، ص33.

صغيرة مع ساحة ضيقة وتتسع لإقامة 12 جندياً لا أكثر. وعندما وصلت إلى هناك لم يكن فيها سوى ثلاثة جنود ترسل لهم المؤن أسبوعياً من دير الزور.

إلى جانب البئر رأينا جملاً مشلولاً يتأوه ألماً تركته إحدى القوافل لأنه لم يعد قادراً على متابعة المسير. فالجمال القاصرة التي تصبح غير قادرة على العمل تترك وشأنها، وفي أحيان كثيرة تنهشها العقبان والجقلان وهي على قيد الحياة. إذ إن إطلاق رصاصة الرحمة عليها يعدّ من الخطايا.

في صباح اليوم التالي غادرنا قباقب في الساعة السادسة و40 دقيقة وعبرنا المنبسط العالي الذي ينحدر شيئاً فشيئاً نحو الفرات، في بادئ الأمر باتجاه شرق الشمال الشرقي وبعد ذلك باتجاه الشرق إلى أن وصلنا في الساعة التاسعة، و10 دقائق إلى قبر النصراني. وقد أخذت هذه النقطة اسمها من أن رجلاً مسيحياً كان يرافق إحدى القوافل فنام على ظهر جواده وضاع في الصحراء ثم مات من العطش. وكانت جميع محاولات البحث عنه قد باءت بالفشل. فمثل هذه الحالات المأساوية ليست من الأساطير أو الحكايات الخيالية بل إنها تحدث فعلاً في أحيان كثيرة في الصحراء. والمقطع الممتد بين السخنة ودير الزور يخشاه المسافرون بشكل خاص لأن آثار الطريق تختفي في كثير من المواقع بسبب طبيعة أرض الحماد القاسية. والمسافر الذي يتيه عن بير قباقب يضيع في الصحراء ولا منقذ له.

في الساعة العاشرة والنصف توقفنا عند وادي الغر الذي يوجد بالقرب منه على الهضبة التي تحمل نفس الاسم، بين العديد من الكريستالات الجبسية اللماعة، بقايا آثار صغيرة لا يلاحظها المرء إلا بصعوبة تعود دون أدنى شك إلى خان محصن يشكل حلقة أخرى في سلسلة الخانات التي ذكرتها حتى الآن. واعتباراً من هنا حتى دير الزور لم أجد على الطريق أي بقايا أنقاض أخرى، كما أن مرافقيَ لا يتذكرون أنهم رأوا أي آثار هنا.

استرحنا حتى الساعة الثامنة و45 دقيقة، وفي الساعة الرابعة والنصف وصلنا إلى وادي المالحة؛ وفي الساعة الخامسة و5 دقائق والساعة الخامسة و15 دقيقة

اجتزنا واديين آخرين اتحدا معاً إلى اليسار من طريقنا. وفي الساعة السادسة والساعة السادسة و5 دقائق والساعة السادسة و15 دقيقة اجتزنا ثلاثة وديان، واحداً بعد الآخر، كان آخرها وادي القصيّبة. أما الظن بوجود ماء جيد هنا على يسار الطريق فقد تبين أنه خاطئ. إلا أننا وجدنا بالمقابل في الاتجاه الشرقي، في منخفض الوادي على مسافة غير بعيدة من مرتفع بسيط اسمه تل ذمة، عدة برك تحتوي على الماء لكن مياهها أصبحت نتيجة التبخر الشديد مالحة جداً وغير صالحة للشرب. هنا ينتظر في الليل صيادو الغزلان طرائدهم. في الساعة السادسة و20 دقيقة بدأ واد عريض يسمى أيضاً «وادي المالحة» تتحد فيه جميع الوديان التي تزود الفرات في الشتاء بالماء مع المنطقة كلها.

في الساعة السابعة وصلنا إلى طرف الهضبة التي تسقط بانحدار شديد إلى وادي نهر الفرات. وظهرت أمامنا بساتين الدير الخضراء وبيوت المدينة وخلفها فيضانات الفرات ذات اللون الأصفر. من المستحيل وصف الأحاسيس التي أثارها في نفسي هذا المنظر. فلم تكن فرحة الإغريق برؤية الأمواج الزرقاء للبحر الخالد أعظم من فرحتنا برؤية النهر الذي يجلب البركة والانتعاش بعد المسير المخيف في الصحراء الخالية من الماء. ومما يشهد على خطورة السير تحت الشمس الحارقة في الصحراء الهياكل العظمية الكثيرة للخيول والإبل التي كانت متناثرة على طريقنا من السخنة إلى الدير. ونحن أنفسنا فقدنا قبل بلوغنا هدفنا بساعات قليلة واحداً من أفضل خيولنا. والآن كان لمنظر وادي الفرات مع نباتاته الغزيرة تأثير ساحر على عزيمة الرجال والدواب.

بعيداً في منطقة ما بين النهرين ظهر في السهل جبل منعزل اسمه «تل حجيف الجزيرة»، وفوق دير الزور على الضفة السورية للفرات ظهر تل مشابه يسمى «تل حجيف الشام». مررنا قرب عدد من بقايا الآثار، وبعد ذلك تحول طريقنا نحو الشمال، وفي الساعة الثامنة و30 دقيقة وصلنا إلى الدير أو بالأحرى إلى دير الزور. نصبنا مخيمنا في شمال المدينة إلى جانب النهر مباشرة في مكان محاط بالبساتين الزاهية الخضراء. ولن أنسى أبداً السعادة التي شعرت بها عندما شاهدت في صباح اليوم التالي منظر النهر الذي كان يعج بالقوارب الصغيرة

المصنوعة من جلود الغنم والماعز المنفوخة والتي ينقل عليها أهالي القرى الواقعة فوق الدير البطيخ الأحمر. وبسرور بالغ تمتعت أيضاً بأخذ حمام كنا محرومين منه عدة أسابيع ـ ففي الصحراء كانت نظافتنا تقتصر بسبب شح الماء على صب بعض الماء في اليدين ثم رشقه على الوجه وشرب القطرات المتساقطة حرصاً عليها من الضياع. والآن استسلمنا لحياة مريحة بضعة أيام. ومن حسن الحظ أنه كان إلى جانب مخيمنا مقهى يزودنا بالمشروبات والنراجيل.

كان في السابق يوجد في دير الزور «دير» فعلاً. تاريخ المدينة القديمة لم يزل مجهولاً وكذلك اسمها الحقيقي القديم[1]. وجود أكوام من الركام وبقايا أسوار واقعة تحت قطاع المدينة الحالي يشير إلى أنه كانت هنا في أزمنة سابقة مدينة لا تقل بأي شيء عن مدينة دير الزور الحالية. وهناك سد كبير مبني على امتداد النهر، ويشكل حالياً شارعاً في دير الزور الحديثة، بالإضافة إلى بقايا حواجز سدية أخرى، تشهد على أن وادي الفرات، الذي يشكل عند دير الزور منعطفاً كبيراً، كان في أزمنة سابقة مبنياً. وفي الكنيسة الأرمنية الموجودة في دير الزور الحالية يوجد تيجان أعمدة وبقايا أثرية أخرى تعود إلى ما قبل العصر الإسلامي. يرد أول ذكر للدير في تاريخ أبو الفدا تحت عام 1331م حيث يجري الحديث عن انهيار سد «دير بصير» نتيجة الفيضان. وكان الطبيب وعالم النبات الألماني ل. راوفولف[2]. قد زار دير الزور في عام 1573م خلال رحلة جديرة بالاعتبار في وادي الفرات من بيرجك إلى الفلّوجة. كانت الدير آنذاك مدينة كثيفة السكان محاطة بسور وكانت تجبي من المسافرين ضريبة مرور. ومن الواضح أنها تراجعت كثيراً في الأوقات الأخيرة ولكنها، كما يبدو، حافظت على استقلالها الاسمي حتى القرن الحالي. ففي رحلته عام 1837م لم يجد تشيسني في دير الزور أي سلطات تركية بل كان يدير المدينة شيخ منها، لكنه كان يدفع ضريبة سنوية للسلطان.

---

(1) يضع هـ. كيبرت في الأطلس القديم «أطلس آنتيكوس» «بيرثا» بطليموس في مكان الدير.

(2) ل. راوفولف، وصف الرحلات التي قام بها عندما كان في الشرق، آوغسبورغ 1582م، ص182 وما بعدها.

في عام 1867م فرضت على الدير إدارة تركية عندما قام عمر باشا على طريق حملته من حلب إلى بغداد بتعزيز مواقعه على الفرات أيضاً وباقتحام دير الزور واحتلالها بعد حصار حقيقي بكل معنى الكلمة. حتى ذلك الوقت كانت المواصلات المنتظمة على طريق الفرات مستحيلة تقريباً بسبب الجمارك العالية التي يفرضها البدو على المسافرين، يضاف إلى ذلك أن دفع الضريبة لم يكن يضمن سلامة المسافر إلا خلاف وجوده في القطاع الذي تسيطر عليه القبيلة المعنية. ولذلك كانت حركة المواصلات بين دمشق وبغداد وبين حلب وبغداد تتبع الطريق البعيدة جداً عبر منطقة ما بين النهرين مارة في أرفة ومردين والجزيرة والموصل وكركوك. ولم تزل هذه الطريق الواقعة خارج منطقة البدو تفضلها بعض القوافل المتوجهة إلى بغداد. ولكن في الآونة الأخيرة أصبحت طريق حلب بغداد، التي تسير من مسكنة حتى الفلوجة على الضفة اليمنى للفرات، آمنة نسبياً إلى حد كبير بفضل القشلات الصغيرة التي يشغلها السبئية والموجودة على طول الطريق بمسافة بضع ساعات بين الواحدة والأخرى.

محافظة دير الزور الحالية، التي تشكل حلقة هامة بين سورية وبلاد الرافدين، واسعة جداً. تقع حدودها في الغرب عند القريتين، وفي الشمال عند بلدة رأس العين، وفي الشمال الغربي يمر خط الحدود تحت الرقة مباشرة، وفي الجنوب الشرقي على مسافة قليلة فوق عانة. يقف على رأس السلطة الإدارية متصرف يتم تعيينه من وزارة الداخلية في القسطنطينية مباشرة. وتتمثل مهمته بالدرجة الأولى في إيقاف البدو عند حدهم. ولهذا الغرض يوجد في الدير قوة عسكرية كبيرة إلى حد ما وخفيفة الحركة تتألف من كتيبة من المشاة المنقولين على البغال وفصيلة كبيرة من السبئية المنقولين على الخيول. وخلال الأعوام المتتالية من ازدياد قوة المدينة بصورة متواصلة شهدت دير الزور ازدهاراً سريعاً عززه موقعها المحظوظ الذي يشكل في الوقت الحاضر نقطة تقاطع طريقي القوافل الرئيسيين في شمال المنطقة العربية، من بابل إلى شمال سورية ومن شمال بلاد الرافدين إلى جنوب سورية[1]. في العهد الروماني، وكذلك في فترة ازدهار

---

(1) يوجد في دير الزور حالياً مركز تلغراف أيضاً.

الخلافة العربية، كانت نقطة التقاطع هذه واقعة على بعد مسيرة يوم واحد عن مصب الخابور في الفرات.

أصبحت دير الزور حالياً السوق الرئيسية لسد حاجات ليس فقط القوافل العابرة وإنما أيضاً بدو الجزء الأكبر من البادية السورية وسهول منطقة الرافدين الذين يشترون هنا الأشياء التي لا ينتجونها بأنفسهم مقابل منتوجاتهم وهي بالدرجة الأولى الحيوانات والصوف. وفي الأعوام الأخيرة فتحت في دير الزور شوارع مستقيمة وعريضة، لا بل ومنارة بمصابيح على الكاز. إلا أن البيوت المتباعدة عن بعضها لا تتناسب بعد مع هذه الشوارع العريضة. تقع البيوت البسيطة القديمة في أزقة صغيرة ومتعرجة، وبصورة رئيسية قرب السد القديم المذكور سابقاً. يوجد في دير الزور جامعان اكتمل بناء الحديث منهما قبل عام واحد، ويوجد فيها أيضاً كنيستان مسيحيتان. ويبلغ عدد سكان المدينة نحو 6000 إلى 7000 مسلم وحوالي 770 مسيحي، لكنهم في تزايد مستمر. وينتمي المسيحيون إلى مختلف الطوائف: السوريون الموحدون، والسوريون القدامى، والأرثوذكس الشرقيون، والكاثوليك الشرقيون، والأرمن.

تخدّم حركة المواصلات القوية خانات كبيرة واسعة. وأسواق المدينة غنية بالسلع لا بل ويوجد فيها أيضاً سلع كمالية أوروبية. ولذلك فإن ملاحظة السائح الإنجليزي سوينزن ـ كوبر[1]، الذي يعدد الأشياء التي لم يستطع الحصول عليها هنا ـ لم يستطع تبديل «نابليون» فرنسي (قطعة ذهبية) ولا شراء سمكة ولا سلة ولا علبة معدنية ـ تبدو مستغربة جداً ولعلها تعود إلى عجزه عن توضيح ما يريده حتى لمترجمه. أما أنا نفسي فقد حصلت في دير الزور بوساطة المتصرف من مسيحي سوري على 200 نابليون ذهبي، وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة للظروف السائدة هناك، حصل عليه من تاجر صديق له في أرفه مقابل سند مسحوب على شركة «فرانكهينل وشيفنر» في دمشق.

قمت بزيارة المتصرف عدة مرات في السراي الواقعة في النهاية الجنوبية

---

(1) انظر سوينزن ـ كوبر، تركيش ـ آرابيا، لندن 1894م، ص164.

الشرقية للمدينة القديمة على نهر الفرات مباشرة. تتألف السراي من ساحة واسعة ومن غرف الإدارة المطلة على الفرات؛ وهناك جامع صغير تابع لمجمع المباني. أعطى المتصرف صالح باشا الانطباع بأنه رجل حيوي ومدرك لكل ما يجري. وقد تناولنا معه عدة مرات طعام الفطور في المبنى الحكومي. وكان الموظفون الكبار في المتصرفية ضيوفه الدائمين، بينما كان يذهب ما يتبقى من طعام إلى الموظفين الصغار. وكانت المأكولات شهية جداً ومحضرة على الطريقة التركية. وكانت بالنسبة لنا متعة كبيرة أن نجد على مائدتنا كل يوم اللحم الطازج والخضار الطازجة لا بل وحتى الفواكه بمختلف أنواعها.

يوجد أمام دير الزور الحالية جزيرة كبيرة متطاولة تقسم نهر الفرات الجليل المنظر، على مسافة قصيرة فوق المدينة، إلى فرعين. يتم الوصول إلى الجزيرة عند السراي على جسر خشبي ثابت، وهو الجسر الأول والأخير على الفرات اعتباراً من مسكنة. الجزيرة مزروعة وتروى بواسطة عدة محطات لرفع الماء بواسطة النواعير والجرد.

تشبه الناعورة آلة الرفع عندنا، وهي عجلة كبيرة موجودة في الماء وتدور بقوة الدفع المائي. على العجلة ثُبتت أوعية فخارية تمتلئ بالماء ثم تفرغ ما فيها في قناة تنقل الماء إلى اليابسة. ومن أجل تقوية ضغط الماء الجاري في النهر يبنى عادة في النهر سد حجري. بدت نواعير دير الزور غير متينة وقابلة للكسر لأن خشب الحور وخشب النخيل الموجود هنا غير مناسب لهذه الغاية. وعلى الرغم من أن الجزء الأكبر من الماء يضيع عند دوران هذه الآلات البدائية قبل وصوله إلى القناة فإن استطاعتها كبيرة نسبياً. وهي تعمل عادة ليل نهار، لكن نقطة ضعفها تكمن في أنها تتوقف عن العمل عندما ينخفض مستوى الماء إلى تحت أطراف العجلة. يعمل في صنع هذه الآلات فئة من السكان تتناقل فن المهنة بالوراثة من الأب إلى الابن. ويقال بأن أفضل وأمهر الحرفيين المختصين بهذه الأعمال يعيشون في سورية حيث تتخذ هذه النواعير في بعض الأماكن أبعاداً هائلة[1]. أما

---

(1) في مدينة حماه على نهر العاصي يوجد مثل هذه النواعير الكبيرة التي يبلغ قطر عجلتها أكثر من 20 متراً.

الجرد فهي أكثر بدائية، وهي عبارة عن تجهيزات تشبه المشنقة يتدلى من فوق أخشابها العرضانية حبل أو عدة حبال تُسحب بواسطتها الأوعية المملوءة بالماء بواسطة الحيوانات التي تسير في سهل مائل نحو الأسفل. وهناك طريقة أخرى لسحب الماء مستعملة في دجلة الأسفل: يقوم عاملان بربط وعاء مسطح يشبه الصحن بحبل من طرفيه ثم يغطسانه في الماء ويكبان بقوة ما فيه على اليابسة. أما المضخات فلم تزل غير معروفة تقريباً في سورية وبلاد الرافدين؛ فقط في بغداد رأيت في وقت لاحق عدة مضخات بخارية.

انتهى


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الأعلام

فهرس القبائل والجماعات

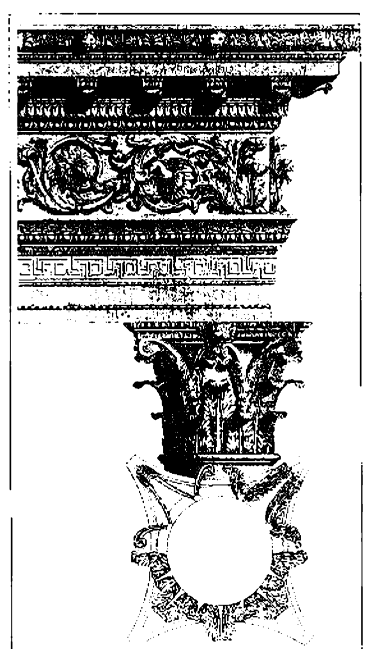
فهرس الأماكن

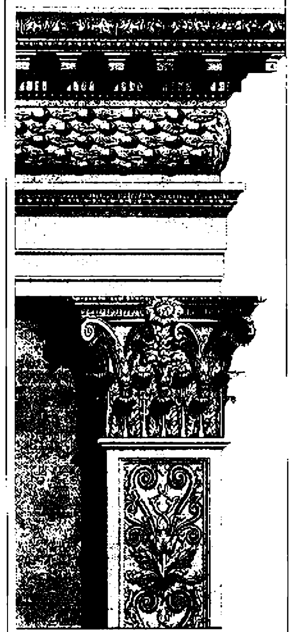


جرد لسحب الماء ويسمى بلهجة أهل العراق كرد، ومنها اطلق اسم الكرادة على منطقة في بغداد.
حيث كانت تستعمل الجرود لسحب الماء من نهر دجله



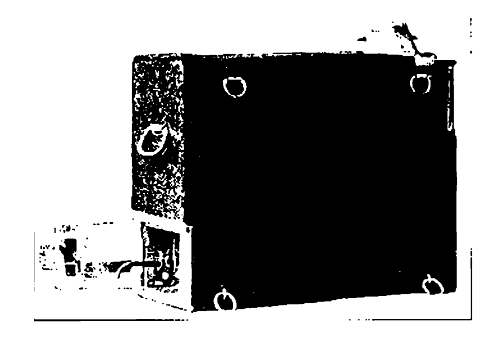
سهل من القريتين



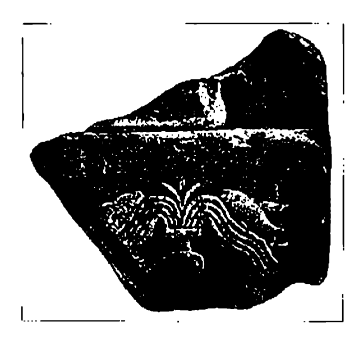




من آثار تدمر (نقلاً عن وود)



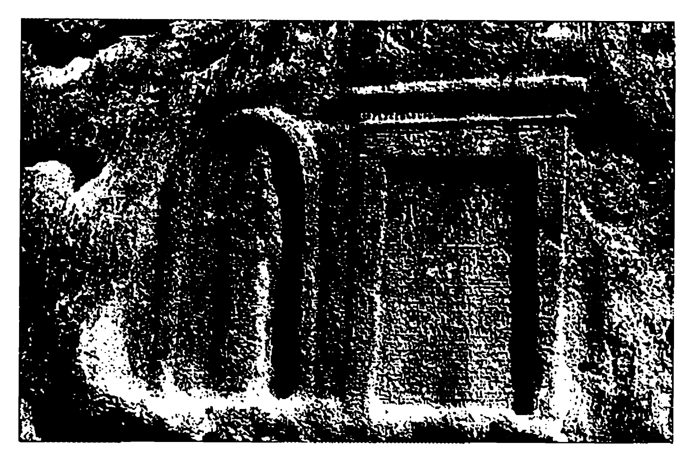
نموذج صندوق لنقل الماء



من انقاض تل لو (موجودة في متحف برلين)
نلاحظ التشابه مع الشعار السومري

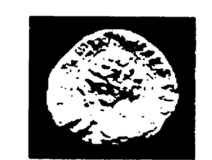


صورة هيليوس من بعلبك
(متحف برلين)

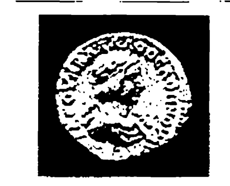


كتابات منقوشة في الصخر على نهر الكلب (لبنان)



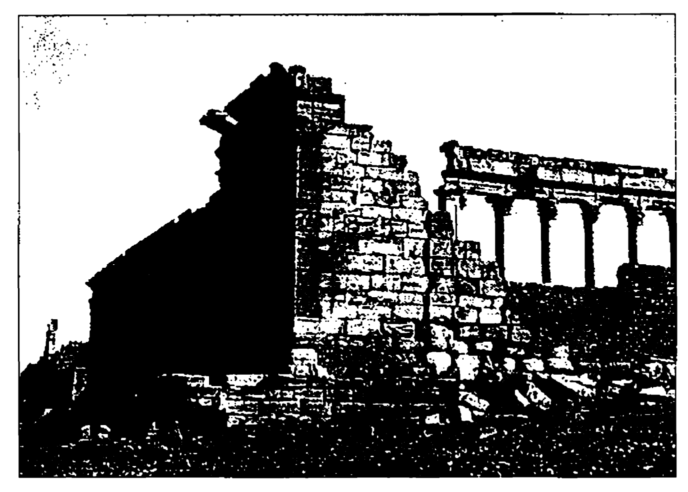


قطعة نقدية معدنية باسم زنوبيا مصكوكة في
الاسكندرية من المجموعة الملكية، برلين

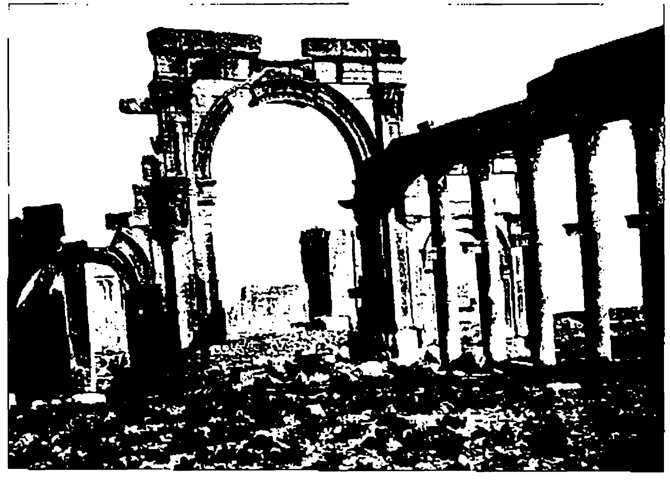




نقود معدنية باسم وهب اللات ومصكوكة في الاسكندرية من
المجموعة الملكية، برلين

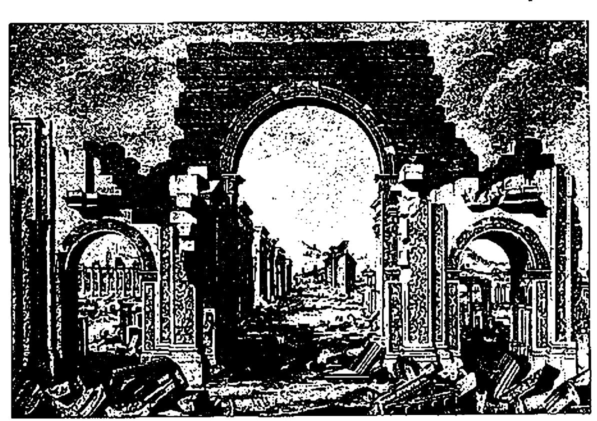


معبد الشمس في تدمر

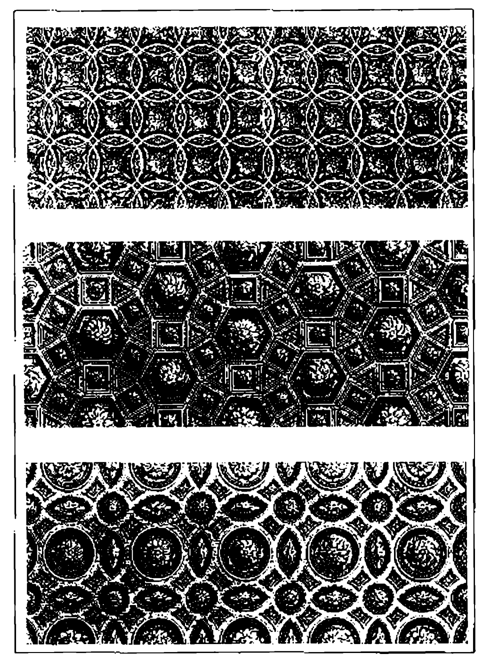


قوس النصر في تدمر، سورية

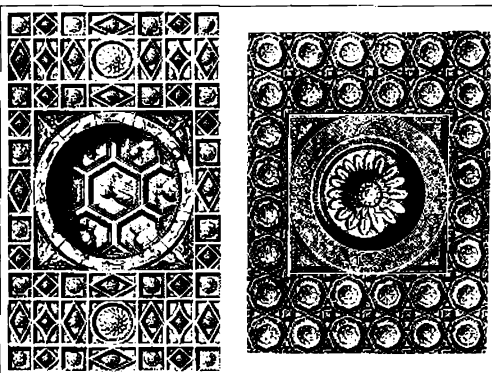
شارع الأعمدة في تدمر



من آثار تدمر (نقلاً عن وود)



قطع من سقوف في تدمر
(نقلاً عن وود)



قطع من سقوف في تدمر
(نقلاً عن وود)

من سكان تدمر



رجل دين عربي في مكتبته

دروز من لبنان



دير القمر، لبنان



دمشق عام ١٨٩٣ بعدسة أوبنهايم، حيث يظهر نهر بردى

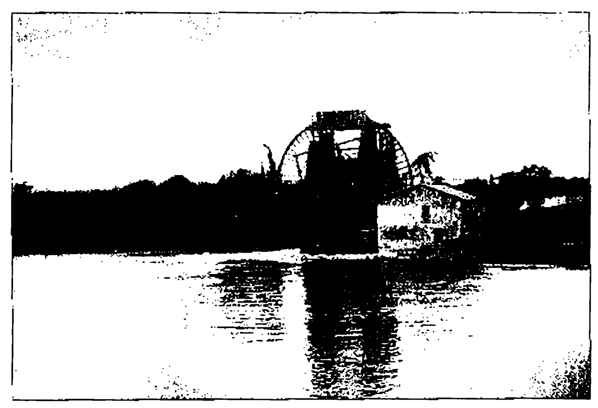
دمشق عام ١٨٩٣ بعدسة أوبنهايم. حيث كانت تحيط بها الاشجار والمزارع

كنيسة أرمنية في دير الزور



رجل دين سوري مع عائلته في دير الزور

خان في دير الزور



(ناعور) على الفرات

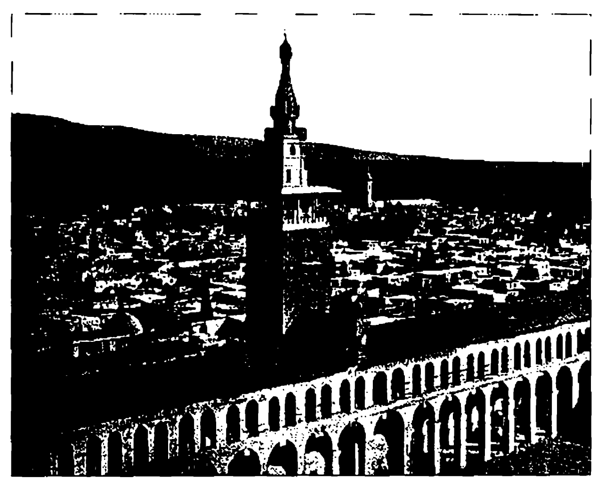


معبد جوبيتر في بعلبك

معبد جوبيتر من الداخل . بعلبك



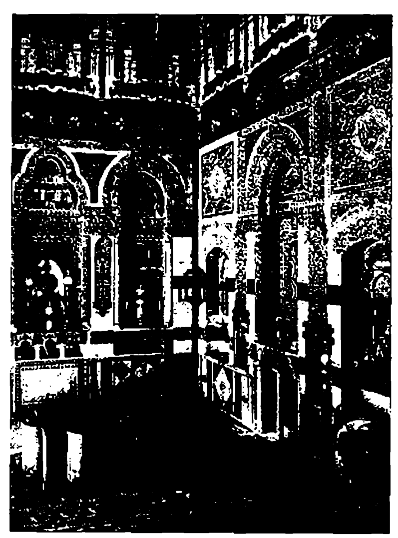
الجامع الأموي في دمشق . قبل الحريق



الجامع الأموي قبل الحريق في دمشق.



حوش بيت دمشقي

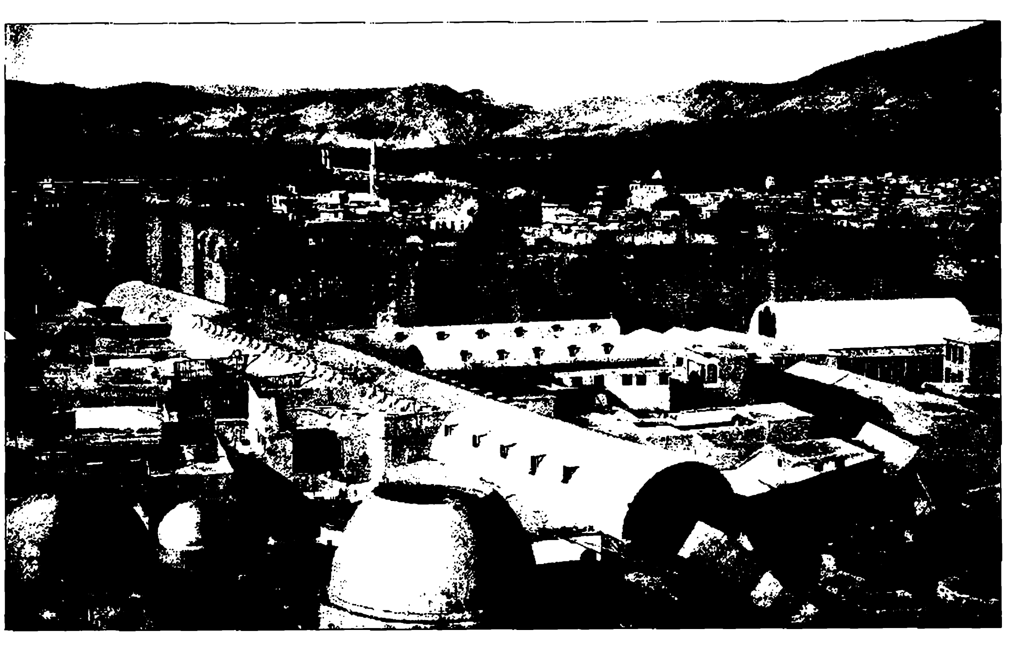


بيت دمشقي من الداخل

دمشق. الاسواق القديمة (قاعه ما يسمى البازار اليوناني)



صور من حي الميدان في دمشق

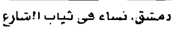


منظر عام لدمشق حيث تظهر الأسواق والمساكن والمساجد



فتاة مسيحية سوريه





دمشق، نساء في ثياب الشارع

نساء مسيحيات - دمشق



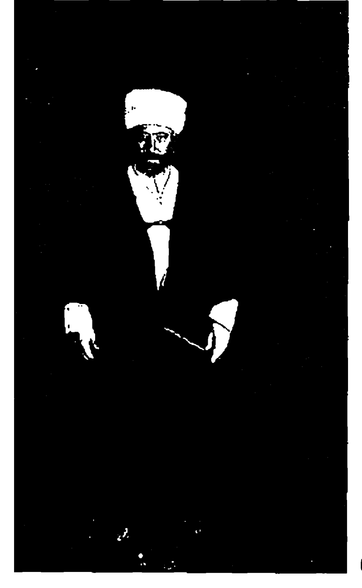
بدوي من حوران



فلاح من حوران ـ سورية



صورة بدوي حوراني من قبيلة النعيم



الشيخ حسن الهجري قنوات (درزي)

منظر لشارع في منطقة الصالحية في دمشق



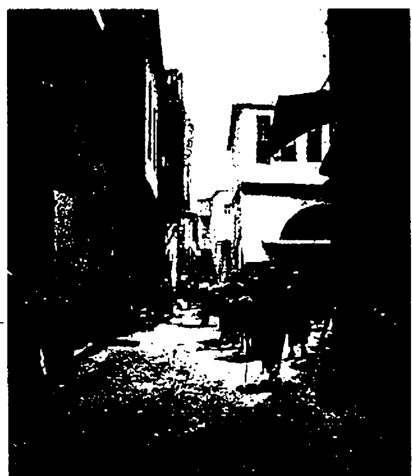
الجيش التركي . أفراد فصيلة سورية



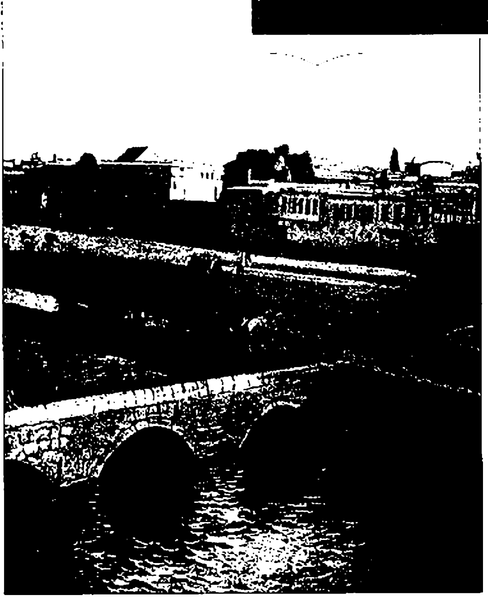
قرويون سوريون



صليب



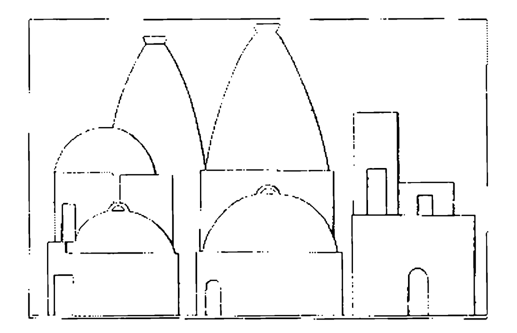
شارع في دمشق



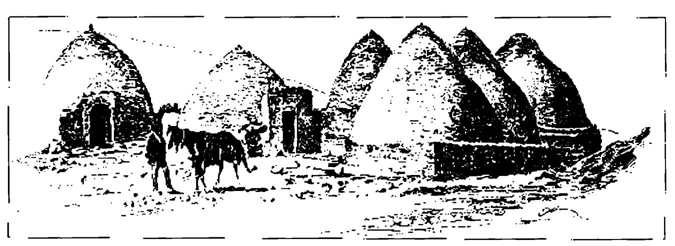
ساحة السراي
في دمشق



أثار في عتيل



تصميم أولي لمبانٍ من
العصر الآشوري حسب لايارد



آثار في دير حافر قرب حلب



فتيات درزيات من لبنان

زوجان درزيان في دمشق

دير القمر وبيت الدين



الشيخ عبدالقادر الجزائري، في دمشق



شبلي الأطرش، من دروز جبل العرب



بطريرك ماروني



رجل دين مسيحي



صورة لمنصور مرافق أوبنهايم

نماذج سورية. أشخاص سوريون



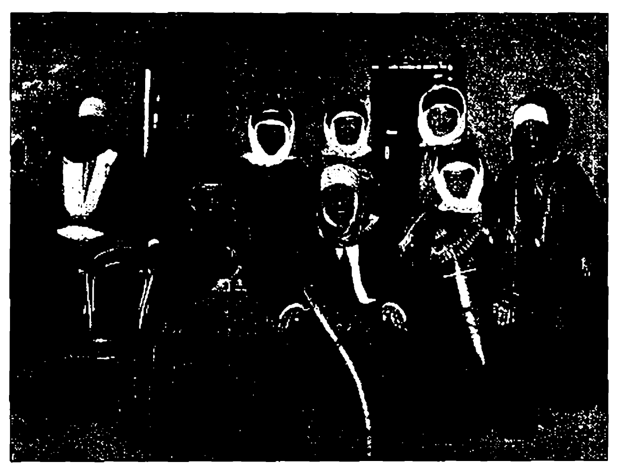


الشيخ محمد نصار، الدروز.



ثلاثة دروز من مجدل شمس

دروز من حوران (الشيخ حسين الأطرش) مع أفراد عائلته



أفراد عائلة الأطرش وسبتيون دروز في السويداء، سورية

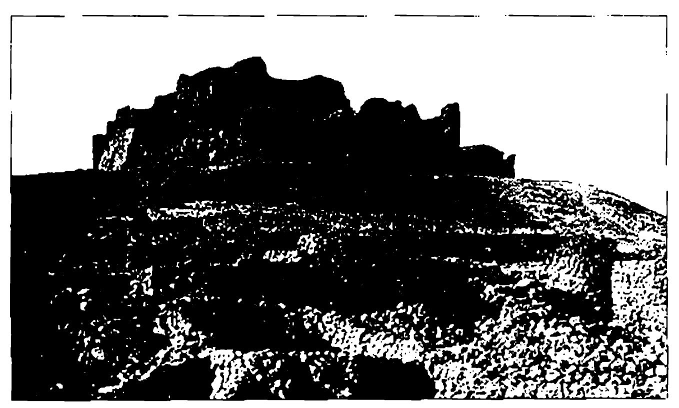


وجبة طعام درزية

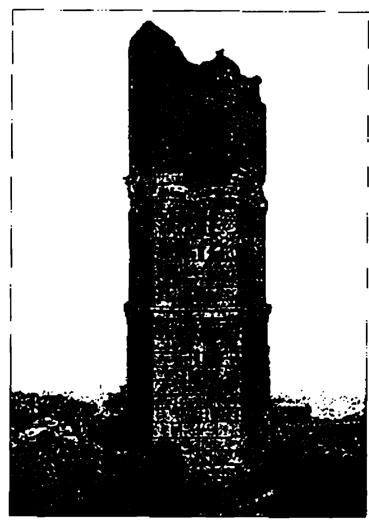


من آثار بصرى

جامع عمر في بصرى



برج صلخد. أمر بتجديد هذا البرج المبارك الامير فخر الدين الملكي في أيام العادل الاكبر أيوب



منارة صلخد



بصرى، سورية

بدو من غياث يقصون شعر جمل

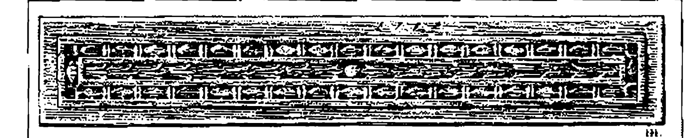


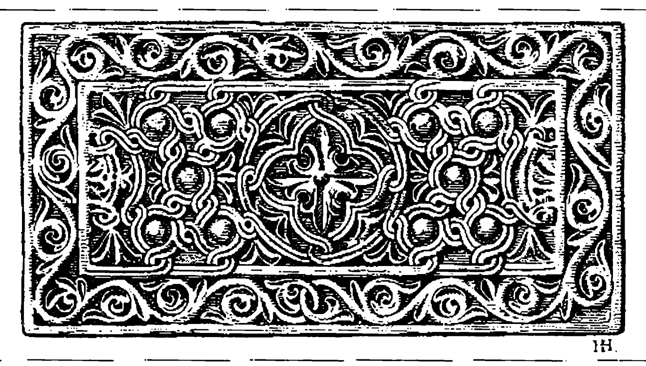
خيمة بدو من غياث، رسم أوبنهايم

بلدة في جبل لبنان



الشويفات. لبنان



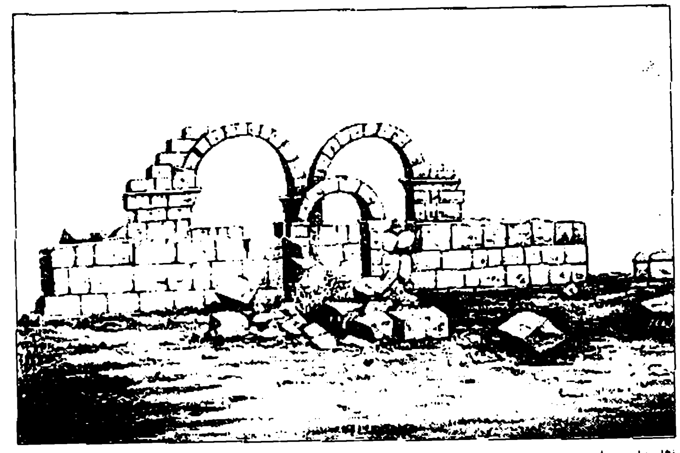


من آثار القصر الأبيض في الرحبة، سورية

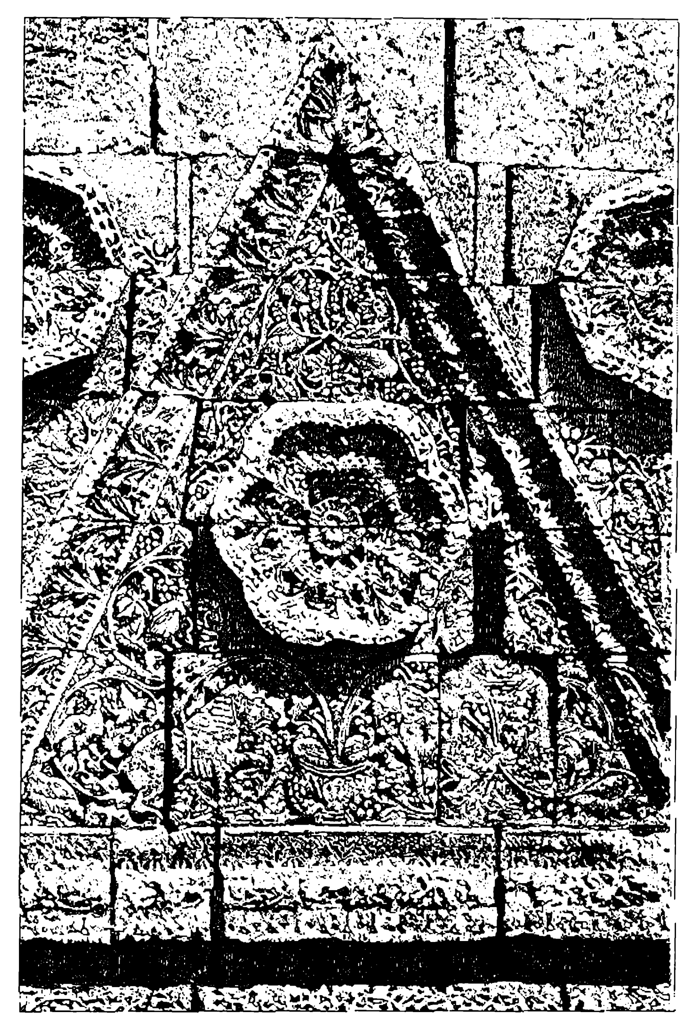


نساء بدويات يجلبن الماء

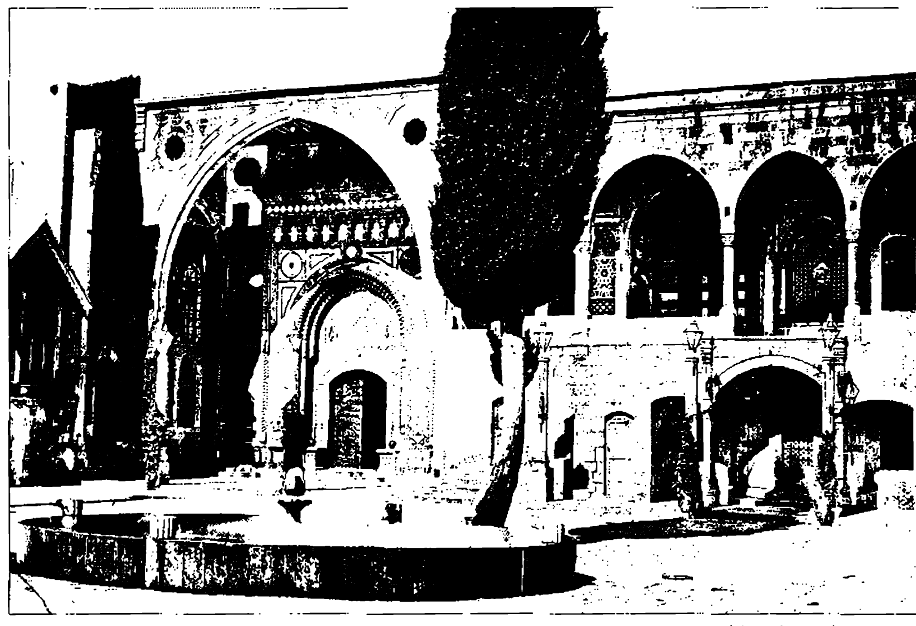
المنطقة المحيطة بجبل سيس



آثار على جبل سيس



من آثار قصر المشتى



مبنى السراي في بيت الدين. لبنان



آثار في حوران